جان فلوري

الحرب المقدّسة

الجهاد، الحرب الصّليبيّة

العنف والدين في المسيحية والإسلام



المؤسسة العربيّة للتحديث الفكري



المؤسسة العربية للتحديث الفكري

المـــــؤلـــــف : جان فلوري
عنوان الكتـــاب : الحرب المقدسة
الجهاد ، الحرب الصليبية
العنف والدين
في المسيحية والإسلام
تـرجــــمـــــة : غسان مايسو
الـنـاشــــــر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبـعــة الأولى سنة ٢٠٠٤

Author:Jean Fleury
Title:Guerre Sainte
Jihad,Crosisade
Violence et religion dans la
Chrétienté et l' islam
Translator:Chassan Maisou
Al- Mada P.C.
First Edition : 2004

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com

جان فلوري

الحربُ المقدّسة
الجهاد، الحربُ الصّليبيّة

العنف والدين
في المسيحية والإسلام

ترجمة: غسان مايسو
مراجعة: د. جلال شحادة




المؤسسة العربيّة للتحديث الفكري

المقدمة

تمثُل المسيحيةُ التي كرز بها يسوع منذ قيامها، ديانة سلمٍ، تنبذ استخدام العنف والأسلحة وتدينه.

مع ذلك، دعا البابا أوربانوس الثاني، في نهاية القرن التاسع إلى الحرب الصليبية أي حملة حرب مقدسة فُرضتْ على الفرسان المسيحيين تكفيراً عن ذنوبهم، وأُعدَّت لاستردادهم عنوةً، القبر المقدس في أورشليم عقب سقوطه بأربعة قرون ونصف تحت سلطة المسلمين. والأمر يعني أن موقف الكنيسة المسيحية إزاء الحرب، قد طرأ عليه خلال تلك القرون الأحد عشر، تطورٌ عميق جداً وتغيّرٌ جذري جداً، بحيث من الأفضل لنا أن نتكلم في صدده عن تطورٍ عقائدي.

على نقيض المسيحية، لم يعرف الإسلام مثل هذا الانقلاب. وينجم هذا الفارق الأساسي، قبل كل شئ، عن موقف مؤسِّسي هاتين الديانتين، المختلف جذرياً حيال استخدام العنف والقوة المسلحة. فمنذ البداية، ما كان محمد (وأتبنى هذا التعبير المغلوط، لأن النصوص الغربية أشارت بهذه الطريقة، وحتى نهاية القرون الوسطى إلى نبي الإسلام) ينبذ استخدام العنف، فقبل بالجهاد، أي الحرب المقدسة. وأسهب خلفاؤه في مدى هذه الوجهة؛ كما وسّعوا أرجاء تطبيقها: فأنجزت الفتوحات العربية، خلال القرنين الثامن والتاسع، على حساب الإمبراطورية الرومانية، أو الممالك المسيحية التي أعقبتها، وتحقق ذلك باسم الديانة الإسلامية، ولا يستثني هذا الأمر البتّة - وعلينا الإشارة إلى ذلك بادئ ذي بدء - شكلاً ما من التسامح حيال "ديانتيَ الكتاب المقدس" في رحاب الأراضي التي فتحت من أجل الإسلام.

وحينذاك، كانت المجابهة المسلّحة ما بين المسيحية والإسلام هي بالتأكيد السبب

الوحيد لتطور نظرةِ الكنيسة في شأن الحرب المقدسة، والجهاد وحده لم يولِد هذه الحرب المقدسة: فقد سبق لهذا التطور أن بدأ قبل ظهور الإسلام بكثير أي في مطلع القرن الرابع، منذ عهد الإمبراطور قسطنطين، حينما صارت الإمبراطورية الرومانية مسيحية "بدءاً من رأسها"، فتوجب الدفاع عنها ضدَّ المجتاحين البرابرة الذين شرعوا منذ أمدٍ بعيد يهدِّدون تخومها، وحينذاك، تم تبرير الحرب الدفاعية على يد اللاهوتيين وعلماء الأخلاق، دون أن توصف، بسبب ذلك، بأنها مقدسة. لكن قدْسنة الحرب (sacralisation إضفاء الطابع المقدس على الحرب) تضخم شأنها تضخيماً بالغاً جداً ، إبّان الاجتياحات النورمندية ، وخاصةً الإسلامية، في الشرق أولاً ، ثم في الغرب ، حيث اتسمت أحياناً مقاومة السكان المسيحيين (ولاسيما في أسبانيا) بمسحات من التنبؤات والآمال في تدخلاتٍ ترد من السماء.

عقب ذلك بقليل، جلب كلٌّ من تقدّم البابوية وتورّط الكنيسة في المجتمع الإقطاعي عناصر جديدة للقداسية (sacralité)، من حيث اللجوء إلى العنف المسلح، متى يستخدم هذا العنف للدفاع عن الكنيسة وعن أفرادها وثرواتها الدنيوية. وقد أعطى المثل أحياناً أرباب الأديرة القديسون، وأكثر من ذلك أيضاً ، العسكريون القديسون، فقد تدخلوا في المعارك التي تشنّ على "الوثنيين" أو أمثالهم: النورمانديين والمجريين والعرب البرابرة. وإن استعادة الأسبان لأراضيهم [ركونكيستا reconquista[1]]* والكفاح من أجل البابوية الغريغورية، قد أتمّا منح الحرب سماتها كحرب مقدسة [أتمّا قدْسنتها]، وذلك من أجل "المصلحة الخيّرة"، أي مصلحة الشعب.

نجمت عن ذلك، فكرة الحرب الصليبية، في نهاية القرن الحادي عشر، حين بدأ منظور اجتياح إسلامي جديد مهدداً العالم المسيحي، في الشرق مع الأتراك، وفي أسبانيا مع المرابطين. وزاد من حدة هذه الخشية رواج عمليات الحج، فدفعت السكان إلى استرداد الأراضي التي فقدت، بما في ذلك قبر المسيح.

---

* ركونكيستا : استعادة الاسبان لأراضيهم التي احتلها العرب المسلمون ، sarrasins

في غضون ذاك الزمان، طفقت تتطور، في الإمبراطورية الإسلامية، التي أنشأها المجتاحون من قبل الله، حضارةٌ متألقة وساحرة. وفيما راحت تلك الحضارة تتبنى، بصورة كاملة، مفهوم الحرب المقدسة، مارست داخل حدودها، وتحت قوانينها "تسامحاً" واسعاً بما يكفي مع الديانتين الموحدتين. ومنح كل من الإمبريالية العربية/الإسلامية، وسيطرتها العسكرية والسياسية والثقافية والاقتصادية، هذه الحضارة التفوق، كما طور كلٌّ ذلك لدى سكان الإمبراطورية العربية - كما يحدث هذا في جميع أوضاع الإمبريالية - موقفاً بل عقدةً من التفوق. وإن الإنهزامات العسكرية التي مُني بها العالم الإسلامي إبان الحروب الصليبية، والانحطاط العام الذي نال من هذا العالم، أحدثا لدى سكانه شعوراً مستديماً من المرارة ومن الحقد. والنجاح الذي تناله، في أيامنا هذه لدى جماهير الشعوب المسلمة، الحركات الإسلامية الأصولية المتسمة بنزعات إرهابية (Terroristes)، هو نجاحٌ يستمد غذاءه، وجزئياً على الأقل، من هذه الحقود.

إن هذا الكتاب، من خلال هذه الوقائع، ومعظمها معروف منذ أمد بعيد، لكنها غالباً ما تُهمل أو تقارن على نحوٍ سيئ (يسعى إلى أن يصف أفكار هاتين الديانتين) ذهنياتهما و مواقفهما من الحرب، ونشأة فكرة الحرب المقدسة في الغرب، وتفاعل هذه الفكرة مع فكرة الجهاد في الإسلام التي تجابهها، وحتى الحرب الصليبية، فهذه الحرب هي النتيجة المأسوية لتطورٍ قد عمّر ألف عام.إنه تطور قد أفضى، في رحاب الدين المسيحي إلى إعداد عقيدة الحرب المقدسة التي تلتحق بالعديد من ميزاتها، بالجهاد الإسلامي. وفي ذاك التاريخ (نهاية القرن الحادي عشر) أدى الأمرُ بالديانتين إلى مستوى متماثل في قدْسنة (sacralisation) الحرب فالحرب الصليبية تشير بالتالي إلى ختام هذا المؤلف الراهن. وهاأنا أدع لمؤرخي العصرين الحديث والمعاصر مهمة وصفهم كيفية تطور المسيحية والإسلام منذ ذاك الحين، في اتجاهات متباينة.

رغم هذه التطورات، يلبث عبءُ الماضي في العصور الوسطى ثقيلاً باهظاً ، في العالم الغربي، بالتأكيد، لكن بالمزيد من ذلك، في العالم الإسلامي. ويتأتى من هذا كله توترٌ، ومصدر لا تفاهم بين العالمين. وإن علمنة العالم الغربي ذي الثقافة اليهودية

/المسيحية وهي العلمنة المتدرجة قدماً ، والمتسارعة منذ أكثر من قرن، قد غيرت الذهنيات، بالتأكيد وبمقدار عميق، ولاسيما في شأن مفهوم الحرب المقدسة بذاته. ليس فقط، لم يعد هذا المفهوم يثير أي صدى مشجع في سيكولوجيا المرء الغربي العامة، بل يثير ردّة فعلٍ من النفور والكراهية، ويذكر بعصرٍ قد انقضى، عصر ظلاميّة يوصف، بطيبة خاطر، بأنه "قروسطي بما أن هذا المفهوم قد تشكل في الفترة التي يعتبرها الغرب فترة "القرون المعتمة" ففي أيامنا تعتبر فكرة الحرب المقدسة، إذن تعبيراً غير لائق وغير مقبول، وغرابة رجعيّة، وفظاعة من عصر أكل الدهر عليه وشرب.

ليس الأمر على هذا المنوال، في البلاد الإسلامية، وعلى الأقل، خارج الطبقة القليلة جداً "المُغرْبنة" (occidentalisée) من بين قادتها، أو خارج جزء من نخبها الفكرية التي نعمت بتأهيلها في الغرب.ولا جرم أن "الثورة الثقافية العلمانية" لم تقمْ في هذه البلاد الإسلامية، أضف إلى ذلك، أنه يظل فيها حنين مبهم إلى عظمة قد انقضت. وتتموقع بدقة هذه العظمة في فترة "عصورنا الوسطى" الغربية، وهي العصر الذهبي للعالم الإسلامي، ذاك العصر الذي راح الإسلام فيه، مدفوعاً من إيمانه وحماسة محاربيه، يجتاح العالم باسم الجهاد، ويُرسي أسس حضارة متألقة ذات سؤددٍ، لا يزال المسلمون في أيامنا هذه يحتفظون بفخارها والحسرة عليها. وبالنسبة إلى الكثير منهم من المغري أن يقرنوا الظاهرتين أو أقله ألا يعترضوا تماماً على مفهوم الحرب المقدسة التي أسهمت في تحقيق حضارتهم القديمة.وهو علاوة على هذا، مفهوم راسخ بقوة في "الحديث" الإسلامي ابتداءً من أصوله القرآنية.

والجهاد المحارب هذا، يحاول عبثاً المسلمون "الملتزمون بالحداثة" أن يضفوا عليه سمة روحية [أن يُروحنوه] فيسلخوا عنه سمته العسكرية. لكن لابد من الملاحظة، في أيامنا هذه، أن الجهاد يلقى بشكله الأشد جذرية، في الأقطار الإسلامية، صدى واسع الأرجاء والمدى.وراحت الدعاوة الإسلاموية (Islamiste) تستحوذ عليه وتتقّوت منه، وهذا هو برهان إن لزم البرهان على أن هذا هو الإدراك الذي تستطيع الحصول عليه تلقائياً الذهنية الإسلامية المشتركة.وإن كان لربما صحيحاً ، كما تم التشديد على ذلك

حديثاً ، أن الإرهابيين الإسلاميين في زماننا هذا ، يستمدون وحيهم من أيديولوجيات القرن العشرين الثورية، فيبقى من الثابت أنهم هم أنفسهم، ينتمون إلى جهادٍ أصلي، ويتوخون أن يلبثوا ورثة لعظماء الأبطال في جهاد العصور الوسطى. وليس الأمر هذا من قبيل الصدفةٍ والفعل البريء.

بالتالي، ليس من النافل، سعياً منا إلى فهمٍ أفضل لزماننا أن نعكف على جذور أيديولوجيات الحرب المقدسة التي نقطف حالياً ثمارها السامة.

الجزء الأول

الحرب والدين المسيحيّ من يسوع إلى شارلماني
(القرون ١ - ٨)

الفصل الأول

رفض العنف

المسيحيون والحرب في الإمبراطورية الرومانية الوثنيّة

قليلة هي الأديان، بشكلها الأصلي، المناهضة للعنف و الحرب كما كانت عليه الديانة المسيحية. فإن موقف مؤسّسها، يسوع الناصري، وموقف المسيحيين الأوائل، والتعبير العقائدي للكنيسة القديمة تشهد على ذلك.

"يسوع المسيح"

مع أن رسالة يسوع القائمة على أساس الوحي السابق في التوراة التي قبلت فكرة العنف المقدس والحرب المقدسة، عندما كانت تعتبر منزلة أو خاضعة لأمر من الله بقصد مصلحة شعبه (ر. "حروب الأزلي")، فإن رسالة يسوع كانت سلميةً بصورة جذرية، مرتكزة على حب الله والقريب. لعل هذا الأمر هو الذي يجعل كرازة يسوع ثورية بالتمام فتستطيع بسبب ذلك أن تتخذ بعداً عالمياً ودولياً ، معارضة الديانة العبرية التي تظل قوميةً أو عرقية في صميمها.

"عظة يسوع على الجبل" تُمثِل جوهر هذه الكِرازة: حين استعاد يسوع لحسابه أحكام الشريعة التي فرضها موسى والأنبياء، راح يفسرها بمعنى مطلق وجذري، فبدلاً من إلغاء الشريعة القديمة، يسهب بالعكس في مداها وفحواها: بالحقيقة، إنه يُموضع الخطأ في أصله وجذره، ليس في الفعل المنجز وحسب، بل في "قصديَّته" ولئن لم تتبع عواقبُ لهذا القصد. فالدين المسيحي يقيم، للمرّة الأولى، أساساً "لأخلاق النيّة مثيراً ، بذلك نفسه، دور ضمير الفرد الواعي.

وهكذا، في ما يخص ما نحن في صدده، يضع يسوع هذه "الوصية الجديدة":

يترتب على المرء لا عدم القتل وحسْب، بل عليه أيضاً نبذ الغضب والحقد، فهما يؤديان إلى المجابهة والعنف (متى: ٥: ٢١-٢٥) فقد تم تجاوز "العين بالعين ، السن بالسن" بوسيلة شريعةٍ لمحبة القريب التي تنطوي على اللاعنف الأتمّ: "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسنّ. أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن، فقدم له الآخر أيضاً " (متى: ٥: ٣٨-٣٩).

إن هذا الموقف لرفض العنف رفضاً تاماً ، والمعرب عنه: بشكل استفزازي في صيغته بذاتها، بليغ الدلالة، لاسيما و أنه يترجم إلى سياقٍ صعب بشكلٍ خاص، وقلما يكون مواتياً لمذهب الجدال المسالم الهادئ [السلموية (Irénisme)] :فالرومانيون قد اجتاحوا، قبل ذلك بقليل، فلسطين وأرض يهوذا، وعانى شعب إسرائيل من الاحتلال الأجنبي بل الاحتلال الوثني المشهور بأنه "دنسٌ" ولا يستطيع كل مؤمن وطني أن يتحمله. و "أصوليو ذاك الزمان، والوطنيون اليهود المقاومون للاحتلال الروماني، امتدحوا المقاومة، رافضين كل اتصال بالمحتل المكروه، وأشعلوا الثورة والتمرد، وشجعوا كل عمل إرهابي.وإن عامة الشعب المتدين، والذي [يُعَصْبَنُ، fanatise أي] يجعل متعصباً بطيبة خاطر، ويصغي طوعاً إلى خطب توقد الحمية، يلقيها هؤلاء "المقاومون" وهم يبشرون بتحرير فلسطين، فهذا الشعب يميل إلى احتقار السلطات الدينية التي اعتبروها مهادنة بمقدار مفرط حيال المحتل، فوصفوها على نحو تلقائي، بأنها "متعاونة" مع العدو.

إن أرض يهوذا قد ذاع صيتها، في روما ذاك الزمان، بصفتها "إقليمًا يعسر حكمه" بسبب ذاك المناخ المستديم من التمرد المسيطر في أرجائها. وخلال تلك الفترة ، وفي مطلع العهد المسيحي ، أحصيت ثورات مسلحة عديدة ،وقد أثارها المشاعر القومية والدينية المختلطة المتشابكة على نحو جدّ معقد، في قلوب يهود ذاك العصر، وسوف تؤدي هذه الثورات،كما نعلم هذا، إلى حروب للاستقلال قمعت بشراسة، على سبيل المثال ، حملةُ تيطوس العسكرية في عام ٧٠، وتميزت بالاستيلاء على أورشليم وبهدم الهيكل، وفيما بعد وقع "الانتحارُ الجماعي" للمقاومين المتحصنين في قلعة "مسعدة"، أخيرا طُرِدَ جميع يهود فلسطين ، وبهدم أورشليم عقب إخفاق عصيان عام ١٣٥ واختفى اسم أورشليم على الصعيد الرسمي وحل مكانه اسم "أئيليا كابيتولينا"

Aelia Capitolina [نسبة الى إئيليوس أدريانوس Aelius Adrianus الذي صار إمبراطور روما]

في هذا السياق الذي بات متوتراً أيما توتر، تتخذ رسالة يسوع قيمة مثالية.لكن يسوع يشمل أيضًا العدو المقيت، أي الروماني، في تسميته "قريبي" وحتى إنه يوسع فحوى اللاعنف إلى وضع دقيق يغيظ على نحو خاص، يهود ذاك الزمان: ألا وهو "سخرة نقل الأمتعة على الظهر وهو الأمر الذي لبث الجنود الرومانيون يمارسونه، وقد أذن لهم بتسخير يهوديّ ٍ ما، ليحمل أمتعة الجندي على مسافة معينة، أي قرابة ميل روماني [١٤٨١,٥ من الأمتار] بيد أن يسوع لا يتردد حين يقول بطريقة أيضًا متحدية: "من سخرك لميل ٍ واحد فامض معه ميلين" (متى ٥: ٤١).

إن موقف يسوع من اللاعنف تسبب له ببعض الخصوم بالطبع، فلم يسهم ذلك في إرساء سمعته ما بين أفراد شعبه، فلم يكن موقف يسوع شعبياً بأي شيء وكان بمقدارٍ أقل غوغائياً ، لكنه ينجم عن مفهوم جديد لحب الله [تعالى] ويؤدي بالمرء إلى حب القريب بالمعنى الواسع جداً لهذه اللفظة. ومكانَ التعارض القديم من جهة "شعب الله"، ومن الأخرى "بقية العالم العدو"، أحلَّ يسوع شريعة الحب الشامل الذي يزيل التخوم والصراعات، السياسية منها أو الاجتماعية أو العرقية:

"سمعتم أنه قيل، أحب قريبك وابغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل من يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (متى: ٤٣ - ٤٥).

لهؤلاء الذين توخوا إحراجه أمام السلطات الدينية والشعب فطلبوا منه أن يقول أية وصية من الوصايا (الوصايا العشر التي نقلها النبي موسى) والتي هي الأكثر أهمية، أعطى يسوع هذه الإجابة التي توضح روح الوصية وفحواها العميق: حُبّ الله وحُبّ القريب يلخصان جميع "الوحي"، والكلام المنزَل:

"أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك.هذه هي الوصية الكبرى والأولى. والثانية تشبهها:

أحبب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس وجميع الأنبياء" (متى: ٢٢ : ٣٧-٤٠).

لا يعني الأمر فقط تصريحات نظرية، يعرب عنها بشكل أمثال: فإن يسوع في تعليمه وأفعاله على السواء، يتقيد دومًا بهذه المبادئ الأساسية، نابذاً كل لجوء إلى العنف، ومستبعداً كل شعور بالازدراء أو العرقية، أو العشائرية، أو كره الأجانب .(Xénophobie)

وهكذا أحاط، يسوعُ نفسه بأشخاص نبذهم المجتمع اليهودي التقليدي:فهم فقراء، وعشارون، ومومسات، وجباة الضرائب.....الخ. ويجرؤ على التحدث عن اللاهوت مع امرأة سامرية، محتقرة بمقدار مزدوج من قبل يهود ذاك العصر - بصفتها امرأة وبصفتها سامرية - فيمتدح إيمانها. ويعطي كمثلٍ التصرف الكريم الغيري والمنجد، تصرف "السامري الصالح" المنتمي لشعب محتقر. ويشفي يسوع امرأة كنعانية (فلسطينية) وخادم ضابط روماني من جند الاحتلال...الخ وكانت جميع هذه الأعمال تصدم أصوليي زمانه، وحتى غالبية العقلاء العاديين في ذاك العصر. فلا نجد في تصرف يسوع كما في أقواله أي إجراء مانع، أي عائق اثني، أو عرقي، أو اجتماعي.

أما لا عنف يسوع فهو منوط برفضه الجذري لكل التزام سياسي. وهو واضح بنفس المقدار تماماً بل إن هذا الموقف القاطع اللامتساهل على هذا الصعيد هو الذي تسبب له بإهمال الشعب له، هذا الشعب الذي، رغم كل ذلك وقبله ببضع ساعات، كان قد استقبله بحمية إبان دخوله أورشليم، في يوم "الشعانين" [السَّعَف]. وحينما اقترب الفصح ألقى هؤلاء الناس، تحت أقدامه، ثيابهم أو سعفاً ، وهتفوا له صارخين "هوشعنا" ! مبارك هو المُلك الآتي، مُلك داوود "أبينا" [هوشعنا أي نشيد الظفر Hosanna].

إن معنى هذا الاستقبال المظفر واضح:فجمهور الحجاج، من يهود أتقياء، ووطنيين، ووافدين إلى أورشليم، وأحياناً من بعيد جداً ، من شتات جالية نائية في أوروبا أو أفريقيا ، كما من أقاليم البلد البعيدة، هو جمهور ينتظر مشيحاً / ملكاً بات مبعوثاً من الله و سوف يتصدر اليهود ويترأسهم وينعم بدعم الكتائب السماوية، بغية دحر الرومانيين خارج إسرائيل، فيقيم هنا على هذه الأرض، مملكة الله هذه، هذه الدولة الإلهية [التيوقراطية] التي كان مؤمنو إسرائيل جميعهم يتوقون إليها.

أما يسوع فقد رفض تماماً أن يخلط الدين بالسياسة. وسبق له أن أبدى ذلك، قبل دخوله أورشليم بكثير، حينما كانت أقواله ومعجزاته قد جمعت حوله جماهير غفيرة، ظلت تريد أن ترى فيه لا مخلص العالم، بل مسيح إسرائيل؛ الملكَ الذي ينتظرونه. وآنئذٍ ، بات ردُّ فعله يُخيِّب آمالهم: فانعزل وحده على الجبل:

"(فلما عاين الناس الآية التي صنعها يسوع، أخذوا يقولون: (هذا الرجل هو في الحقيقة النبي الآتي إلى العالم) وإذ علم يسوع أنهم عازمون أن يأتوا ويختطفوه ليقيموه ملكاً ، اعتزل أيضاً في الجبل وحده. (حنا ٦ :١٤-١٥).

جميع هؤلاء الناس الأتقياء، ورجال الدين هؤلاء الوطنيون، وقد تأهبوا ليتبعوه بصفته مشيحاً /ملكاً (Messie-roi)، أو زعيم حربٍ بعث به الله إليهم، أصيبوا مجدداً بخيبة أمل قاسية، حين لم يغتنم يسوع المزيد من تفوقه بعد أن تبعه هذا الجمهور الغفير، وبعد أن طَرَدَ بسلطة منه، دونما عنف، تجار الهيكل، فأكتفى بأن يقلب طاولات صرافتهم للأموال وشتت الحيوانات التي يبيعونها بغلاء فاحش من أجل الذبيحة. لم يغتنم يسوع المزيد من تفوقه، ولم يحاول القيام بانقلاب سياسي ولا بعمل إكراهٍ وعنف: ولم يهاجم قلعة "انطو نيا"، القريبة جداً ، ولو أنه فعل ذلك لكانت حاميتها الرومانية قد أزيلت بيسيرٍ من الوقت على أيدي هذا الجمهور وقد بات متعصباً ومتأكداً من الدعم الإلهي. بل على نقيض هذا، انعزل يسوع وحيداً في قرية صغيرة من الجوار، في "بيت عَنْيا" متوخياً أن يبيت الليل فيها، فكان ثمة خيبة أمل، لا تفهّمٌ، بل ضغينةٌ.

إن "إخفاق هذه المناسبة" خيب الجميع وأفضى إلى إلقاء تلاميذه في حيرة.ومن المحتمل أن الفشل هذا قد حث واحداً منهم، وهو يهوذا إلى اتخاذ مبادرة قد فسرها التلاميذ أنفسهم، بالتأكيد، تفسيراً سيئاً فكان الأمر يعني دفع "المعلم"، على كره منه، إلى اتخاذ موقف: وذلك بالعمل على اعتقال يسوع في بستان جتسماني حيث كان يبتهل سراً .و لربما كان يهوذا يرى أن يُرغم يسوع في هذه المرة على أن يكشف النقاب عن ذاته، فيتحرك، ويظهر أخيراً القوة الإلهية التي لبث يعزوها لذاته بمثابة رسول أو ابن الله " ممسوح الرب (Oint du Seigneur)

على نقيض كل هذا، انساق يسوع إلى الاعتقال دون أن يبدي أدنى معارضةٍ مقاومة. بل أفضل من ذلك، أو بالا حرى أسوأ أيضاً راح يسوع يخاطب بطرس الذي كان متسلحاً بسيف، فجرده دفاعاً عن "معلمه"، فقطع أذن المدعو "مالشوس" خادم الكاهن الأعظم، فأمر يسوع بطرس بأن يغمد سيفه فوراً ، ويعزف عن كل عنف، وذلك بألفاظ جدّ قاسية على بطرس وعلى جميع من سوف يستخدمون مستقبلاً العنف المسّلح:

"ردَّ سيفك إلى موضعه لأن جميع من يأخذون السيف يهلكون بالسيف.أو تظن أني أعجز عن أن أسأل أبي، فيقيم لي في الحال ما ينيف على اثنتي عشرة كتيبةً من الملائكة ؟" (متى ٢٦: ٥٢-٥٣).

إن إنقشاع الوهم المرّ لدى الشعب يفسر انقلاب منحاه العنيف ورفضه الحقود ليسوع هذا الذي طالما خيب آماله.وإبان عيد الفصح درجت العادة لدى الحاكم على العفو عن أحد المحكومين.وترك له "بيلاطس" الخيار ما بين يسوع ملك اليهود و"برأباس" وكما نعلم، طالب الجمهور ببرأباس، وبذلك سلم يسوع إلى الموت.

إن خيبة أتباع يسوع الحديثي العهد إزاء موقف عصيٍّ على الفهم، في رأيهم، تقاس على نحو أفضل أيضاً بخيبة أفضل تلاميذه، ومن بينهم الأقربون، وهم الرسل. فلم يعد لهم أية حيلة، فراحوا يعانون الخيبة والمرارة. وفي هذا الشأن، تلبث النصوص واضحة جداً عندئذ تخلى عنه جميع تلاميذه، وانهزموا " كذا وصفت الأناجيل ذاك الوضع (متى ٢٦: ٥٦). وبعدَ أن فقد تلاميذه وجهة آمالهم، باتوا لا يعرفون ما الذي يفكرون فيه أمام هذه الواقعة وقد عجزوا عن إدراكها: يسوع هذا الذي لبثوا يتوقعون منه أن يستولي عما قريب، على السلطة - بحيث أنهم راحوا يتشاجرون مسبقاً ، إبان العشاء الأخير (العشاء السرّي)، على المراتب الأولى في المملكة التي، كما ظلوا يفكرون، كان مزمعاً أن يقيمها - انساق آنذاك إلى أن يعتقل، ويهان ويدان في هاتيك المحاكاة الساخرة لإصدار الحكم التي جرت في منزل الكاهن الأعظم ثم عند بيلاطس، فراح بطرس، مع أنه واحد من أصلب من تبعوا يسوع، وبعد أن فقد تماماً قراره، يقسم أنه لا يعرف يسوع. وحضر البعض من بعيد، مرهقين، لا يدركون شيئاً مما يحدث هناك: جَلدَ يسوع ثم صلبه؟ ودونما شك حتى اللحظة الأخيرة، مافتئوا يأملون أنه مزمع على النزول من الصليب، بقدرة الله. وفي ذاك الحين، لا جرم أنهم لم يفهموا كلمات يسوع الأخيرة وهو على الصليب، ألا وهي صلاة من أجل الذين يصلبونه على الخشبة: يا أبت ، اغفر لهم، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون (لوقا: ٢٣:٣٤).

ليس في وسعنا أن نجد توضيحاً أشد جذريةً، في الوقائع، لمذهب لاعنف يسوع إنه مذهب تم تلقينه وعيشه حتى الموت.

إن البعد السياسي والأخروي [خاص بعلم الآخرة ويوم الحشرeschatologique] لهذا

الانتظار لدى الشعب، بُعدُ بيِّنٌ من خلال ردود أفعال شتى الفرقاء الحاضرين آنذاك. فالرومانيون أدانوا يسوع بصفته مشاغباً يعادي الدولة,فهم يعلمون تماماً أن الوطنيين ينتظرون مشيحاً محارباً "ملكاً لليهود"، كما كان الكثير من أمثاله.وإن جمهور مناصري يسوع الذين أحبط أملهم، شرعوا يأملون فيه، أول الأمر، ثم انصرفوا عنه على غيظ واستياء، على ضغينة وحقد، حينما لا حظوا أن يسوع لا يتصرف البتة تصرف محاربٍ، بل كنبي مشايع للسلام، فهو يعظ بالحب واللاعنف.

وحتى قبل اعتقاله، كان يسوع قد أعلن، مرات عديدة، أن ملكوته ليس من هذا العالم، وأنه لم يأت بصفته ملكاً بل كخادم متواضع لله، وأنه سوف يعتقل ويصلب. عبثاً كان ما أعلنه: فالتلاميذ أنفسهم طالما ظلوا بعيدين جداً عن إدراكهم رسالته على هذا المنوال. ففي رأيهم، كما في نظر جميع مناصريه، يسوع يتوخى الاستيلاء على السلطة. فلن تجدي نفعاً جميع تحذيراته، لأن الرسل لم يكونوا البتّة مهيئين لإدراك تحذيراته، وبمقدار أقل أيضاً لقبولها.وإن الإنجيلي لوقا يشير إلى عجزهم دونما مواربة:

أما هم فلم يفهموا من ذلك شيئاً ، بل كان لهم كلاماً مستغلقاً واقوالاً لا يدركونها (لوقا، ١٨ :٣٤).

" كان الناس يسمعون ذلك، فضرب يسوع أيضاً مثلاً ، لأنه كان قد اقترب من أورشليم. وكانوا يتوهمون أن ملكوت الله موشك أن يظهر في الحال (لوقا، ١٩:١١).

استناداً إلى الأناجيل، توفي يسوع مساء نهار الجمعة وانبعث صباح يوم الأحد، اليوم الأول من الأسبوع.وفي البداية ظهر للنسوة، وقد أتين باكراً ، عقب راحة السبت القانونية، إلى القبر المحفور في الصخر، بقصد تطييب جسده وتحنيطه. فلاحظن، كما سيفعل بعدهن حنا وبطرس، أن القبر فارغ.فهرعن مخبراتٍ بهذا الرسل وقد خارت قواهنَّ.غير أن الرسل المرهقين لبثوا تحت وطأة خيبتهم الهائلة عاجزين عن تصديق الخبر: فكان هذا الكلام في نظرهم بمنزلة الهذيان، فلم يصدقوهن (لوقا ٢٤-١١)، كذا قالت النصوص. وإن "الحاجَّين من عماوس" يعربان بوضوح بيّن، عن هذا الوضع الذهني لدى الرسل: وفاة يسوع تمثل في ذاك الحين، حسب رأيهم، النهاية الحاسمة لآمالهم، آمالهم في إنقاذ إسرائيل من العدو المحتل. فهم يقولون ذلك دون مراعاة:

"وكنا نؤمل، نحن، أنه هو الذي يفتدي إسرائيل. ولكن ،مع هذا كله ،فاليوم هو الثالث لوقوع تلك الحوادث" (لوقا، ٢٤-٢١).

إلا أن هؤلاء التلاميذ أنفسهم، فيما بعد ببضعة أيام - وقد افتقدوا شجاعتهم، وأخفقت آمالهم، فآلوا إلى انحطاط تام لقواهم - انقلبوا إلى تلاميذ ظافرين: فها هم يكرزون بالإنجيل، في كل حدب وصوب، والإنجيل هو "البشرى الحسنة":انبعث يسوع من القبر، كذا راحوا يؤكدون، فقد انتصر يسوع على الموت، وهو جالس عن يمين الله وسوف يأتي في "ختام" الأزمنة، ليدين الأحياء والأموات من البشر، فاتحًا بانتصاره ملكوت الله على جميع من نعموا بالإيمان به.

إن هذا التحول الذي يستعصي تماماً على فهمٍ كل منهم لا يمكن تفسيره إلا بظاهرة يختلف أمامها، بالطبع، المؤمن واللامؤمن فتتباعد آراؤهما حولها: ففي نظر المؤمن، قام يسوع من بين الأموات. وفي رأي الملحد، أو اللامؤمن أو اللا أدْري (Agnostique) قد آمن المسيحيون وأرادوا أن يؤمنوا، أو العمل على جعل الناس يؤمنون، بأن الأمر كان كذا.

أما المؤرخ فيترتب عليه النهوض بمقاربة، بطريقة تعامل أوفر عقلانية وأوسع "انفتاحاً " ولابد أن يحترس، فلا يخلط قناعاته الخاصة به، بتحليل الوقائع الدقيق وبالبحث عما لها من تفسيرات محتملة.

في نظر المؤرخ، ثمة شئ واحد أكيد على الاقل: الاوهو التحول المباغت الذي حدث آنئذٍ في أذهان التلاميذ، فترجم إلى الموقف الذي اتخذوه.وإن انتظار مملكة دُنيوية بقوة الأسلحة، ولاسيما بعون من الكتائب السماوية، قد حل فجأة مكانه لديهم، أملٌ جديد: أمل في ملكوت الله ليس من هذا العالم، ملكوت يلجه المرء بالإيمان، لا بقوة السلطان.

وفي حين مبكر جداً ، أنجز هذا التحول، بعد وفاة يسوع بقليل: فلم يعد الرسل ينتظرون، ليس بوسعهم من بعد أن ينتظروا مشيحاً (Messie) محارباً ، فاتحاً ، يطرد من الأرض المقدسة الروماني المحتل. فمنذئذٍ، راحوا ينتظرون المجئ المقبل، وهم مع ذلك يتوقعونه قريباً ، مجئ ملكوت آخر من الله يفد إليهم من السماء، وسوف يستهل.ذلك إبان عودة المسيح الظافرة، مفتتحاً زمان الدينونة ويوم الحشر. فالمسيح هو الذي سيكافئ المؤمنين بالحياة الأبدية، في ملكوت الله هذا، وسيبيد إلى الأبد الأشرار الذين لن يحظوا بأية حصة فيه. وهاهي رسالة بطرس الثانية تعرب عن الأمل هذا:

بيد أننا ننتظر، على حسب وعده، سماوات جديدة وأرضاً جديدة، يسكن فيها البرّ والعدل (بطرس، الثانية، ٣ ١٣).

إن هذا الأمل الجديد يعزز أيضاً موقف المسيحيين السلموي [الملتزم بالسلام]، لا اقتداء بالمسيح وحسب، بل أيضاً بترابط إيديولوجي منطقي. فهدفهم اكتساب الملكوت السماوي، وهم يحتفظون بإيمانهم، ولئن بات ذلك بثمن حياتهم على الأرض. وبالمقابل، إن عرضوا حياتهم الأبدية للخطر، بقصد احتفاظهم ببعض الحسنات، أو حتى بحياتهم في هذا العالم، فذلك يبدو لهم عارياً من كل أهمية.

المسيحيون الأوائل

منذ ذاك الحين، لم يعبأ المسيحيون الأوائل، في الواقع، بما في هذا العالم من ممالك.وعلى هذا المنوال بمقدور الدين المسيحي أن يتخذ، بالمزيد من السهولة، بعداً عالمياً ، بعداً يفوق الصعيد القومي، كما تفعل جميع أديان خلاص البشر. ولا جرم أن الخلاص الأبدي لا يُكتسب فيه بوسيلة الانتماء إلى عرقٍ أو أمةٍ، بل بالوسيلة الوحيدة، ألا وهي الإيمان بيسوع المسيح، مخلص البشرية.

من ثم، أخذ الرسل وبطرس أولاً ، ثم بولس والتلاميذ الآخرون، ينحون عمداً إلى "الوثنيين" فدعوهم إلى الإيمان والخلاص، وباتوا بذلك حجر عثرة لسلطات اليهود الدينية. وبعد قليل، أصبح المسيحيون، وجميعهم في البداية من منبتٍ يهودي، أي من بداية الكرازة بالمسيحية، أصبحوا بمعظمهم وثنيين قدماء مرتدين.وتطابق موقفهم حيال الدولة مع موقف يسوع. ففي نظرهم الإيمان المسيحي من طبيعة "أخرى" بشكل جذري. فأملهم نحا إلى السماء لا إلى الأرض. ولذلك لم يبالوا بأقوياء هذا العالم، وبالحكام، وبالإيديولوجيات السياسية.

ظل الرسل غير مكترثين بالدولة، لكنهم لم يعادوها، ولم يبقوا يتذللون لها.فقام الرسول بولس برسم واضح للطريقة التي يجب اتباعها:

المسيحي، أولاً ، مواطن للسماوات، مؤمن بالله.فهو يعيش، في الآونة الحاضرة، على هذه الأرض، بانتظار "نهاية الأزمنة" وليست هي، في نظره تماماً نهاية العالم التي يدركها بصفتها إبادة، حدثاً يفزع المرء منه بل بالأحرى، نهاية هذا العالم البائس،

ولاسيما فجر زمان آخر من السعادة والنعيم دونما نهاية، بداية عالم جديد سيستقر إبان عودة المسيح:وها هي "أورشليم الجديدة"

إن المسيحي، بتصرف منه لا غبار عليه في حياته على هذه الأرض، يُسهم تماماً "بتسريع" ذاك الحين حيث سيعود المسيح ليقيم ملكوته السلمي، بصورة نهائية. وفيما لا يعير المسيحي اهتمامه لشؤون العالم هذا، يترتب عليه إذن أن يتصرف تصرفاً مثالياً ، على كرامة وحق، مطيعاً قوانين الدولة، فلا غنى عنها في كل مجتمع، لأنها تثبت بمجملها إحلال السلام والنظام والعدالة كما يشدد الرسل على هذا التصرف.

وهكذا، سوف يجهد المسيحي ليكون مواطناً صالحاً ، خاضعاً لقوانين الإمبراطورية، مخلصاً للإمبراطور، ولئن كان وثنياً ، فهو ضامن للنظام والسلامة والحق. والمذهب المسيحي الأصيل لا يدعو إلى الفوضى ولا التمرد، بل يعظ بالخضوع للسلطات القانونية، وللقضاة، والله يريد أن ينهضوا بوظيفتهم، كما يؤكد على هذا القديس بولس:

أفتبغي أن لا تخاف من السلطان ؟ فافعل الخير فتصير لديه ممدوحاً .لأنه خادم الله، ولخيرك [.....] فلذلك يلزم الخضوع، لا خوفاً من الغضب فقط، بل من أجل الضمير أيضاً " (الرومانيون، ١٣: ٣-٥).

الخضوع للدولة، لا بأس! ولكن يا ترى في أية حدود ؟ ليست هذه الطاعة عمياء، ولا هي بمعزل عن أي شرط: فهي ناجمة عن خضوع المؤمنين بالله، وهو وحده خضوع أول ومطلق. وبالتالي، سيكون المسيحي خاضعاً لقوانين الدولة إخلاصاً لله لا إخلاصاً للإمبراطور بصفته رأساً للدولة، وأقل من هذا أيضاً ، بصفته يمثل على الأرض سلطاناً ما إلهياً ، كما ظن، في ذاك الزمان، الوثنيون وبمقدار متصاعد. فالمسيحي يكون خاضعاً للدولة، بالطبع، بشرط ألا تكون قوانينها معارضة لناموس الله، وعلى سبيل المثال، ألا يرغم الإمبراطور المسيحيين على أن يجعلوا من أنفسهم أناسا لا يخلصون لسيد السماوات المطلق.

في هذا الوضع، إذ يلبث المسيحي محرجاً ما بين واجبين متناقضين، ينبغي عليه اختيار إخلاصه لله. وفي وقت مبكر، أقام الرسولان بطرس ويوحنا مبدأ هذا الاختيار. فإذْ تم اعتقالهما، لأنهما يكرزان بانبعاث المسيح، حُظر عليهما الاستمرار في نشر هذه

الرسالة.فانطلقت للفور إجابتهما:" احكموا أنتم، أمن العدل، أمام الله، أن نسمع لكم ولا نطيع بالحري الله؟ (أعمال الرسل:٤ :١٩). وإذ اعتقلا فيما بعد بقليل، للأسباب ذاتها، بررا نفسيهما مجدداً متذرعين بقاعدة التصرف نفسها: إن الله أحق من الناس بالطاعة (أعمال الرسل، ٥:٢٩). ولم يكن ثمة من المتوقع أية مقاومة عنيفة، وبمقدار أقل أيضاً مقاومة مسلحة.وحتى أمام الاضطهادات المتوقعة أو المعلنة، تم تطبيق المبدأ الذي أوصى به يسوع: "حينما تضطهدون في مدينة ما، أهربوا إلى مدينة أخرى (متى، ١٠:٢٣).

سيكون، منذئذ تصرف المسيحيين خاضعاً لهذين المبدأين: الخضوع للقوانين العادلة في الدولة، ولكن، رفض قاطع للاذعان، إخلاصاً لايمانهم، متى تكون هذه القوانين مناقضة للشريعة الإلهية ولتعاليم يسوع.

لكن مناسبات عديدة للصراع تهيأت، بعد قليل، طوال تلك الفترة.وكان الصراعان الرئيسيان في شأن الموقف الذي يجدر تبنّيه حيال "الأصنام" بصورة عامة - وتمثال الإمبراطور، خاصةً - ولربما بمزيد من المقدار أيضاً ، حيال الحروب.

الكنيسة والحرب في الإمبراطورية الوثنية

في عصر الكنيسة الأولية، لم تكن الخدمة العسكرية مفروضة على الجميع. فالجيش الروماني جيش محترف، ومن يصيرون جنوداً هم وحدهم الذين يتوخون الاندراج فيه. بيد أن الجندي يقسم الولاء للإمبراطورية وللإمبراطور، لعل الجندي يفضي به الأمر إلى قتل أناسٍ آخرين. إلا أن الكنيسة الأولية حظرت القسم والقتل. فهي إذن، لهذين السببين، مناهضة للخدمة العسكرية. وتعززت هذه المناهضة العدائية حينما تضخم التعبد للإمبراطور، فبات القسم له يؤديه المتطوعون الجدد، وراح يرتدي أشكالاً لعبادة الأصنام.

في الحقيقة، يشدد جميع اللاهوتيين والمؤرخين على هذا: فلم ينبذ الجنودَ يوحنا المعمدان ولا يسوع: فثمة قائد للمئة (كورنيليوس) قد ارتد باكراً جداً مع جميع عائلته إلى الدين المسيحي ، وحتى قبل تحرير الكتابات المسيحية الأولى. لكن، إن استطاع جنديٌ ما، في الواقع، أن يصير مسيحياً فبالمقابل، من المحظور، بصورة عامة على

مسيحي، أو على طالب للعماد، أن يندرج في الجيش متطوعاً. ولهذا التمييز أهميته. ففي القرن الثالث أيضاً شهد على هذا أعظم مفكري المسيحية، مع أوريجينس في العالم اليوناني، وترتوليانوس في العالم اللاتيني.

على سبيل المثال، في الغرب، أكد ترتوليانس (١٦٠-٢٣٠ م) [من قرطاجة] على التعارض، من حيث القانون، مابين المذهب المسيحي والخدمة في الجيش الروماني: فالمرء المسيحي لا يستطيع أن يخدم معلّمَيْن، الله و الشيطان ! فالجندي يحمل السيف الذي حظره يسوع على ذويه وأكد ذلك في كتابه "عن السلطة الإمبراطورية وعبادة الأصنام السامة" (de corona,de idolotatria, scorpiace)، يقال أحياناً إن موقف ترتوليانس موقف متطرف، وعلة هذا الأمر:ارتداده إلى المذهب المونتانوسي* .(Montanisme) ولم يكن هذا الموقف منعزلاً ، ويبدو أنه كان أوسع انتشاراً مما قيل عنه.

علاوة على ذلك، في الشرق والعصر ذاته فَنّدَ أوريجينس [في الإسكندرية] (١٨٥ - ٢٥٤م) وبالتفصيل كل نقطة في كتاب فلسفي وثني، للفيلسوف سيلسيوس (Celse) [القرن الثاني]الذي كان يحث المسيحيين على المشاركة الفاعلة وبالسلاح في الدفاع عن الإمبراطورية، بروح من المواطنة والإخلاص للإمبراطور.ورفض أوريجينس رفضاً قاطعاً ذاك النداء الوارد من "هؤلاء الذين يطلبون منا أن نقاتل كجنود لأجل المصلحة العامة وان نقتل أفراداً من البشر

وأقام الحجة على سيلسيوس، بدءاً من وضع كهنة الأوثان المعفيين من الخدمة المسلحة، لكونهم يبتهلون لأجل الإمبراطور وخلاص الإمبراطورية ونجاتها. والحال هذه، كما قال أيضاً ، المسيحيون يشبهون أولئك الكهنة، ولكن، مع شئ من الفارق، وهو أنهم يكرسون ابتهالاتهم إلى الله الحقيقي لا إلى الأوثان والأصنام. فالمسيحيون بالتالي أوفر فاعلية وجدوى للإمبراطورية. ويُظهرون إخلاصهم الوطني بصلاتهم إلى الله لينجدَ الإمبراطورية ويذودَ عنها.فهم، بوسيلة ابتهالاتهم وبمعزل عن حمل السلاح، أغزر جدوى بكثير للإمبراطورية، فيما يرفضون الخدمة كجنود، مما هم بصحبة هؤلاء الذين يقاتلون "كما يجب القتال"

---

* مذهب الكاهن المرتد إلى المسيحية مونتانوس وقد ادعى أنه صوت الروح القدس ، وان ختام الأزمنة قد بات وشيكاً (المترجم)

وبصيغة أخرى، في رأي أوريجينس، إن القتال الذي يقوم به جنود الإمبراطورية قتال عادل. لكن، لا يترتب على المسيحيين التطوع فيه: لأنهم أوفر فائدة للجماعة ببقائهم على إخلاص لمبادئهم، مبتهلين إلى الله الحقيقي لأجل خلاص الإمبراطورية.وفيما هم يفعلون ذلك، ينتصرون على الشياطين، فهؤلاء هم، في نهاية الأمر، المسؤولون الحقيقيون عن الحروب التي أثاروها هم أنفسهم على هذه الأرض، فقد بذروا فيها الحقد والإثم ما بين البشر (ر. النص رقم ١ في آخر الكتاب).

فيما بعد بقليل، شرع هيبوليتس (Hippolyte) [١٧٠ - ٢٣٠] من روما يحرر التعاليم الخاصة بالموقف الذي ينبغي على الكنيسة اتخاذه حيال المهن التي يرى أنها خطيرة على نفس الإنسان، أو غير المتوافقة مع إيمان المسيحيين: فعلى سبيل المثال، على النحاتين أن يرفضوا صنع الأصنام. وسوف يطرد من الكنيسة المصارعون أو من يدربونهم، وكذلك كل من يتعاطى البغاء من الرجال أو النساء. ثم يتناول النص مهنة العسكريين. فالقرار قاطع: ليس ثمة أي توافق بين الدين المسيحي والخدمة في الحروب. وينبغي على كل مسيحي أن يرفض القتل، ولئن بات جندياً فيتوجب عليه بالتالي ألا يتطوع في الجيش.

وحسب رأينا، إن الدواعي المؤدية إلى مثل غياب التساهل هذا، هي دواع من صنف أخلاقي بيّن. فليس الأمر فقط في شأن الابتعاد عن عبادة الأوثان المرتبطة بعبادة الإمبراطور الناشئة، كما يدعم هذا بعض المؤرخين، بل الأمر يعني تماماً تحاشي قتل الإنسان: فالجندي الذي يغدو مسيحياً عقب تجنيده سيترتب عليه إذن الالتزام بألا يقتل، ولو عصى أوامر رؤسائه، وذلك مع العواقب التي يتسبب بها ما يفعل. لكن من بات (أومن يبغي أن يصير) مسيحياً لابد له أن يعزف عن دخوله المهنة العسكرية. فليست هذه المهنة مهنته (ر. النص رقم ٢ في آخر الكتاب).

حينما غدا تهديد "البرابرة" بيناً ، وغدت هيبة الجندي الروماني وأجور الجيش الروماني على تقهقر، مما أدى إلى تقليص التجنيد، راح الأباطرة الوثنيون يسعون إلى تلافي كره مهنة الجيش فجعلوا هذه المهنة وراثية، والتجنيد إلزامياً ، بالنسبة إلى بعض المواطنين، وعلى الخصوص في الأرياف. وانطلاقاً من عام ٣٠٣، في عهد ديوقليسيانس (Dioclétien) صارت عمليات التجنيد نادرة أيضاً ، وهذا ما أفضى

بالدولة إلى التطويع، إن صح التعبير، عنوة، تطويع أناس كان من بينهم بالطبع بعض المسيحيين. حينئذ، خضع البعضْ منهم لمقتضيات الإمبراطورية، ولكن عديدين هم الذين، على نقيض هذا، رفضوا باسم إيمانهم كل شكل للخدمة المسلحة مخاطرين بحياتهم.وفي ذاك العصر، أحصي الكثير من الشهداء وسوف يُكرمون فيما بعد بصفتهم قديسين في الكنيسة.

وهذا هو وضع ماكسيميليانس (Maximilien) [٢٨٦ - ٣٠٥]، مثلاً، فقد أعلن عام ٢٩٥ في مدينة قرطاجة، إبان تجنيده: أنا مسيحي، ليس من المسوّغ لي أن اخدم بوسيلة السلاح: "militare" ثم، ومجدداً فيما بعد بقليل، إذ أرادوا وضعه عنوة تحت مقياس الطول la toise كرر قوله: " لا أستطيع أن اخدم بالسلاح، ليس بوسعي أن افعل الشر: أنا مسيحي فكلفه رفضه هذا حياته، وأعدم شهيداً

بعد ذلك ببضع سنوات، بمدينة طنجة، أعلن قائد المئة مارسيليس أنه مسيحي، ورفض أداء القسم للإمبراطور وخدمة الأصنام. فأكد قائلاً "لا يحسن بمسيحي جندي للمسيح (miles Christi) أن يؤدي خدمة في جيوش هذا العالم" وبعد قليل، نفذ فيه الحكم بالإعدام. وتكاثرت أمثلة من هذا النوع، وهي تبرهن على أن السلمانية [أي المنحى السلمي] الأصلي لم يزل كثيفاً في الكنيسة طوال ذاك التاريخ.

إلى جانب هذا، تفاقمت الاضطهادات على المسيحيين في ختام القرن الثالث ومطلع القرن الرابع. فقد كانت الديانة المسيحية غير قانونية، ومنذئذٍ اشتدت ملاحقاتهم، وحكم عليهم بصفتهم مسيحيين. وغالباً ما كُشفت هويتهم بوسيلة رائز القسم "لحب الوطن" ولولائهم للإمبراطور، واقترن ذلك بحركة عبادة خاصة "بالتضحية": أي بضع حبات من البخور توضع على مذابح الأصنام أو الإمبراطور.

عندئذٍ اندلع صراع ما بين الدولة الرومانية الوثنية والكنيسة، ونعني بهذا، في ذاك الزمان، جماعة المسيحيين، جملة المؤمنين. لكن، رغم عمليات الاضطهاد والإعدام، انتشر الدين المسيحي حتى صار، في بعض الأحيان، ينعم بالأغلبية ما بين السكان، ولاسيما في الشرق. وسوف تسْتتبعِ هذه الظاهرة انقلاباً كاملاً في موقف الإمبراطورية حيال هذه الديانة الجديدة في عهد قسطنطين، في مستهل القرن الرابع. ومن ثمّ، سوف يتعدل بعمقٍ موقف المسيحيين حيال الحرب. وحتى ذاك الحين، لبث موقفهم معارضاً

بصورة قاطعة لاستخدام العنف والأسلحة - وبالتالي معارضاً للخدمة العسكرية، إخلاصاً لأحكام الأناجيل، ولأنهم ظلوا يضعون أملهم الوحيد في مجيء ملكوت الله الذي يقام بإرادة القادر على كل شيء وحدها - فالمسيحيون الذين يعيشون في إمبراطورية رومانية مواتية لدينهم، طفقوا يشعرون بأنهم ملزمون بنصرتها وبالذود عنها. وإن التأكيد الجديد للموضوع على الكنيسة الدنيوية غيّر آفاق الوضع. فنظرة المؤمنين تطمح دوما إلى السماوات، لكنها تنزع أيضاً إلى التركيز على شؤون هذا العالم. ومن ثم، في بعض الظروف، سيطر التبرير على استخدام العنف والأسلحة، المحظور حتى ذاك الحين.

الفصل الثاني

الحرب القابلة للتبرير

الحرب والدين المسيحي في الإمبراطورية المسيحية

لبثت الديانة المسيحية "ديناً غير قانوني"، حتى مطلع القرن الرابع. فلم يكن لها وضع شرعي.ونعم الحّكام بمتسع من التحرك لقبول المسيحيين، وهم يغضون الطرف عن انتمائهم لهذه الديانة الجديدة، أو على نقيض ذلك، لملاحقتهم بمجرد هذا السبب وحده. وهذا ما كان يحدث في فترة الأزمات، كما رأينا هذا لتونا.

لكن، رغم هذا النبذ عن المجتمع، وهذا الوضع المتزعزع، تبدى المسيحيون، في مجملهم، مواطنين مخلصين للدولة وللإمبراطور. ولم يكف الآباء المدافعون عن الدين المسيحي عن إعلانهم إخلاص المسيحيين لوطنهم. فبينوا أنه ليس للإمبراطور مواطنون أمناء أكثر منهم وأوفر إخلاصاً منهم، رغم رفضهم الخدمة العسكرية، وعبادة الأصنام، والأعراف اللاأخلاقية، وممارسة بعض المهن. ورغماً عن الاضطهادات، تكاثر عدد المسيحيين تكاثراً بالغاً في جميع الأوساط، بما في ذلك وسط الجنود، الأمر الذي استتبع، كما رأينا، العديد من مناسبات الصراع، ولاسيما في نهاية القرن الثالث وبداية الرابع، حينما كانت السلطات الرومانية في حاجة متزايدة إلى المحاربين لحماية الإمبراطورية ، فترتب عليها اللجوء إلى عمليات تطويع إجباري، وقام العديد من المسيحيين بدور "المستنكفين ضميرياً " ،فرفضوا هدر دم الإنسان، وتقديم الذبائح "للأصنام" ولم تضع عمليات الاضطهاد حداً لانتشار الدين المسيحي. بل كما يبدو، علاوة على هذا بكثير، وكما أشار إلى ذلك احد المدافعين عن هذا الدين، قد تحول دم المسيحيين بذاراً للمسيحيين!

إن انطلاقة المذهب المسيحي هذه اتخذت المزيد من الحجم أيضاً مع "ارتداد

قسطنطين" وسوف يعدّل هذا الارتداد جذرياً الإشكالية الخاصة بالحرب، مستهلاً عصر الإمبراطورية المسيحية، ومحوّلاً منحى عقيدة الكنيسة، نحو قبول أول لبعض الحروب. ولا يزال الأمر بعيداً عن الحرب المقدسة: فالأمر في هذا الحين لا يعني سوى الانتقال، على نحو أساسي من رفض الحرب إلى قبولها في حالات يحسن تحديدها.

قسطنطين والإمبراطورية المسيحية

في ختام القرن الثالث، ولربما أيضاً قبل هذا التاريخ، لم تزل فكرة وحدة الإمبراطورية الرومانية في الأذهان، رغماً عن الانفصال الذي استقر، بمقدار متصاعد، ما بين المناطق الشرقية والغربية من الإمبراطورية. وإن الأباطرة الذين تقاسموا السلطان في هذه المناطق شهدوا على هذا الانقطاع رغماً عنهم أما الإمبراطور قسطنطين فقد حاول إعادة الوحدة في العديد من الميادين، بما في ذلك مضمار الدين.

عند وفاة والده قونسطنتيوس كلوروس (٣٠٦) الذي كان يحكم بلاد الغال وبريتانيا ، جابه قسطنطين أولاً ، خصمه ماكسانس، في الغرب. وهذا الأخير، ابن ماكسيميان (المسيطر على ايطاليا وأفريقيا وأسبانيا) قد قاطع سياسة والده في الاضطهاد العنيف حيال المسيحيين. وبذلك، أعاد إلى الكنيسة، عام ٣١٠، ممتلكاتها المصادرة. أما قسطنطين، في بلاد الغال فسبق له أن اضطهد المسيحيين بمقدار معتدل نوعاً ما مكتفياً بهدم أماكن عبادتهم.

جابه جيشه جيش ماكسانس قرب روما (معركة جسر ميلفيوس عام ٣١٢) وهزمه. فيما بعد، روى الإمبراطور أنه تلقى عشية المعركة، رؤيا تأمره بالعمل على أن يرسم على تروس جنوده رمز مسيحي (لعلهما الحرفان اليونانيان P, X أي الحرفان الأولان من اسم المسيح "خريستوس") [الحرفان: خ، ر، يشيران إلى المسيح الملك باللغة اللاتينية: Rex Christus] وأخبرته الرؤيا بانتصارٍ يتوخاه الله: "بهذه العلامة سوف تتغلب"

غدت سريعاً هذه الحادثة أسطورية، إن لم تكن كذا منذ البداية. ومع ذلك، فهي تشير إلى تحول عميق في الذهنيات، فتستحق تمام انتباهنا.

الواقع الحقيقي "لارتداد قسطنطين" واقع مشكوك فيه: فإن الإمبراطور ،إلى جانب موقفه ،لم يطلب أن يُعّمد إلا عام ٣٣٧ حيث بات على فراش الموت إلا أن تصرفه

المواتي للمسيحيين، بالمقابل، لا يثير أي شك. وباكراً جداً ، حف نفسه بمستشارين مسيحيين، وحَمَى الكنيسة.

لم يكن بذلك الأول ولا الوحيد. فمنذ ٣٠ نيسان / ابريل لعام ٣١١ ،في الشرق، أخذ علما الإمبراطور غاليريوس بإخفاق سياسة الاضطهاد التي قام بها ، فوضع لها نهاية" بمنشور تسامح أعده "حصولاً على دعم جميع الآلهة" وخلفه ليسينيوس، وقد صار متغلباً على خصمه مكسيمينوس دايا ، اتفق مع قسطنطين على اعلانهما في ١٣ حزيران / يونيو عام ٣١٣ ، منشوراً سُمّي خلافاً للأصول "منشور ميلانو .وطُبق هذا المنشور في جميع أرجاء الإمبراطورية واعترف للمسيحيين، كما لجميع البشر الآخرين، بحرية اتباعهم لديانة يختارونها. وكان بالتالي "منشور تسامح" حقيقي. فأصبحت الديانة المسيحية إذن وللمرة الأولى، احد الأديان القانونية المعترف بها في الإمبراطورية. وجميع ما صودر للمسيحيين من ممتلكات سوف تُعاد حكماً لهم، وسوف تُرمم حكماً أبنية عبادتهم.

غير أن قسطنطين سيمضي إلى ما هو أبعد من مجرد إقرار شرعي [الشرعنة: lé-gitimation] فراح يواتي علناً المسيحيين، ولاسيما كنيسة روما. فوهب مطران روما ، ميلتياديس، قصره في "اللاتران" حين أسس مدينة القسطنطينية [إنشاؤها: ٣٢٤-٣٣٦] وكانت في الواقع العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية. وراح يتدخل في المشاجرات الكنسية الداخلية بل العقائدية. وتحزّب بذلك على "الدوناتيين" (المسيحيين المتشردين الكثيرين في إفريقيا الشمالية [واتباع أسقف قرطاجة :دونا]) وأصدر أمراً بقانون جعل يوم الأحد (ودعي في النص "يوم الشمس Dies Solis [والشمس رمز للمسيح: شمس العدل]) يوم عطلة، يوم بطالة إجبارية، فهمّش بذلك اليهود / المسيحيين وقد ظلوا متشبثين بيوم السبت كيوم راحة. ودعا إلى أن يعقد، في مدينة نيقيا ، المجمع الأول "المسكوني" الذي حرم آريوس [كاهن من الإسكندرية ٢٥٦ - ٣٣٦] ومناصريه (الذين انكروا ألوهية المسيح التامة) وفي هذه الأوضاع كلها ، اخذ الإمبراطور على عاتقه، بحزم وصلابة، أن يعمل على وضع هذه القرارات موضع التطبيق: ومن ثمّ، أصدر الأمر بنفي جميع المطارنة الذين ناصروا آريوس. فالسياسة والدين، وقد بقيا حتى ذاك الحين منفصلين، بسبب ممارستهما في مضامير مختلفة، سوف يتداخلان منذئذٍ ، واقله في شخص الإمبراطور والحكام المسيحيين.

لم يتردد قسطنطين في تنصيب ذاته بمثابة "أسقف للشؤون الخارجية، عيّنه الله" ومسؤولاً عن الكنيسة.فمنذ ذاك الحين، اختلط الدين بالسياسة اختلاطاً وثيقاً بمقدار اشد، مع المخاطرة بأن هذه الوحدة مابين العرش الإمبراطوري والمذبح المسيحي سوف تستتبع بعض الزيغان العقائدي والأخلاقي، وقد تثيرهما مصلحة الدولة العليا ، أو المنفعة أو الطمع.

منذ ذاك الحين، وتتبّعاً لما فعل قسطنطين، اعتبر الأباطرة المسيحيون أنفسهم، هم أيضاً ، كمنصّبين للمهمة ذاتها: ألا وهي تشجيع ثم فرض الدين المسيحي في الإمبراطورية، ومحاربة بل اضطهاد الوثنيين والمسيحيين المنشقين أو المنفصلين أو الهرطوقيين ،أي جميع من لا يتبنون قرارات التراتب الكنسي في "الكنيسة الرومانية الكبرى" التي يدعمها الإمبراطور تحددت منذئذٍ صحة المعتقد [أي الاورثوذكسية Orthodoxie].

بعد قليل، تبدت عواقب هذا الوضع: ففي عام ٣٩٢ ، حظر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول كل عبادة وثنية في الإمبراطورية. فلم يعد الدين المسيحي الروماني ديانة اعترفت بها الدولة وحسب، بل أصبح دين الدولة. وفقد الوثنيون شيئاً فشيئاً حقوقهم كمواطنين، وقام الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، سنة ٤١٥ ، بنبذهم نهائياً عن الإدارة والجيش. وحرمهم ليون الأول، عام ٤٦٣ ، من حقهم في المحاماة أمام القضاء. وفي سنة ٥٢٩ ،أزال يوستنيانوس أخيراً حرية عقيدتهم: فترتب على الوثنيين أن يتلقوا العماد، تحت طائلة النفي ومصادرة ممتلكاتهم.

إن هذه الإجراءات المتكررة، بمجرد وجودها بذاته، تبرهن أن المذهب الوثني لم يختف تماماً في القرن السادس، وحتى في المشرق، وهو في حين أبكر وبمقدار اشد كثافة، قد بات مُنصَّراً فالوثنية لا تزال أيضاً ماثلة في الغرب، ولاسيما في الأرياف. والمفردات تشهد على ذلك: فإن لفظة "باغانوس" Paganus ومنها تحدرت لفظة بايان [وثني Paien] كانت تدل، منذ البداية، على أهالي الريف "الفلاحين" وسعت رسالات عديدة للكرازة بالإنجيل إلى نشر الايمان بطريقة متزايدة في الإقناع: ففي بلاد الغال [غاليا Gaule] اشتهر في هذه المهمة القديس مارتان [٣١٥ - ٣٩٧] من مدينة تور. بيد أن القديس مارتان، لابد من ذكر هذا منذ الآن، هو جندي قديم قد عزف عن المهنة العسكرية ليكرس نفسه للتبشير بالإيمان المسيحي.

رغماً عن مضايقات الإمبراطورية واضطهاداتها ، فإن الكنائس الأقلية، المعتبرة "هرطوقية"، لم تختف هي أيضاً . ونرى هذا الأمر في صدد "المونتانيين" أو "الآريين"، الذين ظلوا مستمرين في عهد يوستنيانوس. وعلاوة على ذلك: انتشر المذهب الارياني في عالم "البرابرة" عن طريق مبشرين ردوا العديد من الشعوب الجرمانية إلى هذه الهرطقة في المذهب المسيحي. سنعود إلى هذا الشأن، فيما بعد، بمناسبة الاجتياحات التي سوف تتيح منعطفاً عقائدياً جديداً في منحى الحرب المُقْدسنة .(Sacralisée)

نرى ذلك أيضاً في صدد الخصامات اللاهوتية المعقدة جداً ، والتي مزقت الكنائس المسيحية في القرن الخامس. ولم يُفْضِ تدخل الإمبراطور هو أيضاً في هذه النزاعات العقائدية، إلى الوحدة المنشودة: فقد بقي، مقابل "الكنيسة الكبرى" التي يدعمها الإمبراطور ، جم من كنائس مسيحية عديدة تعتبر في أيامنا هذه "اللاصراطية" (Hé-térodoxes، نتيجة لواقعة انتصار النزعة الرومانية المتفوقة، لكنها جميعاً ، في رأيها، تعتبر أنها كنائس تمثل عقيدة المسيح النقية. وعلى سبيل المثال، هذا هو وضع الكنائس الموالية للطبيعة الواحدة في المسيح [اتحاد الطبيعة الإلهية والبشرية في المسيح يسوع] وهي عديدة جداً في المشرق، ولاسيما في مصر وسوريا، فهي ترفض العقيدة - التي تم قبولها إبان المجمع الخلقيدوني عام ٤٥١ - القائلة بطبيعة المسيح المزدوجة البشرية والإلهية وقام يوستنيانوس، في القرن السادس، بقمعها قمعاً صارماً وان الوصاية الإمبراطورية البيزنطية على هذه المناطق، وقد لبثت وصاية باهظة ومزعجة، وفي غالب الأحيان طاغية وتمييزية، قد أسهمت في تشكل مذاهب إقليمية أو عرقية وفي العزوف عن الإمبراطورية اليونانية. وهذه الخصائص الدينية والعرقية، فيما كانت تعزز المنحى اللاوطني، يسّرت الفتوحات الفارسية والإسلامية خلال القرن التالي.

الكنيسة والحرب في الإمبراطورية المسيحية

إن التحول المباغت، الذي جعل من الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية مسيحية، قد غير جذرياً ، المعطيات الخاصة بموضوعنا، ألا وهو موقف المسيحيين من الحرب: إذ أنه حتى ذاك الحين، لبث المسيحيون محتقرين وملاحقين ومضطهدين، في غالبية أقطار الإمبراطورية، خلال نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع، وإذا بالخلاص يأتيهم بغتةً،

فنالوا منه خلاصاً عجائبياً وخلال بضعة أعوام توقفت المضايقات، وتم الاعتراف بدينهم، ثم شجع الإمبراطور هذا الدين. وعلى نحوٍ جدّ طبيعي ظهر لهم (وقد فعل كل شيء لهذا الهدف) رجلاً أوفدته العنايةُ الإلهية، بالمعنى القويّ لهذه اللفظة، وبعث الله به اليهم. فاستقبله المسيحيون بصفته هذه وبأكثريتهم الساحقة، وقبلوا طوعاً الوصاية التي مارسها بعد قليل على الكنائس.

لاسيما وان البعض منهم، أي المتشبثين بالنبوءات في الكتب المقدسة، رأوا أن زوال السلطة الرومانية المضطهدة من المحتمل أن يظهر بمثابة تحقيق لبعض هذه النبوءات وبمثابة علامة لمجيء ملكوت الله العتيد. وفي هذا المنظور، بدا لهم ارتداد الإمبراطور كمثل استهلال لارتداد أوسع رقعة أيضاً ، أي ارتداد الإمبراطورية جمعاء، ثم ارتداد العالم بأسره. وعندئذٍ ، ستفد النهاية. أمَا سبق وتنبّأ يسوع أن الإنجيل (البشرى الحسنة للإمبراطورية) سوف يكرز به للأمم قاطبة، قبل أن يأتي فجأةً "زمان النهاية"؟.

وتم أيضاً تفسير هذا التحول في الإمبراطورية على يد مسيحيين آخرين، استنادا إلى أسس تنبُّئيَّةٍ مجاورة، بأن هذا التحول مؤذنٌ بالمجيء المقبل، الفائق للطبيعة، مجيء ملكوت الله. والرسول بولس، معتمداً النبيّ دانيال، أما أخبر، حقاً ، أن "زمان النهاية" هذا سوف يتميز بظهور المسيح الدجال [Anti-christ] وان المسيح سوف يبيده إبان عودته الظافرة؟ لكن الرسول كان قد اقترح بوضوح أن "المسيح الدجال" هذا لن يظهر طالما ستبقى الإمبراطورية الرومانية. وكان يبدو بالتالي أن زوال هذه الإمبراطورية، بشكلها الوثني، سوف يحقق النبوءة هذه، ويؤذن بعودة المسيح المجيدة الوشيكة و بإحلال ملكوته.

لابد ألا يهمل هذا البعد الرؤْيوي (النشوري Apocalyptique) بالمعنى الحقيقي لهذا المصطلح، أي "كشف النقاب عن حوادث مستقبلية تعلن بطريقة مستغلقة" لا بمعنى "بطريقة نزعة كارثية" وهو معنى يعطى لهذه اللفظة في أيامنا هذه). ونعلم حالياً أن مثل هذا الانتظار الأخروي [ويوم الحشر Eschatologique] ، المتسم بمسحةٍ رؤيوية، قد تواجد دوماً في الكنائس المسيحية، جاعلاً فترات من الترقب الورع تتناوب متعاقبةً،

المنافق أو المسيح الدجال هو فرد أو جماعة سيظهر أحدهما قبل مجيء المسيح الثاني ، بصفته خصماً ليسوع المسيح فيتسبب بالارتداد عن الدين المسيحي (المترجم . اقتباساً من معجم الإيمان المسيحي للأب صبحي حموي اليسوعي) . كل ما يرد بين [...] توضيح من المترجم

حينما تبدو حوادث تتسم بطابع قوي مُعززةً لها ، وفترات من الخيبة والخمول، متى يعود مسار الزمان أوفر هدوءاً فيستعيد التاريخ، إن صح القول، إيقاع مجراه الوادع العادي. سوف نجد مراراً هذا التوقع النشوري طوال قرون العصور الوسطى، رغم محاولات للتعتيم عليها في غالب الأحيان.

علاوة على ما سبق، وهذه النقطة هامة، طفقت حظوة الأباطرة المتنامية لدى الديانة المسيحية تتسبب "بارتدادات" كثيفة ليس لجميعها ، بالطبع، ورع وإخلاص ارتدادات الأزمنة العسيرة. ففي مطلع القرن الرابع، كان لابد للمرء أن ينعم بإيمان ثابت متين ليكون مسيحياً ، مجازفاً بخسارة ممتلكاته أو مهنته أو بلده أو حياته. وخلال بضع سنوات، انكفأ الوضع إلى النقيض، فغدت عندئذ مصلحة للمرء في أن يصير عضواً في تلك "الملة" المحتقرة سابقاً والظافرة في أيامه. وأمام هذا التدفق من المشايعين الجدد ، راح المؤمنون الأشد تجذراً ، مع اغتباطهم بالوضع الجديد، يأسفون أحياناً على وهن العقيدة هذا ، ولإضفاء سمة حب العالم الدنيوي على الكنيسة Mondaniser التي طفقت تزوغ بالضرورة من جراء كل ما يحدث.

إلى جانب هذا ، لم يستفد نصراء التيارات الأقلية، بل على العكس، من حظوات الدولة، وحتى أحياناً ما ، عانوا من الاضطهاد كمثل الوثنيين الذين احتقروهم في الماضي، ولم يُصبهم من ذلك سوى المزيد من المرارة. يا للأسف، نحن نجهل الكثير عن موقفهم العقائدي، فقد بلغنا منه فقط صدى مشوه عن طريق كتابات "اورثوذكسية" [مستقيمة العقيدة] كانت تحاربهم ولربما تشوههم لكي تندد بهم بشكل أفضل. فثمة إذن خارج الكنيسة "الكاثوليكية" [الجامعة، الشمولية] المعروفة جيداً نسبياً مسيحيون نكاد نجهل تماماً تصرفهم، بصورة عامة، حيال الدولة ولاسيما الحرب. ومن المحتمل جداً انه لابد لهذا التصرف أن يكون على مستوى بالغ من التشدد ، يفوق ما فعل مسيحيو الكنيسة الرسمية.

فكيف توجب على هؤلاء المؤمنين "العاديين" أن يتصرفوا ، حيال هذه الإمبراطورية، وقد باتت مسيحية، وبخاصة في شأن المهنة العسكرية؟ وقد غدت الظروف في ذاك الزمان متغيرة بمقدار جذري. فصار المسيحيون يخدمون دولةً تحميهم وهي من تدبير العناية الإلهية.ولم يعد قسم الإخلاص للإمبراطور يشكل صعوبة عقائدية للمؤمنين،

وأقله، بالنسبة لغالبيتهم: فلم يعد ممكنا أن يماثل بعبادة الأصنام، بمقدار ما كانت الإمبراطورية المسيحية تحارب بدورها الأصنام ومافتئ بعض "الأصوليين" يتذمرون حيال القسم. وكانت الوظائف الرسمية التي تقتضي القسم، تصير بالتالي على متناول العدد الأكبر، تماماً ، كمثل المهنة العامة، بما فيها المهنة العسكرية.

بخصوص هذه المهنة العسكرية، بقيت مع ذلك وصية الله القديمة، والتي شدد عليها يسوع، فهي تحظر قتل الإنسان: وكان الجنود معرضين للقتل، بصورة جد طبيعية. ومن ثم، وبمقدار كبير، سبق أن استبعد المسيحيون أولاً المهن التي تؤدي إلى اهراق الدم البشري:مهنة المصارعين، والجنود، والقضاة المكلفين بسلطة السيف، وهلم جراً.... لم تكن هذه المخاطر قد زالت بعد، ومن الممكن الظن أن العديد من المؤمنين ظلوا يعتبرون أن مهنة الجندي لم تكن مطلقاً متوافقة مع الإيمان المسيحي، وعلى الأقل إبان الحروب، حيث تبقى إمكانية القتل حقيقية.

من المؤسف أننا نجهل مدى هذه النزعة المناهضة التي يشهد عليها مجمع "أرل" المنعقد عام ٣١٤ ،في غداة تحول الإمبراطورية. فالشرع الكنسي في البند (٣) يقضي، في الواقع بما يلي:"بالنسبة إلى هؤلاء الذين ينزعون أسلحتهم في أوقات السلم، تمّ القرار بأن يُبعَدوا عن جماعة المؤمنين"

من الثابت أن الأمر يعني هنا حرم من يرفضون الخدمة العسكرية أو أقله استخدام الأسلحة. بيد أن المؤرخين يختلفون في شأن تفسيرهم التعبير "في أوقات السلم" ففي رأي البعض منهم، يشير هذا التعبير إلى أن اعتراض الضمير [أي رفض المحاربة] ، خلال الحروب، ظل مقبولاً فيؤذن حينئذ للمسيحيين برفضهم استخدام الأسلحة، لكي لا يترتب عليهم هدر الدم البشري، هذا الهدر الذي تحظره قطعياً النصوص القديمة المذكورة آنفاً بالمقابل، سيتعرضون للحرم من قبل الكنيسة إن رفضوا عندئذ الخدمة العسكرية في مجملها، وحتى في أوقات السلم، متى ينعدم خطر قتل الإنسان. وفي رأي المؤرخين الآخرين، الأمر يعني إدانة شاملة لكل موقف يرفض الخدمة العسكرية، وحتى إبان السلم (على نحو ٍضمني: وبالا حرى في زمن الحرب). وليس من الممكن أن يحسم الأمر باليقين، ما بين هذين التفسيرين، وكل منهم، على السواء، يتيسر الدفاع عنه.

علاوة على هذا، مهما كان تفسير هذا الأمر. فنحن نجده خاضعاً لجدل كثير، فإن مجمع "أرل" يشهد، من جهة، على استمرار تيارٍ سلموي داخل الدين المسيحي، ومن جهة أخرى، على موقف الكنيسة الجديد، وقد بات حينئذٍ معادياً لهذا الموقف البدئي الموالي للسلم [السلموي].

في مجمع "نيقيا"، عام ٣٢٥، تعززت هذه النزعة. فإن شرع الكنيسة في البند (١٢) يبين أن مثل هذه التخاذلات لدى الجنود قد لبثت كثيرة جداً في الأزمنة الأولى، لكن هذا التحرك قد انعكس: وفي الواقع، يقضي هذا البند بعشر سنوات من عقاب التوبة على جميع من حسبوا من المستحسن أن يهجروا صفوف الجيش، وراحوا آنذاك يطلبون تطويعهم في الجيش مجدداً

لا جرم أن الإمبراطورية المسيحية لا تستطيع تشجيع مثل هذا الرفض للخدمة المسلحة. فهي في حاجة إلى جنود إزاء التهديدات الخارجية الواردة من "البرابرة" الجرمانيين والفرس. وقد غدا المسيحيون كثيرين بمقدار مفرط، في الإمبراطورية، فلا يمكن الاستغناء عنهم. أضف إلى هذا أن اضطهادات الإمبراطورية للوثنيين، كما رأينا سابقاً ، قد أفضت بالإمبراطور ثيودوزيوس الثاني إلى أن يحظر عليهم الانخراط في الجيش. فالقوات الرومانية قد أصبحت بالتالي تتشكل من أكثرية مسيحية كان منبتها على العموم، المناطق الطرفية، ومن شعوب بربرية قد صارت رومانية ومسيحية تباينت نزعاتها.

بيد أن العديد من المسيحيين، لاسيما في الكنائس "المنشقة" ورغم هذا التشجيع الوارد من الدولة والكنيسة الإمبراطورية، ظلوا على تحفظهم حيال المهنة العسكرية. وقد بقي منهم أيضاً في "الكنيسة الكبرى" فالقديس اغوسطينوس [الجزائر ٣٥٤ - ٤٣٠] وأدباء مسيحيون آخرون اقل شهرة ،ترتب عليهم أن يكتبوا لإقناعهم بأن الله لم ينبذ هذه المهنة.

إن التهافت الكثيف للانتماءات، المخلصة بدرجات متفاوتة، إلى الديانة المسيحية قد استتبع هو أيضاً نتيجتين لهما بالغ الأهمية: التطور المتزامن للنزعة الاكليروسية [نزعة مواتية لتدخل الاكليروس في الزمنيات: Cléricalisme] وتيار الرهبانية: (Monachisme)

من المتيسر شرح تطور النزعة الإكليروسية: بقصد تأطير وتوجيه المؤمنين وتثقيفهم

ولاسيما منحهم الأسرار (لأن نزعة الأسرارية Sacramentalisme قد تطورت على نحو موازٍ) تحتاج الكنائس المسيحية إلى ملاك اختصاصي، أي الاكليروس، يقوده الأساقفة في دوائر اكليروسية اختصاصية، على غرار دوائر الإمبراطورية، وهي الأبرشيات [دوائر الأساقفة]. وهذه البنى متينة: وسوف تقاوم اجتياحات البرابرة، وهذا برهان على حسن توطنها وفاعليتها. وعلاوة على هذا الوضع نهض الأساقفة، بسرعة شديدة، بوظائف إدارية أيضاً ، ممثلين السلطة. وراحت وظيفتهم، بصفتهم أصحاب الرتب الرفيعة، تقلدهم دوراً سياسياً هاماً ، فاكتسب الاكليروس شهرة وهيبة متناميتين.

وطفقت الكنيسة - وعلينا ألا ننسى أنها: الجمعية، الجماعة، مجمل المسيحيين الذين يتقاسمون الإيمان ذاته - تتخذ بنية لا متجانسة، فمن جهة: الاكليروس، ومن الأخرى، المؤمنون فحسب. وأطلق عليهم بعد قليل اسم "العلمانيين" فهؤلاء والآخرون ليست لهم الوظائف ذاتها، ولا طرق العيش ذاتها. فالكنيسة تنزع إلى أن تحيل إلى رجال الدين المتطلبات الأخلاقية والواجبات التي لبثت فيما مضى تقع على عاتق جميع المؤمنين.

تشهد المفردات على هذا الانزلاق: ففي القرون الثلاثة الأولى، كان التعبير "جنود المسيح" (Milites Christi) يشير إلى المسيحيين جميعاً ، ولاسيما منهم الشهداء ،من يرفضون خدمة العالم والإمبراطور ، بقصد طاعتهم لله. ومنذئذٍ ، أفضى التعبير "جنود المسيح" إلى انه يعني فقط الاكليروس والرهبان، من يخدمون الله بنذورهم، ويمكن القول: "بمهنتهم"، مُعارَضةً للمؤمنين العلمانيين، فهؤلاء "يخدمون العالم" أو"الأمور الدنيوية" وثمة انزلاق للمعنى أوفر دلالة أيضاً سوف يظهر في القرن الحادي عشر، حينما يفضي التعبير نفسه إلى انه يعني المحاربين، الصليبيين، في نهاية التطور الذي يصفه هذا الكتاب. وفي العصر الذي نحن في صدده، خلال الفصل الحالي (أي القرن الخامس) ، ظلت هذه الألفاظ تشير إلى خدمة سِلمية وحسب، إلى كفاح خلقي.

لكن التمييز هذا قد باتت له عواقب هامة، على هذا الصعيد الذي يهمنا شأنه، صعيد علاقات المسيحيين بالحرب. و بالتالي، بقي الاكليروس وحده يرى أن هدر الدم محظور عليه. وترتب على رجال الدين أن يحتفظوا بنقاوة أيديهم، لكي ينهضوا بمهمات الأسرار المقدسة. وعلى غرار كهنة المذهب الوثني القديم الذي ألمح إليه

اوريجينسس: تمّ إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، ولبثت وظيفتهم، كمثل وظيفة الرهبان أيضاً الابتهال لأجل خلاص الإمبراطورية المسيحية ونصرة جيوشها. أما العلمانيون فيعيشون حياة أدنى قداسة، من جراء طبيعتهم الملطخة بالمآثم. إلا أنهم يستطيعون التنقي منها بالاعتراف المقترن بأسرار التوبة: (Pénitences)

انطلاقاً من القرن السابع، أثبتت طقوس التوبة مدى "أنواع التكفير هذه. وعُوقب فيها بقسوة هدر الدم البشري، وحتى في المعركة إبان حرب قانونية. وبالتالي، فإن قتل إنسان يرتكبه جندي في حرب عامة ،في حلبة المعركة، ظل خطيئة واستتبع توبة طويلة الأمد، قد تستغرق عدة سنوات. لكن هذه العقوبة تم تقليصها شيئًا فشيئاً إلى مدة اقصر بكثير، لكنها استمرت أيضاً ، في القرن العاشر، شاهدة بذلك على الخطيئة المنوطة بواقعة قتل إنسان، ولئن كان عدو الوطن.

إن تطور المؤسسات الرهبانية يتيسر اعتباره ردةَ فعل حيال الولوج الكثيف لنصراء جدد قليلي "الارتداد" وحيال دنيوة الكنيسة [الدنيوة:Mondanisation] التي تنجم عن هذا التطور.وقد ترافقت حظوة الدين المسيحي الجديدة، ثم إحلاله بمثابة الديانة الوحيدة للدولة، بوهن خِلقي وروحي لا مناص منه. فإن رفض العالم، و الهروب إلى عزلة "القفار (المناطق الجدباء، الغابات ، المستنقعات، الخ.....) ظهرا حينئذ للنفوس الأشد تطلباً ، المنشغفة بالكمال [الروحي]، كمثل الوسيلة الفعالة الوحيدة لتأمين نقاوة النفس، وبالتالي لتأمين الخلاص. فغدت الصحراء، نوعاً ما، بديلاً لشهادة الأزمنة القديمة. وإن التعبد للشهداء القدماء - وقد اتخذ أيضاً مدى حقيقياً في العصر نفسه - استجاب هو أيضاً ، لهذه الروحانية التي تحن بعض الشيء إلى الأزمنة البطولية القديمة.

وراح النساك والرهبان ،بتجرد حياتهم ،يكتسبون عندئذٍ في الكنيسة نفوذاً بالغاً. ورغماً عن كونهم علمانيين، فقد عزفوا عن العالم، وعن العنف، فتجرّدوا من السلاح، ونذروا الفقر والعفة. والتحقت هيبة الرهبان بهيبة الاكليروس العلماني، وغالبا ما تفوقت عليها في أذهان الشعب، ثم في الكنيسة الرسمية، حينما انتظمت المؤسسات الرهبانية Monachisme. فمنذئذ في عزلة الصحراء أو الدير، سعى البعض إلى "السلام الذي، بمعزل عنه، لن يرى احد الربّ". فالرهبان، "جنود الله" هؤلاء يعيشون

هناك بالصلاة، مناهضين القوى الخفية. إنها معركة عسيرة ومحفوفة بالمخاطر، لكنها سلمية وحسب. وليس "لمعركتهم المقدسة" الروحية على "قوى الشر أية سمة حربية، واقل من هذا أيضاً ،أية سمة لحرب مقدسة ،بل هي النقيض، هي نفي هذه السمة نفياً تاماً كاملاً

القديس أغسطينوس وفكرة الحرب العادلة

لم يقض "ارتداد" الإمبراطورية إلى الدين المسيحي على المخاطر الخارجية. فمنذ أمد بعيد، بدأ ضغط الشعوب البربرية يتثاقل على الحدود، وخاصة ضغط الجرمانيين، وهم أنفسهم قومٌ قد دفعتهم قبائل من البدو، وفدت من سُهوب آسيا، ألا وهي قبائل "الهون" [أو الهياطلة]. وتسمى الشعوب الجرمانية هذه بشتى الأسماء: الغوط، الفاندال، الفرنجة، الألمان، البورغوند [أو: البرغواطة]، الهيرول، السويف، وهلم جرا....وباتت غالبيتهم تحاول منذ القرن الثاني، أن تستقر داخل الحدود الرومانية، وغالباً ما فعلت ذلك سلمياً بصفتها "شغيلة مهاجرين"، ينجزون من المهام ما يزدريه الرومانيون. وكان الجرمانيون كثيرين عديدين، ولاسيما في الجيش: ففي نهاية الإمبراطورية، غدت غالبية الجنود، وحتى الجنرالات، من هؤلاء البرابرة، وقد صاروا رومانيين، ومسيحيين، بشتى النزعات.

في مطلع القرن الخامس، تفاقم ضغط الهون [Huns الهياطلة] ودفعوا قبائل الجرمانيين إلى حدود الإمبراطورية.ولم يعد الأمر يعني، في هذه المرة، هجرات فردية، بل نزوحاتٍ لشعوبٍ حقيقية، بل اجتياحات. وعلى هذا المنوال، قام فيزيقوط ألاريك، في شهر آب / أغسطس لعام ٤١٠ ،بغزو مدينة روما، وطوال ثلاثة أيام نهبوها، ثم انكفأوا عنها على أعقابهم. وليس لهذا الحدث فحوى عسكرية أو سياسية كبيرة: فمنذ عهد قسطنطين، لم تعد روما المدينة الإمبريالية، بل كانت قسطنطينوبولس [أي القسطنطينية] لكن الحدث هذا خلّف دوياً هائلاً ، وآذن بالاجتياحات المقبلة والكثيفة، في العقود التالية. فصُدمت الأذهان بهذه النكبة، ومنيت بالهلع والذهول. فقد ظلت روما تبدو أزليةً ومنيعة حصينة,فبدا سقوطها ينذر باضطربات، ولربما بنهاية العالم.وإن القديس جرمانوس، المنعزل في بيت لحم منذ العديد من الأعوام، لكي يترجم الكتاب

المقدس إلى اللغة اللاتينية، قد شهد على هذه الصدمة الهائلة: فرأى أن الحضارة تنهار من جراء ضربات البرابرة، وذلك كعاقبة لذنوب المسيحيين ومآثمهم (رَ. النص رقم ٣، في آخر الكتاب).

لكن القديس أوغسطينس [٣٥٤ - ٤٣٠] أشهر آباء الكنيسة، حاول، من جهته، أن يطمئن المؤمنين: فإن نهاية الإمبراطورية، التي تصورها المرء منذئذٍ، محتملة، ستكون بالتأكيد بلبلة عظيمة، ولكن لن تكون نهاية العالم ، ولا نهاية الكنيسة. لابد من الإضافة أن القديس أوغسطينس خصم عنيد للترقب الأخروي التقليدي، فهو يدينه في تآليفه. وانه يشدد على مجيء المسيح الأخير، وأكثر أيضا على مجيء الكنيسة الذي يبدو له انه يحقق التنبؤات. فالإمبراطورية الرومانية ليست، في رأيه، سوى الإطار الذي أتاح ازدهار الكنيسة، لكن، ينبغي ألا يتم الخلط بين الإمبراطورية والكنيسة.وقد استفاض في هذا الموضوع في كتابه الهام:" حاضرة الله

من ثمّ، ينبغي ألا يهمل كل أملٍ في دحر البرابرة: وتوقع اوغسطينوس انهيار الإمبراطورية الرومانية، لكنه لم يستسلم لهذا التوقع. فلا جرم أن الكنيسة غير منوطة بالإمبراطورية، ولن تزول بزواله:غير أن الإمبراطورية تمثل الثقافة والحضارة والنظام والسلام: فمن الواجب الذود عنها. ويدحض اوغسطينس مقولة أن الديانة المسيحية تساعد في هدم الإمبراطورية. وقد كتب إلى المسيحيين الذين تساورهم أحيانا الشكوك في كرامة مهنة السلاح وقانونيتها (licéité)، كما كتب أن الله لا ينبذ الجنود: فمن الممكن أن يرضي المرء الله إذ يرتدي اللباس العسكري.

ومن جانب آخر، ليس الدين المسيحي معادياً للدولة ولا يحظر جميع الحروب؛ وحين استند إلى العهد القديم والى "حروب الأزلي" المدونة فيه، ذكر اوغسطينس بأن الله بذاته يتوسل بها أحيانا. فثمة بالتالي حروب يتيسر تبريرها.

دون أن يسهب في شرحِ وجهة نظره، رسخ القديس اوغسطينس بموقفه أسساً أخلاقية مسيحية جديدة، وتحديدها القانوني: "الحرب العادلة" ، لن تتم صياغته إلا فيما بعد بكثير، في القرنين ١٣ و ١٤ لكن بمقدورنا أن نلخص بإيجاز العناصر التي، في رأي اوغسطينس، تجعل من حرب ما ، في عصره، حرباً عادلة:

١ لابد أن تكون أهدافها نقيةً، ومطابقة للحق: فتردع عدواً عن الأذية، والقتل،

والسلب (تشبيهاً لها بنوعٍ من الدفاع الشرعي)، ولابُدَّ لها أن تعيد حالة من العدل أطاح بها العدو، وتستعيد أراضي أو ممتلكات قد سلبت عنوةً، وتمنع أو تعاقب ما هو شرير من الأفعال (تشبيهاً بفعلٍ قضائي عقابي على من يقترفون الجرائم: وكما قال، القانون يعاقب بحق فاعلي الشر الأشقياء).

٢ يجب شنها بمحبةٍ، بمعزل عن الشعور بالحقد، ودون دوافع لمصالح شخصيةٍ، وبلا تعطش إلى الانتقام أو ميل إلى النهب، مثلاً

٣ ينبغي أن تكون عامةً لا خاصةً، أي أن تعلنها السلطة الشرعية، أي في الحالة هذه: الدولة الرومانية، الإمبراطور.

يلجأ اوغسطينس، من اجل برهنته، إلى الحس السليم: بما أن الجميع يقبلون بأن القضاة وموظفي العدالة، في الإمبراطورية، يستخدمون القوة بطريقة شرعية (بما في ذلك الإعدام) بقصد معاقبة الأشقياء الذين يرتكبون انتهاك قوانين الدولة العادلة، فيغدو طبيعياً أيضاً القبول بأن يكون الجنود الذين ينجزون الوظيفة نفسها، خارج البلاد، هم أيضا بمثابة موظفين للعدالة.

بالتالي ،لابد للحروب التي تشنّ بهذه الطريقة ،أن تعتبر هي أيضاً ، بمثابة حروب مشروعة .فالجميع يقبلون، كما يقول، أنَّ الجلاد الذي يقتل بأمر من القاضي ليس مذنباً بقتل الإنسان. كذلك، فالجندي الذي يحارب ويقتل، بأمر من الإمبراطور، ينبغي ألا يتحمل ذنب ما يفعل. وهؤلاء الذين يأمرون ويقودون شتى أنواع هذه الحروب هم، في نظره، "خادمو العدالة" ،لا مهيجو قلاقل يتوجب استبعادهم.

بيد أن فكرة الحرب العادلة ليست، في رأيه، سوى امتياز يُمنح للدولة التي تتصرف من أجل خير الجميع. فالحرب التي تقوم بها "الحكومة المدنية" حرب حق، لأن السلطة التي تمثلها هذه الحكومة آتية من الله ولأنها تنهض هكذا بوظيفتها، في النظام والحق على هذه الأرض. غير أن الإمبراطور ليست له السلطة في ذاته: بل الله هو الذي يقلده هذه السلطة وحسب. وإن الأمر المباشر وحده من الله، الأمر الذي لا جدال فيه، هو الذي يضفي القداسة [يقدسن: Sacralise] التامة على حربٍ ما، كما هو الأمر في وضع "حروب القيوم" ، في أزمنة الكتاب المقدس. فالحرب التي يأمر بها الله مباشرة، لا يمكن في الواقع، إلا أن تكون مقدسة. والحرب التي تعلنها السلطات الشرعية يمكنها

فقط أن تبلغ درجةً ما من الشرعية: فهي حق إن أدت خدمة للعدالة. وهكذا فإن الحرب المقدسة تسبق الحرب العادلة،زمنياً ومنطقياً لأنها ناجمة من قداسة الله، فهو وحده بمقدوره أن يصدر الأمر مباشرةً بها، فهو وحده يميز تماماً الخير والشر.

لكن، في زمن اوغسطينس، رغم تهديد البرابرة، هذا الأمر المباشر الوارد من الله أمر غير ثابت على الأرض: فإن ثيوقراطية [حكومة بإرادة إلهية Théocratie] إسرائيل لم تعد موجودة. ، واختفى الأنبياء، وخُتِمَ الوحي: وهذا هو زمان الكنيسة التي ينبغي عليها أن تتخذ موقفاً ، فتعمل منقادة حسب المبادئ الموحى بها. وعلاوة على هذا، إن تمركز الملكية في الكنيسة لم يمنح بعد البابا سلطة كافية ليقدسن [ليضفي سمة القداسة] على الحرب. ولئن كانت عادلة، فهي تظل منوطة بالشر، وهو سبب قتل الإنسان، وسبب الخطيئة. وها هو البرهان: فإن الرهبان والكهنة سعياً منهم إلى الاحتفاظ بنقاوة طقوسهم، يحق لهم أن يحتفظوا بأيديهم نقيةً من كل دمٍ بشري.

بالتالي ليس مفهوم الحرب المقدسة، المقبول في إطار حكومة ثيوقراطية [حكومة بإرادة من الله]، مثلاً حكومة إسرائيل المقدسة في التوراة، مفهوماً مقبولاً ، وحتى لا يمكن فهمه ، ولا تصوره ، في عصر القديس اوغسطينس. لكن، بات من المتوقع، من خلال مؤلفاته، أنَّ إضفاء القداسة [القدْسنة] على الحرب سوف يُنجَز عن طريق أيديولوجيا تحمي الكنيسة، وخاصة عن طريق الاكليروس. وفيما بعد بمئة عام، سيقول ذلك إزيدور الاشبيلي [قرطاجة ٥٦٠ - اشبيليا ٦٣٦]: متى تكون الكنيسة مهددة، ولا يستطيع رجال الدين هدر الدماء ولا الدفاع عن أنفسهم، فإن مهمة المدافعين ترتدي وجها أخلاقياً ومقدساً ، لأن العلمانيين هم الذين، بعملهم الحربي، يتيحون للكهنة أن يمارسوا خدمتهم الكهنوتية.

لكن، في الفترة ذاتها، حيث جهد اوغسطينس أن يطيح، في نظر العلمانيين، "بمحظور الدم" القديم الناجم عن المبدأ السلمي الأصلي، والمطابق للمفهوم الأوليّ في الدين المسيحي ،ففي تلك الفترة طفقت الروحانية الشعبية تبجل الشهداء وتمجدهم. فهم شهداء مسالمون (Pacifiiques) وسلمويون [موالون للسلام: Pacifistes] أبطال إدراكهم القديم للإيمان المسيحي. فهؤلاء القديسون قد حازوا تماما إكليل شهادتهم، باذلين حياتهم بحد السيف، دون الدفاع عن أنفسهم، رافضين الأسلحة والخدمة العسكرية، بل

رافضين، في بعض الأحيان، بجهارة ومفخرة، خدمة الدولة ومهنة الجنود، في سبيل خدمتهم الله خدمةًمثلى. هذا هو، من بين أوضاع أخرى، وضع القديس مارتان من مدينة تور [٣١٥ - ٣٩٧] الذي أشاد به "سولبيس سيفيروس" [٣٦٠ - ٤٢٠]، عند منعطف القرن الخامس.

رغم هذه التحفظات، أخذ نفوذ القديس اوغسطينس العظيم يُسهم، خلال تلك الفترة، في إزالته، من الذهنيات، شكوك المسيحيين المستديمة حيال الحرب والوظيفة العسكرية. وسوف تقوم اجتياحات البرابرة وغزوات العرب، في الغرب كما في المشرق، بتوطيد هذه النزعة أيضاً ، والمشاركة في الإعداد العتيد لمفهوم الحرب المقدسة المسيحية: وهي فكرة تستمد جذورها من التوراة، لكن يسوع سبق أن رفضها بشدة، كما فعل الدين المسيحي الأوليّ. وهو مفهوم سوف يزدهر في القرن الحادي عشر، في عصر الحرب الصليبية. ونحن هنا في البداية الأولى لسيرورة بطيئة، من قسطنطينس إلى أوربانوس الثاني، سوف تستمر على مدار ثمانية قرون، مُحوّلةًومشوّهةًالدين المسيحي تشويهاً عميقاً فهي نوع من الانمساخ.

الفصل الثالث

إقرار القيم الحربية

دين البرابرة المسيحي

رغم جهود الجيوش الرومانية المخلصة للإمبراطورية - مع أن هذه الجيوش قد باتت بربرية بمقدار قوي، ويقودها جنرالات هم أيضاً من منبتٍ بربري - فقد دخلت الشعوب الجرمانية بكثافة في إمبراطورية فقدت نظامها، وهزل اقتصادها، ووهنت معنوياتها.

وأضاف تشكل الممالك البربرية الانقطاع السياسي إلى العوائق اللغوية والثقافية والاقتصادية والدينية التي سبق لها أن تعمقت منذ أمدٍ بعيد، مابين الشرق اليوناني المأهول، الحضريّ والمثقف، وبين غربٍ لاتيني وريفي، اقل ثراءً بكثير، واقل سكاناً بكثير، بل وأقل رهافةً وصقلاً ومنذ ذاك الحين، بات الغرب "البربري" هو الذي يستقطب انتباهنا. ففي هذه المنطقة، وتحت نفوذ روما الديني، سوف يتكون مفهوم الحرب الدينية، وقد رفضته، خلال زمن طويل، الكنيسة الشرقية (الاورثوذوكسية). وراحت الوقائع الحقيقية الجديدة، السياسية منها والثقافية، تسهم في هذا التحول. ومن المؤكد أن انتصار البرابرة على الإمبراطورية قد خلق عالماً جديداً ، وادخل في الأعراف الغربية قيماً ومواقف أيضاً جديدة: فهي تُقيِّم الحرب وفضائلها مرسخة أسس ما بوسعنا تسميته: الذهنية القروسطية. وإن حلف البابوية مع الملكية الفرنجية (Franque) سوف يساعد أيضاً على تقييم بعض الحروب أيديولوجياً ، متى يتم توجيهها في سبيل الكنيسة.

نهاية الإمبراطورية في الغرب

كانت عواقب اجتياحات البرابرة للغرب بالغة الأهمية. فإن الوحدة السياسية، بعد أن بقيت متزعزعة، كُسرت نهائياً ولا جرم أن التقليد الفكري قد دفع المثقفين

(ومنذئذ، جميعهم تقريباً كهنة الكنيسة) إلى التظاهر باعتقادهم أن كل واحد من ملوك البرابرة يملك جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، كما كان في الماضي يتقاسم أباطرة الولاية الرُبعية (Tétrarchie) عواهل المناطق الجغرافية التي لابد من حكمها. إلا أن حقيقة الواقع مختلفة جداً فإن زعماء البرابرة، فيما ظلوا يزعمون بأنهم متمموالأباطرة، جامعين حولهم الأرستقراطيين الرومانيين المنضوين إليهم، يملكون، بصفتهم ملوكاً مستقلين، الأراضي التي أخضعوها بالقتال، والمأهولة بمعظمها من الغاليين/الرومانيين. وبقي البرابرة أقليةً في كل مكان، بيد أنهم فرضوا سلطانهم، وتشريعهم، وأعرافهم. وعلى هذا المنوال، تَشكل مجتمع جديد، وارثاً في آن معا الإمبراطورية الرومانية وقادةًجدداً من البرابرة.

غير أن الملوك الجرمانيين هؤلاء كانوا، قبل كل شيء، زعماء قبائل محاربة، وذكورهم جميعاً ، من حيث طبيعتهم، جنود، أو بالاحرى محاربون. وإن مفهوم الدولة المجرد المعنوي مفهوم بعيد عن أذهانهم، كما هو مفهوم الخدمة العامة أو الإدارية. والأولوية لديهم هي لرفعة مهنة الحرب والتفاني الشخصي للزعيم، والحرص على الشجاعة، ونزعة البطولة في المعركة، ولها قيمة تكاد تكون دينيةً، صوفية. وبدل أن تكون مهنة الجندي محتقرة، أو موضوع شك وريبة، لبثت بالعكس لديهم معتبرةًبمثابة مهنة طبيعية، لها كرامتها وتبجيلها الجّم. وتأتي من ذلك عسكرةٌ متزايدة للأذهان والمجتمع، وخاصةًلنخبة القادة من منبت جرماني، أو من العائلات الارستوقراطية من قوم البلد الأصليين المتحالفين معهم، وعلى هذه الشاكلة، ولاسيما في البلاد الغال، نشأت الأرستقراطية الجديدة: فهي بالتالي غالية / رومانية / جرمانية.

من ثم غدا، المحاربون، لا بل الحرب نفسها، على حال رفيع من القيمة والقدر. وأدخل البرابرة تصوراتهم الملكية والحربية، القائمة على أساس قيمة الزعيم الحربية، وقوة رفقة المحاربين، وتفوق سلاح الفرسان (وخاصة لدى القوط) ونوعية السلاح (سيوف من فولاذ. . . . . .) الخ. فصار المجتمع منذئذٍ، في جميع الممالك التي استقرت في أوروبا، تحت قيادةٍ ارستوقراطية عسكرية تحوز الأرض، وهي التي تجسد مسبقاً طبقة نبلاء العصور الوسطى وتُنبئ بها. فسيطرت على عامة الشعب من الفلاحين الخاضعين و "المحميّين" وإن أوضاع هذه الجماهير الشعبية قد لبثت، في ما يخصها، على شيء من تغير أحوالها: فقد تبدل سادتها وحسب.

كلوفيس، بطل الكنيسة

كان من المحتمل أن تعاني الكنيسة من أزمة قاتلة مع تدفق الاجتياحات البربرية. وعلى نقيض هذا، فقد نجت معززةًمن هذه المحنة. ويقتضي هذا التناقض تفسيراً

إن الأهالي المغلوبين في ايطاليا وغاليا وإسبانيا، كانوا في معظمهم مسيحيين، من "الكاثوليك"، وفي المدن على الأقل. وغالباً ما تركت الهزيمةُ الرومانية وهروبُ المدراء، أمام البرابرة، الأسقفَ بصفة ممثل وحيد للنظام القديم، وحدَه القادر على تأمين شيء من الاستمرار. فتصاعد بهذا الدور نفوذُ الأساقفة، ونهضوا به ليحمي ويدير الشؤون، ويهدئ، ويؤمن الصلة مابين المجتمع الروماني القديم والمجتمع الجديد الروماني / الجرماني.

في نظر الكنيسة الرومانية، لم يكن الخطر الداهم وارداً من المذهب الوثني. فباستثناء الفرنجة، قد بات جميع البرابرة تقريباً مسيحيين قبل تقلدهم السلطة في الإمبراطورية بكثير. غير أنهم استمروا على نزعتهم الآرية: فما قبلوا بعقيدة "ألوهية" المسيح. لكن من المحتمل أن تأمل الكنيسة ارتداد الوثنيين، وبمزيد من الصعوبة "الهرطوقيين" الآريين، وهم يسيطرون على مناطق واسعة. وهذا هو، بخاصةٍ وضع القوط [شعب جرماني من اصل اسكاندينافي] الذين يتحكمون بمنطقة تشمل إسبانيا وجنوب غاليا، وبعد قليل، البروفانس، الأوفيرني (عام ٤٧٦)، وأيضاً وضع الأوستروغوط [وهم القوط الغربيون] ووضع ثيودوريك [وهو من القوط الشرقيين] الذي كلفه إمبراطور القسطنطينية بأن يحتل ايطاليا من جديد، فاستقر فيها، فعلاً، بصفته ملكاً . وكانوا آريين أيضاً الفاندالُ [شعب جرماني] في إفريقيا، وكذلك البورغوند [قوم من الجرمانيين] الذين سيطروا على منطقة تمتد من الجورا السويسرية (مع جنيف) إلى إقليمَي ليون وفيين. وكان ملوك البورغوند والارستروغوط متسامحين، غير أن الفندال والفيزيقوط حاولوا فرض دينهم، في الحقيقة، مستخدمين الضغوط أكثر من القوة. وإن الأقوام الغالو/الرومانيين أو الإسبانيين لبثوا بمعظمهم كاثوليكيين في المدن، لكنهم، كانوا وثنيين في الأرياف. ولا شيء يتيح، في ذاك الحين، التفكير بأن المذهب الأرياني لن يفضي به الأمر إلى فرض سلطته، مع دعم الحكام.

بالتالي، جهد الاكليروس الكاثوليكي، بتشجيعٍ من البابا، أن يضم إلى عقيدته

الملوك البرابرة النادرين الذين ظلوا وثنيين، "فمن الممكن ارتدادهم" ولاسيما منهم كلوفيس. فمنذ عام ٤٨١، طمع هذا الزعيم الفرنجي، من منطقة نهر الرين الأسفل، في اجتياحه بلاد الغال. فاحتل شمالها، من الرين إلى نهر السين، إلا أنه اصطدم بعد قليل بالبورغوند والفيزيغوط. وعقب ارتداده إلى "المذهب الكاثوليكي" على يد كلوتيلد: ابنة ملك بورغوندي وهو آري ومتسامح، باشر بدعم من الاكليروس الروماني، بغزو قدمته الدعاوة الكاثوليكية، في ذاك العصر، "كحرب دينية" معدة لنجدة الأهالي الكاثوليك الذين يضطهدهم الآريون. فكانت بالطبع حرباً قبلها الاكليروس ورفعوا شأنها. وبدعم من الاكليروس وبركته، قهر كلوفيس الفيزيغوط قرب مدينة بواتييه، عند فوْييّه (Vouillé) (٥٠٧).

عقب انتصاره، راح كلوفيس يبسط رقعة فتوحاته حتى كادت تشمل غاليا بأسرها، فغدا بطل الكنيسة الرسمي، وهي التي اعتبرته بمثابة "قسطنطين الجديد" معززة بذلك الصلات مابين السياسة والدين. وكان ثمة دعاوة هائلة، نظمها الاكليروس الكاثوليكي، وأسهب فيها، فيما بعد، المؤرخ غريغوار من مدينة تور، فعظّم الملك هذا، المختار من الله، وقام بمنحه العمادَ الأسقف ريمي من مدينة رانس ما بين ٤٨٨ و ٥٠٧ (رَ. النص رقم ٤ ،في آخر الكتاب). فاقترن هنا قبول الحرب الإيديولوجي بحلف سياسي مابين البابا والفرنجة. فوجد حلف العرش والمذبح، في فرنسا، أقدم جذوره المتينة والمستديمة: ولا تزال أيديولوجيا الأوساط الكاثوليكية الأصولية، تجد فيه مرجعاً حتى أيامنا هذه، في مستهل الألفية الثالثة.

إضفاء سمة البربرية على الكنيسة

بقيت الحضارة الرومانية على قيد الوجود في ممالك الغرب البربرية، لكنها اتسمت بالبربرية (Se barbasiser) وبالإكليروسية (Cléricalisme) وتم تحييد الثقافة الكلاسيكية - المتغذية من الوثنية، بسبب هذا التشرب الوثني - تطلعاً إلى ثقافة جديدة. وحاولت هذه الثقافة أن تفرغ مضمون المعرفة الأدبية القديمة، لكي تحتفظ منها فقط بالشكل الذي يلقن في المدارس الدينية، ولاسيما المدارس الرهبانية. ولم تفلح في ذلك إلا بصعوبة، ومقابل الكثير من التورطات وليس بمعزل عن التقهقر والزوال.

منذئذٍ، بات المجتمع تحت سلطان ارستوقراطيتَين: إحداهما عسكرية، والأخرى

دينية. وحازت بسرعة العائلات الكبيرة الغاليّة / الرومانية، في غاليا الفرنجة، المراكز الأسقفية، عاقدةً بذلك حلف الارستوقراطيات الاكليروسية والعلمانية. واستحوذ ملوك الفرنجة، منذ عام ٥١١ ، على التحكم بالتعيينات الأسقفية، الأمر الذي عزز هذا الانصهار تعزيزاً أشد. وعلى مستوى أدنى، أقدم الارستوقراطيون وكبار أصحاب الأراضي [الاقطاعيون] ، على إنشاء مؤسسات اكليروسية ورهبانية اعتبروا أنفسهم "أربابها المدافعين عنها" وقاموا بتعيين الكهنة وخدام الكنائس فيها. وهاهنا ميزة هامة لعصر القرون الوسطى، وسوف نرى فيما بعد عواقب ذلك، المشؤومة في غالب الأحيان: تداخل الكنيسة و عالم الإقطاع. وهنا تجذر الحلف (بل الانصهارُ) مابين الدين والسياسة، الحلف الذي ظلّ، في المجتمعات بأسرها، احد الشروط الضرورية لظهور مفهوم الحرب المقدسة، وتطوره.

هذه الارستوقراطية العقارية الجديدة في مجملها: قد تكونت بخدمة الملك، في المضمار الإداري (ضباط بلاطيون، كونتات) وكذلك الديني (أساقفة، رؤساء أديرة، قساوسة). واستعاد هؤلاء الارستوقراطيون الجدد ووسعوا مدى عادةٍ كانت لمالكي الأرض القدماء في عهد الإمبراطورية الأخير [أي البيزنطية] ، وهي عادة استقطابهم لميليشيات خاصة بهم. وتتألف هذه الميليشيات من رجال أحرار، وأتباع جعلوا منهم حرساً شخصياً لهم: مَوَالي أو أتباع أو مقطعون: (Vassaux)

هاهنا أصل الإقطاعية القروسطية فهو عقدٌ يُمهر بقسم ولاء ويربط "برجلٍ قويّ"، فيما بعد، سوف يقال "بسيّد": [سيد إقطاعي] ، وبنظام تبعية "جدير بالاحترام"، وهو قسم رجال أحرار (وهم مقطعو السيد) ، يتولون الدفاع، بقوة السلاح، عن "صاحب الأراضي" الذي يجندهم ويوفر لهم، بصورة عامة، حتى أسلحتهم. ومقابل هذه الخدمة المسلحة، يتلقى هؤلاء المقطعون سبل معيشتهم على نحو يتواءم مع رتبهم. وإن الارستقراطية، بفضل هؤلاء الجنود، تقوم بخدمة الملك، وتحافظ، في آن معاً ، على النظام، وعلى حقها الخاص في التفوق. وبنفس المناسبة، يقوم هؤلاء الأقوياء بدور هام في تنصيرهم سكان الأرياف التي يبسطون عليها سلطتهم. وهذا التنصير [الرد إلى النصرانية] (Christianisation) هو الذي ينقل أيضاً إليهم قيمهم التي يتفردون بها.

ويعني هذا الأمر أن المحاربين قد باتوا منذئذٍ أفضل احتراماً بكثير مما كانوا عليه.

وتَبعة ذلك أن الرسالة المسيحية انعطف منحاها مبتعدة عن السلموية [: التيار السلمي] الأصلي ابتعاداً نهائياً فالكنيسة قد قبلت، دون أن تتبنى تماماً أعراف الشعوب الجرمانية، وتلقت وأقرت بضعة أشكال من الروحانية الجرمانية. ونستبقي هنا فقط الأشكال التي أسهمت في موقف جديد حيال الحرب.

في الحقيقة ان الشكل الأول هو الإدراك الذهني للمسيح، إدراك صورته في روحانية إنسان ذاك الزمان: فكرة "مشيح ٍ متألم، مقهور، ذليل حتى الموت، وهي فكرة تشمئز منها الذهنية البربرية: فهم يدركونه بالاحرى (وبالتالي يمثلونه في الفن) بمثابة مسيح ظافر، يتوشح بالجلالة، متفوق على قوى الشر. كما انعطف أيضاً منحى التعبد للقديسين، واتخذ مدى جديداً : فإلى الشهداء الاقدمين، ضحايا السيف المتواضعين، إبان القوى السياسية القديمة، قد انضاف منذئذٍ قديسون جدد ، من منبت صفوف الارستوقراطية الاكليروسية الحديثة العهد. وهم المُؤتَمنون والقائمون على شؤون السلطان: إنهم بغالبيتهم أساقفة، كمثل القديس إلوا ، والقديس أوْون، وهلم جراً ... فالقداسة أخذت تمر إلى صفوف الأقوياء ، واكتسبت سمة الارستوقراطية، لكنها لم تتعسكر بعد.

إن مذهب طقوس الأسرار (Sacramentalisme) مع دلالات له إضافية تكاد تكون سحرية، اتخذ، إضافة إلى ذلك، مكانة أعظم دوماً في الكنيسة: في الابتهالات والتعابير والتعازيم والطقوس الليتورجية والتبريكات والتعبد للايقونات، الخ.... وفي الزمان نفسه، إذ توخت الكنيسة أن تحوز، وتستعيد لصالحها ، روحانية الوثنيين القديمة، روحانية السلتيين من جهة، والجرمانيين من الأخرى، فقد استملكت، و"عمّدت" ، نوعاً ما ، التعبدات الوثنية التي ظلت تنعم بحظوة كبيرة، وترسخت في الأعراف المحلية، (حجارة مقدسة وينابيع ومذابح، الخ.....) وتم بناء عدد وافر من أقبية الكنائس، على أماكن عبادة وثنية قديمة. فكان ثمة، إن صح التعبير، انزلاقٌ لا ينقطع من تعبّد إلى آخر، تغييرٌ في داخل الاستمرار. فامتص التعبد المسيحي وشرعن [أقرالشرعية (Légitimiser)] ، في هذا الإطار الجديد، الطقوس الوثنية القديمة، وسلخ عنها ، متى تبناها ، طابعها المدمر. ولم يحدث مثل هذا التبني، بالطبع، بمعزل عن مخاطرة ما بالنسبة إلى صحة العقيدة القويمة، وصفاء الممارسات.

إن التحكيم الإلهي (Ordalie) ، أي حكم الله أو المبارزة القضائية التي يسبقها

القسم، يعكس الذهنية نفسها المُتشرّبة من القيم الحربية: فإن النصر، كما كانوا يعتقدون، يأتي فقط من الله / الملك، الذي يعترف بواجب إحقاق الحق. وليس من الممكن أن يقبل الله بخروج إقامة العدل مقهورة في مثل هذا الامتحان. وبذلك، غدا قتال الأبطال مقدساً (Sacralisé)، واتخذ ميزاتٍ مقدسة شبه ليتورجية. وبات الله نوعاً ما، مضطراً للتدخل بوسيلة الأسلحة، ولئن لم يزد الأمرُ، في غالب الأحيان، على ترس وعصا.

وعلى المنوال نفسه، حاولت الكنيسة، بتعابير التبريك، أن تجعل من الروحانية الجرمانية المنوطة بالأسلحة، روحانيةًمسيحية، مجازفة بعسكرة الروحانية المسيحية، وبدمغها بالطابع المادي: فعلى سبيل المثال، القسم على السيف، الزاخر بالحيوية لدى قدماء الجرمانيين، تم إقراره وأقلمته بشكل قسَمٍ على الصليب الذي يمثله مقبضُ السيف. وفي عهد الميروفنجيين كان القسم يُؤدى دون مبالاة، على الإنجيل أو على الأسلحة المكرسّة. وفيما بعد، سوف تقوم بالدور ذاته، الذخائر المركزة في تفيحة مقبض السيف. وإن الإعلان عن التكافؤ الطقوسي ما بين الأسلحة والإنجيل إعلان مثالي لطريقة التأقلم الاجتماعي والتثاقف (Acculturation) الروماني /المسيحي مقابل الوثنية الجرمانية: وهنا أيضا، لا يستطيع مثل هذا التأقلم الاجتماعي والتثاقفي أن يُمارس دون المجازفة بشيء من إفساد الروحانية. وقامت الكنيسة بهذه المجازفة. ومن الصعب التأكيد أنها كانت على حق في ما فعلت، كما يقال هذا، في غالب الأحيان. وعلى الأقل، يجدر بنا أن نعي المجازفة التي تم القيام بها، و الانزلاقات المحتومة التي نجمت من تشكل "الذهنية المسيحية" ومن عقيدة الكنيسة.

وبذلك، قد خلط التنصير السطحي هذا أعرافاً جرمانية وثنية بالطقوس المسيحية، فغير وجهة معنى كل واحد من هذه الطقوس التي باتت متداخلة. وغدا الدين المسيحي "البربري مختلفاً بما يكفي عن المنحى الأصلي. فاتخذ شيئاً فشيئاً مسحات لها المزيد من السمات الحربية، ومن السمات "السحرية"، الأمر الذي أفضى إلى اجتياز مرحلة جديدة في مسار الكنيسة نحو الحرب المقدسنة .(Sacralisée) وكان الدين المسيحي البدائي يعظ، قبل كل شيء، بمعركة داخلية على الأفكار السيئة، داخل كل فردٍ بشري. ولم يختف هذا التصور، بل غيّر منحاه متجها إلى معنى أكثر عشائريةً وجماعيةً

وحربيةً. فكان رجال الدين والعلمانيون يقومون بمعركة على قوى الشر، وكل منهم بسلاحه: فترتب على الكهنة و الرهبان أن يعزفوا عن الأسلحة الدنيوية، بيد أنهم لبثوا يكافحون بصلواتهم الشياطين، الأعداء اللا منظورين، لكنهم أعداء المؤمنين، المتواجدون في كل مكان. أما الحكام ومحاربوهم فهم مدعوون، بالمقابل، إلى مقاتلة خصومهم المرئيين متقلدين سيوفهم. وتتوقع الكنيسة من السلطة المدنية قمع الهرطوقيين، وحماية المؤمنين، ولاسيما رجال الدين، وصد الوثنيين، لأنهم أعداء المسيحية الخارجيون. وطفقت فكرة "الحرب الرسولية" تظهر مع تشجيع بابوي لها، وكان المحور السياسي المتنامي ما بين البابوية وملكية الفرنجة يتيح المزيد من قدسنة الحرب التي تُشنّ لصالح هذين الكيانين في تحالفهما المتواطئ.

محور البابوية / آل بيبان Pippinides

اتخذ الحلف المعقود ما بين ملوك الفرنجة، منذ عهد كلوفيس، والكنيسة الرومانية، بعداً جديداً ، أكثر وثوقاً وسياسة أيضاً ، في نهاية السلالة الميروفنجية، وكان بعداً متسماً بأزمة ملكية عميقة. فإن الصراعات السلالية الغامضة، والمزخرفة بدماء الاغتيالات، أوصلت إلى العرش ملوكاً في ريعان الشباب، لا خبرة لهم ("الملوك التنابل" الذين تكلمت عنهم كتب التاريخ القديمة في مدارس الجمهورية الفرنسية الثالثة) ولم تعد لديهم مقاليد الحكم.

انتقل عندئذٍ واقع السلطة الحقيقي إلى كبار موظفي البلاط، ممثلي الارستوقراطية، وقد غدت قوتهم متفوقةً. وراحوا يسدون إلى الملوك النصائح، ويوظفون رجالهم، ويوزعون "الخيرات" (إقطاعات الأراضي) مستمدين ما يحتاجون إليه من خزينة الملك، مُؤمِّنينَ بتصرفهم لأنفسهم الوفاء والأمانة، على حساب سلطة الملك الميروفنجي، وقد بات على ضعف متفاقم. وعلاوة على ذلك، غدا أصحاب الرتب العالية في القصر قادة للجيوش. وأضيفت إلى وهن السلطة الملكية هذا، حركة قوية للتحرر في المناطق، وقد شجعها الارستوقراطيون المحليون: في أكيتين ونوستري وأوسترازي وبورغوني، على سبيل المثال، وراحت هذه العوامل الموالية للاستقلال تقوم بعملها.

منذئذ ٍ، بات العاهل الميروفنجي يملك لكنه لم يعد يحكم. وانتقل السلطان

الحقيقي إلى بيبان دو هيرستال (Pepin de Herstal) عميد موظفي البلاط الذي راح يظفر بالانتصارات العسكرية موطداً سمعته كمحارب مقدام، وغالباً ما جمع في "حقل أيار (كذا دعي لأن التجمع كان يحدث في ذاك الموسم) المخلصين له ومقطعيه، بل أيضاً مجمل الرجال الأحرار شاكّي السلاح، وذلك لخوض حملة على الألمان والساكسون. وأثرى من غنائم من يقهرهم. وعلى نقيض هذا، قام ملك الفرنجة، المحروم من النفوذ العسكري بتبديد أملاكه، متنازلاً عن أراضٍ أعِدّت ليجمع من جديد، بل ليشتري إخلاص ووفاء الارستوقراطيين المدنيين، أو ليؤمن لنفسه دعم رجال الكنيسة.

عبثاً ، فالولاءات غالباً ما كانت تُحوّل إلى مصلحة كبير موظفي البلاط، ونفوذهُ يتعاظم باستمرار مع شارل مارتيل (Charles Martel)، ولده، الذي انتصر أولاً على السكسون، ما بين نهري الرين و ويْزر، وعزز في هذه المنطقة جهود التبشير على يد القديس العتيد بونيفاس. ثم أحل السلام في مقاطعة نوستريا. وإذ سعى إلى المزيد من توطيد سلطته على الارستوقراطيات العلمانية والاكليروسية، أقدم على دَنيَوَة (إضفاء السمة الدُنيوية) عددٍ وافر من أراضي الكنيسة ، فاعتبرها ممتلكات عامة للدولة. واحتفظت الكنيسة بملك الرقبة منها (Nue-propriété) [حوزة عقار يستثمره شخص آخر]، لكن شارل تنازل عن حق الانتفاع من هذه الأراضي المُدْنيوة بهذا الشكل، لكل وفيٍّ له، بصفة هذا الحق "حسنةً" (أو مكسباً) لفترة موقتة، أو راتباً طوال العمر، وذلك بمثابة أجور لخدمتهم العسكرية، وتيسير أسباب حياتهم، والسماح لهم بتحسين نوعية أسلحتهم.

وعلى هذا المنوال، تشكل جيش قوي، حسن التسلح، يتألف من جنود مشاة، بل أيضاً من خيالة مُقطعَين، بسلاحهم الثقيل، مدرعين، ويتيسر اعتبارهم بمثابة أجداد الفروسية الاقدمين. وطفق عميد موظفي البلاط (Maire du palais)، بفضل هذا الجيش القوي، يستعيد زمام السلطة في المملكة، فاسترد سلطانه على المناطق المنفصلة، ولاسيما منطقة الأكيتين.

شارل مارتيل يُحبط تقدم العرب

أتاح الاجتياح الإسلامي لشارل مارتيل الفرصة للتدخل في منطقة الأكيتين، ولترسيخ سمعته، ولتقييم قتاله على الصعيد الأيديولوجي.

كانت الجيوش الإسلامية، منذ عام ٧١١، قد تجاوزت المضيق الذي يحمل، منذ

ذاك الحين، اسم قائدها البربري، طارق [بن زياد] (جبل طارق). خلال بضع سنوات، انتصرت القوات العربية / البربرية، في أسبانيا، على ملكيةٍ من الفيزيقوط، وقد باتت الصراعات الداخلية تنخرها سياسياً ودينياً . فاحتلت هذه القوات المسلمة شبه الجزيرة بكاملها، باستثناء جبال اوستريا، وسهل سفوح جبال البيرينيه الغربية والوسطى، حيث تنظمت المقاومة.

انتشرت هذه القوات أيضاً شمال جبال البيرينيه في مقاطعات سِبتيمانيا ولانغدوك (ناربون، كاركاسون، نيم) ثم في البروفانس، وصعدت وادي نهر الرون ونهر السون، حتى بلغت مدينة أوتان، وحاصرت تولوز في عام ٧٢١ . غير أن الدوق أودس من الأكيتين، أنقذ المدينة، وسحق القوات المسلمة. واحتفل البابا في مدينة روما، بهذا الانتصار. وبدأ الصراع مابين المسيحية والإسلام يحتل شيئاً من المكانة في ذهنيات رجال الكنيسة في الغرب، وفي توجساتهم. وسوف يُوسّع هذا الصراع، في العالم المسيحي والعالم الإسلامي على السواء، المدى لحركة قدسْنة الحرب التي تشنّ على "غير المؤمنين"

لكنه لم يفعل هذا بما يكفي، في ذاك التاريخ، لكي لا تتفوق الجوانب السياسية على التضامن الديني: وسعيا إلى التوقي من عودة المسلمين، تحالف أوديس مع زعيم بربري تمرد على حاكم أسبانيا. وعندئذ، صاح شارل مارتيل على الخيانة، شاجباً هذا الحلف مع "غير المؤمنين"، فهاجم أوديس جنوب نهر اللوار.وقبل أوديس، من أجل نزع فتيل هذا الخطر، أن يخوض مع شارل حملة على مسلمي عبد الرحمن الذي انطلق من أسبانيا، وراح يعد غارة ثأرٍ وغزو. وسحق الزعيمُ المسلم أوديس أمام مدينة بوردو، ثم زحف على مدينة تور. وفي عام ٧٣٢، اصطدم في طريقه إلى موسّيه، قرب مدينة بواتييه، بفرنجة شارل مارتيل. وقُهر المسلمون، وتحتم عليهم الانسحاب، وقتل عبد الرحمن في هذه المعركة.

كان دويّ هذا الانتصار على يد شارل مارتيل في معركة "بواتيية" دوياً هائلاً لكنه لا يتواءم مع مدى هذه المعركة السياسي الحقيقي، ولاسيما في حقبتنا المعاصرة، بما أن هنا احد التواريخ التي يعرفها التلاميذ بالأكثر، منذ قرن ونيف. لكن، لسنا فقط في صدد احتفال إيديولوجي نشأ في أذهان مؤرخين أو سياسيين معاصرين لنا. وأحياناً

ما ظل معاصرو هذا الحدث، هم أيضاً ، مدركين لمدى هذا الانتصار أيديولوجياً ، وحتى أن مسيحياً من قرطبة، في أسبانيا وقد فتحها المسلمون حديثاً ، قد احتفل بهذا الظفر فنظم قصيدة مطولة: ومجد فيها "الأوروبيين" (وهنا أيضاً الظهور الأول لهذه الكلمة) الذين انتصروا على المسلمين.

في نظر الكثيرين، من المؤكد أن شارل مارتيل قد تبدّى تماماً بطلاً للمسيحية، ولم يزل هذا المفهوم غامضاً في ذاك الزمان، لكن المجابهة مع الإسلام أسهمت في توليده. وإن الحرب التي لبث يخوضها على الغزاة، أعداء البلد، بل "غير المؤمنين" علاوة على ذلك، اتخذت، بشكل طبيعي كامل، مسحات أخلاقية ايجابية.وعزز تدخل البابوية لصالحه، بعد قليل، هذه الميزات للقداسية، فيما عقد هذا التدخل الحلف المستمر ما بين الكرسي الرسولي والفرنجة، وذلك بثمن انقلاب سياسي مجدٍ للطرفين.

بابوية جديدة وملكيّة جديدة

شارل مارتيل

في هذا التاريخ، قد بات شارل مارتيل شبه ملك: فله سلطة الملك دون لقبه. وإليه تماماً (وليس إلى الملك) يوجه البابا غريغوار الثالث رسالته، في عام ٧٣٩ ، حينما قام اللومبارديون - وقد لبثوا حتى ذاك الحين آريين ولكنهم "ارتدوا" حديثاً -يهددون عن طريق فتوحاتهم بتحويل البابا إلى مجرد أسقف لومباردي. وطلب المعونة العسكرية هذه، من قبل أحد الباباوات، زعيم ديني، قد أسهم، بالطبع، في التقييم الإيديولوجي للمحاربين الذين سيلتزمون به، ولاسيما منهم شارل مارتيل بذاته. وفي الرسالة التي بعث بها البابا إليه، يُوصَف الدفاع عن تراث القديس بطرس [أي البابوية] بمثابة فعلٍ تقيّ ورع. فإن هامة الرسل (القديس بطرس، شفيع كنيسة روما وحاميها) يستطيع بالتأكيد إنجاز هذا الدفاع لوحده، لكنه يريد أن يجعل المسيحيين يشاركون في فعل الورع هذا. وقد يغدو عدمُ الإصغاء إلى هذا النداء، الإقدام على المجازفة بأن يُغلق القديس بطرس، بالمقابل أمام من لا يلبي النداء، باب ملكوت السماوات (ر. النص رقم ٥ ، في آخر الكتاب).

أعرب نداء البابا هذا عن تجديدٍ مزدوج وهام، تجديد يلزم مستقبل مسيحية، هي

غربية وبابوية، في آن معاً إن ايطاليا، على الصعيد النظري، ارتبطت شؤونها بالإمبراطور الروماني الذي سوف يسمى منذئذٍ بيزنطياً وبصورة طبيعية، ترتب على البابوات أن يوجهوا إليه نداءهم. إلا أن مشاجرات مذهب الطبيعة الواحدة قد أبعدت روما عن الكنائس الشرقية. وفضّل البابا أن ينحى إلى قوة الغرب العسكرية الجديدة (أي الفرنجة)، مع أنها على مزيد من البعد، لكنها على مزيد من المرونة. إضافة إلى هذا، إن كان في الشرق كراسي أسقفية بوسعها منافسة روما (القسطنطينية، بل أفسس أو انطاكيا)، بالمقابل، كانت روما في الغرب دون مزاحمة: فليس ثمة كرسي أسقفي بمقدوره الاعتزاز بمثل هذا القدم ومثل هذا النفوذ. فالتحرر من الوصاية الإمبراطورية بات، بالتالي، من المرجح كونه مجدياً في نظر البابوية، لأن هذا الانقطاع يُشرّع أمامها طريقاً جديدة، طريق سلطان سياسي /روحي متصاعد على مجمل المسيحية الغربية.

إذن، دعا البابا غريغوار إلى نصرته شارل مارتيل، كبير موظفي بلاط الملوك الميروفنجيين. وبعث إليه، بمثابة عربون احترام (على الأقل)، مفاتيح المثوى الأخير للقديس بطرس. بيد أن شارل لم يتدخل ضد اللومبارديين الذين تلقى لتوه منهم العون العسكري لقمع البروفانس. ورغم ذلك، ليس هنا سوى مجرد تأجيل لهذا الأمر. فثمة محور جديد ترتسم معالمه: حلف البابوية وعشيرة آل بيبان (Pippinides)، وسوف يسيطر هذا الحلف على خلفية الغرب السياسية خلال سنوات عديدة فيعدل مجرى التاريخ.

بيبانْ لو بْريف

انعكس نفوذ شارل مارتيل إلى ولده بيبان لو بريف [والد شارلماني: ٧١٥ - ٧٦٨] الذي نَحّى بسرعة أخَويه عن الحكم: غريغون وكارلومان. أما بيبان فقد تجرأ على المطالبة بالتاج. وسعياً منه إلى أن يصمت تياراً مناصراً للشرعية الملكية الوفية لملوك الميروفنجيين الذين يُعتبرون مقدسين (وجُمّة شعرهم الطويلة تنبئ بذلك)، أرسل بيبان إلى روما سفارة أوكل إليها أن تطلب رأي البابا في "هؤلاء الملوك على فرنسيا الذين لا يمارسون السلطة" ويسؤاله إن كان من المستحسن حقاً أن يلبث الأمر كما هو عليه، وهل يجدر حتى أن يطلق عليهم اسم الملوك؟ إنها لسياسة ماهرة أريبة. فهم

البابا زكريا، بمجرد إيماءة. وإذ اخذ علماً تاماً بأنه في حاجة إلى حماية جيوش الفرنجة، أجاب بفطنة بالغة محرراً هذه الجملة المشحونة بالتلميح: "دونما أي شك، من المستحسن أن ندعو ملكاً من يمتلك زمام السلطة الملكية، أحرى من الذي لا يمتلكه. وإذ عززت إجابة البابا موقف بيبان، فقد أمر بحلق جُمّة شعر الملك الشاب شيلديريك الثالث، وأوعز بحجزه في دير القديس برتان. وفي مدينة سواسون عقد جمعية الفرنجة فعينته ملكاً بنظام باب الانتخاب.

لم يكن تغيير السلالة هذا شيئاً سوى انقلاب عسكري. وقد شجع البابا الانقلاب. وبقصد قدسنة هذا الاختيار، قام فعلاً أساقفةُ غاليا: (Gaule)، ومن بينهم القديس يونيفاس، بمسح الملك بيبان بالزيت المقدس [الميرون]، في طقس مستوحى من سيامة الأساقفة. وإن تتويج الملوك، وقد مورس لدى الانغلو/ ساكسون، ولدى الفيزيقوط، قد ساعد بمقدار قليل على جعل الملك المسيحي مختار الله. ضمنت الكنيسة الغربية انقلاب بيبان العسكري. فاندرجت، بهذا الأمر نفسه، في حلفٍ سياسي سوف تبقى عواقبه بالغة الأهمية على المدى البعيد.

وما هو أفضل أيضاً أن البابوية اندمجت، بدورها، في الترتيب السياسي. فالبابا الجديد إتيينّ الثاني، وقد هدده الملك إيستولف (Eistolf) اللومبردي، اجتاز فعلاً جبال الألب ومضى ساعياً إلى دعم بيبان الذي أتى ليلتقيه في بونتيون (منطقة المارن) سنة ٧٥٤ وهناك، راح بيبان يقود باللجام حصان البابا، على غرار ما يفعل كل مروض للجياد، وإشارة منه إلى الاحترام. وأفضى البابا إتيين إلى الملك الجديد بحاجته الملحة إلى الحماية من اللومبرديين. وطلب أيضاً أن يعاد إليه تراث القديس بطرس [التراث البابوي]، وقد أدرج فيه لا مدينة روما وحسب، بل جميع إكسرخية [حكومة عسكرية بيزنطية] مدينة رافينّا [على البحر الأدرياتيكي، شرق ايطاليا].

فيما بعد ببضعة أعوام، سوف يعرب عن هذا الطلب بتلفيق أشهر تزييف في التاريخ وهو: "وثيقة هبة مزيفة من قسطنطين" (ر. النص رقم ٦ في آخر الكتاب). فهذه الوثيقة تزعم أن أول إمبراطور مسيحي، حين ذهابه إلى مدينته (القسطنطينية) ورّث القديس بطرس (أي البابا) قصره في "اللاتران" (وهذا أمر صحيح) بل أيضاً دوقية [منطقة يحكمها دوق] روما، وايطاليا، وجميع الأقاليم الغربية (وهذا الأمر

بالطبع مزيف). وقد تم البرهان منذ أمد طويل على طابع هذه الوثيقة المزورة، والبرهنة بهذه الصورة يتعذر دحضُها.

على نقيض ما سبق أن ظنّه المؤرخون، خلال زمن طويل، فمن قليل الاحتمال أن تكون هذه الوثيقة، بشكلها هذا قد صدرت عن مجلس المشيخة الرومانية: بغية إقناع بيبان بأن "يُعيد" إلى البابا إكسرخية مدينة رافين (بمثابة بداية). ولكن، بالمقابل، من المؤكد أن البابوية حاولت، منذ عام ٧٥٤، إقناع الملك بشرعية ما تطالب به من الأراضي، وبحصولها، من قوة الفرنجة العسكرية، أن "تُعيد" (وعلينا أن نفهم هنا: أن تسلمّ) إلى القديس بطرس أراضي لم تكن يوماً في حوزته، بل كانت على كل حال ترتبط شؤونها بالإمبراطورية البيزنطية. وللمرة الأولى، اتخذت البابوية موقفها على هذا الشكل بصفتها قوة زمنية، من جهة، وبصفتها خليفة للإمبراطور، من جهة أخرى. وهنا تماماً ، توجّهٌ سياسي جديد ومستديم، وفيما بعد، سوف يتم الشعور بعواقبه شعوراً بالغ المدى.

لبى بيبان، ولكن تلبيةً جزئية جداً ، طلبات البابا: فأعد حملة عسكرية على اللومبارديين. وأما البابا إتيين الثاني فقد عزز هو بذاته سلطان السلالة الجديدة متوجاً من جديد بيبان وأبناءه. وبالتالي ، في هذه المرة، غدت السلالة جمعاء شرعية، مقدسة، "باسم العناية الإلهية والرسولين بطرس وبولس" . وبالمقابل، قام بيبان من جهته، مع جيشه، بالنزول مرتين نزولاً مظفراً إلى ايطاليا، في عامي ٧٥٤ و ٧٥٦ فخلع إيسْتولف، واحتُجز ، وأعيدت إلى البابا المدن التي تخلى عنها هذا الملك اللومبردي. فشكلت بذلك "تراث القديس بطرس" أي نواة الدولة البابوية.

عقد بهذا الشكل الحلف ما بين البابوية و الكارولانجيين. فأصبحت السلالة الجديدة وقد تم الاعتراف بها، كما أضفي عليها طابع القداسة علناً ، على يد الحبر الروماني الذي استخدم في ذلك وظيفته الروحية في مضمار السياسة. وغدا البابا، من جهته، معززا في مدينة روما، بفضل سلطة الملك الفرنجي السياسية العسكرية، وزُوّد امتياز تراث القديس بطرس ببعد جديد في المضمار السياسي. فكان، في ذلك الأمر، تجديد يحسن التشديد عليه وتوضيحه: فهذا التجديد سوف يكيف مستقبل جميع العصر الوسيط، ويسهم بمقدار كبير في تشكل مفهوم الحرب المقدسة، هذا المفهوم الذي ليس بوسعه أن يلد إلا في وسطٍ يُوحد ما هو سياسي وديني توحيداً وثيقاً

منذئذٍ، أصبح الملك ومحاربوه الفرنجة، وقد تم تقييمهم بعاملين جديدين من القدسنة وغالباً ما سوف يختلطان، ويعزز أحدهما الآخر: فمن جهة، الكفاح من أجل البابوية (ولاسيما بقصد احتفاظها بممتلكاتها العقارية)، وسوف نعود إلى هذا الكفاح في الجزء الثالث من هذا الكتاب، ثم القتال المعد لحماية المسيحية من الاجتياحات، من جهة أخرى، وخاصة من المسلمين الذين دخلوا آنئذٍ التاريخ دخولاً عاصفاً

إذن ، إنما إلى الإسلام، القادم الجديد على الحلبة الدولية، يحسن بنا أن نلتفت الآن.

الجزء الثاني

الحرب والإسلام
من محمد إلى الحرب الصليبية
(من القرن السابع - إلى الحادي عشر)

الفصل الرابع
الإسلام والحرب في عصر محمد

حينما انتصر شارل مارتيل على العرب في معركة باواتييه كان نبي الإسلام محمد قد توفي منذ مئة سنة تماماً (٦٣٢). وإن رسالته المدونة في القرآن (وقال محمد إنه قد تلقى الوحي بها من جبرائيل رئيس الملائكة)، تزعم أنها تعيد إلى ما كان عليه الوحي الإلهي السابق، وتديمه، وهو الوحي الذي أفسده اليهود والمسيحيون، وإنها تجلب بذلك ختم الوحي النبوي. لم تلبث الجماعة الفتية أن انتشرت، فصار انتشارها الديني والسياسي والعسكري أمراً ذا سرعة خاطفة. وفي عام ٧١١ ، بلغ فرسان الله الهندوس شرقاً ، والمحيط الأطلسي غرباً وهم يقيمون قرار تفوقهم على إمبراطورية تجزأت باكراً جداً إلى ملكيات متنافسة، غير أنها جمعاء تدين بالإسلام بصفته ديناً موحى به. وشكل هذا الدين وثاقاً جمّ القوة، متجاوزاً عوامل تفرق عديدة. بيد أن هذا الوثاق لم يكفِ دوماً لتأمين تلاحم الجملة بكاملها، كما كان ذلك من الجانب المسيحي.

إن الديانة التي بشر بها النبي تعارض جذرياً مذهب تعدد الآلهة [أي الشرك] وتأخذ على المسيحيين أنهم قد زاغوا، في هذا المنحى، معتمدين عقيدة "الثالوث"، ومشركين بالله شخصين غيره، هما الابن والروح القدس. فالإسلام، عقب ولادته في شبه الجزيرة العربية المأهولة بعرب وثنيين - بل أيضاً بيهود ونصارى، ولربما بقبائل عديدة جداً من العرب المرتدين إلى المذهب اليهودي والدين المسيحي - يقترب بوجوه كثيرة من هاتين الديانتين السابقتين للإسلام و اللتين يزعم أنه يصححهما. غير أنه يتميز عنهما بنقاط أخرى عديدة.

لسنا هنا في صدد تقديم تحليل للإسلام ولو باقتضاب. إلا أننا سوف نكتفي بما يخص أو يكيف موقف المسلمين حيال الحرب، ويشكل مفهوم الجهاد الذي تم تعريفه

فيما بعد عقائدياً وقانونياً [أي شرعاً]، بيد أن أسُسَه قد رسخها بوضوح الوحي القرآني وتصرف [النبي] محمد، تصرفاً يختلف جذرياً عن تصرف يسوع.

محمد والوحي القرآني

بلغ محمد الأربعين عاماً ، قرابة عام ٦١٢ ، وتلقى وحيه في مغارة من جبل حراً ء، حيث انعزل بقصد التأمل ولكونه على قلق وشك، أفضى بذلك بعد قليل إلى زوجته خديجة، فوثقت به وشجعته على تبشير من حوله بهذه الرسالة الإلهية. فأعلن ضرورة الإخلاص لله والخضوع التام له، إبان اقتراب ختام الأزمنة [أو يوم الحشر] وقد حُسبَ أنه بات وشيكاً

إن إدانة محمد العنيفة للأصنام، بعد أن أثارتها وكفلتها كثرة من الوحي الجديد، (هذه الأصنام التي تعيش منها، ولاسيما في مكة مكان الحج الوثني إلى الكعبة، قبائل قريش)أفضت إلى جعل الأقوام المحليين ينبذونه. فتوجب عليه، في عام ٦٢٢ أن يهاجر مع بضعة من أتباع له إلى يثرب، التي ستغدو المدينة، "مدينة النبي حيث مكث أناس كثيرون من اليهود كان يتوقع دعمهم. فكانت "الهجرة" [الهجرة الأولى: ٦٢٢] وهي سنة المسلمين الأولى.

وفيما راح يجمع حوله المؤمنين، شرع محمد في مكافحته بالسلاح خصومه، ونظّم غزوات، وأعمال سطو على القبائل العربية المشركة أو اليهود المناوئين لرسالته. وحين ترمّل بوفاة خديجة، تزوج النبي بعد حين بأرملة تدعى سودة [سودة بنت زمعة، القرشية]. واحتفل أيضاً ، في المدينة، بزواجه من "خطيبته" التي غدت زوجته المفضلة، وهي عائشة، وكانت في السنة التاسعة من عمرها. وفي المدينة سكنت زوجتا النبي في كوخين.

وبذلك أقام النبي بضمانته، على نحو واضح، تعدد الزوجات (كما ضمنته الرؤى القرآنية التي وافقت على تصرفه أو أوحت به). وفيما بعد اتخذ محمد له عدة زوجات غيرهما والعديد من السراري الشرعيات، فيما حصر بأربع زوجات المؤمنين العاديين. وقد كانت ممارسة تعدد الزوجات مقبولة قبله لدى العرب وأقرها المسلمون، وهذا ما سبب للإسلام - من قبل الأكليروس المسيحي الذي كان ينوه بالعفة - سمعة، دين

شهواني، ولاسيما عندما أقدم النبي، مبرراً بوحي قرآني (القرآن، ٣٣: ٣٧)، على زواجه بزينب (زوجة تلميذه وابنه بالتبني زيد) التي سبق له أن وقع في حبها، فطلقها زيد لكي يفسح له المجال للزواج بها. وسوف تتذرع فيما بعد كتابات المجادلات المناهضة للإسلام بهذا الحدث، لكي تبرر اتهامها في شأن شهوانية النبي. ويجدر، بالمقابل، أن نوضح الأمر: فإن هذا التصرف ما كان يصدم العرب بأي شيء، بل لبثوا معجبين، على العكس من هذا، بقوة النبي الجنسية.

وثمة اتهام جدلي مسيحي آخر، وهو في صدد الحرب، وهذا الاتهام يعتمد أيضاً تصرفَ محمد الشخصي. لا جرم أن مناخ الصراع الذي جرى بسرعة شديدة في مكة، فاستتبع هجرته، قد أفضى إلى معارك حقيقية، اشترك أحياناً فيها محمد، وقد ضمنت بوضوح عن طريق أكثر من وحي قرآني. وتكشف هذه الوقائع النقاب عن موقف نبي الإسلام حيال استخدام الحرب، وكان لهذا الموقف، بالطبع، في رأي المؤمنين، قيمة مثالية. وسوف تكفي بعض الوقائع لإثبات هذا الأمر.

إذن، في ربيع عام ٦٢٤، أوقف محمد وثلاث مئة من مسلميه قافلة كبيرة لقبيلة قريش، قرب المدينة (بدر)، على طريق عودتها من دمشق. فجابهوا ألفاً من القرشيين الوافدين للعون والنصرة. فوعد محمد بالظفر للمؤمنين به، بنُصرة الملائكة، وبالجنة لمن سيلقون حتفهم، واستبقى لنفسه خمس الغنائم، استناداً إلى وحي قرآني. وقسم هذا الخمس ثلاث حصص، واحدة للنبي بذاته، وثانية لعائلته، وثالثة للفقراء الأيتام (القرآن، ٨: ٤٢). وبالتالي بات اللجوء إلى العنف المسلح مقبولاً ، باكراً جداً ، وتم تقييمه وتدوين قوانينه حتى في توزيع الغنائم المادية الناجمة عنه.

فيما بعد بقليل، إذ خاب أمل محمد من تحفظ اليهود في الانضمام إليه، قاطعهم، وهاجم عدة قبائل منهم. وبعد ذلك، انفصل أيضاً عن المسيحيين. لكن هؤلاء وأولئك تم التسامح معهم، وضُمنت حمايتهم بمثابة مؤمنين بديانة تؤمن بإله واحد وبيوم الحساب.

عقب بعض النكسات والتخاذلات الداخلية، ظفر محمد وأتباعه الأوفياء قرب المدينة، في شهر آذار/مارس لعام ٦٢٧، بانتصار ساحق، فأباد قبيلة بني قريظة اليهودية، وقد سبق لها أن تخلت عن واجباتها حياله. لكن، في ذاك التاريخ، ظلت

المعارك العديدة ما بين المسلمين وعرب مكة المشركين، معارك تميزت بكثير من الغموض والتردد.

غير أن محمداً استقبل في المدينة، عام ٦٢٩، زعيم مكة أبا سفيان وقد تزوج للتو بابنته المرتدة إلى الإسلام. تُرى هل تم اتفاق ما بين هذا الزعيم وصهره الجديد؟ فمهما جرى، كان المسلمون يعدون جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، فهاجموا مكة في الأول من كانون الثاني / يناير سنة ٦٣٠ عندئذٍ، استولى الذعر على مكة، فعدلت عن القتال: وأعلن أبو سفيان خضوعه، وارتد بدوره إلى الإسلام. ووعد محمد سكان مكة بسلامة حياتهم، إن استغلقوا أبوابهم على أنفسهم دون أية مقاومة. فولج النبي مكة ظافراً وقد باتت خاوية الشوارع والأزقة. ومس الحجر الأسود، وأنجز سبعة من طواف العبادة السابقة، وأوعز بأن يسلم مفاتيح الكعبة، ثم أسقط أصنامها.

ظل المعبد الوثني القديم، الكعبة والحجر الأسود وطقوس حجه ("الطوافات السبعة) وقد تم بذلك تبنيها، "وتطهيرها" فأصبحت معفية من كل ملمح لعبادة الأصنام، ومندمجة في الطقوس الجديدة، وظلت قائمة، غير أن دلالتها قد تحولت. فانصهرت، على هذا المنوال، في أعراف الإسلام المقدسة، فهي التي تُشكل قلبها. إن هذا الحل للتبني والتغيير في استمرار التتابع لم يكن بوسعه سوى أن يرضي تجار مكة الذين يعيشون من هذه الممارسات العريقة بأسلافها. وتشكلت الوحدة بمعزل عن اهراق الدماء. فالنبي قد وفى بوعوده: إبان الاستيلاء على مكة لم تُرتكب أية مذبحة. إلا أن الشرك قد غدا محظوراً ، فيما بعد بسنة واحدة (القرآن، ٩: ٣ – ٥).

عقب أن نصح محمد العرب، على جبل عرفة، بالبقاء يداً واحدة في الإسلام بعد موته، عاد إلى المدينة. وتوفي بُعَيْدَ عودته، في الثامن من حزيران/يونيو عام ٦٣٢، وكان قد وطد بقوة دعائم الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

إن العقائد الأساسية للإيمان الإسلامي، ومنبتها القرآن، تلخص بإيجازٍ بأركان الإسلام الخمسة

١ قانون الإيمان: "لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله"

٢ الصلوات الطقوسية اليومية الخمس، عقب الوضوء.

٣ الصيام النهاري خلال شهر رمضان

٤ تأدية العشر، وهو صدقة شرعية [أي الزكاة]
٥ الحج إلى مكة (الكعبة) وإلى المدينة (قبر النبي).

لابد أن نذكر هنا ما يلي: ليس الجهاد جزءاً من أركان الإسلام الخمسة. بيد أننا نعثر على بواكيره منذ عصر النبي، وأيضاً على بعده الحربي، والأمر هذا لا جدال فيه، لكنه ليس الوحيد. فالجهاد منذ البداية، يقوم بدور أساسي في حياة الجماعة وفي العقيدة الإسلامية.

محمد والجهاد

إن لفظة "جهاد" التي تترجم، على العموم، "بحرب مقدسة"، تعرب عن فكرة أوسع بكثير من هذا الجانب الحربي وحده: ومن الممكن ترجمتها "بجهد ينجز في سبيل الله" وتتخذ معنى عاماً يتيسر تطبيقه على كل مشروع حريّ بالمديح، ويهدف إلى انتصار الدين الحقيقي على الكفر والإلحاد، كما يتيسر تطبيقه أيضاً على الجهد المبذول لتنقية المؤمن فردياً وأخلاقياً وثمة عدة أنواع من الجهاد لا تمت بصلة إلى الحرب. فعلى سبيل المثال، يتكلم القرآن عن "جهاد" القلب، عن "جهاد" اللسان (القرآن، ٣: ١١٠، ١١٤ - القرآن، ٩: ٧) الخ...... إذن، ليس بوسعنا أن نماهي بدقة الجهاد بالحرب المقدسة. فمن حيث المعنى، للجهاد رقعة أوسع. إلا أن هذه اللفظة، بالمقابل، تشمل أيضاً فكرة المعركة الحربية التي يترجمها "الجهاد بالسيف".

لابد لهذه الواقعة أن تفضي بنا إلى الاحتراس من كل نتيجة مفرطة في سرعتها، أو مفرطة في عموميتها، من حيث معنى الجهاد: فبعض مفكري الإسلام، سعياً منهم إلى التميّز عن الحركات الأصولية والإسلاموية التي تشدد على المعنى الأخلاقي والروحي لكلمة الجهاد، قد أفضى بهم الأمر إلى إنكارهم، أو أقله، إلى تقليصهم بشدة بُعد الجهاد الحربي. وبصورة عكسية، يوضح الإسلامويون الأصليون هذا البعد ويمنحونه المكانة الأولى في ترتيب الفضائل. غير أن هؤلاء وأولئك يعتمدون القرآن ويستمدون منه حججهم.

إن جذر لفظة الجهاد "جَهَدَ" يظهر في ٣٥ آية من القرآن: ٢٢ مرة بالمعنى العام، وثلاث مرات للدلالة على فِعل رِوحي تماماً ، وبالمقابل، ثمة عشر مرات أخرى تنطبق

بوضوح على عمل حربي. ويعني الأمر أن هذا البعد ماثل حقاً منذ البداية، ولئن لم يتدخل التدوين والتعريف القانوني لكلمة جهاد إلا فيما بعد، أي في عصر الفتوحات خارج شبه الجزيرة العربية. أخيراً ، تم تدوين الجهاد، انطلاقاً من القرن التاسع، في عصر كانت تتيح فيه هذه العقيدة، بدقة، تبرير الفتوحات العربية والإمبريالية الإسلامية، مع نسبتهما إلى دواعٍ دينية محضة: الامتثال للأحكام الإلهية التي عبر عنها النبي، والمُعّدة لتوسيع رقعة أراضي الإسلام إلى أقصى المستطاع، ولمساعدة سكانها على التحرر بذلك من الإلحاد والكفر.

تلبث هذه التفسيرات المختلفة موضوع مساجلات ومناظرات ما بين مسلمي أيامنا هذه، تماماً كمثل تفسير شتى الآيات القرآنية المتعلقة بالحرب، وأحياناً ما تكون آياتٍ متناقضة: فيبدو أن البعض منها يمتدح موقفاً متسامحاً وسلمياً حيال الجوار اليهودي والمسيحي، فيما تحث آيات أخرى على قتالهم، كما يُقاتَل الوثنيون أو "المنافقون" سوف نعود، في الفصل التالي، إلى هذه المشكلة لتفسير عقيدة الجهاد وتشكلها. أما الآن، فلابد لنا من الاكتفاء بتحليل تصرف النبي بذاته، إزاء استخدام العنف المسلح.

ليس ثمة من لبس في هذا التصرف: على خلاف الدين المسيحي الأوّلي. فليس للإسلام، في واقع الأمر، ومنذ البداية، أي تحفظ حيال العمل الحربي: فلا يُدينُه وحي القرآن، ولا التصرف الحقيقي لمؤسس الإسلام. فإن محمداً (على نقيض يسوع) لم يرفض وسيلة العنف المسلح وحسب، بل قد مارسها هو بذاته، بصفته زعيم القوات المسلحة، وقد نادى بها في العديد من الظروف، وحتى لم يتردد في العمل على اغتيال بعض مناوئيه، وخاصةً شعراء عرب قد سخروا منه في أغنياتهم هازئين به.

هذه التصرفات المتعارضة بشدّة لمؤسسي الديانتين، يسوع من جهة، ومن الأخرى محمد، تفسر السبب الذي من أجله استطاع الجهاد، باكراً جداً ، ودون صعوبة، أن يوحي بعمل المسلمين السياسي / العسكري، فيما قد لقي نظيره المسيحي في شأن فكرة الحرب المقدسة، العديد من العراقيل والعقبات، المذكورة أنفاً في الفصول السابقة، ولم يتطور إلا في حين متأخر جداً ، ولاسيما في القرنين العاشر والحادي عشر، كما سنرى هذا لاحقاً وينجم مما سبق، في شأن موضوعنا، سيرورة من الإعداد العقائدي تختلف في الديانتين أيما اختلاف: فثمة نمو مستمر دون صدمات ولا عُقد، يتسم بتطور

ضئيل ومتماسك، داخل الإسلام. وثمة إعداد عسير ومتعوج، يقوم على تحولات مفاجئة ويفضي إلى ثورة عقائدية حقيقية، ثورة مترجرجة، يشوبها بعض التناقض والتفكك المنطقي داخل الدين المسيحي.

لا يتسم موقف محمد من الحرب بأي أمر مدهش. وفي هذا الصدد لا ينضوي النبي إلى عداد الثوار. ففي المجتمع حيث ولد كانت الحرب الخاصة عرفاً مقبولاً ومشرفاً والغزوات على القوافل التي نظمها مناهضا أعداءه المكيين ظلت تعتبر غزوات عادية ومشرفة. وبقيت من ذلك المشكلة الأخلاقية عند موت كائنات بشرية خلال العمليات الحربية. وكما رأينا، سبق لهذه المسألة أن احتلت مكانة عظيمة في وجدان المسيحيين الأوائل. وبالمقابل، لا يبدو أن هذه القضية قد أزعجت أذهان جماعة الإسلام الأولى.

الإنسان الأول الذي قُتل إبان عملية من هذا النوع، مات في شهر كانون الثاني / يناير سنة ٦٢٤: مع أن هذا الحادث قد أثار الانفعال، لا لأن موت إنسان قد حدث، لكن لأسباب قانونية وطقوسية: فهذا الموت قد حصل، في واقع الأمر، في غضون شهر مقدس لدى المذهب الوثني (أي شهر رجب): فمنذ ردح بعيد، لبث من المحظور اهراق الدم خلاله فهبط وحي قرآني، هبوطاً مناسباً ، ليخبر بأن القتال في شهر مقدس هو أمر خطير بكل تأكيد: بيد أن ما هو أشد خطورة أيضاً كانت المآثم التي يقترفها المكيون، والمجازفة بالعودة مجدداً إلى عبادة الأصنام، وهذا ما أدى إلى تبرير العمل الحربي:

يسألونَكَ عن الشهر الحرامِ قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرامِ وإخراجُ أهله منهُ أكبَرُ عندَ الله، والفتنةُ أكبرُ من القتل. (القرآن، ٢: ٢١٦).

إن موقف النبي وخاصته يؤكد على هذا التفسير، فبعد انتصار بدر، كان عمر، قائد جيوش المسلمين، يريد أن يبيد الأسرى جميعاً ، فقرر محمد أن يُقتل "فقط" كل من لا أحد يدفع فديته. وأمر أن يُعدم فوراً رجلان سبق لهما أن هزئا به وبما أوحي له به. فهذا العقاب "الدنيوي" ما كان يبدو له شديد التطرف، مبالغاً فيه، وحتى غير كافٍ حيث أكد أنهما بعد موتهما سيذهبان مع أولادهما أيضاً إلى الجحيم فيحترقون.

فيما بعد بقليل، طلب النبي متطوعاً ليذهب إلى ديار العدو فيقتل يهودياً يدعى

كعب بن أشرف، كان قد أوسع النبي بكثير من الشتائم، بل نظم أشعاراً هجاه بها. وسوّغ للمتطوع، ليستطيع التسلل إلى هذا العدو، أن يّدعي كونه خصماً لمحمد، ويتقوّل بالقدح عليه وعلى مهمته النبوية، فيلقى بذلك حظوة لدى خصمه الشاعر. ونجحت الخدعة: وبعد أن قَتل كعباً (وزوجته)عاد هذا الرجل ليلتقي النبي الذي كان يصلي. فبدا محمد سعيداً مغتبطاً بنجاحه، ورفع الحمد إلى الله وشُكره. وليست هذه الحادثة فريدة: فقد جرى ما يماثلها، في ظروف شتى، وفي عدة مناسبات أخرى.

يتبدى بوضوح، من هذه الأمثلة التي بوسعنا الإسهاب فيها بكل سهولة، أن اللجوء إلى العنف والقتل والحرب، في نظر نبي الإسلام، لا يشتمل على أي شيء لا مشروع، وأقله، في بعض الحالات، وذلك مناهضة لغير المؤمنين المناوئين، وأعداء الديانة الموحى بها.

وهذا هو، على نحو خاص، وَضْعُ المعارك التي تندلع على "الوثنيين" والمشركين. فثمة الكثير من الوحي القرآني الذي يحث دون مواربة على معارك تشن على "الكافرين"، وهنا مصطلحٌ وفكرةٌ بوسعهما أن يتخذا معنى رحباً بما يكفي، فينطبقا على الهرطوقيين أو المسيحيين أو اليهود الذين يرفضون الارتداد أو الخضوع لسيطرة الإسلام، كما تبرهن على ذلك هذه الآية:

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحّرمون ما حرم اللهُ ورسولهُ، ولا يدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (القرآن، ٩: ٢٩).

وهناك وحي آخر من القرآن (القرآن، ٤: ٨٨-٩٤) يُثبت تفوق المؤمن المقاتل على المؤمن غير المقاتل. وهنا، المعني بذلك فئة الكافرين، و"المنافقين" وهم أشخاص يقولون إنهم مؤمنون، غير أنهم يتابعون العيش ما بين قبائلهم العربية التي لبثت مُشْركة، وظل موقفها على لبْس. ولا بد من قتلهم إن مثلوا خطراً على الجماعة:

فإن لم يعتزلوكم، ويلقوا إليكمُ السَّلَمَ، ويكفوا أيديهم، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم (القرآن، ٤: ٩١).

في مثل الحالة هذه، تكون المجازفة شديدة، وهي المجازفة بقتل مؤمنين حقيقيين، لا يتم تمييزهم عمن سبقوهم. ويتوقع الوحي هذا الاحتمال ويحتاط له: فإن قُتل هؤلاء

الناس بطريق الهفوة أو الخطأ، فلابد عندئذٍ أن يدفع ثمن الدم، ويحرر عبد مؤمن. وعوضاً عن ذلك، إن قَتل رجلٌ مؤمناً ليستحوذ على ممتلكاته، فسوف يعاقبه الله في الجحيم معاقبة أبدية أو بالمزيد من الدقة، في جهنم.

إن هذا القبول العقائدي لاستخدام الحرب توضحه منذ الأزمنة الأولى عقيدة الشهادة. من المؤكّد أن الوحي القرآني لا يحض صراحة على الشهادة. ولكن، منذ المجابهات المسلحة الأولى، وفيما بعد أيضاً ، بقيت الفكرة التي تقول إن المسلم المحارب في سبيل جماعة المؤمنين وفي الجهاد ، سوف ينعم بالمكافآت السماوية، وإن من يلقون فيه حتفهم هم شهداء الدين (ر. النص رقم ٧ في آخر الكتاب).

إبان الهجوم على القافلة في بدر، والمذكور أنفاً ، أضاف محمد بعداً دينياً إلى المعارك: فطبقاً للحديث، لم يشارك شخصياً ، هذه المرة، في الاشتباك، إلا أنه ابتهل طويلاً لأجل نجاحه. ثم، بعد أن تشجع، مضى يبث الشجاعة في قلوب المقاتلين، وتنبأ لهم بالظفر بفضل نصرة الملائكة لهم، ووعد بالجنة من يفضي بهم الأمر إلى الموت كشهداء / أبطال في هذه المعارك. وإن فكرة شهادة المحاربين الذين يموتون في الجهاد مناهضين الكافرين، تستمد جذورها من واقعة مذكورة في أقدم حديث وأوفره أصالة.

وخلاصة القول، إن محمداً ، على نقيض يسوع، لا يقيم أي تمييز مابين العمل الديني والعمل السياسي أو العسكري. فهو في آن معاً نبي وقائد حربي ورئيس دولة أو أقله، زعيم جماعة ينظمها مجمل من القوانين والأعراف والتقاليد، وتتحكم بها "حكومة" هو رأسها. وهذا الانصهار الكلي لمضاري السياسة والدين يصد كل اعتراض أخلاقي على فعل القتل في سبيل الله. وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها لا يظهر النبي أي تحفظ إزاء التوسل بالعنف المناهض لخصومه وقد باتوا يماثلون أعداء الإيمان. واشترك النبي في عدة معارك، متقلداً أسلحته. وقاد معظم المعارك التي خاضها على القبائل اليهودية أو المسيحية أو الوثنية المعادية. ولم يرفض أيضاً ممارسة الاغتيال السياسي. فاللجوء إلى الأسلحة في سبيل انتصار الإسلام يظهر له مشروعاً تماماً كمثل المغانم بصفتها غنائم حرب. وعقب الانتصار، وبإيعاز من النبي، غالباً ما كان محاربوه يقتلون الرجال ويأخذون النساء والأطفال عبيداً لهم، ويتقاسمون ممتلكات المقهورين: وثمة وحي قرآني يثبت حتى قواعد اقتسام الغنائم.

هذا يعني أن الحرب لا تشكل أية مشكلة لضمير النبي وشعوره. فهو، علاوة على ما سبق، لا يتردد في أن يعد بثوابات روحية لمن يتطوعون في الجهاد، في كفاحٍ مسلحٍ يناهض الكافرين. ونحن ندرك هذا الأمر، فإن أفكار الحرب المقدسة والجنة التي يعد بها من سيموتون، والسلاح في أيديهم، هي أفكار ماثلة بوضوح منذ أصول الإسلام وجذوره.

محمد وحرب الفتح

إن الفتوحات الإسلامية الأولى قد كانت التعبير نفسه عن الجهاد، ونشدد هنا على أنه لم يكن حرباً رسولية: وليس الهدف الهداية إلى الإسلام، بل الغزو والاكتساب. فالوحي القرآني يحظر من جهة أخرى، الارتداد الإجباري: "لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي (القرآن، ٢: ٢٥٦). ويأذن لليهود والمسيحيين بالتالي، داخل الجماعة، أن يحتفظوا ببعض الشروط، بإيمانهم، بصفتهم "ذمّيين" وبالمقابل، يحظر المذهب التبشيري و كذلك الردة عن الدين الإسلامي، فهي تقمع بقساوة [شديدة]. وبالتالي التسامح حقيقي لكنه محدود.

إن مصدر هذا الموقف "التسامحي" النسبي، وسوف نعود إليه فيما بعد، قد يرجع إلى حادثة عرضية أقدم من الغزو العربي [في شبه الجزيرة العربية] إبان عهد محمد، وفي شأن مدينة نجران، وفي اليمن، التي كان أهاليها المسيحيون الكثيرون جداً قد عانوا صنوف الاضطهادات من قبل يوسف الملك اليهودي. فانطلقت مساجلة "لاهوتية" مابين المسيحيين والمسلمين حول الطريقة التي لابد منها لأخذهم في الاعتبار والتقدير شخص "يسوع" ولنذكر هنا أن هذه "المساجلة" شهدت، في تلك المرة، على تسامح ديني حقيقي. فاقترح محمد حسم النقاش بتحكيم إلهي (Ordalie) وفضل المسيحيون عقد معاهدة تسمح لهم بالحفاظ على دينهم ببعض الشروط: أداء ضريبة سنوية، وتقديم العتاد والجمال والخيول، من أجل العمليات العسكرية. ولقاء معاهدة الخضوع هذه، كان المسيحيون محميين من كل أذية لشخصهم ودينهم وممتلكاتهم. وفيما بعد، لبثت هذه الممارسة عامة، وأفاد اليهود من معاملة مماثلة. وقد توجب على الوثنيين والمشركين أن يختاروا مابين الارتداد أو الموت.

لابد لنا من توضيح موقف "التسامح" هذا عند الإسلام، حيال "ديانتي أهل الكتاب" لم يجر دوماً إدراكه ولا فهمه لدى مسيحيي العصور الوسطى، ولعله أيضاً لدى معاصرينا. ومهما كان موقف التسامح هذا، فقد ظل موقفاً مرموقاً فاليهود والمسيحيون أبدوا من "التسامح" ما هو أضأل بكثير حيال الإسلام. وسوف نحاول أن نقدم تفسيراً لهذا الأمر في آخر فصل من هذا الكتاب.

قام مسيحيو ذاك العصر، بالمقابل، وفي مجادلتهم المناهضة للإسلام، بتشديدهم، باكراً جداً ، ولاسيما في المشرق، على طابع الإسلام الحربي. فعارضوه بالمنحى السلمي المسيحي النظري، معتمدين على العقيدة البدئية لدى الديانتين، كما اعتمدوا على المواقف المتعارضة تماماً لدى مؤسسَيْهما أكثر من اعتمادهم على التصرف الفعلي لدى المسيحيين والمسلمين، في الحياة الحقيقية ومجتمع ذاك الزمان. وكانت الحرب آنذاك واقعاً حقيقياً "لا يمكن الاحتيال عليه" بالنسبة إلى البعض كما للآخرين، وذلك بنتيجة تقاربهم الجغرافي وتوخي كل منهما التوسع والانتشار.

في غضون حياة محمد، كاد التوسع الإسلامي يكون في بدايته. غير أن هذا التوسع ظل مندرجاً ، منذ ذاك العصر، في منطق العقيدة الإسلامية ولبى الشروط التي تتحكم بولادة الكيان السياسي/الديني الجديد الذي أسسه محمد. أضف إلى هذا أن الظروف لبثت مواتيةً، كما تُبدي هذا الأمرَ نظرة سريعة على ظروف ذاك العصر التاريخية.

حين أنشأ محمد، في شبه الجزيرة العربية، جماعة المسلمين الأولى، كانت المنطقة كلها ، بالفعل، تعاني أزمة كأداء؛ فما بين ٦٠٩ و ٦٢٨، جابهت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الإمبراطورية الفارسية. وخلع هيرا قليوس الإمبراطور فوكاس ، عام ٦١٠ في القسطنطينية، واستولى على السلطان: و انضافت الحرب الأهلية إلى الحرب الخارجية. فاغتنم الفرس هذا الوضع واستولوا على سوريا ، حيث أقدم السكان المسيحيون - وقد أرهقهم الظلمُ الضريبي وتعنّتُ الكنيسة البيزنطية اللا متسامح - على استقبالهم في غالب الأحيان استقبال المحررين.

في فلسطين، حيث ظل الوضع على الوتيرة ذاتها ، استقبل اليهود الفرس استقبالاً حسناً ، فأذن الفرس لليهود المنفيين عن أورشليم حتى ذاك الحين، بالمكوث فيها مجدداً

، وقلدوهم زمام الحكم في المدينة، حتى إن اليهود تطلعوا إلى إعادة بناء الهيكل الذي هُدم منذ عهد تيطوس. وكانت السيطرة اليهودية السياسية، في بعض الأحيان، شاقة على سكان الأماكن [المقدسة] الآخرين. وفي عام ٦١٤، أخُمدت في الدم ثورة مسيحية مناهضة للفرس واليهود: وتم الاستيلاء على مدينة أورشليم، ونُهبت، وأحرقت الكنائس، وقُتل السكان المسيحيون، فأحصي من القتلى عشرات الآلاف. ونفى الفرس أهالي أورشليم المسيحيين، حاملين معهم "صليب المسيح الحقيقي"، فوجهوا بتصرفهم ضربة قاسية إلى نفوذ الإمبراطورية البيزنطية ومسيحيتها. بيد أن الإمبراطور هيراقليوس تغلب، في عام ٦٢٨، على ملك الفرس كسرى الثاني الذي تم اغتياله. وفي عام ٦٣٠ أعيد "الصليب الحقيقي إلى أورشليم، وتم تحرير المنفيين المسيحيين وإحلالهم في سابق وضعهم الطبيعي.

إلا أن السكان المسيحين في معظمهم لبثوا مُرهَقين، وقد قل عددهم بالحروب هذه، وأوهنت عزائمهم. وحين دخلت فلسطين جيوش الإسلام الأولى، لقيت مقاومة هزيلة، وأحياناً قام فيها بدعم المسلمين اليهودُ والأقلياتُ المسيحية الهامة، وقد أعيتهم صنوف المضايقات الإمبراطورية [البيزنطية]. ومنذ عام ٦٣٥، انسحب هيراقليوس من أمام القوات العربية، ناقلاً معه الصليب الحقيقي إلى القسطنطينية. وبدأ التوسع الإسلامي. وبلغ، بعدَ قرنٍ واحد، حدوده القصوى حتى صميم فرنسا الحالية في الغرب، وحتى سمرقند والهندوس في الشرق.

اتسمت حرب الفتح العربي/الإسلامي بمكونات دينية. أما كان من المحتمل ألا تثير أو توسع – في العالم المسيحي الذي بقيت انتصارات هذه الحرب تُخضع لشريعة الله منطقةًبعد منطقة – ردود فعل من النسق نفسه؟ وهل ساعد الجهاد على توليد الحرب المقدسة في رحاب العالم المسيحي، رغماً عن التحفظات العقائدية القوية الناشئة من الإنجيل ومن موقف يسوع اللا عنفي والسلموي؟.

ختام الفصل

سقطت أورشليم، عام ٦٣٨، في أيدي العرب المُسلَمين [مَن تمَّ ضمهم إلى الإسلام (Islamisés)] أما المسيحيون، أي الأكثرية العظمى في الأراضي المستولى عليها، فلم

يدركوا جميعاً، وفي الحال، أنهم باتوا على صلة بديانة جديدة. فقد رأى البعض منهم، في بداية الأمر، أن الإسلام إحدى "الشيع" المسيحية الكثيرة، وأن محمداً "هرطوقي جديد في المسيحية، كمثل من غدا المشرق يعرف الكثير من أمثاله. ومن المحتمل أن انتصار المسلمين قد بدا قضاءً من الله مواتياً للعقيدة التي يبشر بها محمد.

وفسر آخرون، بالمقابل، هذه الانتصارات بمثابة عقاب من الله أنزله على شعبه المسيحي، من جراء ذنوبه، كما سبق "لإله التوراة" قديماً أن عاقب شعبه بالنفي إلى مدينة بابل وفي نظرهم، كان الإسلام كارثة من الله، فنسبوا انتصارات العرب إلى حلفهم مع قوى إبليس، المرتبطة بالمسيح الدجال، فشيطنوا بذلك الإسلام، ساعين إلى أن يعزوا إلى القوة العربية/الإسلامية الجديدة مكانةً في التاريخ الذي يقوم الله بتوجيهه و بالإعلان عنه نبوياً وعلى ساحة الهيكل - وهو مكان مقدس للديانتين اليهودية والمسيحية - كان بناء جامعٍ دُعي خلافاً للأصول "جامع عمر (قبة الصخرة، تم بناؤها عام ٦٩١) من المحتمل تفسيره بهذا المعنى فينبئ بنهاية الأزمنة الوشيكة، وذلك تحقيقاً للنبوءة التي أعلنت قديماً "منتهى الرجاسة الشريرة القائمة في المكان المقدس"

في الشرق أولاً ، ثم في الغرب فيما بعد، أدرك المسيحيون، أحياناً ، الغارات العربية بصفتها واردة من مشيئة الله، أو أنه يأذن بها. وهي تنطوي على تنبيه لحفظ النظام، وعلى عقابٍ لا يدوم إلا مؤقتاً ويُنجز هذا العقاب كاملاً بوسيلة قوة جديدة يثيرها نبي مزيف، وهي قوة منوطة بالشر، وتُؤذن بالظهور العتيد للمسيح الدجال، وذلك هو مستهل للمعركة النهائية في الأزمنة الأخيرة [يوم الحشر].

كما سنرى، يَسّرَ هذا الإدراك أيضاً قدسنة المعارك التي يخوضها المسيحيون على المسلمين الفاتحين، كما يَسّرَ تكوين مفهوم الحرب المقدسة. وسوف تغدو هذه الحرب، لدى المسيحية، مرادفةًللجهاد الإسلامي، إبان مصادره. وهو الجهاد الذي تمت صياغة عقيدته، وثبتت في أقل من قرنين.

الفصل الخامس

عقيدة الجهاد في القرآن والحديث الإسلامي

اكتملت عقيدة الجهاد الإسلامي، على نحو نهائي أو يكاد، خلال القرن التاسع. لكن أساسها قام على عناصر قديمة جداً ، وبادئ ذي بدء على وحي القرآن، ثم على سمات صادرة عن "الحديث" الشفهي.

تطور الجهاد تاريخياً

بصورة عامة، يميز المعلقون في تكوّن مفهوم الجهاد ، عدة مراحل متتالية:

* تُطابق المرحلة الأولى العصر حيث تمنّى محمد، قبل الهجرة، أن يَرُدّ بأقواله إلى الإسلام اليهود والمسيحيين في شبه الجزيرة العربية. وتُترجم هذه المرحلة بوحي "الآيات المتسامحة" في القرآن. وبالمقابل في المدينة، أثارت مكافحة المسلمين للقبائل اليهودية والمسيحية والوثنية مكافحة مسلحة، وحي الآيات "الداعية إلى الحرب" ومن الممكن أن تفسح هذه الآيات والأخرى المجال لتفسيرات مُعمّمة.

* خلال الفترة الثانية (أي القرنين ٨ و٩)المتميزة بالفتح العسكري، تم اللجوء فيها إلى السُنّة والحديث كضمان وتبرير للتوسع العربي الإسلامي. كما تم التشديد على التفسير الموالي للحروب فكانوا يرون، حينئذٍ أن الإسلام ذو دعوة شمولية عالمية وله أيضاً نزعة إلى الانتشار عبر العالم بأسره. إنه الجهاد الهجومي والفاتح.

* وتطابق الفترة الثالثة (أي القرنين ٩ – ١٠) نهاية التوسع، وإقامة توازن سياسي واستراتيجي، مابين الإمبراطورية الإسلامية والمناطق المجاورة. ومن هذا التوازن نشأت فكرة جهاد كف عن كونه هجومياً ، فبات بوسعه أن يغدو مدافعاً ، في سبيل مصلحة الجماعة وخيرها: وأدت فترات الانكفاء والتراجع، حتى إلى التشديد على

جهادٍ داخلي، ومكافحة الهرطوقيين والمتمردين. غير أن الحلم قد استمر في شأن الفترة المجيدة للتوسع المسلح الذي اعتبر توسعاً منقطعاً وحسب.

* الفترة الرابعة (أي القرنين ١٠ وخاصة ١١)تميزت بتفاقم المخاطر الداخلية، فأعدت ردة فعل مزدوجة: ردة فعل الجهاد بمعنى مكافحة كل ما يُلحق الأذية بالجماعة، وردة فعل استبطان للجهاد، بمنحى المعنى الأوفر روحانيةًللكفاح الأخلاقي. فنجم عن ذلك نزعة أخذت تفسر الآيات الداعية إلى الحرب تفسيراً مجازياً رمزياً وقد استعاد هذه النزعةَ، في عصرنا، المفكرون المسلمون المعتدلون الذين يضايقهم تجدد الجهاد الإسلامي في أعنف مظاهره، وتلبث رغبتهم في التمايز عن هذا العنف المتطرف.

مفهوم الجهاد في القرآن
نظرية "الآيات الناسخة"

لا تعطي جميع نصوص الوحي، في شأن الجهاد، الصورة نفسها عن هذا المفهوم. فبعض الآيات تبدو ملتزمة بالسلم وأخرى هي أكثر "نزعة إلى الحرب" ويقبل معظم المفسرين المسلمين أن آيات القرآن أنزلها الوحي في ظروف دقيقة، وهذه الظروف وحدها تتيح تحديد المعنى الصحيح للوحي. غير أن الوضع تغير مع كّر الزمان ، وتغيرت الجماعة أيضاً إذن، من المحتمل أن يتناقض وحيان صراحة لأن ظروفهما وأحوالهما قد اختلفت.

على العموم، حسب رأي المفسرين، إن كان ثمة تناقض، فلابد عندئذٍ أن يؤخذ في الحسبان أقدم الوحي، بصفته نوعياً لحالة دقيقة. والأوفر حداثة، بالمقابل، هو معياري "فينسخ" الآيات السابقة بالواقعة نفسها: وهي أن الحالة التي كانت تعلل هذه الآيات السابقة لم تعد محققة. فالآية التي ترجع منذئذٍ قد أدت إلى أشكال جديدة من الوحي وأوفر ملاءمة.

استناداً إلى النظرية هذه، نزل الوحي على محمد تبعاً لاحتياجات رسالته التاريخية. ففي البداية، فيما لبث النبي منعزلاً ، وقليل من المسلمين حوله، نصحه الله بأن يتجنب المجابهات. وهذه هي علة "الآيات السلمية". وبعد عام ٦٢٢، حينما استقرت الجماعة في المدينة حث الله المسلمين على ممارسة الحروب الدفاعية. وكلما

ازدادت الجماعة عدداً وقوة، وسع الوحي نطاق هذا الحث على الحرب وعممه وقلص، بعكس ذلك، القيود على فعل العنف. وأخيراً ، متى تغلبت قضية الإسلام، في شبه الجزيرة العربية، على قضية خصومها، أقام الوحي المبدأ القائل بأن الحرب على غير المسلمين يسوغ خوضها، عملياً ، في كل زمان وكل مكان، بمعزل عن الضرورة إلى حجة ما. ويعتبر الوحي بهذا المعنى بصفته "ناسخاً " لوحي سابق يرجع إلى حالة قد تجاوزتها الجماعة. ولنظرية "النسخ" هذه فائدة مزدوجة، فهي تحل مشكلة التناقضات وتعيد من جديد الإيحاءات إلى سياقها.

إن هذه الأطروحة، المنتشرة على نطاق واسع، لا تلقى، مع ذلك، الإجماع على الاتفاق. فالمفسرون، في الواقع، لا يتفقون على تواريخ الوحي. لكن هذه التواريخ ضرورة أساسية لمعرفتنا سياق كل وحي، ولاستخلاصنا، بوسيلة النتيجة، مداه ودرجة استمراره. وينجم عن هذا أنه ليس بمقدورنا أن نحدد، على نحو أكيد، ما هي الآيات "الناسخة" وما هي الأخرى "المنسوخة" ، إلا إن قبلنا الحل النظري الذي أقره الإسلاميون الأصوليون ، أي نظرية تطرح كمّسلمة (Postulat) أن الحرب على غير المسلمين لابد أن تلبث دون قيد ولا شرط. وفي هذا الوضع يظل الجهاد الحربي المعمم والقائم على أساس أشد الآيات "نزوعاً إلى الحرب" في القرآن، يظل مطروحاً كمعيار للتفسير، الأمر الذي يتيح أن يصدر قرار النسخ لجميع الآيات الأقل ميلاً إلى الحرب.

وهنا بالطبع، مصادرة على المطلوب (Pétition de principe) بما أن النظرية التي من المفروض كونها صادرة عن القرآن، يفضي بها الأمر إلى أن تستخدم معياراً لتفسير هذا القرآن بذاته.

آيات " داعية إلى السِلم " وآيات " موالية للحروب "

من الممكن توزيع الآيات القرآنية المتعلقة بالموقف الذي ينبغي اتخاذه حيال الكافرين، حسب أربعة عناوين رئيسية: الآيات "الداعية إلى السلم" [السلموية] : pacifistes والآيات التي تدحض التحفظات إزاء الكفاح المسلح، والآيات التي تظهر مقاومة بعض المؤمنين حيال الأمر الذي أصدره الله للقتال، وأخيراً الآيات التي تفرض، بوضوح، استخدام القوة المسلحة في سبيل الله (الجهاد الحربي) [الآيات الحروبية]: bellicistes.

١ - الآيات الداعية إلى السلم [السلموية]

عدد هذه الآيات ثمانية. أنزل الوحي في أربع منها في مكة قبل الهجرة، فيما كان المسلمون أقلية، وفي وضع عسير ما بين قبائلهم الخاصة وقد ظلت تعبد الأصنام. وتوصي هذه الآيات المسلمين بأن يتحاشوا مخالطة عبّاد الأصنام، وأن يعربوا عن إيمانهم بفطنة وحكمة، وأن يتحلوا بالصبر (القرآن، ٦: ١٠٦، ١٥: ٩٤ ١٦: ١٢٧، ٥٠: ٣٩).

أصدرت الأربع الأخرى في المدينة، حينما كان النبي حليفاً لعدة قبائل يهودية، ولبث يأمل ارتدادهم إليه. وتدعو هذه الآيات، حيال اليهود إلى الصبر والتسامح والصفح: فإنما الله هو الذي بذاته سوف يعاقبهم إبان يوم الحساب، إن كانوا كافرين (القرآن: ٢: ١٠٩ - ١٣١، ٥: ١٣، ٢٩: ٤٦ - ٥٥، ٤٢: ١٥). وإن هذا الموقف المتحلي بالفطنة والتحفظ يتم تفسيره، على نحو طبيعي جداً ، بحالة الجماعة المتسمة بالضآلة العددية، وعدم الاستقرار في مستهل أيامها.

٢- الآيات المناهضة للمتحفظين على الحرب

إن هذه الآيات معدة، قبل كل شيء، للتغلب على اعتراضات بعض المؤمنين حيال أوامر الحرب التي يصدرها النبي أو معدة لتهدئة وساوسهم، وغالباً ما كانت تنجم عن تقاليد الجاهلية المنوطة ببعض "المحرمات" . (Tabous).

هذا هو، على سبيل المثال، وضع القرآن (٢: ١٨٦ - ١٨٧) فهو يأمر المسلمين بالقتال، حتى في الحرم المقدس، إن هوجموا فيه، أو أيضاً آية قرآنية (٢: ١٩٠) في شأن المعارك خلال "الأشهر الحرم" ويرى فيها فقط بعض المفسرين مرجعاً إلى "الشهر المقدس (ذو القعدة) لعام ٦٢٨ ويقول آخرون إن الآية تعلن القتال خلال الشهر المقدس قتالاً مسوّغا ، ولكن، بصفته قتالاً دفاعياً وحسْب، إن هوجم المسلمون.

ثمة آية أخرى (القرآن: ٩: ٣٦) ترجع بشكل أوضح "الأشهر الحرم" الجاهلية إلى أربعة. وهي تقضي بألا يتردد المؤمن في محاربة الكافرين، خلال هذه الفترات. ومن المحتمل أن الأمر يعني هنا محاولة لأسلمة الشهور هذه، فيسلخ عنها سمة القداسة (Désacralisation) . لأن مصلحة الجماعة لابد لها أن تتفوق على قداسية هذه الأشهر

المفترضة. فالكفاح خلال هذه الفترات هو "شرّ"؛ كذا يعترف هذا النص، لكن الأذية التي تلحق بالمسلمين تتجاوز هذا الشر، فتبرر كل التبرير نسخ الشريعة الجاهلية القديمة التي تحظر كل إهراق دم في غضون هذه الشهور المقدسة.

سياق هذه الآية معروف: فإبان سطو ٍعلى "نخلة" قُتل أحد المكيين على يد مسلم. واتُهم محمد بانتهاك الأشهر الحُرْم، وذلك بقصد إفقاد النبي اعتباره، بعد أن أمر بتلك العملية. فأتت هذه الآية في حينها تماماً ، بغية تسويغ تصرف النبي، والبرهنة على الأهمية التي كانت ترتديها مؤسسة الجاهلية لهذه الشهور الحُرْم الأربعة، في نظر المسلمين. وبُرهن أيضاً ، بقرار إلهي أنزل على النبي، أن هذه الشرائع منذئذٍ، منسوخة لخير شرائع إسلامية جديدة. وقُدم الداعي لهذا النسخ: إن تجربة عبادة الأصنام (أي الفتنة) أشد خطورة من واقعة القتل، ولئن طرأ هذا القتل خلال الأشهر الحُرْم. فلابد من تغلب الإيديولوجية الإسلامية.

هذه الآيات، بمعزل عن كونها "موالية للحروب" [حروبوية] بصورة واضحة (لربما باستثناء الآية الأخيرة) تظل معدة لإقناع المسلمين بالتسويغ الكامل للمعارك التي يأمر بها النبي.

٣- الآيات " المناهضة للسلم " [المناهضة للسلموية]

ثمة آيات عديدة أخرى تشهد، في آن معاً ، على تحفظات بعض المسلمين حيال القتال بالأسلحة، لشتى الأسباب، وعلى الاستنكار الذي أعرب عنه النبي لتصرفهم، وذلك استناداً إلى الوحي النازل من عند الله. وهكذا، فإن القرآن (٢: ٢١٥) يَعِدُ بالرحمة الإلهية لمن غادروا أوطانهم من أجل القتال في سبيل الله. ويشجب القرآن "المؤمنين" الذين يحتجون بعدم كفاءتهم الحربية، ويحسبون أنه بوسعهم إعفاء أنفسهم من الاشتراك في معركة أحد، فهؤلاء هم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، كذا أجاب القرآن. أما الذين مكثوا في منازلهم، وحزنوا، لأن الكثير من المؤمنين قد ماتوا في القتال، فالله يجيبهم بأنهم ليسوا "أمواتاً " بل، نقيضاً لذلك، هم أحياء عند ربهم يرزقون. فهنا بالطبع، بداية أولى لعقيدة الشهادة. وتستمد هذه العقيدة جذورها أيضاً من آية أخرى (القرآن، ٤: ٦٩ – ٩٩) فهي تندد بالمؤمنين الذين ينزعون بمقدار مفرط

إلى القتال، لأنهم يأملون الغنيمة وحسب: ومهما كانت الغنيمة مشروعة، فليست الخير الوحيد الذي يجب ترقبه من مثل هذه المعارك المناهضة للكافرين، فمن المؤكد أن الله سوف يجزي المقاتلين في سبيله، لأنه سوف ينهض بهم إلى رتبة أوفر سمواً من رتبةٍ الذين ينفرون من القتال.

تُترجم أيضاً السورة (٩: ٤٢ -٤٩) انتقادات بعض المؤمنين للحملات العسكرية التي يأمر بها النبي. فالمعاندون يدانون بعنفٍ: إنهم يرتابون، ويسقطون في التجربة فينذرون لجهنم. وهناك آيات أخرى (مثلاً ، القرآن، ٣٣: ١٣- ٢٥) تمضي إلى المنحى ذاته: فهي تُذكر بالتدخل الإلهي الذي نصر المسلمين (ترتبط هذه الآيات بمعركة المدينة) فيما كان يخشى كثيرون الهزيمة والاندحار، فَتَوخَّوا عزوفهم عن القتال. وقد أنقذ المؤمنون بنصرة من الطغمات السماوية اللا مرئية، وهذا ما يبرهن على قداسة قضيتهم. فالله يجزي المؤمنين المخلصين الذين قاتلوا ، ويعاقب المؤمنين الفاترين.

بالتالي، تشهد هذه الآيات على غياب الإجماع في الجماعة الأصلية: فبعض المؤمنين، وهم يعتمدون، دونما شك، كل وحي سابق والتصرف السلمي الذي نوه به، باديءَ ذي بدء النبي في مكة، وينفرون من الواجب الأخلاقي المفروض عليهم للاشتراك في المعارك، ويسعون إلى التهرب منها ، إما بإذن من النبي (بحجة عدم كفاءتهم الجسدية أو المهنية) وإما بمكوثهم في منازلهم، وإما أحياناً حتى برفضهم الأمر الذي يصدره محمد. ولابد، مع ذلك، التشديد على أن الوحي القرآني، فيما كان يدعم الخيار الحربي الذي يختاره النبي، يُثبّت، في الحين ذاته، أسس عقيدة الجهاد الحربية، وهي التي سوف تتفوق فيما بعد ويتم تحديدها عقائدياً

٤- الآيات " المناصرة للحروب " [الحروبوية]

هذا التفسير يرتكز عل أسس، لاسيما وإن آيات عديدة أخرى تعتمد الحروب بمقدار أوضح أيضاً وهذه الآيات هي التي تعتبرها النظرية التطورية بمثابة آيات "ناسخة" للآيات الداعية إلى السلم وحتى خارج هذه النظرية، فإن عددها وقوتها كافيتان، كما يبدو، من أجل إثبات عقيدة: عقيدة للجهاد الحربي، عقيدة تتخذ أساسها القرآن.

استقينا الآيات المعروفة بالأكثر من السورة الثانية: وبوسعنا ترجمتها كما يلي [نورد هنا نص القرآن]:

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه. فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين (القرآن، ٢: ١٨٦- ١٨٧)

تثبت هذه الآيات، بكل تأكيد، جواز الحرب الدفاعية. غير أن الآيات التالية تتيح امتداداً لعقيدة الجهاد هذه. فلا جرم أنها تأمر بقتال "الكافرين" حتى تستقر في كل مكان عبادة الله الأحد. ولكن، يبقى من الواجب التحديد في أية منطقة جغرافية لابد من شن هذا القتال. ولا يبدو أن محمداً قد فكر، خلال ذاك الحين، في أرض غير شبه الجزيرة العربية، وقد أراد أن يجتث منها "الكافرين" وهذا المصطلح يشير، على نحو محتمل، وفي ذاك التاريخ، إلى الأعداء المُشركين.

نجد الإشكالية ذاتها في عدة سور غيرها:

" قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سلف، وإن يعودوا [فسوف يعاقبون*][(١)] فقد مضت سنةُ الأولين. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" (القرآن: ٨: ٣٩- ٤٠).

هنا أيضاً ، من المحتمل أن الأمر يعني فقط الحرب الدفاعية، كما تبين ذلك السورة التالية:

ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوهُ إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهِمْ وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين" (القرآن، ٩: ١٤).

إن هذا النص، مرةً أخرى أيضاً ، يرجع إلى القتال الذي جرى في المدينة بصحبة الجماعة التي قادها النبي على من رفضوا رسالته، وقاطعوا الأحلاف، وحاولوا أن يجتثوا الإسلام الوليد. إلا أن صيغة الحث على القتال بوسعها أن تتسبب بتفسير أعم، ألا وهو حرب "مستديمة" تشن على الذين لا يتقبلون رسالة النبي، وهم الوثنيون، والمشركون، وعبدة الأصنام، وحتى "أهل الكتاب المقدس"، وذلك إلى أن يخضعوا لشريعة الإسلام (دون ارتدادهم إليها) فيؤدون الجزية. فالنص يستأنف قائلاً

---

(١)- القوسان المعقوفتان مع * من النص . [المترجم]

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخير، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"

في القرآن، يحث الله بوضوح النبي على أن يعلن ويقود هذه الحرب على الكافرين من الجوار (القرآن، ٩: ٧٤). وفي هذا الظرف، نحن في شأن المكيين، غير أن شيئاً لا يحظر التوسع بهذا المفهوم على صعيد المبادئ. وهذا ما يفعله الأصوليون في أيامنا هذه، مثلاً في ما يخص هذه الآية التي أنزلت في مكة فهي تعني القبائل العربية الكافرة:

فإذا لقيتم الذين كفروا، فضربَ الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإمَّا منّاً بعد، وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله، فلن يضل أعمالهم.

(القرآن ٤٧: ٤- ٥) [أوردت نص القرآن؛ المترجم].

إذن الحرب التي تشن في سبيل الله (الجهاد) تحسب للمقاتلين عمل ورع له ثوابه، عملاً يُريد الله أن ينيطه بالمؤمنين من أجل خيرهم فيجزل استحقاقاتهم.

ها نحن هنا تماماً في امتداد للتوراة و"حروب القيوم"، ولكن، على نقيض رسالة المسيحيين الأولية. فإن عقيدة القرآن، كمثل مواقف نبي الله تماماً ، في شأن العنف والحرب، تناقض جذرياً عقيدة الأناجيل وموقف يسوع [المسيح عليه السلام].

كان إذن يتيسر أن تزدهر بسهولة فكرة الحرب المقدسة في الإسلام التاريخي. ومن الممكن أيضاً أن تُعلّق استناداً إلى الآيات الداعية إلى السلم، أو أن تخفف فحوى الآيات القتالية ، نظراً إلى الظروف التي سادت لنزولها. ولبث كل شيء منوطاً بالتفسير الذي تفسر به الآيات القرآنية، والحوادث العرضية الكبرى، في حياة النبي المثالية التي يرويها الحديث.

الجهاد في السُنّة

لبث القرآن معيار التصرف ومصدر الشريعة، عقب موت محمد. لكنه لم يُجْب دوماً ومباشرة عن جميع الأسئلة المفصلة التي كانت تطرح على المؤمنين. فانطلق

البحث، بالتالي، في أقوال النبي وأفعاله، عن نماذج من شأنها، نوعاً ما، أن تشكل "اجتهاداً " "فأقوال النبي هذه (الحديث)، المنقولة شفهياً خلال قرن ونيف، تم عندئذٍ جمعها وتحريرها: فأفعال وأقوال محمد هذه تشكل "سنة النبي ، ومنذئذٍ اعتبرت حجةً. ومع كرّ الزمان، تصاعدت لدى المؤمنين هيبة النبي الأسطورية. وأفضى ذلك بالبعض منهم إلى أنهم اعتبروه عندئذٍ معصوماً عن الخطأ في أفعاله وأقواله على السواء.

إن مقابلة نصوص هذه الأحاديث الشفهية، وقبولها وتحريرها، بعد قرن من موت النبي، طرحت مشكلات عديدة فكان لابد من فرز وفصل التقارير الأصيلة، عن الأخبار "المزورة"، عن الحكايات، عن الأساطير، عن الأمور المزيفة، التي أثارها الورع المتزايد، وسلطة هذه الروايات التي تنقل أقوال محمد. فتوجب إذن إثبات نظام دقيق لكشف هوية الأحاديث ولرقابة نقلها. فكان المعيار هو التالي: لكي يتم اعتماد الحديث، يتوجب أن يرد مباشرة من أحد صحابة النبي، أن يكون منقولاً بسلسلةٍ لا تنقطع من الشهود. وكانت المدونة قد بقيت شفهية حتى القرن التاسع. وإن تحريرها، في شتى الأماكن، عبر العالم الإسلامي، قد جمع عشرات آلاف الحكايات ودونت في مجموعات عديدة.

تم الاحتفاظ بست مجموعات، بعد التصفية. ولبثت اثنتان منها، بصفتهما حجة بصورة خاصة: وهما مجموعة البخاري (مات في عام ٨٦٩). ومجموعة الحجاج (مات عام ٨٧٣) والمسلمون يثقون بهما أيما ثقة وبالطبع، نجد هنا شهادة إيمان لأنه يستحيل أن يكون المرء متأكداً من عدم اختلاط أحاديث مزيفة بسرد حكايات حقيقية، ولا من أن حكايات حقيقية قد قرنت عمداً بإضافات مبالغة أو أسطورية.

بالطبع، تم تناول مسألة الحرب في هذه الحكايات والقصص. وإلى جانب ذلك، جمعت هذه القصص في عصر فرضت فيه عقيدة الجهاد نفسها، حسب النزعة إلى الحروب التي كانت قد تفوقت. نرى هذا الأمر من خلال الفصل المعنون "كتاب الجهاد" ويستهل هذا الكتاب بقضية مؤمن يسأل النبي: "ما هو الخير الأعظم" فيجيب محمد إن هذا الخير له ثلاثة وجوه: فالأول يرتكز على القيام بالصلاة في أوقاتها المفروضة، والثاني يشتمل على التقيد بحب الوالدين، والثالث على إنجاز الجهاد. وثمة قصص

تشدد أيضاً ، وبالمزيد من الوضوح، على قيمة الجهاد عند الله. وكذلك، إجابة على سؤال طرحه مؤمن على محمد طالباً إليه أن يذكر: فعلاً يفوق الجهاد، أجاب النبي أنه لا يستطيع أن يجد شيئاً آخر. وعلاوة على هذا، أكد النبي أن الجهاد أفضل من العالم بأسره، ومن جميع ما يحتويه. ويمجد مجمل الكتاب القتال في سبيل الله والاستحقاقات المنوطة بهذا القتال. هيا بنا نوضح مجدداً أن لفظة الجهاد يتم فهمها بالمعنى الأعم، غير أن بعدها القتالي متضمن فيه بصورة واضحة.

إن القصص المتعلقة بكيفيات القتال وقواعده، وبحالة المقاتلين الذهنية ومقدراتهم، تبين ذلك دون لبسٍ. ونرى هذا الأمر من خلال النصوص التي تدين من يرفضون القتال (فالله سيضربهم بنكباتٍ تفاجئهم)، أو من يقاتلون لدواع مادية بمقدار مبالغ فيه ("من لا يقاتل في سبيل الله فقط إلا لأجل جوائز مادية فلن يلقى أي ثواب ")، وإلى جانب ذلك، من خلال المكافآت في الحياة الأخرى التي يعد بها من يقاتلون فيموتون في سبيل الله.

وعلى هذا المنوال، يُضمن للمقاتلين المجاهدين قبولهم في الجنة، ولئن لم يقتلوا مباشرة في ساحة المعركة. ويعتبر فعل قتالهم فعلاً جديراً بالتقدير بحد ذاته. أما من يموت مقاتلاً فيدخل الجنة في الحال، وما هو أفضل أيضاً لكونه قد غدا شهيداً ، فإن شفاعته قوية وفعالة، وبمقدورها أن تُدخل في الجنة سبعين فرداً من عائلته، ولولا ذلك، لكان هؤلاء منذورين للجحيم. وهكذا، يؤكد أحد الأحاديث على كرامة الشهيد في القتال، فهي كرامة متفوقة السمو: ومن المحتمل أن النبي قال فعلاً ليس ثمة مؤمن، إن تهيأ له أن مات وقبُل في الجنة لدى الله، لن يريد العودة إلى الأرض ليعيش فيها مجدداً ولئن وعد بحوزته العالم بأسره. ليس ثمة أحد....... إلا شهيد الجهاد، لأنه بعد رؤيته عظمة وقيمة الشهادة الجديرة بالتقدير و امتيازاتها، فسوف يتمنى العودة إلى العالم ليستأنف القتال فيقتل مرة أخرى.

إن هذه الميزات التي توضح استحقاقات الجهاد والمكافآت السماوية التي تؤهب لمن يقاتلون، ميزات تعرب عن السمات النوعية لحرب مقدسة. فليست عادلة وحسب، بل هي مقدسة، لأن المؤمن يخوض هذه الحرب في سبيل الله، وبأمر من الله فهي حرب مشفوعة بامتيازات ومكافآت لا تحصى من الله الذي هو وحده يقتدر على أن يهبها.

وبالتـالي بوسع المؤمن أن يكسب الجنة، والسـلاح بيـده. وقلمـا نجد من بعـد في هذه الحكايات التي جمعت في القرن التاسع، أثراً لعقيدة تدعو نسبياً إلى السلام. فأطروحة الجهاد الحربي قد تغلبت بصورة نهائية.

الجهاد في السيرة: حياة النبي

السيرة هي الصياغة الإخبارية لحكايات من النوع الحديث يتيح إعادة رسم حياة النبي. وبعد أن تم تحريرها عقب وفاة محمد بمئة عام، في عصر بلغ فيه نفوذه القمة، اتسمت السيرة، أكثر من السنّة، بميزاتٍ لها من عدم اليقين ما هو نسبيّ. ومن المحتمل أن يبدو محتوماً لكل ذي ناقد عصري تواجدُ ميزاتٍ أسطورية كثيرة قد أضيفت إلى العناصر التاريخية فعلاً

إلا أن "التنميقات المفرطة" هذه إن وجدت، لا تُفسد بشيء نتائجنا في شأن الجهاد، إن هذه التنميقات تمضي، بالطبع، عبر الاحترام والتبجيل، إلى ما هو أمثل لصورة النبي. وهي بذاتها بليغة الدلالة على الطريقة التي كانوا يريدون أن يدركوا بها النبي، مع تشديدهم على الجوانب التي رأوها "إيجابية" في موقفه الشخصي. أما في صدد الجهاد، فالسيرة تزودنا، وقبل كل شيء، بصدى كامل عن عقيدة "الجهاد" الرسمية الإسلامية، إبان عصر تحريرها، أي في القرن التاسع. ومن بليغ الدلالة، في هذا الشأن، أن صورة الجهاد الناجمة عن ذلك لها المزيد من طابع الحرب أيضاً ، بالنظر إلى الوثائق التي قمنا سابقاً بتحليلها، وهذا برهان بَيِّنٌ على أن هذا البعد الحربي، الذي تَوَضح لدى النبي، كان يعتبر في ذاك العصر جديراً بالمديح بصورة خاصة.

إنما في السيرة، أكثر مما في الوحي القرآني، نميز بأوفر دقة تطور النبي والجماعة باتجاه المزيد من الموقف الحربي، انطلاقاً من الفترة المكية السلموية [الموالية للسلام] وحتى فترة المدينة للدفاع عن النفس، وهي الفترة التي صارت فترة فتوح ملتزمة بالتوسع عقب الاستيلاء على مكة.

محمد في مكة

حسب حكايات مصادر المسلمين، والتي جمعت في السيرة، لا يبدو أن الدين الجديد قد أثار ردة فعل، قبل قيام محمد بمبادرة تشجب ممارسات عبادة الأصنام. فمنذ

ذاك الحين، أثارت الجماعة العداوة. فهوجمت وهي في معظم ابتهالاتها، وللمرة الأولى أهرقَ مسلم الدم برمية سهم. وافتخر الفاعل بفعلته هو نفسه شخصياً في قصيدة نظمها محمد بذاته وهو يشم عباد الأصنام، إلا أنه امتنع عن كل عنف جسدي. ولبثت الجماعة كلها، وهي أقلية تفتقر إلى من يدافعون عنها، فتنطوي على نفسها بإذعان وتتحاشى كل مناسبة لاشتباك عنيف، فيما كان أفرادها يُشتمون ويضربون ويضطهدون. فهرب عندئذ الكثير منهم إلى الحبشة حيث قبل النجاشي [إمبراطور الحبشة] أن يحميهم، بعد أن استنطقهم عن إيمانهم. والسيرة تسرد هذه الحادثة التي يعرض فيها المسلمون أن الله قد بعث إليهم بنبي ليعزفوا عن الأصنام والكذب وإهراق الدم، هذه الأمور التي كانت تتميز بها معتقداتهم القديمة. فموقف هؤلاء المسلمين الأوائل لا ينجم، رغم ذلك، عن منحى سلموي مبدئي. فهو مرتبط فقط بأنه ليس بينهم أي رجل حرب حقيقي. ونرى هذا بوضوح، حين غدا عمر ثم حمزة مسلمين: فالسيرة تشيد بقدراتهما القتالية، وبالحماية التي وفراها لجماعة المؤمنين الفتية: فلم يعد أحد يزعجهم جسدياً ، غير أنهم ظلوا منبوذين ومحتقرين. وتدنت هذه الحماية "الجسدية" عند موت خديجة وأبي طالب عم محمد. إلا أن بضع مجموعات من يثرب (المدينة مستقبلاً) انضموا إلى الجماعة المسلمة، والتزموا بذودهم بالسلاح عن محمد، مناهضين أعداءه. فسكان المدينة كانوا إذن أوائل من عقدوا عزمهم على خوض الحرب. عندئذٍ كشف الله لمحمد أنه يؤذن له بقتال من يظلمونهم. وقد دون هذا الوحي في القرآن.

أذِنَ للذينَ يُقاتَلونَ بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير (القرآن: ٢٢: ٤٠؟) [نص القرآن الكريم].

ومنذ ذاك الحين، طفق محمد هو بذاته، يبادر بالقتال. وبعد الهجرة إلى المدينة، قام بتنظيم جماعته لكي يتصدى لأعدائه القرشيين بقوة السلاح.

محمد في المدينة

تروي السيرة أن محمداً ، منذ وصوله إلى المدينة، وعقب هبوط الوحي الأول بثلاثة عشر عاماً ، راح يتهيأ للحرب، تنفيذاً لأمر من عند الله يوصي بجهاد أهل مكة. وإبان مجابهةٍ أولى، قتل أحد المكيين. وفي هذه المناسبة تماماً طرحت الإشكالية حول

الأشهر الحرم (في شهر رجب). لا جرم أن قتل هذا الإنسان بلبل الجماعة. وطفق المعارضون يتهمون محمداً ، فأنكر، أولاً ، أنه هو نفسه قد أصدر الأمر بالقتال خلال تلك الفترة. وكما رأينا آنفاً ، تم التغلب على هذه الأزمة الداخلية بوسيلة وحي ٍ قرآني يبرر محمداً

خلال المجابهة الثانية، في معركة بدر، من المحتمل أن محمداً قد حث هو نفسه مناصريه على الحرب، واعداً بالجنة من سيقتلون في المعركة. وفي هذا الشأن، تروي السيرة عدة طرف تتعلق بعقيدة شهادة المقاتلين في سبيل الله. فهي تعرب، على الأقل عن تصور الجهاد "رسمياً " في فترة تدوينه.

لا شك أن اتفاق " المدينة" كما يقال عنه، وقع بُعيد وصول محمد إلى المدينة، عقب معركة بدر. وكان الأمر يعني، قبل كل شيء، إجراء تسوية وساطة تتيح تنظيم العلاقات مابين المسلمين اللاجئين إلى المدينة وقبائل الجوار الأخرى، اليهودية منها والمسيحية أو قبائل عباد الأصنام، وكان الأمر يعني تجنب المشاجرات الداخلية، ودفع هذه القبائل على عدم تحالفها مع خصوم محمد المكيين. وطبقا للاتفاق، احتفظت هذه القبائل ببعض "الاستقلال الذاتي ، وبمسؤوليات تخصها، غير أنها التزمت بعدم شن الحرب دون إذن من محمد (البند ٣٦). وبالمقابل، اقتضى "القتال في سبيل الله" تمام تضامن جميع المؤمنين (البند ١٩). وترتب على اليهود أيضاً أن يسهموا في القتال بمواردهم (البند ٢٤)، فالتزم اليهود والمسلمون بالنصرة المتبادلة على العدو (البند ٣٧).

الخـــاتمة

من الممكن اعتبار اتفاقات المدينة بمثابة "الميثاق" الأول " للأمة ". بيد أنها أعربت عن شهادة ولادة الجماعة الإسلامية، في ظل إدارة محمد السياسية/العسكرية/ الدينية.

وقامت الحرب بدور هام في هذه الجماعة، حيث أنه توجب عليها حماية نفسها من أعداء كثيرين. وقد اتخذت هذه الحرب سمات دينية، بل مقدسة بمقدار ما لبثت تُشن على الكافرين، بقيادة النبي، مزودة بضمانة إلهية، وحتى، في بعض الأحيان، بأمر فوري من الله. وهذه الجوانب للحرب المقدسة، وقد باتت ماثلة، وأقله كمبدأ، في القرآن وبالمزيد من ذلك في السنة، قد تم إقرارها نهائياً في العقيدة الإسلامية، وفي الذهنيات، خلال الفترة التي كتبت فيها سيرة النبي، أي خلال القرن التاسع. ومنذئذٍ،

صار الجهاد مدوناً بقوانينه، وغدا فيما بعد موضوع بيانات عقائدية، وبحوثٍ نشرت فكرة الجهاد وناقشت طرق تطبيقه.

لكن فكرة الجهاد الحربي كانت مقبولة قبل إثبات عقيدتها بكثير، وعلى الأقل في ذهنية المسلمين المشتركة، ومنذ عصر النبي. وكان الإيعاز بقتال "المشركين" الكافرين من مكة أمراً واضحاً على نحو خاص: "فإذا انسلخ الأشهر الحرم، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. (القرآن: ٩: ٥، رَ أيضاً القرآن: ٢: ١٨٧ - ١٩٠). فالتوبة وحدها (ولابد من تمييزها عن الارتداد)، وقبول صلاة المسلمين، وأداء الضريبة الإسلامية، كان بوسعها أن تعفيهم من الهجوم عليهم. ولم يكن عباد أصنام مكة الوحيدين الذين تستهدفهم الحرب في فترة محمد: فمن أهدافها القبائل اليهودية أو المسيحية، إن لم تتقيد بمطالب الحلف مع محمد أو بالخضوع له.

لابد لنا هنا، مع ذلك، أن نذكر عدم وجوب شن الحرب المنتظمة على جميع من يرفضون الإسلام. في الواقع، كان ينبغي نصرة جماعة المؤمنين، وحمايتهم عسكرياً على يد المسلمين جميعاً ، بروح من التضامن، فهجومٌ ما على جزء من هذه الجماعة كان يعتبر تعدياً على مجمل هذه الجماعة. ولكن، منذ البداية الأولى، مارس محمد سياسة الأحلاف، سياسةً معقدة جداً ، مع القبائل غير المسلمة، وقد أدت هذه السياسة إلى الحد كثيراً من حالات الحرب المقدسة.

عندئذ، ترى إلى أي مدى ذهب الالتزام بالجهاد الشخصي، في شكله الحربي؟ ظلت عقيدة محمد تطالب، نظرياً ، بتعبئة جميع السكان القادرين على حمل السلاح. لكن، في حقيقة الواقع العملي، قد أدى الأمر سريعاً إلى الاعتراف بأن نجاح الحرب الهجومية كان يرتبط بالخيالة ارتباطاً أساسياً ، لكن الخيالة مكلفة. وإن تمويل فارس مسلح قد غدا عندئذٍ وسيلة مقبولة لوضع واجب الحرب المقدسة الأخلاقي موضع التطبيع والممارسة. فها نحن هنا في البداية الأولى لتفويض مهنيين في الحرب بواجب الجهاد، الذي سوف يمارسونه فيما بعد.

إن استقرار محمد في مكة، بعد انتصاره، لم ينه الحرب من برنامجه، بل على نقيض هذا، فقد كان أحد أوائل قراراته مجابهة القبائل المناوئة للإسلام في الحجاز، وانتصر عليهم في معركة حُنين. وأراد محمد، عام ٦٣١ ، أن يقود هو بذاته حملته العسكرية الكبيرة الأخيرة، شمال الحجاز. ويبدو أن منطلق هذه الحملة صدر عن وحي

إلهي. فتُرجمت بإعلان حرب على المسيحيين واليهود، وقد وُصفوا بأنهم "لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخير فباتوا مماثلين للمنافقين"

كان الأمر يعني هنا، بوضوح، جهاداً ، أي حرباً مقدسة. وفي واقع الأمر، أكد محمد لمؤمنين يمضون إلى القتال في تلك الحملة الكبيرة، أن الله سوف يدخلهم الجنة حالما يقتلون. وراح يقول أيضاً (وهذا ما هو مدهش، على الأقل) إن التوراة والأناجيل تشتمل أيضاً على هذه الوعود لشهادة المؤمنين. وإن استطعنا التفكير، في الواقع، أن مثل هذه العقيدة للشهادة كان لربما موجوداً (لكن، من المحتمل الشك في ذلك) في أسفار اليهودية المقدسة، فمن الواضح أن هذه العقيدة لا يمكنها، في أية حالٍ أن تنتمي إلى الإنجيل الذي ليس فيه أي أثر منها، بل على نقيض هذا تماماً ، كما سبق لنا أن رأينا ذلك سالفاً وبالطبع، إلا إن قبلنا، كما يؤمن بذلك (أحياناً) المسلمون، أن الأناجيل قد عدلت نصوصها، أو حذف منها، أو أفسدت معانيها، بالضبط كما يكون حدث ذلك في مجمل نصوص العهد القديم المقدسة. وهنا ، طبعاً ، يعني الأمر تأكيداً يرتبط بعقيدة الإيمان وحدها، لا بالعقل الناقد الذي لا يضمن البتة هذه الأطروحة. فالمؤرخ لا يستطيع، بأي حال، أن يأخذ هذا في الحسبان، خلال ما يبديه من محاججة وتدليل.

لقد أكد محمد مرات عديدة أن الله سوف يجعل الإسلام يظهر على جميع الديانات الأخرى، وأكد ذلك في حينٍ استبق كثيراً تصريحاته المتسمة بالنزعة القتالية (عظة الوداع التي ألقاها محمد بمناسبة الحج إلى الكعبة، عظة تعتبر بمثابة إتمامٍ لرسالته). وقد شرّع هذا التأكيد، بالطبع، الطريق إلى برنامج الفتوحات، رغم أنه، بصورة محتملة، كانت مرجعيته تنحو إلى سيطرة دينية أكثر منها دنيوية، بمقدار ما يتيسر التفريق ما بين الجانبين، في ذهنه. فالواقع هو أن المسلمين قد أخذوا، باكراً جداً، بمهمة ردهم إلى الإسلام العالم قاطبةً، وبقوة السلاح (ونذكر أننا نعني بكل ذلك: أن يخضعوا العالم بأسره لشرعة الإسلام، لا أن يردوا سكانه إلى الإسلام، عنوةً). فكان الفتح، بالضبط، في صميم الرسالة، لكن السيطرة السياسية بقيت الشرط الضروري لذلك، وهو الشرط الثانوي، لكنه، رغم هذا، شرطٌ أساسي لتأمين انتصار الإسلام. وبالتالي، قد قامت الحرب المقدسة، باكراً جداً ، عقب موت محمد، بدور مزدوج: ديني وسياسي، طبقاً لطبيعة الجهاد عينها، فهي على غرار كل حرب دينية، تنجم عن الإتحاد الوثيق ما بين هذين المضمارين.

الفصل السادس
الجهاد وفتوحات المسلمين

من الثابت أن الحرب لم تكن لجماعة المسلمين بمثابة أهمية أولى، ولم تكن لتمثل هدفاً؛ غير أن تصرف محمد، حربياً ، كان في بدايته تصرفاً دفاعياً وحسب، ثم نزع إلى التوسع بقوة السلاح، بعد أن ضمنه العديد من الوحي القرآني، مع التسويغ باستخدام الأسلحة لخير الجماعة. وقد استتبع هذا التصرف بالضرورة تقييماً أخلاقياً للحرب. وترجم هذا التقييم بتفسير "حربي" مّطرد لآيات القرآن ولموقف محمد في الماضي. ومن بليغ الدلالة أن المحاولات الأولى، المعدة لكي تجمع عناصر سيرة حياة محمد، عقب وفاته، قد أطلق عليها اسم "المغازي" (أي حملات النبي الحربية: غزواته). ونَسبَ مؤرخو الحوليات اللاحقون، إلى جانب ذلك، سبعاً وعشرين إغارة كبرى قام بها محمد.

لكن، ليس من المؤكد أن النبي قد عزم على شن هذه الغزوات خارج ربوع شبه الجزيرة العربية، ولئن كان محمد، قبل وفاته بقليل، يتهيأ ، بالتأكيد، لقيادة غزوة شمال الحجاز. وبالمقابل، بسط خلفاؤه بسرعة شديدة، مضمار عملهم العسكري / الديني، فوسعوا بذلك نطاق تفسيرات الجهاد الممكنة.

تكوين إمبراطورية عربية

صدمت وفاة محمد المباغتة أمة المؤمنين صدمة هائلة. ولم يكن قد أعد شيء من أجل خلافته. وكانت الجماعة قائمة على أساس وحدة وثيقة لإيديولوجية دينية، ولدولة لبثت في طور نواة أولى. ترى ما الذي سيطرأ عند وفاة زعيمها ، النبي ورئيس الدولة في آن معاً فكان من المحتمل جدا أن تستيقظ النزعات الفوضوية في المجتمع العربي، وكذلك الخصومات العشائرية.

في واقع الأمر، ظهرت هذه النزعات والخصومات فور وفاته: في تلك الليلة ذاتها (٨ - ٩ حزيران/ يونيو ٦٣٢)، فيما كانت جثة النبي "منطرحة" في الكوخ حيث سبق له أن انعزل ليرتاح، راح زعماء حاشيته يتناقشون بحدة عنيفة، محاولين الحفاظ على بقاء الوحدة. ومن أجل الخلافة بعده على رأس الجماعة / الدولة، كان لابد لأحد صحابته في المعارك الأولى أن يتابع فكرة النبي، لكن دون أن يتميز بمقدار مفرط، أو أن يتشيع بانتمائه إلى قبيلته الخاصة.

وقع الاختيار على أبي بكر، والد زوجة محمد "كخليفة" له (ومن هنا أتت اللفظة الفرنسية، كاليفْ: Calife) غير أن أعضاء آخرين من عائلة النبي - ومن بينهم علي، صهره، وعباس عمه، وأبو سفيان، والد آخر لإحدى زوجاته - كانوا يتوخون تقلد زمام هذه الخلافة لصالح عشيرة كل واحد منهم. ولم يعترفوا بأبي بكر: ولكن سعياً إلى تجنبهم ظهور أبي بكر كخليفة عيّنه النبي استبَقوا مأتماً محتملاً "رسمياً" ، قد يترأسه أبو بكر ، فقاموا إذن بدفن محمدٍ دونما تريث، في تربة الكوخ نفسها حيث أسلم الروح.

عندئذٍ، كان تهديد الشقاق أشد من أي يوم مضى. وانتصر في ذلك أبو بكر: وطفق يقمع القبائل العربية الثائرة، ثم شرع يوسِّع عسكرياً نطاق الدولة الإسلامية.

كان ثمة عدة أسباب تدعو إلى اتخاذ هذا القرار. فشبه الجزيرة العربية كان مكتظاً بالسكان، قاحلاً، ضئيلَ الصلاحية للزراعة، تحت قيادة أرستقراطية عسكرية تحتقر أعمال الفلاحة، ويتقوت خاصة من التجارة واستغلال الغزوات. فالحل كان يقوم على توسيع ميدان الفتوحات بمنحى الأراضي الخصيبة والثرية في الأقطار المجاورة: وهي مصر، الهلال الخصيب، وذلك بقصد أن تجنى منها فائدة مزدوجة: في الحاضر، بشكل غنائم الحرب، وعلى نحو أوسع ديمومة، بضم الأراضي أو إخضاعها للإسلام.

كان بوسع الفتح العسكري أن يقدم علاجاً للتوترات الداخلية، ويوفرّ مصرفاً للهيجان الحربي لدى القبائل العربية، ولنَهَم طمعها في الغنائم. وكان بمقدور الفتح أيضاً أن يكون عاملاً للتلاحم الأيديولوجي، وسيلةً لتوطيده "السلم العربي" في رحاب الدولة الوليدة، ولتوحيده، في الانطلاقة السياسية/الدينية نفسها المؤمنين المنتمين لعشائر متنافسة. فجميع العوامل هذه كانت تحث على الفتح بالحرب، وحتى خارجاً عن كل تحديد لواجب الجهاد، وقد لبث حتى ذاك الحين مُعّرفاً بشكل سيء.

اتخذت العمليات العسكرية، خارج ما كان يدعى الجزيرة العربية، وبسرعة بالغة، مدى واسع الأرجاء، ولاسيما في ظل خلافة عمر، الذي خلف أبا بكر عام ٦٣٤: فكما رأينا آنفاً ، كانت الإمبراطورية البيزنطية، عندئذ موهنة من جراء خوضها حرباً طويلة الأمد على الفرس، كما قَوضت أسسَها الشقاقاتُ الداخلية ما بين السكان المسيحيين بمعظمهم، لكنهم ظلوا ينتمون إلى شتى المذاهب المختلفة، وغالباً ما قامت بيزنطة بقمعها. وخلال بضع سنوات، وأحياناً مع تواطؤ أو، أقله، مع لا فعالية هؤلاء الأقوام المظلومين، وفي أغلب الأحيان مع لا مبالاة، قامت الجيوش العربية/المسلمة بفتحها شمالَ فلسطين وسوريا، ثم بلاد فارس وأرمينيا (٦٣٧ - ٦٥٠)، وفي الغرب، مصر (٦٤٠)، ثم ليبيا (٦٤٢)، والإفريقية (تونس ٦٧٠)، ثم أقاصي المغرب (مراكش: المغرب). وهناك، أقدم عُقبة، في ختام جولة بعيدة للفرسان، على دفعه حصانه في عباب المحيط الأطلسي. وكان تصرفه رمزياً ، وقد أدرك ذلك بصفته رمزاً فقد بلغ الإسلام حتى أقاصي الحدود الغربية للعالم المأهول (٦٨١).

لم يكن الأمر، في المغرب، سوى جولة للفرسان منفردة، ولكن، بعد حين، ورغماً عن مقاومة تحالفٍ قد جمع قبائل من البربر الجبليين- وكان معظمهم وثنياً (وتقودهم الكاهنة: "النبيّة")- و قواتٍ مسيحية بيزنطية، أفلحت حملة عربية جديدة في استيلائها على القيروان (٦٩٨). فأنهت مقاومة المغرب، وأطاحت بتحالف الحضريين والجبليين، أي المقيمين والمترحلين.

أتم حاكم الإفريقية، موسى، إخضاع البربر بارتدادهم إلى الإسلام. وأمر بأن يسلم أبناء الزعماء المهزومين كرهائن، وبأن تتم تربيتهم في الإسلام. وطوّع في جيوشه المهتدين أو المنضمين الجدد. وأفضى ارتداد الزعماء بسرعة إلى ارتداد لفيف أقوامهم.

فيما بعد ببضعة أعوام، برهنت هذه القوات البربرية من المُسْلَمين (Islamisés) بقيادة طارق على إخلاصهم وبطولتهم العسكرية إلى جانب العرب، إبان فتح اسبانيا التي سقطت بدورها (طليطلة ٧١١). وفي أقاليم ما وراء جبال البيرينيه، تمّ الاستيلاء على ناربون عام ٧١٨، وتوجهت غارات عربية إلى تولوز، ثم إلى تور، من جهة، ومن أخرى إلى ليون.

أما معركة بواتييه فقد أشارت، عام ٧٣٢، إلى الموقع الأخير للتقدم العسكري العربي في الغرب، فيما طفقت المقاومة المسيحية في أسبانيا، سنة ٧٢٠، تنظم مناشطها

في إقليم أستوريا. وظلت مجرد بداية، بينما انتصر المسلمون في جميع الأقاليم. وتم إنجاز الإمبراطورية العربية بفتوحات الجزر: قبرص، كريت (٨٢٧)، صقلية، ساردينيا (٨٢٧)، الباليار، كورسيكا (٨٥٠). وقد أدت فتوحات محاربي الله العسكرية إلى تكوين إمبراطورية عربية / إسلامية حقيقية كان الإسلام عروتها الوثقى.

إمبراطورية مقطعة الأوصال

منذ ذاك الحين، كان من المتيسر الحديث عن الإمبراطورية العربية كما سَهُل الحديث عن الإمبراطورية الرومانية: ففي كل مكان من الأقاليم التي فتحها الإسلام، فرضت الشريعة الجديدة، ولغة المنتصرين، أي لغة القرآن (والتي شوهتها فيما بعد اللهجات المحلية) ، وثقافة مشتركة تغذت من عناصر اقتبستها من الحضارات المقهورة، كما سبق لروما، في ماضي الزمان، أن أثْرت من الثقافة اليونانية. غير أن العرب لم يشكلوا سوى أقلية مسيطرة تحتل الإدارات الأساسية. وبقي الإسلام القاسم المشترك الأقوى، والوثاق الأمثل ما بين سكان الأراضي الأصليين بأكثريتهم المختلفة الذين لم تختف تماماً نزعاتهم الإقليمية.

أجل كانت إمبراطورية عربية/إسلامية، لكن دون وحدة سياسية: فبسرعة بالغة، ظهرت الخصومات المذكورة آنفاً وقد تقنعت، في البداية، بحماس الفتوحات الأولى وورعها. وفي عام ٦٤٤، تم انتخاب عثمان خليفة، فدعم معاوية ابن عمه، ابن أبي سفيان حاكم دمشق الذي توخى التقيد بمبدأ السلالة الحاكمة، فاغتيل عثمان سنة ٦٥٦

عندئذٍ، تفاقمت الصراعات الداخلية: ونُصّب علي (زوج فاطمة ابنة محمد) خليفة في المدينة، وانتصر، في "معركة الجمل" على مناصري عائشة، أرملة النبي ٦٥٦ واصطدم بحزب معاوية الذي سعى إلى أن يأخذ بثأر موت عمه. واندلعت معركة مواجهة (صفين، ٦٥٧) ما بين جيشين مسلمين. ومن أجل إخماد نار هذه المعارك مابين المؤمنين، لجأ بعض المحاربين (الخوارج، وهم المتشددون في معارضتهم تفوق عائلة النبي السياسية) إلى تعليقهم المصاحف على أسنه رماحهم. فأثارت هذه الدعوة الرمزية إلى وحدة المسلمين مشاعر المحاربين المسلمين. وقام الفريقان بتفويض أمرهما إلى التحكيم فعزل عليّ. ونصب معاوية خليفة في القدس عام ٦٥٨، وبذلك تأسّست

السلالة الأموية. إلا أن الشيعيين اتباع علي (المعزول، وبعد حين اغتاله أحد الخوارج سنة ٦٦١)، نسبوا إليه سلطة روحية يمكن نقلها، بعد وفاته إلى أخلافه. وفي سنة ٦٨٠، بمعركة كربلاء، قتل بدوره الحسين بن علي. وقمع الخوارج والشيعيون قمعاً صارماً فانتصرت سلالة أمية، وأعيدت الوحدة إلى سابق عهدها، بقوة السلاح، وأصبحت دمشق عاصمة الأمويين.

لم تستمر هذه الوحدة قرناً من الزمان: ففي سنة ٧٥٠، استحوذ أبو العباس (أحد اخلاف العباس، عم محمد) على السلطة باسم إسلام متشدد ونصير للتكافؤ: وأوعز باغتيال الأمويين على بكرة أبيهم. وأسس بذلك سلالة العباسيين (٧٥٠- ١٢٤٨) ونقل العاصمة إلى بغداد. وتعززت سلطة العلماء (معلمي الشريعة). وتوخى النظام السّني الجديد أن يكون دينياً ، مسلماً أكثر منه عربياً ، ونادى بالعودة إلى العقيدة المستقيمة وإلى السّنة.

بيد أن واحداً من الأمويين نجا من المذبحة: عبد الرحمن. وعقب لجوئه إلى أسبانيا الإسلامية (الأندلس)، قام بتأسيس إمارة قرطبة الأموية. وتقطعت أوصال الوحدة [الإسلامية] أيضاً في المغرب، فصارت، بعد قليل، رهاناً ما بين أمويّي قرطبة وسلطة أخرى سياسية / دينية، سلطة الفاطميين، الموالين للمذهب الشيعي: وقد استقرت هذه السلطة، بادئ الأمر، في بقاع تونس (٩٠٩). ثم في ما تبقى من المغرب وتقلدت زمام الحكم في مصر (٩٦٩) وكانت العاقبة صراعات شديدة مع السلطة العباسية. وإن هذه الخصومة، مابين مصر الفاطمية والشرق الأدنى السني، قد استمرت حتى مجيء الصليبيين عام ١٠٩٨ وسوف يستفيد الصليبيون من هذه الانشقاقات التي تفاقمت أيضاً بظهور الأتراك السلجوقيين، فجأة، في الشرق الأدنى، وقد ارتدوا حديثاً إلى الإسلام السني.

تُبين هذه النظرة الشاملة المقتضبة كم كانت وحدة العالم العربي/الإسلامي هشة، في مضماري الدين والسياسة على السواء، فكلاهما مترابطان ترابطاً وثيقاً ولم تكن إمبراطورية الإسلام أوثق تراصاً وتلاحماً مما كانت عليه المسيحية خلال الفترة ذاتها. لكن الدين قد ظل الوثاق الرئيسي للجماعة المسلمة كما للمسيحية اللتين تجابهتا. فنماء الدين هو الذي يخلق في الأمور الجوهرية، أيديولوجيا الجهاد والحرب المقدسة في الكيانين.

إن هذه الأيدولوجيا، كما رأينا آنفاً ، كانت لا تزال غائبة عن المسيحية في العصر الذي نحن في صدده هنا. وبالمقابل، ولدت هذه الأيدولوجيا وازدهرت باكراً جداً في العالم الإسلامي، واتخذت أساساً لها من بعض الآيات القرآنية التي اختلف الفقهاء في تفسيرها، ومن الحديث الذي يسرد "أقوالاً " للنبي جمعت وصنفت ودونت في العصر العباسي. ترى ما هي طبيعة هذا الحديث، وما هو الدور الذي نهض به في العالم الإسلامي وفي فتوحاته؟

تطور عقيدة الجهاد وممارسته

لم يكن لمحمد أي تحفظ، كما رأينا سالفاً، على استخدام العنف المسلح. بل بهذه الممارسة العسكرية أفلح في ترسيخ سلطانه داخل المدينة، ثم في ربوع العربية جمعاء. وإن حملات النبي وذويه على أهل مكة لبثت على المنحى / القويم لممارسات شبه الجزيرة العربية المعتادة في ذاك الحين. بيد أن تواجد النبي في تلك العمليات التي قادها في سبيل الإسلام الناشئ، قَدْسَنَها (Sacraliser) بصورة بيّنة.

لم ينجم عن هذا، رغم ذلك، أنه وعظ بالجهاد (بمعناه كحرب مقدسة "خارج أرجاء العربية")، بقصد توسيعه، وأقل أيضاً ، بقصد فرضه الإسلام خارج بقاع شبه الجزيرة العربية والشعب العربي. غير أن موقف النبي حيال أعدائه حين مكوثه في المدينة، ووجود العديد من الآيات القرآنية الداعية إلى الحرب والتي سوّغت، في الحال، تلك الحملات العسكرية وهي تشن من أجل غلبة جماعة المؤمنين الصغيرة على أعدائهم المكيين، غير أن كل ذلك كان بوسعه أن يؤدي بسهولة إلى نزعة موالية للحروب وتشبيه عمليات السطو هذه "بمعارك في سبيل الله"، وتم استخدامه، في الواقع، بمثابة قاعدة لفكرة الجهاد، بمعنى حربي أوسع نطاقاً ، بمعنىً أشمل وذلك عندما توطدت فكرة الكونية الإسلامية وهي فكرة لعلها لم تكن واضحة في أذهان المؤسسين. واتخذ هذا التيار العالمي بعداً أوفر صراحة مع الفتوحات الأولى: فشبه التوسع نفسه "بمعركة في سبيل الله" وتحولت فكرة انتشار القوة العربية إلى عقيدة سيادة الدين العالمية الذي دعا إليه النبي.

إنّ الحوادث التاريخية هنا، كما يجري الأمر في الغالب، نوعاً ما، قد سبقت النظرية، فيما لبثت تستمد وحيها من بواكير هذه النظرية التي تم إعدادها، بعد حدوث

ما قد حدث، بين القرنين التاسع والحادي عشر، في عصرٍ باتت فيه الفتوحات، بصورة مفارقة، منتهية، فركدت، حتى إنها انكفأت أحياناً ، كما وهنت "الحرب المقدسة" (ر. النصوص رقم ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، في آخر الكتاب) .

إن التعريف العقائدي للجهاد ، كما رأى رجال القانون، قد اعتمد، في ذاك الحين، ومن حيث الجوهر، فكرة جماعة المؤمنين (أي الأمة) التي يعتبرها المسلمون، طبقاً لإرادة الله، بمثابة أكمل كيان في العالم. فالله يوكل إليها وظيفةً، رسالةً، ألا وهي: إحقاق حقوقها على الأرض، وإقامة تفوق دين الحق، أي الإسلام. وبالتالي، ينبغي قتال الكافرين الذين يسيطرون على المناطق المجاورة، في "ربوع الكفر

على هذا المنوال، تطورت نظرية الجهاد الهجومي الدائم. والمسؤولون عن هذا الجهاد هم الحكام السياسيون وينبغي عليهم أن يقودوه: وعلماء الدين يولون الأفضلية لضرورة شن الحرب على الكافرين، ولم يعد هذا الأمر بسبب التهديد الشديد الذي يمارسه الكافرون على جماعة المسلمين ونظامهم، بل حتى بسبب كفرهم. وحيث أن الإسلام هو دين الحق، والأمة أفضل جماعة، نجم عن هذا، مبدئياً في نظرهم، أن للإسلام، بطبيعته، وبصفته ديانة ومجمل مؤسساتٍ، دعوة للانتشار على العالم قاطبة، وعند الاقتضاء، بقوة السلاح، في قتال سوف يستمر حتى ختام الأزمنة.

إذن، لابد لمعاهدات السلام المعقودة مع العدو، أن تعتبر، في هذا المنظور، بمثابة أمر لا يؤبه بوجوده، أو مهادنات سوف ترفض أو تقبل أو تقترح، كيفما تكون أو لا تكون مجدية ومواتية للجماعة. ولابد لدار الإسلام أن تشمل العالم بأسره، وعندئذٍ تختلط "دار الكفر "بدار الحرب": وينبغي أن تحول هذه الأرض إلى أرض إسلامية بالجهاد. وعلينا ذكر ما يلي: إن هذه التمييزات من حيث ترتيب الأرض، لم يكن يعرِّفها القرآن: فقد اكتفى بالحديث عن المؤمنين، من جهة، وعن الكافرين، من جهة ثانية.

إن هذا التصور للغزو والشمولية عن الإسلام مُعَدٌ ليسود في كل حدب وصوب من العالم، هو بالطبع تصور نظري: وقد تبدّى، بسرعة، غير قابل للتحقيق، خيالياً وعندئذٍ تم ابتكار تسمية لأرض شرعية ثالثة: وهي دار الصلح، وتتشكل من المناطق التي تبتاع السلام بالجزية. وبذلك أنقذ أرباب القانون الموقف، مؤكدين على أن هذه

الجزية ليست سوى اعتراف بسلطان الإسلام وتفوقه. وعلى هذا المنوال، وسعت هذه التصورات العقائدية، لاحقاً ، ومن حيث الكيانات الأرضية، المقولات التي قبلها الإسلام منذ بدايته، في شأن الأشخاص، فوزعهم ثلاث فئات: المؤمنون (المسلمون)، الكافرون (الوثنيون والمشبهون لهم الذين يعارضون الإسلام)، وأخيراً من يخضعون لشرائعه، دون أن يكونوا مسلمين، فيقبلون بصفتهم هذه، العيش في سلام بمثابة "محميين" (وهم الذميون).

أدت هذه التصورات القانونية الجذرية للجهاد إلى أن تولّد، بطريق رد الفعل، تفسيرات مُرَوْحِنة [تضفي سمة روحانية Spiritualiser] . واعتمد مناصرو النزعة الأخلاقية حديثاً متأخراً وطاله الجدال، عن النبي الذي قد يكون صرح، عند عودته من حملة غزوة منتصرة، قائلاً "ها نحن نعود من الجهاد الأصغر، ونمضي إلى الجهاد الأكبر . وراحوا يمتدحون جهاداً جُوّانياً ، نضالاً خلقياً ، روحياً ، صوفياً ، يحول كفاح الحرب في سبيل الله، هادفاً إلى انتصار الأمة، في تنقية داخلية للفرد وأيضاً للجماعة، بوسيلة التحسين الأخلاقي، والدقة العقائدية، ومكافحة كل زيغان وكل هرطقة.

لقد لبثت عقيدة شهادة الذين يُقتلون في المعارك، في ذاك العصر، تدرس بإسهاب في البحوث حول الجهاد: وتم التوضيح فيها أن جثمان الشهيد ليس في حاجة إلى أن يغسل، فهو يقبل في الجنة دونما حاجة إلى المرور بعقاب/محنة القبر، لأن جميع ذنوبه تغفر له (باستثناء الديون). ويقتسم الشهيد أيضاً مع النبي امتيازاً في استطاعته التشفع لدى الله للأشخاص العزيزين على قلبه، الخ... ويوضح تماماً هذا البعد الأساسي وحده، دلالة الحرب المقدسة التي يشتمل عليها الجهاد في ذاك التاريخ.

ثمة إذن أكثر بكثير من فوارق دقيقة مابين عقيدة الجهاد التي دونها رجال القوانين من القرن التاسع وحتى الحادي عشر، وبين فكرة الجهاد البدائية كما أدركها مسلمو أزمنة الفتح الأولى، والتي أثارتها، دون أي شك، بعض الحوافز الدينية. وإن لم تكن عقيدة الجهاد القرآنية الصحيحة عقيدة عسكرية، على نحو أساسي، فمع ذلك من الواضح أن الحرب، منذ البداية الأولى، كانت عنصراً مكوناً للجماعة الأصلية. فكان للمسلمين الفاتحين، بمقدار أوفر أيضاً ، في سريرة كيانهم - رغم أنها لم يتم بعد تعريفها بدقة، على الصعيد العقائدي - فكرة جهادٍ عسكري، هجوميّ، معد لضمان

انتصار الإسلام وجماعة المؤمنين، وبالتالي أيضاً فكرة جهاد مقدسن، وقادر على توفير مباهج الجنة، ومنح وضع الشهيد القانوني، لمن قد يلقون في سبيله حتفهم. وهذه السمات لحرب مقدسة قد تطور حجمها من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر.

الجهاد والتسامح

ليست فتوحات الإسلام، بسبب كل ذلك، حروباً رسولية: فهي لا تهدف إلى ارتداد جميع الكفرة، بل إلى إخضاعهم لشريعة المنتصرين.

بل بوسعنا القولُ إن الارتدادات قد كانت، باكراً جداً ، أمام مدى النجاحات المحققة، تلقى القليل من التشجيع، بل قد أوهنت عزيمتها. وعلى الصعيد النظري، أقله، كانت الارتدادات إلى الإسلام تمنح المرتد حديثاً الوضع القانوني لمواطن بكامل المواطنية في داخل الجماعة المسلمة، على قدم المساواة مع الفاتحين: فكان يغدو مثلهم، معفى من الضريبة، ومقبولاً للامتيازات القانونية ذاتها، إن لم يكن للوظائف نفسها. فكان التفوق العربي خاسراً في هذا الأمر، والتكافؤ يزيل الفوارق. وقلما تم احترام هذا التكافؤ بحيث أن المطالبات بالتكافؤ من قبل المؤمنين المتحدرين من شعوب المواطنين الأصليين المُسْلَمين (Islamisés) قد كانت، بدقة، أحد أسباب الثورة العباسية.

مع ذلك، لم يكن الفتح سهلاً في كل مكان، فارتكبت مذابح، كما يحدث هذا في كل حرب. لأنه، إن لم يطالب المسلمون بارتداد خصومهم، فهم يطالبونهم بالخضوع للشريعة الجديدة، شريعة الدولة الإسلامية. وأدت كل مقاومة مسلحة على محاربي الله إلى تصنيف أعدائهم في عداد الكفار، وصنفوا في الحين نفسه، مهما كانت ديانتهم، أعداء الله والإسلام، فاستحقوا الموت. ومقابل ذلك، إن استسلموا أو قبلوا بانتقالهم تحت سلطان المنتصرين، تمتعوا، يهوداً كانوا أم مسيحيين، بحق الحياة بصفتهم أهل الذمة، المحميين: أي مواطنين من الرتبة الثانية، بالتأكيد، لكنهم مواطنون. وبالمقابل، ليس للوثنيين حق المواطنة: فبالنسبة إليهم، إما الارتداد وإما الموت.

وهكذا، فنحن نرى، ولاسيما في العراق العباسي، وأحياناً في اسبانيا الإسلامية (الأندلس)، يهوداً وأيضاً مسيحيين (بمقدار أندر) يحتلون مراكز سامية لدى الحكام، فتذيع سمعتهم في العلوم (الطب، الرياضيات) أو الفنون أو الآداب.

من الأكيد أن ثمة حدوداً لهذا التسامح، وهو، من جهة أخرى تسامح لابد أن

ندركه بمعنى حصري مقيد، ألا وهو غياب الاضطهاد الذي يرتكب بسبب الدين. وفي واقع الأمر، كانت الاضطهادات نادرة بما يكفي قبل القرن الحادي عشر، وهو أمر هام ينبغي أن ندونه لصالح الإسلام في العصور الوسطى.

بالمقابل، إن تسامحاً كهذا يقبل التمييز، لأنه لا يعطي الحقوق نفسها لغير المسلمين وللمؤمنين. وترد الأوامر، على نحو دوري، فتتذكر الحكام أنه يترتب عليهم احترام الإجراءات التمييزية المتخذة حيال أهل الجزية، المسيحيين منهم واليهود: فثمة محظورات الألبسة التي تتيح، لدى النظرة الأولى، التمييز مابين اليهودي أو المسيحي عن المسلم (مثلاً ، حظر اللحية والعمامة، التمنطق الإجباري بالنطاق [الحزام]، ولبس ثياب صفراء اللون، الخ....)، ومحظورات تمييزية (حظر استخدام اليهود أو المسيحيين في الدواوين). ويبرهن تعدد هذه التذكيرات، بالتأكيد، على أن هذه التدابير لم تكن تطبق دوماً تطبيقاً صارماً ، بل تشدّد أيضاً على حدود هذا "التسامح" المتعجرف. من المؤكد أن هذا هو، بصورة خاصة، الوضع، في أسبانيا في عهد المرابطين، خلال القرن الحادي عشر، ثم في عهد الموحدين الذين خلفوهم ممتدحين إسلاماً "خالصاً وقاسياً" فعززوا المحظورات والإجراءات التمييزية والمذلة لأهل الذمة.

علينا التوضيح مجدداً ، أن هذا التسامح، رغم هذه الحدود، لبث مرموقاً في نظر ذاك العصر. فهو يلتحق في أسسه بالتسامح - لكنه يتجاوزه بمقدار كبير، في الوقائع - وهو التسامح الذي كانت توليه الدول المسيحية لليهود في مسيحية الغرب، ويقوم على أساس مبادئ متشابهة: في نظر الإسلام اليهود والمسيحيون مؤمنون وقد تلقوا الوحي من أنبياء سابقين تم الاعتراف بهم كأنبياء. لكنهم تناسوا عن ذلك الوحي، أو أفسدوه أو حرفوه. فقَدِم محمد، بقبوله القرآن ونشره، ليصحح ويتم كل ما أوحي به سابقاً ، وبذلك ارتقى بالوحي إلى كماله.

كان الدين المسيحي ينظر تقريباً بهذه النظرة إلى الدين اليهودي: ففي نظر المسيحيين، أتى يسوع لينجز شريعة موسى، ويديم رسالة الأنبياء، ويستكمل الوحي القديم تماماً. بل أكثر من ذلك أيضاً: فإن يسوع، بتجسده، وبصفته ابن الله، هو نفسه وحي، في نظرهم. والإنجيل، قلب العهد الجديد، يتمم كتاب اليهود، العهد القديم [التوراة] ويمنحه كامل معناه.

وبذلك، في الوضعين، ينضم الوحي الجديد إلى القديم الذي يدّعي أنه امتداد له،

ويكمله، ويتممه وينقيه. والدين المسيحي القديم والقروسطي يتساهل (رغم فترات متأزمة سنعود إليها لاحقاً) مع اليهود لأنه يعترف بموسى والأنبياء، بصفتهم معلنين يسوع ومبشرين به. والإسلام، هو أيضاً ، يتساهل مع اليهود والمسيحيين، فهو يعترف أيضاً بموسى ويسوع بصفتهما نبّيين سابقين لمحمد.

بالمقابل، قلما تستطيع الديانتان اليهودية والمسيحية أن تبديا هذا الموقف حيال الإسلام، دون قبولهما ، في الحين ذاته، بصفة "محمد" النبويّة: ففي الوضع هذا ، وبتمام المنطق، قد يتوجب عندئذٍ على المسيحيين واليهود أن يعتنقوا الإسلام. ومن جهة أخرى، يفسّر مبدأ الأسبقية الزمنية النزعة التي سوف نعود إليها والتي تدفع المسيحيين المقهورين أو الذين يهددهم الإسلام إلى أن يروا في محمد لا نبياً مزيفاً وحسب، بل هرطوقياً مسيحياً ، أثارته قوى المسيح الدجال (Antichrist) الغامضة.

أخيراً كانت الحضارة العربية متقدمة جداً ، في ذاك العصر، حتى إنها شعّت وسحرت. واللغة العربية التي نقلتها فرضت نفسها بسرعة بالغة على جميع سكان المناطق التي أخضعت. والخطر داهم على المسيحيين الذين يعيشون في أرض الإسلام. وهو خطر التثاقف (Acculturation) الحقيقي، خطر إهمال الدين من جراء التمثل والاندماج. فقامت بعض الأوساط المتشددة بردة فعلها ، في ذاك الحين، فانطوت على نفسها ، وباتت معارضتها قاسية، وراحت تضفي أعتم الصفات على الإسلام والمسلمين المحاذين لها ، وأعدت رسوماً كاريكاتورية معدة للإبعاد ، وتقليل الاعتبار، والنبذ. وهذا ما جرى بصورة خاصة في أسبانيا ، في أواسط القرن العاشر، مع "شهداء قرطبة"، هؤلاء المسيحيين المتعصبين الذين أعدموا لأنهم أهانوا محمداً والإسلام.

ساهمت هذه الكاريكاتورات بنزعاتها الجدالية، المتواجدة أيضاً في الشرق، في "شيطنة" (Diaboliser) الخصم المسلم. ونجد هنا تماماً عنصراً جديداً كوّن مفهوم الحرب المقدسة الذي سوف يتشكل شيئاً فشيئاً في الغرب المسيحي. ونشأ هذا المفهوم بمعزلٍ عن روابط مباشرة بمفهوم الجهاد ، لكنه تطور وتضخم من جراء التماس "الخشن" مابين الحضارتين.

الفصل السابع

السلاح الأيديولوجي

صورة الإسلام في المسيحية

استولت الجيوش العربية/الإسلامية، خلال أقل من قرن، على أراضٍ شاسعة من الشرق الأدنى ، وإفريقيا ، وأسبانيا ، وسبق أن كانت جميع هذه الأراضي قد تنصرت، وأحياناً منذ أكثر من خمس مئة عام، ولاسيما في الشرق الأدنى مهد الدين المسيحي. وسهّلت الانقساماتُ المذهبية، كما رأينا سابقاً ، فتوحات الإسلام. لكنْ ينبغي ألا نستنتج من ذلك أن الفاتحين قد تم قبولهم دوماً ، وفي كل مكان، دون مقاومة: فقد ظهرت ثلاث نزعات في الأوساط المسيحية التي أخضعت أو هددت.

النزعة الأولى، المتساهلة والانتهازية بمقدار ما ، حثت المؤمنين على قبول سيطرة العرب السياسية، على الإفادة من تسامحهم النسبي، على الإذعان للقوانين المفروضة عليهم، على تبنيهم أيضاً اللغة العربية المسيطرة، والثقافة التي تنقلها هذه اللغة.

النزعة الثانية، وهي مآل السابقة و كاريكاتورها ، قد أدت إلى اعتناق الإسلام، وذلك من جراء نزعتها الانتهازية أو من جراء التمثل الثقافي.

النزعة الثالثة مزدوجة، بنتيجة بعض الفوارق البسيطة: فهي تشتمل، من جهة، على هؤلاء الذين، منذ أوقات الفتح العربي الأولى، قد أدركوا النزعة الخصوصية للدين الذي أمد الفتح بإيحائه فقاوموا هذا الفتح باسم إيمانهم، بوسيلة السلاح أو الدعاوة، فعانوا بالتالي، وبالطبع، من قمع المنتصرين. ونجد المظاهر الأولى لهذا الوضع في المشرق، منذ أوقات الفتح الأولى. ومن جهة أخرى، اقترن بهذه المعارضة شكل من التيار الأصولي الديني قد انبثق من أوساط الأكليروس أو الرهبان، وذلك بردة فعلٍ حيال التهديد الأكيد على وجود الجماعات المسيحية بذاته، وحيال إغراء الحضارة

العربية/الإسلامية، التي تؤدي إلى التثاقف وعلى سبيل المثال، هذا هو وضع شهداء قرطبة"

نجم عن ذلك، كتابات سجالية طفقت - بتأثير من الجهل، دونما شك، بل أكثر من هذا أيضاً ، حرصاً منها على دعاوة تميل إلى الأذية - تلجأ إلى نعتٍ هزلي للإسلام وإلى تشويهه، واصفة هذه الديانة وأتباعها وصفاً منفراً قد أعد لإثارة قرف المسيحيين واشمئزازهم منه.

وسعت هذه الكتابات، في الحين ذاته، إلى أن تعزو إلى الغزوات والفتوحات العربية مكانة في التاريخ المقدس، مفسرة الإجتياحات الإسلامية بأنها عقاب من الله تم توقعه نبوياً غير أنه لابد من انتهائه في تواريخ حاول المؤلفون أن يحدّدوها بدقةٍ في تواريخ أحياناً ما رُبطت "بنهاية" الأزمنة، أو أنبأت بهذه "النهاية" وبهذه الوسيلة، امتزج الانتظار الأخروي بأمل التحرير المسلح، مساعداً بذلك على مواتاة الظهور لمفهوم الحرب المقدسة التي سوف تفضي، فيما بعد، إلى الحرب الصليبية.

المساجلة المناهضة للإسلام في المشـــرق

عرّف المؤلفون المشرقيون، باكراً جداً ، الغزوات العربية بصفتها عقاباً من الله، قد ألحقه بشعبه بسبب مآثمه. وبات هذا التأكيد ماثلاً منذ عام ٦٣٤، لدى البطريرك صوفرونيس في أورشليم، وبعد هذا بقليل، لدى ماكسيموس المعترف [أي المقر بإيمانه] (توفي سنة ٦٦٢) واستمر التأكيد، فيما بعد، لدى العديد من الأدباء الشرقيين.

لم يكن العرب أول من غزوا هذه المنطقة: فقد عانت من اجتياحات كثيرة. ولذلك، قد كان أمل المؤلفين الأوائل أن يغدو هذا العقاب قصير الأمد. لكن، بُعيد ذلك، إذ لاحظوا أن السيطرة العربية/الإسلامية يطول أمدها، راحوا يشبهون وضعهم الراهن بوضع شعب الله المذكور في الكتاب المقدس. فشبهوا عندئذٍ العرب بنكبة من عند الله ، نكبة تقوم بالدور الذي عهد به إلى الأقوام الوثنيين الذين ظلموا الشعب العبري، فهم ينجزون، دون علم منهم، الإرادة الإلهية وتصميمها التربوي. ومن أجل هذا لابد من ربط الوقائع الراهنة بالتاريخ المقدس كما هو ملخص في خطوطه العريضة، ومعلن عنه في الكتاب المقدس [العهد القديم]. وحرص على هذا الأمر بعض المؤلفين، وسريعاً ما وجدوا في نبوءات هذا الكتاب إعلانها لهذه السيطرة الإسلامية.

لم يكن هذا الوضع في كتابة حررت قرابة عام ٦٤٠، ونسبت لرجل يدعى يعقوب، يهودي اعتنق المسيحية حديثاً وأعظم ما توخاه هو البرهان، بوسيلة النبوءات، ولمن كانوا في السابق يهوداً معه، أن يسوع هو حقاً المسيح، المشيح المنتظر. أجل لقد ظهر، في الزمان الذي تم التنبؤ به، في نهاية ٦٩ أسبوعاً من السنوات النبوية" (٦٩ × ٧ سنوات) التي أعلن عنها دانيال (دانيال: ٩، ٢٠ - ٢٧). وأضاف أن رجعة المسيح الأولى هذه، سوف يتبعها، في نهاية الأزمنة، عودته بمجدٍ و جلالة. وفي الحالة هذه، حسب رأيه، قد باتت أزمنة النهاية قريبة.

وبرهن على رأيه، انطلاقاً من الكتابات النبوية في الكتاب المقدس: فكان دانيال قد تنبأ، في الواقع، (دانيال، ٢: ٢٤ - ٤٥، ٧: ١٥ - ٢٨) بما يلي: في نهاية المملكة العالمية الرابعة (أي الإمبراطورية الرومانية)، ستضعف السلطة. فتنقسم إلى عشر ممالك، وبعد قليل ستطيح بها سلطة أخيرة (وهي القَرن الصغير في النبوءة) [القرن رمز القوة] سوف تغير الأزمنة والشريعة، وفي النهاية يقهرها مجيء المسيح (دانيال، ٧: ٢١ - ٢٧). وفي رأي يعقوب هذا، قد باتت هذه الأزمنة على وشك البداية، لأن الإمبراطورية الرومانية راحت قواها تنهار. والأزمنة المضطربة التي يصفها المؤلف هي بالتالي، في نظره، إعلان أزمنة النهاية الوشيكة وقرب عودة المسيح، أي استهلال الدينونة العامة.

في حين كتابة يعقوب هذه (مابين ٦٣٨ و ٦٤٠)، ظهر الإسلام لتوه، ولمّا تبلغ بعد فتوحاته المدى الذي قد يستطيع أن يمنحه مكانة تخصّه في التصور النبويّ للتاريخ. ومع ذلك، لم يمر الإسلام دون أن يسترعي الانتباه: فالمؤلف يوضح أن الكثير من اليهود قد رأوا، أولاً، في محمد النبي الذي لبثوا ينتظرونه، مبشراً بالمشيح فانضموا إليه. ولكنه أضاف: حول هذا الأمر، قد أخطأوا خطأ فادحاً وبتفحصهم الأمر بالمزيد من الدقة، ترتب عليهم الاعتراف بأن محمداً ليس بوسعه أن يكون سوى نبي مزيف، لأن الأنبياء، كما كتب هذا المؤلف، لا يتوسلون بالأسلحة. ولدينا هنا، باكراً جداً، البرهنة (إن كان لابد منها) على التصور السلبي جداً الذي ظل يولده، لدى المسيحيين واليهود، تصرف محمد الحربي (ر. النص رقم ٨، في آخر الكتاب).

فيما بعد ببضعة أعوام، قرابة سنة ٦٦١، شدد سيبيوس/المزيف على هذه الدلالة للغزو العربيّ، المعلن عنه نبوياً فقد رأى في هذه السيادة الجديدة (سيادة

الإمبراطورية الإسلامية وهي في معظم توسعها) الدابة الرابعة التي وصفتها نبوءات دانيال والرؤيا (الرؤيا، ١٣: ١ - ١٨): فهي دابة تتفوق على جميع الدواب الأخرى في الشر، وسوف تُصحِّرُ الأرض بأسرها.

في عام ٦٩٢، أخذت رؤيا ميتوديوس/المزيف، وللمرة الأولى، تبحث في نبوءات الكتاب المقدس عن وسيلة لمعرفة مدة هذه الدواهي والمصائب التي بدأت. وإن تفسيره النبوي يُقدِّرها بعشرة "أسابيع سنوات" أي سبعين سنة، حسب منهج تقليدي لتفسير الكتابات الرؤيوية. ولدينا هنا نقطة استناد متينة ودقيقة: المؤلف سوريّ، وقد تم اجتياح سوريا في عام ٦٣٦ فهذه الكتابة تتوقع إذن نهاية السيادة العربية سبعين سنة بعد فتح سوريا العربي، أي قرابة ٧٠٦، أي بعد تحرير هذه الكتابة ببضعة أعوام فقط.

إن استمرار السيطرة العربية أدى بالمؤلفين طبعاً ، عقب هذا التاريخ، إلى التحلي بالمزيد من الفطنة في محاولات تحديدهم التواريخ. لكن لا يزال هذا الاستمرار يبقي الأمل في نهاية قريبة لهذه السيطرة التي يعانون منها. ويُترجم هذا الأمل في غالبية الأوضاع، بإعلان استعادة هذه الأراضي التي فقدها الإمبراطور البيزنطي، وغالباً ما يشار إليه بوضوح، في هذه الكتابات، بصفته من ينبغي عليه أن يضع نهاية لسيطرة الإسلام.

في غالب الأحيان، اقترن هذا الأمل بدعاوة مناهضة للإسلام، وكانت معدة لإقصاء المسيحيين عن الإغراء الذي ما فتئت ديانة المنتصرين تمارسه عليهم. وعندئذٍ، نرى ظهور مواضيع رئيسية لكاريكاتورات تستهدف الدين الإسلامي، وسوف تستمر فيما بعد.

نزعت هذه الانتقادات على تشبيه الإسلام بالوثنية، بل بعبادة الأبالسة. هذا هو وضع يوحنا الدمشقي، في مطلع القرن الثامن. وكان يوحنا شخصاً هاماً في بلاط دمشق. وغادر هذه المدينة نحو عام ٧٢٥، بقصد الانعزال في أحد أديرة فلسطين حيث حرر غالبية مؤلفاته. وخصص أحدها للهرطقات، وصنف الإسلام ما بينها. في واقع الأمر، رأى يوحنا في محمد نبياً مزيفاً ، وفي القرآن وحياً مزوراً وكما قال، لا جرم أن ديانة العرب الجديدة تتفوق على معتقداتهم السابقة، وقد كانت فظة، تعبد الأصنام بتصميم وجرأة. ولكنها ، حتى بشكلها الذي نقاه محمد، لم تزل تحتفظ بسمات واردة من منبتها المشرك القديم. وإن هذا الموضوع عن عبادة الأصنام لدى الإسلام سوف يحظى، لاحقاً ، بنجاح عظيم، فيغدو موضوعاً مطروقاً حتى الابتذال.

إن ثيوفان المعترف في مؤلفه "حوليّه" (عام ٨١٥)، رأى في محمد رجلاً مصاباً بالصرع، قام بإسداء النصح إليه راهب مسيحي هرطوقي: وفيما راح يخدع الشعب، جعله [جعل محمداً] يعتقد أن عقيدته صدرت عن مصدر إلهي، فنشرها أولاً عن طريق النساء، ثم بقوة السلاح. وهنا أيضاً ، ندرك الانتقادات الكبرى لما أُلحِقَ فيما بعد بالإسلام من ملامات: زيغان، هرطقة نشرتها النساء، وديانة خليعة وحربية: فيبدو أن محمداً قد علّم أن من يقتل عدواً ، أو من قتله عدوٌ، يكسب الجنة حيث تلبث المتع الجسدية مستمرة دون هوادة (رَ. النص رقم ٩، في آخر الكتاب).

في عام ٨٥٠ تقريباً كرر نيسيتاس البيزنطي هذه الانتقادات نفسها، وأسهب فيها. وفي رأيه، لم يكن محمد مطلقاً خاتم النبيين الذين أتوا بالوحي، بل كان هرطوقياً ، وديانته خدعة احتفظت بميزات تعود إلى منبتها الوثني: فهو يؤكد، في الواقع أن المسلمين يعبدون، في مكة صنماً قديماً جداً ، صنماً وثنياً لأفروديت. وقام جورج الراهب، بُعيد سنة ٨٤٠، بتطوير دراسة هذه الميزات: ففي رأيه، خُدع العرب بهذا النبي المزيف الذي لم يأت إليهم البتة بدين أفضل، بل زوغهم بمنحى عبادة للأبالسة، ديانة مفسدة، تعبد الأوثان، ديانة شهوانية.

في النصف الأول من القرن التاسع، صدر مؤلف مساجلة بلهجة جد عنيفة: رسالة الكندي مدافعاً عن الدين المسيحي ومحاولاً أن يدحض الإسلام ومعتقداته، فقام بتكرار غالبية العناصر المذكورة آنفاً وأسهب فيها راسماً صورة ساخرة جداً بالإسلام تنفر الإنسان منه. واتخذ هذا المؤلف شكل رسائل متبادلة من المحتمل أنها حررت، بين عامي ٨١٣ و ٨٣٤، بين عربي مسلم وعربي مسيحي، وقد راح كل منهما يحاول إقناع الآخر بحججه العقائدية. ولا جرم أن المؤلَّف بكامله قد حرّرته، على نحو محتمل، ريشة واحدة مسيحية: فالإعراب عن عقيدة الإسلام قد اكتفى بالتشديد على المظاهر الرئيسية الأشد عرضة للمشاققة، من قبل المساجلة المسيحية: أي الشبق، تعدد الزوجات، طهور النساء، الجنة الجسدية والشهوانية، الحرب المقدسة، جنة يوعد بها الأموات من المقاتلين في سبيل الإسلام. فالكتابة هذه تشهد إذن، وقبل كل شيء، على الطريقة التي كان يُدْرَكُ بها الإسلام في ذاك العصر، وعلى الملامات الكبرى التي يلومه بها المسيحيون. فالمؤلف يشير، من بين أشياء أخرى، وخلال تلك الفترة؛ إلى أنّ كلاً

من عقيدة الحرب المقدسة وشهيد الحروب كان يصدم الضمائر المسيحية، فلم تكن البتة متبناة في الدين المسيحي الذي تمثله هذه الكتابة (رَ. النص. رقم ١٠، في آخر الكتاب).

تتعزّز هذه الكتابات الجدالية، بالطبع، وتكتسب مصداقيتها، بتصرفات الفاتحين العرب العسكرية التي لم تكن دوماً لطيفة حيال الأعداء. ومثل هذا ما حدث في تيسالونيكي عام ٩٠٤، حيث نهب الجنود المسلمون المدينة وقتلوا سكانها. وبعد هذه المذبحة بقليل، وصف جان كامينياتس الإسلام بأنه دين مفسد، عسكري، شرس. وعندئذٍ بقي الأمل في النهاية القريبة للسيطرة الإسلامية، واعتقد الناس أن إمبراطور بيزنطة سوف يقوم بهذا الإنقاذ، الأمر الذي يُقيّم، بنفس المناسبة، القتال الذي يخوضه محاربو الإمبراطور، فيُبدي الظفر المنشود سمات الثأر الرؤيوي (Apocalyptique).

إن هذا التقييم للقتال الذي ينجز لمناهضة المسلمين، وقد أضفيت عليهم سمةُ الشيطان، قدسن كثيراً المحاربين الذين يقاتلون بحيث تلاحظ في الشرق (قبل الغرب، ولابد من الإشارة إلى ذلك) الدلائل الأولى المؤذنة بمفهوم الحرب المقدسة. وسبق أن وجدناها، بُعيد الاستيلاء على مدينة تسالونيكي، في مؤلف عن الحرب يُنسب إلى الإمبراطور ليون السادس. ولهذه الدلائل مزيد من الوضوح أيضاً لدى الإمبراطور نيسيفورس الثاني فوكاس، ثم لاحقاً ، وفد الإمبراطور جان تزيميسكِس، الذي نصّب نفسه بطل المسيح وفي عام ٩٧٤، وأكد في رسالة إلى ملك أرمينيا، رغبته في الذهاب لإنقاذ قبر المسيح المقدس الذي يصفه بأنه يمنى بإهانات المسلمين. وقال إنه مستعد للذهاب حتى مكة ليقيم فيها سلطان المسيح. ولدينا هنا خطاب حقيقي لحرب مقدسة، بل خطاب حرب صليبية، لكي لا نقول المزيد، وحتى الدعاة إلى الحرب الصليبية مستقبلاً ، في الغرب لن يكون لهم مثل هذه الجرأة والبسالة.

نجد إذن، لدى هذين الإمبراطورين البيزنطيين (في الحقيقة هما من أصل أرمني، وهو وسط أقل عداوة من بيزنطة حيال فكرة الحرب المقدسة) سماتٍ جد عديدة من الحرب المقدسنة التي بالمقابل لم تُرد، "كنيسة الشرق" أن تضمنها: وبالتالي، رفض أساقفة الكنيسة اليونانية أن يشبهوا بالشهداء المحاربين الذين يُقتلون متقلدين السلاح، على يد أعدائهم المسلمين، وهم يذودون عن بيزنطة. ومع ذلك، لابد من

التشديد على وجود هذه الميزات المبكرة، إن لم يكن في العقيدة الرسمية، فأقله في ذهنية بعض أصحاب المراتب العسكرية السامية. وسوف نجد بُعد الحرب المقدسة هذا، (ولئن ندد به "كنيسة المشرق")، في كتابات الإمبراطور أليكسسْ، خلال الحملة الصليبية الأولى.

في الغرب، أولاً ، في الذهنية الشعبية، ثم شيئاً فشيئاً في فكر الإكليروسيين، سوف تُشجّع أيضاً هذه السمات الجدالية نفسها المناهضة للإسلام، مع ظهورِ فكرة الحرب المقدسة: فهي تقابل، في حين متأخر، جهاد المسلمين. أما هذا الجهاد فلم يكن في حاجة إلى مثل هذه الشَيْطنة للعدو لكي يتوطد قبل ذلك بكثير.

صورة الإسلام في الغرب

في الغرب، جهلَ الناس، على الصعيد العملي، العرب قبل ظهورهم المفاجئ في اسبانيا، في مطلع القرن الثامن. فالغرب اكتشف الإسلام إذن، وأولاً ، بتماس مباشر وعسكري.

لقد بقي عن ذلك القليل من الكتابات. وإن بيد (Bède le Vénérable) المبجل (٦٧٢ - ٧٣٥)، رغم أنه عاش في منطقة منزوية جداً في أقاصي سكوتلاندا، كان يعلم أن المسلمين قد قاموا، عام ٦٦٨، بنهب صقلية وإفريقيا [تونس] واجتاحوا جزيرة سردينيا. لكن، في نظره، كما في رأي المؤلفين الشرقيين الذين يجهلهم، هذه الانتصارات المسلمة كانت عقاباً من الله مؤقتاً ، ولم يحدد بدقة مدته. وفي مؤلفه "تاريخ كنيسة إنكلترا"، في عام ٧٢٩، يُدوِّن ظهور مُذنّبَين، ويرى فيهما علامة اجتياح المسلمين الذين، في ذاك الحين، كما قال، كانوا ينساقون، في غاليا، إلى مذابح هائلة ، قبل أن يُعاقبوا، بُعيد ذلك، على شرهم. ترى إلى أي شيء يلمح هنا؟ هل يعني الأمر إشارة إلى انتصار أوديس، أو إلى ظفر شارل مارتيل، أو انكفاء العرب منهزمين من غاليا؟ هل اعتَقَدَ أن هذا النصر يبشر بنهاية السيطرة العربية، في الغرب أقلّهُ؟ ففي الوضع هذا ، وحسب رأيه، قد تقوم الجيوش المسيحية لمملكة الفرنجة بدور هام في إنجاز الخطة النبوية. إن نص بيد المبجل، يا للأسف، غامض جداً لكي نخلص منه إلى اليقين على مثل هذه النتيجة، رغم أنها محتملة جداً

إنما من أسبانيا، كما نظن، قد وردت إلينا، أولاً ، الأصداء الأوفر دقة عن الغزوات الإسلامية. ففي سنة ٧٥٤، عرّفت حوليّةٌ تاريخية مُستعربة [(Mozarabe) نصراني أندلسي خضع لسلطة العرب] ، تم تأليفها في قرطبة، الغزو العربي بصفته عقاباً إلهياً ، وبأنه داهية نكراء، وبألفاظ قد نقول عنها انها "رؤيوية" فهي تذكر ضروب الهدم بالحديد والنار، وصلب وجهاء المسيحيين وقد رفضوا التحالف مع العرب، وذبح النساء والأطفال، الخ..... وقد نُسب من جديد نجاح العرب العسكري السريع إلى حكم صادر عن الله بالعقاب الناجم عن مآثم ملوك القوط الأخلاقية. وإن انتصار شارل مارتيل على عبد الرحمن، عام ٧٣٢، يُذكر، إلى جانب ذلك، بشيء من التعاطف، بصفته انتصاراً "للأوروبيين" الواثقين من النصرة الإلهية. إذن، لم يقبل جميع المسيحيين الخاضعين للسلطة الإسلامية، هذه السيطرة، قبولاً "هادئاً " أو بطيبة خاطر، كما نقرأ هذا حتى الآن، وغالباً بمقدار مفرط.

شهداء قرطبة

في منتصف القرن الحادي عشر ظهرت في الغرب مؤلفات ناهضت بعنف المسلمين، مؤلفات تلتحق بغيرها في المشرق وقد ذكرناها آنفاً وقامت بعض الأوساط الأكليريكية المتشددة، في قرطبة، بردة فعل، عن طريق تمييز من النمط الأصولي المناهض للتثاقف الذي يجتاح الجماعات، ويؤدي بكثير من المسيحيين إلى نسيانهم لغتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، بقصد انصهارهم في الحضارة الإسلامية المسيطرة، مجازفين بإيمانهم، كما ظنوا، وهكذا ولدت الحركة التي انتمى إليها شهداء قرطبة" وقد شجعهم أولوج (Euloge) وتلميذه ألفارو.

بدأت الأزمة بحادثة مباغتة: قدم كاهن من هؤلاء الأصوليين ناطقاً بالشتائم علانية على محمد. فأدين وأعدم في الساحة العامة (١٨ نيسان / أبريل عام ٨٥٠). وبُعيد الإعدام، طفق راهب يشتم محمداً ، في رحبة محكمة القاضي، وبدوره تمت إدانته، وصلب مقلوب الرأس إلى الأسفل.

قلما تُبعت هذه الحركة المتعصبة المتحدية: فعُقد مجمع في عام ٨٥٢، بمدينة قرطبة، وشجب هذا السعي المتعمد إلى الشهادة، وشبهه بالانتحار. غير أن المتحمسين انساقوا

إلى تحديات جديدة للإسلام، في رحبة الجامع: فاستتبع ذلك إعدامين جديدين، في ١٦ أيلول / سبتمبر عام ٨٥٢ وفيما بعد بستة أيام، مات العاهل عبد الرحمن، وراح حزب الشهداء" يفسر موته بأنه " انتقام سماوي ". وما بين ٨٥٣ و ٨٥٨ ، تم إعدام أربعة عشر شهيداً "، وجميعهم تقريباً من رجال الدين. وأخيراً ، اعتُقل أولُوج ذاته وبدوره. وهو أيضاً شتم النبي ورفض العدول عن فعلته، فقطع رأسه في ١١ آذار / مارس سنة ,٨٥٩ وفيما بعد بقليل، اندثرت الحركة، بعد افتقادها محركها الرئيسي.

تُوضح هذه الواقعة موقف المسيحيين المحتمل والمزدوج، وهم خاضعون لسيطرة الإسلام، التي ذكرت آنفاً وتعاظمت أهميتها عن طريق المؤلفات التي نتجت عنها. وفي الواقع، حرر أولوج، في أعماله، الدفاع عن هؤلاء الشهداء، وانتقد فيها الإسلام انتقاداً جذرياً ، وقد شبهه بعقيدة للأبالسة، منوطة بالمسيح الدجال. وقام بوصفٍ مقرف لمحمد، قريب جداً من الأوصاف السابقة في المؤلفات الشرقية: فجعله هرطوقياً ، نبياً مزيفاً شهوانياً ، مفسداً ، جشعاً ، استقى أفكاره من الكتب المسيحية المقدسة مشوهاً أسسها بوحيه المزعوم. لكن أولوج يؤكد أنه عثر على المعلومات حول محمد في مخطوط لاتيني أستمد عونه في دير لِيْر، إبان سفره إلى مدينة بامبيلونة، عام ٨٥٢ تقريباً فمن الممكن إذن، إن لم يكن من المحتمل، أنه منذ ما قبل أولوج قد وُجد في أسبانيا قصص للدعاوة المناهضة للإسلام، في ربوع الشمال [الإسباني] وقد ظلت مسيحية.

ورسم تلميذه ألفارو (Alvaro) هو أيضاً صورة للإسلام ونبيّه محمد من النمط نفسه، مشدداً على السمات الكاريكاتورية ذاتها. فالتحق، بالعديد من النقاط، بالوصف الذي أعطاه في الشرق يوحنا الدمشقي. فهو يندد بشهوانية المسلمين ومحمد الذي يجعل منه هرطوقياً ونصيراً شريراً للمسيح الدجال. وفي هذا الشأن، قلما قام ألفارو بشيء آخر سوى تكراره صورة الإسلام "الشائعة" في هذه الأوساط المسيحية "المقاومة".

غير أن ألفارو أدخل عنصراً جديداً بالغ الأهمية: فهو الأول، في الغرب، الذي ربط بوضوح السيطرة العربية بنبوءة دانيال، ونسب إليها دوراً في الخطة الإلهية للتاريخ المقدس، دوراً يشتمل على مدى أخروي هام. فرأى، كما فعل العديد من المؤلفين المشرقيين، أن الاجتياح العربي يؤذن بنهاية " الأزمنة ويسبقها بقليل. فلا جرم أن محمداً ، في نظره، هو "القرن الصغير" الذي يصفه النبي دانيال و"الرؤيا"، وهو

صورة رمزية لسلطة ذات طبيعة شريرة وشيطانية سوف تسيطر على العالم في نهاية" الأزمنة، لكنها ، بدورها ، سوف تُقهر قبل عودة المسيح الظافرة. وإن بعض الحسابات لحوادث تاريخية قد أفضت بألفارو إلى أن ينسب مدة تدوم ٢٤٥ سنة إلى هذه السيطرة الإسلامية، وإلى إعلان نهايتها العتيدة عام ٨٧٠

إن سيطرة الإسلام قد تم إدراكها ، في الغرب والشرق على السواء، بطرق جد مختلفة، طبقاً للأوساط المسيحية: فقد تقبلها البعض بصفتها طبيعية وتأقلموا معها. أما الآخرون فقد شيطنوها مشبهين إياها بنكبة شاملة تعاقب المسيحيين على ذنوبهم الماضية، وبعقابٍ موقت، إلا أنه هام بما يكفي لكي يدخل في مخطط التاريخ المقدس، فهو حدث قد أُعلن عنه نبوياً وبَشَّر "بختام" الأزمنة.

انتشار صورة الإسلام في الغرب المسيحي

إن حادث " شهداء قرطبة" حادث منفرد ، وقد صدر عن أوساط مسيحية كانت على نحو محتمل أقلية، ويجب ألا نبالغ بمدى أهميته. من الجانب الإسلامي، لم تستتبع تحديات المتحمسين ردات فعل باضطهادات كثيفة، ومن الجانب المسيحي، تمت إدانة تصرف هؤلاء المتعصبين العدواني. وعلاوة على ذلك، لم يقم أولوج ولا ألفارو بإطلاق نداء إلى مقاومة ما بالسلاح، بل لبثت الدعوة إلى مقاومة التمييز، وإلى الإخلاص النضالي المندفع حتى التحدي والشهادة. غير أن هذه الحوادث شكلت، مرحلة هامة في تكوين ذهنية عسكرية مناهضة للإسلام، ولاسيما في وسط سلك الكهنوت، وقد ساعدت، دون أي شك، على تكوين مفهوم شهادة شبيهة بشهادة الإسلام وبقوى إبليس والمسيح الدجال.

في الواقع ان هذه التصورات لم تقتصر على قرطبة: فقد وُلدت كما رأينا سابقاً في الشرق، وانتشرت على نطاق واسع وبدرجات متفاوتة في جميع أرجاء الغرب المسيحي، وجزئياً ، على الأقل مروراً عبر إسبانيا.

في فرنسا ، على سبيل المثال، انتشرت سمعة "قداسة" "شهداء قرطبة، انتشاراً باكراً جداً . فمنذ عام ٨٥٨، وجه أكليروس مدينة فالانسيا راهبين باريسيين إلى قرطبة وقد قدما إلى أسبانيا ليحصلا على ذخائر من شهداء قديسين (يرجع عهدهم إلى العصر الروماني القديم) ، فصادفا في قرطبة أولوج، وجلبا معهما إلى باريس ذخائر

لثلاثة من " الشهداء الجُدُد" القرطبيين، وظلت هذه الذخائر تجترح هناك العجائب. وهذا هو البرهان أن هؤلاء المتعصبين، بعد إعدامهم ببضعة أشهر وحسب، على يد سلطات الإسلام، قد تم اعتبارهم في الغرب متكافئين مع الشهداء الأقدمين الذين ذبحهم الوثنيون الرومانيون بسبب إيمانهم. فثمة هنا تشبيه ذهني للمسلمين بالوثنيين في العصور القديمة، وهو تشبيه بليغ الدلالة جداً لذهنية ذاك العصر الدينية. ومن جهة أخرى، من المرجح بمقدار أوفر أن الراهبين قد جلبا معهما من أسبانيا صورة الإسلام والمسلمين الكاريكاتورية ذاتها التي تصورها نصراء أولوج المتشيعون له: إنها في نظرهم هرطقة أثارها الشيطان، وتُشير إلى مجيء المسيح الدجال، وليس المسلمون، في واقع الأمر، سوى وثنيين يعبدون الأصنام.

بالإضافة إلى ما سبق، نعثر مجدداً على هذا التصور ذاته، مع بعض الروايات المختلفة، في العديد من الكتابات اللاتينية من القرن التاسع إلى الحادي عشر. مثلاً ، رادبيرت دوكوربي (Radbert de Corbie)، يصف المسلمين، في القرن التاسع، بأنهم أناس عنيفون يحبون الحرب، وقد أخضعوا، بقوة السلاح، جميع ممالك هذه الأرض تقريباً طبقاً لتوجيهات "نبيّهم" المزيف الذي رسخ، في أذهانهم، رغبة توخيهم السيطرة على المسكونة جمعاء. وكما قال رادبيرت، بوسيلة حُكمٍ عادلٍ من عند الله، قد تلقوا "روح الزلة"، وهو روح المسيح الدجال. وهنا نجد تماماً ومن جديد، هذه الصورة نفسها لإسلام يعتبر ديناً هرطوقياً وعسكرياً ، له دعوة الهيمنة المتسلطة.

تُرى هل بلغت هذه الصورة الغرب بوسيلة أوساط مسيحية متمردة على الإسلام في إسبانيا؟ إنه لأمر كثير الاحتمال، كما رأينا هذا لتونا، في شأن شهداء قرطبة. لكن، ليس هذا هو الطريق الوحيد الذي يتيسر التبصّرُ فيه. فرغم الانقطاع العميق الذي يفصل، في ذاك العصر، العالم المسيحي المشرقي عن الغرب المسيحي، فمن الممكن أن هذه الصورة قد انتشرت من الشرق إلى الغرب عن طريق ترجمات لاتينية لأعمال حررت باليونانية.

على سبيل المثال، هذا هو وضع أنَسْتاز المكتبيّ (توفي عام ٨٧٩)، فقد ترجم أعمال ثيوفان، ونشر بذلك أفكاره عن الإسلام. فمحمد، في رأيه، قد علّم المؤمنين به أن من يقتل عدواً سيدخل الجنة، كمثل من سيقتل في مثل هذه المعركة. ونشر أيضاً

الوصف الشبقي لجنة شهوانية حيث يسود الشبق. وغدا هذا الوصف "النبي عنيف وشهواني وصفاً كلاسيكياً في القرن ١١، حيث نعثر عليه تكراراً ، دون فارق تقريباً لدى العديد من مؤلفين قد سبقوا الحرب الصليبية. وإن الحوليات الصليبية الأولى قد كررت أصداء هذه الأفكار المنتشرة في عصرهم بطرق شتى.

ترى هل عقيدة الحرب المقدسة، التي لابد لها أن تولد في الغرب قد استمدت وحيها، بردة فعلٍ، من عقيدة الجهاد الإسلامية التي تدرك بهذا الشكل؟ وهل هذا الجهاد قد شجع ظهور الحرب المقدسة؟ إن نفوذاً عقائدياً مباشراً من هذا النوع، قليل الاحتمال. وبالمقابل، إنّ تَكَوُّن هذه الفكرة لحرب مقدسة، في الغرب المسيحي، قد لقي التشجيع، دون أي شك، من انتشار صورة الإسلام هذه الكاريكاتورية الساخرة. فعنف المسلمين وتصرفهم العسكري الحربي لا يقوم في ذلك بالدور الرئيسي. وليس التأثير المشرقي، بالتأكيد، دون أهمية، لكن هذا التأثير لم يبق وحيداً فمن المحتمل أن مسيحيي الغرب إذ حققوا دون أن يعلموا ومن أجل مصلحتهم، الجمع مابين كل هذه التأثيرات المتنوعة، قد أعدوا هم أنفسهم، قدسنةًللمعارك التي يخوضونها على أعدائهم الذين تَوَثُّنوا [باتوا وثنيين Paganisés]

بتعبير آخر، في الشرق والغرب على السواء، إن إرادة مقاومة سيطرة الإسلام، ونزعته الإمبريالية والسياسية والثقافية، هي التي أدت، في المنطقتين، إلى الإعدادات ذاتها: الفكرية منها والعقائدية. فالعمق الديني المشترك (الثقافة الكتابية) والتهديدات المتماثلة من قبل الخصم المسلم بذاته، هي التي أفضت إلى ردات فعل متماهية، أو على الأقل، متشابهة، دون أن يكون ضرورياً ، بشكل مطلق، الاستناد على تأثير مباشر، وهو إلى جانب ذلك ممكن، عن طريق بُنُوّة الكتابات وتسلسلها.

ونحن ندرك مصدر مثل هذه القدسنة في أسبانيا ، قبل سنة الألف بكثير.

قدسنة استعادة الأرض الإسبانية

[ركونكيستا Reconquista]

إبان الفتح الإسلامي لإسبانيا، سبق أن شكلت المنطقة الجبلية من إقليم أستوريا حصناً منيعاً حيث تجمّع المسيحيون الأشد تصميماً على القتال، وقام، بيلاج، احد

زعماء الغوط بتأسيسه مملكة مناطق أستوريا، عام ٧٢٠ وفي فترة باكرة جداً تنظمت المقاومة، تطلعاً إلى [الركونكيستا] استرداد الأرض التي خسرتها إسبانيا. لكن فكرة استعادة الأرض هذه قد استمدت ما يواتيها من شيطنة المسلمين، معتمدة الرؤيا النبوية من التاريخ، وسبق للغرب أن صادفها في ربوع المشرق العربي. ونرى الأمر هذا بوضوح في حوليتين من أستوريا خلال القرن التاسع.

إن الحولية النبوية (٨٨٣) ترسم صورة شخصية لمحمد تقترب جداً من الصورة التي يقول أولوج إنه قد عثر عليها في إحدى كتابات تلك المناطق [المشرقية] ظلت على إيمانها المسيحي، وذلك دون أن يتمكن القارئ أن يستخرج منها تأثيراً ما. ولن نعود إلى هذا الموضوع.

إضافة إلى ذلك، وهذا هو الهام، تمثل هذه الحولية تفسيراً تاريخياً / نبوياً لاجتياح المسلمين أسبانيا. ولم يحسب هذا الاجتياح ثمرة من ثمار الصدفة: فهي صادرة عن إرادة الله المتعمدة. وهي بالتالي تحتل مكانتها في خطة التاريخ العالمي الذي يقود منحاه " القادر على كل شيء"

وأمعن المؤلف في ما هو أبعد من ذلك، فأبدى أسباب هذا العقاب، وسعى إلى أن يحدد مدته تحديداً دقيقاً وبقصد ذلك، راح يعتمد على تنبؤ من حزقيال (الفصلان ٣٨ و ٣٩) خاص بمقدرة غامضة تدعى غوغ "، ولابد لها أن تظهر في ما بعد من الأزمنة. وبوسيلة سجع الأصوات، يقوم بمماثلة "غوغ" بشعب "الغوط" الذي بسط سيطرته على إسبانيا حتى قدوم العرب. فإن الله هو الذي حث شعب العرب هذا "الجديد" (شعب إسماعيل) بغية أن يعاقب "غوغ " على خطاياه. بيد أن عقابه ليس أبدياً فذات يوم سيأتي الله ليخلص شعبه ويحرره. أضاف المؤلف بضعة توضيحات زمانية لها الكثير من الفائدة: فمدة عقاب الله، أي مدة احتلال العرب لإسبانيا، هي، في رأيه محددة: ستدوم ١٧٠ عاماً وفي انقضاء الفترة هذه سيعاقب الله إسماعيل بدوره، كما سبق له أن عاقب الغوط سابقاً

عندئذٍ اتخذت النبوءة التوراتية منحىً سياسياً بفضل هذا التأويل: فإن ملك الأستوريين، الفونسو الثالث، هو الذي سوف ينجز، بعون المسيح، هذه المهمة النبوية. فتنبأ المؤلف بانتصاره العتيد، وجعله سيد إسبانيا جمعاء. وعقب تحرر الكنيسة هكذا من

أعدائها، ستنعم مجدداً بالسلام، بعد انقضاء هذه السنوات (١٧٠) من المحن والدواهي. وترى الحولية أن ختام سيطرة المسلمين هذه قريب وشيك. إن (١٦٩) سنة قد باتت منقرضة، من (١٧٠) سنة التي قررت لها. وخلال القليل من الزمان الوجيز سيأتي إذن لنجدة المسيحيين زمان الخلاص والانتقام (رَ. النص رقم ١١ في آخر الكتاب).

وفي هذه المرة، لدينا هنا الخطوط الأولى من برنامج حرب مقدسنة وقد أُعلن عنها تنبؤياً فإن الركونكيستا تعتبر بمثابة إنجاز لمشيئة الله، في التاريخ. وبالتالي، باتت المساهمةُ الحربية في هذا الإنجاز، واستناداً إلى ما سبق، مساهمةً قد سما شأنها على الصعيد الأخلاقي.

إن حولية الفونسو الثالث، وقد تم تحريرها فيما بعد ببضعة أعوام، تسرد حوادث الغزوات العربية في أسبانيا والمقاومة المتصلبة لدى المسيحيين المتمرسين داخل عزلة إقليم أستوريا. وتستعيد هذه الحولية الثانية الإشكالية ذاتها أي السابقة، وبدورها ترى أن الاحتلال العربي يترجم عقاباً من الله لشعبه،وعلى الخصوص، من جراء العديد من المآثم التي ارتكبها ملوك الفيزيغوط عقب إدانتهم بأنهم فاسقون منحرفو الأخلاق. إلا أن الله ومريم البتول لا يهملان شعبهما. فهما يذودان عن المقاتلين المسيحيين في إستوريا، تحت إمارة عاهلهم، الغوطي الشاب الذي فرَّ من الأندلس سعياً منه إلى تنظيم المقاومة في رحاب جبال الشمال.

كان هذا الملك المقدام، رغم ذلك، محفوفاً بحاشية رديئة. فإلى جانبه، أسقف مستعرب نصراني [اندلسي قد خضع لسلطة العرب، Anti-turpin] حقيقي قبل اكتمال الأمور، لا يكف عن إغداقه نصائح التريث و "الفطنة" وقد شُبِّه بالخيانة. والحقيقة أنه، كان يجعله يأخذ في الحسبان عدد المسيحيين الضئيل إزاء الكثرة الجمة لدى المسلمين والعرب. وأكد له أنه لا مجال لشيء آخر سوى الاستسلام والخضوع في الظروف هذه. غير أن "بيلاج"، على غرار رولان في نشيد المآثر الذي يحمل اسمه، رفض بإباء، وأعطى رجل الدين هذا الجبان الخائن درساً حقيقياً من البسالة والإيمان. فأثار الحماسة في قواته مرتجلاً أمامهم خطاباً حقيقياً من أجل حرب مقدسة.

واندلعت المجابهة في معركة كوفادونغا. وشكلت هذه الحادثة أسطورة من أساطير مؤسسي تاريخ إسبانيا. فقد قاتل المسيحيون قتالاً بطولياً، بل قامت، خاصة، بدعمهم

وإعانتهم القوات السماوية ولاسيما مريم البتول، فقد زادت بحمية عن معبدها، مطلقة نحو المسلمين سهاماً وقذائف قُذِفَ بها المعبد. وبفضل هذه النصرة اللدنية، بات انتصار المسيحيين كاملاً فقد قتل في المعركة هذه ٢٤ ألفاً من العرب المسلمين (ويطلق عليهم النص اسم " الكلدانيين"، وبدون شك أنه توخى شرقنة ما حدث [إضفاء السمة الشرقية] (Orientaliser)، فيما قضت أعجوبة جديدة من السماء على قُرابة جميع الفارين. فالحولية تضع إذن في أصل السلالة ملكاً أستورياً مقداماً يعزز الله قواته في حرب مقدسنة. وقد جعل المؤلف، بذلك، من الفونسو الثالث العاهل المالك في ذاك العصر، وريثاً لتقليد طويل الأمد من أبطال المقاومة الأسبانية (الفيزيغوطية) حيال العرب الغزاة، بل أيضاً من أبطال المسيحية إزاء الإسلام. فأعلن أن هذا الملك بذاته، الفونسو، هو الذي سيكون له الشرف. بأن يعيد إلى سابق عهده المجد القديم لملوك الغوط في إسبانيا.

تظل النية الأيديولوجية لهاتين الحوليتين نية بينة جلية: فهما توضحان شرعية سلالة الملوك الأستوريين وقداسيّتها: (Sacralité)، وتُصَيّران ملوكها أبطالاً للمسيحية ولاسترداد الأرض المحتلة [بقوة السلاح]، هذا الاسترداد الذي بات نظيراً لحرب مقدسة أعْلن عنها بالنبوءة، فهي من مشيئة الله وتستجيب لتدبيره الأبدي.

السيطرة الإسلامية ونهاية الأزمنة

لقد استغلت، على هذا النحو، الحولياتُ الأستورية، ولصالح الأيدولوجيا الملكية، شتى التقاليد التنبؤية التي أعلنت الخاتمة العتيدة، للسيطرة العربية، وقد توخاها الله وأثارها بقصد أن يعاقب، لحين من الزمان، شعبه على خطاياه.

كما رأينا سابقاً ، في المشرق، كان الرجاء والأمل، القائمان على أساس التفسير التنبؤي، يفضيان إلى النتيجة ذاتها، لكنها لبثت تنسب الخلاص إلى إمبراطور بيزنطة. وقد ترجم بضع من كتاباته إلى اللغة اللاتينية، وبفضل بعض التعديلات ساهمت هي أيضاً بنشرها في الغرب رجاءً من النمط نفسه.

هذا هو وضع "ميتوديوس/الكاذب" الذي تُرجم إلى اللاتينية في مطلع القرن الثامن. وكمثل العديد من الكتابات الأخرى من هذا النوع، اعتمد هذا الكتاب رسالة

بولس الثانية إلى أهالي تسالونيكي (٢ تس، ١: ٥ - ٨)، وقد ذكر فيها الرسول الأزمنة الأخيرة والمجيء العتيد " لرجل الإثم أي المسيح الدجال. وأكد فيها بولس أن ذاك الزمن لم يأت بعد، لأن قراءه - كما استطرد بقوله - يعلمون تماماً ما الذي يحول دون ذلك، مانعاً المسيح الدجال عن الظهور. وعلى غرار العديد من المفسرين الآخرين، يرى "ميتوديوس/الكاذب" أن الرسول كان يومئ بهذه الطريقة، وبألفاظ من الكناية إلى الإمبراطورية الرومانية. فما كان من الضروري إذن أن يظهر المسيح الدجال إلا عقب زوال هذه الإمبراطورية. والمؤلف، إذ توسل بأسلوب النبوءات، قد زعم أنه يتموقع في ماض بعيد، ويؤذن بالحوادث المستقبلية: وتنبأ إذن بقوط الإمبراطورية الرومانية هذه. وحسب رأيه، إن سيف العرب (ويومئ إليهم باسم "أبناء إسماعيل") هو الذي سوف يتسبب عما قريب بهلاك هذه الإمبراطورية من جراء معاصيها. ومن جراء هذه المعاصي، سوف يدفع الله الإمبراطورية إلى أيدي هؤلاء البرابرة.

إن عقاب الله المعلن بهذه الشاكلة، سيكون هائلاً فالمؤلف يصف في جميع ربوع المسيحية التي سيجتاحها أبناء إسماعيل، مشهداً من الكوارث والموت. وإذ يمنى مسيحيون كثيرون بمثل هذه الإضطهادات، سوف يؤول بهم الوضع إلى التنكر لإيمانهم، بل سيمضي بهم الأمر هذا إلى القنوط من الحياة.

بيد أن المؤلف لا يتوقف عند هذا المشهد المدمر. بل يعزز عزيمة المسيحيين متنبئاً بالنهاية الوشيكة لهذه الداهية المخيفة. فلا جرم أن العرب الفاتحين سوف يقهرون بدورهم، في حين لا يتوقعون منه قهرهم، على يد شخص ٍ يطلق عليه اسم "ملك اليونان والرومان" (لابد هنا من الإشارة إلى أن هذا التعبير الذي يشير، بكل تأكيد، في ربوع الشرق، إلى إمبراطورية بيزنطة، لكن، من المحتمل أن يعني هذا التعبير، في الغرب، شخصاً مقصوداً آخر، كما سنرى ذلك لاحقاً).

بيد أن النهاية لن تقع في ذاك الحين، لأن شعب الله لا يزال مضطراً إلى أن يتحمّل شدائد جمة. لكن الله سيبعث بأمير حرسه السماوي الذي سيقضي تماماً على مضطهدي المؤمنين به. وفي نهاية المطاف سوف يعود المسيح بذاته، فيجابهه المسيح الدجال قرب

القدس ويدفع أتباعه إلى الخروج على المسيح والمؤمنين به وسوف يُقضى على المسيح الدجال، فيقيم الله عندئذٍ ملكوته، مع الأبرار، فيما يلقى بالأشرار إلى سَقرَالجحيم (ر. النص رقم ١٢، في آخر الكتاب). وتغطي هذه القصة إذن، وعن طريق التنبؤ، كل ما يتبقى من تاريخ الإنسانية حتى ختامها.

لقد نَعِم هذا النص بحظوة عظيمة. وغالباً جداً ما تم نسخه وتنقيحه، ما بين زمان ظهوره في أقطار الغرب، خلال مطلع القرن الثامن، وعصر الحملة الصليبية الأولى. وقد حظي، بالتأكيد، بالجمّ من الإطراء في الأوساط الكنسية، لأنه متواجد في عدد وافرٍ من المخطوطات التي ظلت في حوزتنا. وكمثل مخطوطات أخرى عديدة، لكنها تشتمل على المزيد من الدقة، فهو يلح على الدور التاريخي والتنبؤي عن الفتوحات العربية. فجميع الغزوات هذه، المؤلمة في نظر المسيحيين، ليست حادثاً عرضياً من التاريخ: بل هي ذات معنى تربوي وتنبؤي. إذ تشكل إحدى علامات مسيرة التاريخ المحتومة حتى ختامها الذي سوف يُمَهر بوسم انتصار "المسيح" وإقامة ملكوت الله. فنهاية سيطرة العرب متوقعة في هذا الختام، وقد أعلن حدوثها، وبالتالي، فهي أكيدة. وكذلك هو الأمر في شأن استرداد الأرض المسيحية. ومن ثمّ، فهذا الاسترداد يغدو أيضاً مقدسناً

الأناشيد الملحمية والحرب المقدسة

على هذا المنوال، قامت التأملات الأخروية [المتعلقة بالعالم الآخر كالبعث والدينونة Eschatologiques] بدور يتعذر إهماله في التقييم الأيديولوجي للمعارك التي تشنّ على "المحتلين" المسلمين. فترى، هل من الممكن أن نقدر انتشار هذه المعارك وأهميتها ومداها؟

غالباً ما قيل إن تأملات كهذه لبثت تثير اهتمام بضعة من الرهبان وحسب، رهبان مِنعزلين في أديرتهم، وظل لهم إذن تأثير مباشر جد محدود على السكان. ويشمل هذا الادعاء ثلاثة أغلاط وحسب. أولاً ، لأن موضوع المسيح الدجال ونهاية الأزمنة - ويجهله المسيحيون في أيامنا جهلاً كاملاً أو يكاد - لبث يثير حمية جميع المؤمنين في العصور الوسطى. ثم، لأن موضوعاً كهذا بقي يتماشى، بصورة جيدة تماماً ، مع

العظات ومع القصص التي من شأنها اجتذاب الجماهير وإثارة خشيتهم. وأخيراً لأن الأقاويل العدوانية حيال محمد والإسلام نعمت بحظ وافر في إعجاب ومسرة الجماهير. فمن المحتمل جداً ، إذن، أن مسيحيي الغرب، وحتى العلمانيين منهم والقليلي الثقافة (ولاسيما المحاربين)، قد بات لهم، من جراء هذه الثرثرات، على الأقل، إدراك مبهم، وبالطبع مشوه جداً ، عن الإسلام والمسلمين، ولئن حدث هذا على نحو غير مباشر.

إن هذه الصورة السلبية بكاملها عن الإسلام والمسلمين بقيت صالحة لإثارة الشحناء أو لإيقاظها، ولاسيما في المناطق التي سبق للغزوات العربية أن خلقت بعض الذكريات فيها، ولئن ظلت بعيدة. وقد لوحظ ما يلي: إن أناشيد الفخار والبطولة (الأثيرة جداً لدى الفرسان، منذ مطلع القرن الثاني عشر، ومن المحتمل قبله)، تُمَوقعُ بصورة دائمة تقريباً ، في عصر الكارولنجيين، بل في عصر الميروفنجيين، مآثر الفرسان المسيحيين في غاراتهم على المسلمين، وقد استطاعوا طردهم من جنوب فرنسا: فالملاحم، بشكلها البدائي، تشيد شعرياً ، وحسب طريقتها، باستعادة الأرض المسيحية، أولاً في غاليا، ثم في إسبانيا، وفيما بعد بكثير، في الشرق الأدنى.

ومهما يكن من أمر، في جميع الأناشيد البطولية، قام المحاربون المسيحيون، حيال العرب المشيطنين وقد باتوا كمثل الوثنيين: عبدة الأصنام والمفسدين، بنضال يدعمه الله حتى الانتصار، أو حتى حيازتهم سعف الاستشهاد إن سقطوا تحت ضربات هؤلاء "الوثنيين" ونشيد رولان هو النموذج الأول لهذه الأناشيد، ومن المحتمل جداً أن نسخته المعروفة حالياً ، وهي نسخة "أكسفورد"، قد سبقتها أناشيد أخرى حول رولان، تمجد القيم ذاتها: فنحن نعلم أن شاعراً منشداً ، بمدينة هاستينغز، في عام ١٠٦٦، قد تغنى بمآثر رولان و[صديقه]أوليفيه، لكي يشجع المحاربين النورمنديين على قتالهم ببسالة الأنغلو/سكسونيين المشايعين لهارولد. وتُتَرجِمُ هذه الأناشيد، على نحو أفضل من الكتابات اللاتينية التي تَحدثنا عنها حتى الآن، الصورةَ التي لبث المحاربون المسيحيون يتصورونها عن مسلمين سوف يجابهونهم في إسبانيا في معارك استعادة الأرض المحتلة [الركونكيستا] أو لاحقاً في الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى.

ليس الشعراء المنشدون هم من ابتكروا صورة الإسلام والمسلمين وشعبنوها [نشروها في شعوبهم وفي جمهورهم]. ويتشكل الجمهور هذا، بصورة خاصة، من

الفرسان الذين يصغون إليهم في الساحات العامة، كما كان يقال هذا فيما مضى أو على الأرجح في قاعات القصور المحصنة، وفي قصور الأمراء. وكان لأرباب الدين معرفة بهذه الصورة، كما يشهد على ذلك إخباريو الحرب الصليبية الأولى، فهم يذكرون الخطوط الهامة ذاتها. وإن غيبيرت دو نوجانت (Guibert de Nogent) وغالباً ما تم البرهان على روحه النقدية، قد صحح من شططها (فقد نبذ بشكل خاص الفكرة القائلة بأن المسلمين يعبدون محمداً بصفته إلهاً) لكنه، كرّر العديد من هذا الشطط والمغالاة، رغم معرفته قيمتها الباطلة، مؤكداً دونما خجل وبقصد تبرير نفسه، أنه يجوز التقول وتقريع محمد وذمه بما أن الحقيقة حول هذا "النبي المزيف" تتجاوز كثيراً كل الأذية التي بمقدور المرء أن يقولها عنه.

ترى من أين وافته هذه " المعرفة " عن الإسلام والمسلمين؟ المصدر مجهول، لأنه يصرّح هو بذاته بعدم عثوره حول محمد على معلومات حقيقية، في المؤلفات التي استشارها. وكما يقول، إنه يكتفي، بالتالي، بتقديمه مجدداً "رأي الجمهور". فصورة كهذه لبثت، إذن، منتشرة في عصره بكل تأكيد. وتعززت هذه الصورة بأناشيد الملاحم السابقة " لنشيد رولان"، وبالأقاويل المؤذية المنقولة شفوياً ، بل تعززت أيضاً بكتابات المساجلات الصادرة عن الشرق، والمترجمة إلى اللاتينية، ولعلها أيضاً الصادرة عن الاسبانية.

إن السمات الرئيسية التي شكلت منذئذٍ الصورة الكاريكاتورية لمحمد ودينه، تبدو أنها باتت راسخة في الذهنية العامة لدى محاربي الغرب وأرباب الكنيسة، وقد شهدت على ذلك، منذ نهاية القرن العاشر الشاعرة روزفيتا (٩٣٦- ٩٧٩)، رغم أنها على بعد شاسع من مناطق التماس مابين الميادين الخاصة بالديانتين كانت الشاعرة الألمانية الأولى راهبة، ولدت في عائلة نبيلة ساكسونية، وقد غدت رئيسة دير غاندرشايم. ونظمت قصيدة تمجد الغوطي بيلاج، الذي قتله ملك مسلم في اسبانيا، ملك عنيف، شبقُ المزاج، لوطي، عابد أصنام، وبذلك كررت غالبية المبتذلات التافهة حول الإسلام. وأمر هذا المستبد بقطع رأس بيلاج الشاب، فنقلت الملائكة إلى السماء نفس هذا الشهيد القديس.

إن الاتهامات باللوطية والفسق الشبقي، والعنف الحربي، والتعطش إلى السيطرة على العالم، وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة، التي كانت تتقوَّل على المسلمين، فباتوا يماثلون الوثنيين في العصور الرومانية القديمة، لبثت اتهامات منتشرة على نطاق واسع في الغرب، قبل ختام القرن الحادي عشر بكثير. إلى جانب ذلك، مضى الصليبيون حتى وصفوا التمثال/الصنم لمحمد، وهو حسب رأيهم، يتربع على عرشه في هيكل أورشليم (رَ. النصوص، رقم ١٣، في آخر الكتاب). ليست هذه الواقعة عارية من القيمة: بل تعني أن أصحاب الحوليات، رغم أنهم جانبوا حقيقة الإسلام الواقعية، واستطاعوا ولوج بعض الجوامع، قد فضلوا الاحتفاظ بالأقاويل المتكررة حول الإسلام والاستمرار بها، فهي تتحدث عن إسلام يعبد الأصنام، وقد رُسِّخت هذه الأقاويل في أذهانهم منذ ما قبل انطلاقهم إلى الأراضي المحتلة. وهذه الصورة الكاريكاتورية قد وُطنت في عقليتهم بما يكفي من القوة والعمق بحيث أنها قاومت صدمة حقيقة الواقع.

على سبيل المثال، فيما كان رجل الدين راوول دوكان (Raoul de Caen) يتلقى من معلمه تانكريد - (Tancrède) أحد أبطال الحرب الصليبية الأولى - قصة دخوله هيكل أورشليم (جامع الأقصى)*، لم يتردد في وصف تمثال في هذا المكان المقدس، تمثال من فضة يزدانُ بالحجارة الكريمة، ويشبه كثيراً، علاوة على ذلك، التماثيل الذخائرية في كنائس الغرب. لكنه تردد في كشف هوية هذا التمثال، إذ لم يعرف إن كان يمثل المسيح أم أحد الآلهة الوثنية، قبل أن يرى فيه صورة محمد، وقد شبهه بمسيح منافق قد سبق المسيح الدجال الذي لابد من ظهوره في ختام الأزمنة، كما لابد له من التربع على عرشه في هيكل الله. وبالتالي، غدت شيطنة الإسلام مزدوجة في سرد هذه القصة.

هذا الكاريكاتور لإسلام هرطوقي، عنيف، عابد الصنم، شبق فاسق، انتشر على نطاق واسع في جميع الأوساط. فهو يبدي بجلاء أن هذه هي الصورة التي أدركها الغرب - أو بالأحرى التي توخى أن يدركها - عن الإسلام والمسلمين الذين لبث منذئذٍ محاربوه يجابهونه في إسبانيا كما في جنوب إيطاليا، وبعد قليل في صقلية والشرق الأدنى. وهذه الصورة، المعدة أولاً لردع مسيحيي المناطق التي سيطرَ عليها الإسلام عن الانسياق إلى ثقافة المنتصرين ودينهم، قد غيرت شيئاً فشيئاً مقصد منحاها. فعندما

انتقلت إلى الغرب، أسهمت في إذكاء الحقد والعداوة، وفي شيطنة الخصم، وبطريقة ردة الفعل، في قدسنة القتال الذي يخوضه المسيحي على الخصم هذا، مسهلاً بذلك تكون مفهوم حرب مقدسة قَابَلَ، في حين متأخر بما فيه الكفاية، مفهوم الجهاد: وقد بات هذا المفهوم مقبولاً منذ عهد طويل في العالم الإسلامي.

الجزء الثالث

رفع قيمة الحرب أيديولوجيا في المجتمع الإقطاعي
(من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر)

الفصل الثامن

الحرب الجديرة بالثواب، الإمبراطورية، البابوية، الغزوات الوثنية

حتى خارج المناطق التي احتلها المسلمون، شهدت الفترة المعنية هنا ظهور سمتين أخريين لرفع قيمة القوة المسلحة المؤدية إلى فكرة الحرب المقدسة، وذلك في ذات قلب الغرب المسيحي: السمة الأولى مرتبطة بالدفاع عن الإمبراطورية الكارولانجية، وقد باتت مماثلة للمسيحية. أما السمة الثانية فتنجم عن الحلف الذي عقده الكارولانجيون مع البابوية، وعن القدسنة التي ارتبطت بحماية الكرسي الرسولي. وينبغي علينا أن نُذكّر بملامحها الرئيسية وبعواقبها في شأن موضوعنا.

الكارولانجيون والبابوية: اقتران الانطلاق

بيبان لو برف (Pépin le Bref)

إن الانقلاب السياسي المذكور آنفاً ، والذي أنجزه بيبان بالاتفاق مع البابا بقصد خلع السلالة الميروفنجية عن العرش، عزز الحلف مابين البابوية والملكية الفرنجية، وقد انطلقت بدايتُها سابقاً في عهد كلوفيس. وقام البابا شخصياً بمسح بيبان وأولاده بالزيت المقدس [الميرون] و نصبهم ملوكاً ". ومن جهته، أعاد بيبان (في واقع الأمر، قد أعطى) إلى البابا حَبْريّة "رافينا" ، وأعاد علناً ، تنصيب إيتيين الثاني على عرش القديس بطرس. وعزز في مملكته السلطة البابوية في صدد النظام الكنسي والإكليرسي، وفرض الشعائر الدينية المسيحية [الليتورجية] الرومانية.

في عـام ٧٧٣، احـتـل الملك اللومـبـردي ديديـيـه، بدوره، بـضع أراض بابوية، وهدد مـدينة رافين. فاستنجد البابا أدريان الأول بشارل الذي نزل إلى إيطاليا مصطحباً جيشين وأغلق على ديدييـه في مـدينة يافي. واحـتـفل شـارل ملك الفرنجـة بعـيد الفـصح في روما حيث استقبل بصفته منقذاً ، وأكد للبابا أدريان وعد "الاسترداد" الذي سبق أن وعد به بيبـان: ولو تبع هذا الوعـدَ بعضُ العواقب، لكان منح البابا والكرسي الرسولي أكـثـر من ثلثي إيطـاليـا ، جاعـلاً من البابا منذ ذاك التـاريخ، قـوة زمنيـة لا يسـتـهـان بهـا. ولكن، لم تكن هاتيك الوعـود سوى كلمات نطقهـا ، ومن الممكن أن نشك في صدقهـا : ففي حقـيقـة الواقع، لم يكن شارل مصـمماً البتة على التـخلي عن أدنى نتـفة مـن سلطانه الزمني. ومن ثم، قام بتتويج نفسه بتاج اللومبرديين الحديدي، ولم يتنازل إلا عن بضع مدن.

إن ما تم تصوره عن الوظيفة الملكيـة والحماية المستحقة للقديس بطرس [أي لخَلَفه البابا] ، ذهب بالملك الفرنجي إلى أن اعـتـبر نفسـه رئيسـاً "للإمـبـراطورية المسـيـحـيـة" ، فـحكم بصفـتـه هذه إيطاليـا حكماً مـباشراً (كـمـا فـعل بالمملكة اللومـبردية) ، أو بوسـاطة تابعين له في أصناف مـن الحـمـايات. فـوضعُ اليدِ هذا بطريقة الأمر الواقع من قـبل الملك على إيطاليا ، أوشك على إقحامه في صراع مع " البازيلوس أي الإمبـراطور الروماني اليـوناني، إمبـراطور بيزنطة، الذي كـانت تـناط به هذه الأراضي. ولكن مـا حدث هو أن الإمبراطور هذا كان في عـام٧٩٧ في الواقع امرأةً، تدعى "إيرين" ، وقلما كان الأمر هذا مقبولاً لدى الغربيين. وعـلاوة على ذلك، كانت قـد خلعت لتوها ابنهـا قسطنطين، فاقـئةً عـينيه على يد مـأموريهـا . يا للمرأة، يا للأم الدنيئة! صار الوقت مـلائماً تماماً لانتـهـازه في إنجاز "انقلاب سياسي" آخر، وهو ثمرة حلفٍ جديد مابين الكارولانجيين والبابوية.

كـان الأمـر نجاحـاً كـاملاً للطرفين: فـالبـابا صـار بوسـعـه أن يجـد فـي ذلك سـانحـة للتـحـرر من وصـاية. بيـزنطة القـانونيـة، وللتـأكـيد على أيديولوجيـتـه السـيـاسـيـة. أمـا شارلماني فـصار بمقدوره أن يغنم من ذلك لقباً جليلاً يوضـح تفوقه الفعـلي المكتسب على ملوك الغـرب قـاطبـةً، وأن ينعم بإمكـانيـة "تجديد" الإمبـراطورية الرومـانيـة، إمبـراطورية سيـكون سيـدها ، وقـائمَ مـقـام الله على الصـعـيد الزمني، بما في ذلك العـسكري، ناهضـاً هكذا بشأن عـمله لإحلال السـلام والوحدة في الداخل، وعمله في الفتـوحـات العـسكرية

في الخارج. فمن الممكن أن يصير البابا، مع سلطته الناشئة، نداً له ومزاحماً أما الظروف فقد جعلت منه حليفاً وإن مجابهة السلطتين، الإمبراطورية والبابوية، لن تقوم إلا عقب انقضاء قرنين ونصف لاحقاً

التتويج الإمبراطوري (عام ٨٠٠)

في نيسان / إبريل عام ٧٩٩، كان البابا الجديد ليون الثالث، يعاني من وضع رديء حقاً. فقد اصطدم بحزب الأرستقراطية الرومانية الذي هدده بفقء عينيه وخلعه، ومتّهماً إياه بالزنى (أي بالخيانة حيال زوجته: الكنيسة)، وبالهرطقة وعدم الجدارة. فاستبق ليون الثالث فعلة أعدائه: وتمكن من الهرب إلى جيرة شارل (وكان في منطقة ساكس)، فأمر الملكُ بإعادته إلى روما تحت الحراسة والحماية، وعزم على الذهاب لاحقاً لتفحص وضعه. وهذا يعني أن شارل، بَطْريقَ [زعيم الاشراف] الرومانيين، نهض على نحو كامل بدوره كحام للسدة الرسولية. بل اعتبر نفسه ذا حق في إدانة الحبر الأعظم. فنحن هنا لا نزال بعيدين عن الفكرة اللاحقة، فكرة بابا يُهَيمن على الملوك. وبوسعنا تقريباً ، على العكس من هذا، التحدث عن "نزعة قيصرية بابوية"، لكثرة ما عظمت سلطة شارلماني ونفوذه على الكنيسة وعلى أسقف روما [البابا]

الحقيقةُ أنه بعد ذلك بقليل، نزل شارل إلى روما حيث استقبله البابا استقبالاً جديراً بأمبراطور. وفي ٢٣ كانون الأول/ديسمبر، أعاد الملكُ البابا ليونَ الثالث على سدة القديس بطرس، بعد أن جعله يحلف، "بقسم مطهري" بأنه بريء تماماً من الأخطاء التي ألصقت به. فكوفئ الملك في الحال على ما فعل: وفي عيد الميلاد [ميلاد السيد المسيح] عام ٨٠٠، فيما كان شارل يصلي خاشعاً في كاتدرائية القديس بطرس، قام البابا بتتويجه إمبراطوراً ، وقوبل بالهتاف طبقاً للسلوكيات الإمبراطورية البيزنطية، التي اعتراها شيء من التعديل بقصد تعظيم دور البابا.

والحال أنه كما جرى في تتويج بيبان لم يكن يعني الأمر سوى تبادل خدمات تبادلاً مجدياً للطرفين، سوى مصادقة على حالة الأمر الواقع. وقد غدا شارلماني، منذ انتصاراته العسكرية، أقدر عاهل في الغرب. ومنذ عام ٧٩٩ ، إذ استفاد مستشار الملك: ألكوان (Alcuin)، من وهن إمبراطورة بيزنطة وأسقف روما على الصعيدين

الأخلاقي والسياسي، فمجّدَ أيديولوجيا الإمبراطور وعظمها. وبوسعنا تلخيصها بما يلي: إن شارل، "في واقع الأمر"، هو المدافع الحقيقي الوحيد عن الجماعة المسيحية، لأن السلطتين الشرعيتين الأخريين، ألا وهما "الكرامة الإمبراطورية لروما الثانية" يعني: إمبراطور قسطنطينوبوليس [القسطنطينية] و"جلالة السمو الرسولي أي: البابا، فَقَدَ كل منهما تماماً اعتباره وحظوته في ذلك التاريخ. وأما شرف المنصب الثالث، أي كرامة ملكية الفرنجة، التي منحها الله لشارل وسلمه إياها، فالمستشار ألكوان اعتبرها متفوقة على كرامة الاثنين السابقين بالمقدرة والمجد. فإن شارل، داوود الجديد (وبذلك يُشير ألكوان وبعضُ مستشاريه إلى شارل، ولهذه المماثلة من المعنى الإيديولوجي ما هو عميق باهظ) قد أوكل الله إليه حمايةَ الإمبراطورية والكنيسة والمسيحية وتأمين سلامتها.

لم يعد شرلماني يشعر البتّة بأنه في خدمة الكنيسة الرومانية. بل على العكس من ذلك بالتمام، فإن مهمته في الذود عنها تَوَلّيه سلطة يعتبر أنه يستمدها مباشرة من الله. وشارل بذاته يعرب عن هذا التصور في رسالة بعث بها إلى البابا ليون الثالث حيث يوزع بوضوح الأدوار: فلَه، هو الإمبراطور، مهمة القتال لتوسيع نطاق الإمبراطورية، ولحماية الكنائس والأهالي من تعديات الأعداء وغير المؤمنين: وعلى البابا مهمة الابتهال لأجل انتصار جيوش الإمبراطورية. فهذه الجيوش قد اكتسبت بالتالي من القيمة والتقدير كسباً مضاعفاً على صعيد الإيديولوجيا الدينية.

إلى جانب ذلك، مارس شارلماني سلطة كادت تكون مطلقة على الكنيسة: فالأساقفة، بمن فيهم أسقف روما [البابا] تم اعتبارهم، في نظره، موظفين، مختصين بدور كهنوتي بحت. وبالمقابل، تدخّل بذاته حتى في مضمار العقيدة، وفرض على سبيل المثال، إدخال "ومن الابن" (Filioque) في قانون الإيمان ("الروح القدس" ينبثق من "الآب" و"الابن"). [في آن واحد] وسوف يكون هذا الأمر، لاحقاً ، أحد الاختلافات العقائدية الرئيسية ما بين الغرب "الكاثوليكي" والشرق "الأرثوذكسي" وأكثر من داوود جديد (لأن شارل، كمثل داوود، ملك مسحه الله بالزيت المقدس، لكنه لا يزعم، كما فعل داوود، أنه نبي) إذْ يظهر لنا شارلماني بالأحرى بمثابة "قسطنطين جديد"

لويس الورع Louis le Pieux وتقسيم الإمبراطورية

قام لويس الورع [٧٧٨ - ٨٤٠] بالمزيد من إنماء طابع الإمبراطورية "الديني"، وجعل منها دولة مسيحية" حقيقية، فبعث برسل حتى إلى المناطق الوثنية في سكاندينافيا، وسعى بورعه وتعبده إلى استدرار النعم السماوية على إمبراطورية الغرب. غير أن هذا الورع نفسه قد أضعفه: فأقدم أبناؤه على اقتسام الأراضي في معاهدة فيردون (٨٤٣) وعلى التفرق دون هوادة. ولبثت الإمبراطورية الكارولانجية عند زوالها ذكرى جمة الحيوية في الأذهان، أسطورة احتفظت بمدى إيديولوجي حقيقي، ولم يزل المثقفون يحلمون بإمبراطورية مسيحية اتحادية. وبمنحى الإمبراطور بذاته ظلت البابوية دوماً تتوخى حصولها على العون العسكري الذي تحتاج إليه على شتى الأعداء الذين يستطيعون تهديدها. وهذه الوقائع توافقت، بالطبع، مع التشجيع الأيديولوجي لمشاريع الإمبراطور العسكرية ومنشآته.

شارلماني و " توسيع " نطاق الإمبراطورية

لا جرم أن شارلماني قد كان، قبل كل شيء، محارباً ، فاتحاً فذهب به التصور الذي راوده عن رسالته إلى أنه خلط توسع الإمبراطورية والمسيحية والإيمان، في آن معاً، فمن العسير إذن، بل من المستحيل، الفصل مابين الدواعي التي قادته إلى أن يقوم في كل سنة تقريباً ، بحملات عسكرية على جيرانه، وبعض منهم (لا جميعهم) "وثنيون" ومتى كان هذا هو الوضع، فإن إعلاء قيمة الحرب بوسعه أن يتخذ وجوهاً تقترب من القدسنة. كذا كان الوضع حيال السكسونيين والمسلمين في الغرب.

السكسونيون

تميزت بوضوح الحملات العسكرية على السكسونيين بسمات حروب رسولية. وإن "إيعاز شارلماني لعام ٧٨٥" أنزل عقاب الموت بكل تمرد، وقد هدف أيضاً إلى اجتثاث الوثنية. وأُلبِسَتْ هذه الحملاتُ أيضاً سمات حرب دينية، كمثل الحرب التي شُنت على الأفاريين [أحد شعوب السهل المجري]: فقبل بدء القتال، أمر الملك جنوده بالصلاة والصوم، وجعلهم ينجزون، وهم حفاة، تطوافات دينية. وسوف نجد لاحقاً خلال الحروب الصليبية، عناصر مماثلة.

وبالتأكيد، لم يوافق ألكوان (Alcuin)، ناصح شارلماني، على مبدأ استخدام العنف للحصول على ارتداد السكسونيين. بل قام بمحاولة، في عام ٧٩٢، للتخفيف من شدة إيعازات شارلماني السابقة التي قلما اقترحت على هذا الشعب سوى الخيار ما بين الارتداد أوالموت. بيد أن ألكوان ابتهج حقاً من النتائج المكتسبة: ففي نظره، أتاح انتصار شارل على السكسونيين الوثنيين التوقع بانتصارات أخرى وارتدادات سواها: وبفضل حملات شارل العسكرية هذه، باتت الكنيسة في سلام، وانتشر الإيمان المسيحي شرقاً لكنه بالمقابل، قد أسف ألكوان، في بضع من الرسائل، على أن "المسلمين الملعونين" لا يزالون مسيطرين على إفريقيا وآسيا. وفي رأيه، كان الملك الفرنجي عازماً على مهمة إستعادة الأرض من هؤلاء " الوثنيين

رغم ذلك، لم يفقد شارلماني اهتمامه بالمسلمين في إسبانيا، لكن نجاحاته قد كانت هنا أوفر اعتدالاً ، كما كانت علاقاته بالمسلمين على مزيد من السياسة.

شارلماني والعرب المسلمون

رونسوفو وأسطورة رولان

منذ عام ٧٦٨، سبق للمنصور الخليفة العباسي في بغداد أن بعث بوفد رسمي، ساعياً كما يبدو، إلى الحصول من الملك بيبان على دعمه لمناهضة إمارة قرطبة الأموية. وفيما بعد بعشر سنوات، تلقى شارلماني طلباً مماثلاً من حاكم سرقسطه المسلم. وتبعها بعض العواقب عام ٧٧٨ فقد ذهب بجيشه إلى ما وراء جبال البيرينيه، ولعله كان عازماً على إلحاق قواته بقوات ملك الأستوريين. لكن حلفاءه المسلمين تغيبوا عن الموعد المضروب، فانكفأ شارل إلى فرنسا، وقد أحل الدمار في منطقة بامبيلونا.

خلال رجوعه، أبيدت مؤخرة جيشه، ولم يبدها المسلمون بل الباسكيون المطالبون باستقلالهم. وهذه الحادثة هي مصدر "نشيد رولان"، الذي حُرِّر بشكله الراهن في ختام القرن الحادي عشر، في فترة استعادة الأرض الإسبانية، وقد باتت على مزيد من الأهمية، بل غدت مقدسنة. لكن النشيد استمد وحيه، بصورة محتملة، من القصص المكتوبة أو الشفهية التي يرجع عهدها إلى الحادثة ذاتها.

من المذكور أن حملة شارل قد تركت انطباعاً عميقاً ، وقد لجأ عندئذٍ العديد من

زعماء غوط المناطق الأستورية إلى فرنسا، وأطاحت بشجاعتهم انتصارات المسلمين. وفي سنة ٧٩٣، شن أمير قرطبة حملة عسكرية بلغت من جديد مدينة ناربون. ولم يستعد الكارولانجيون المبادرة إلا عام ٨٠٠ مع تشكيل المسيرة الإسبانية (لجنة برشلونة) التي وصلت بعد قليل إلى نهر الإيبر. وقد ترك إذن الصراع هذا مابين المسيحيين والمسلمين آثاراً عميقة في ذاكرة [المسيحيين] فإن شارلماني ظهر فيها، بعد حين، بمثابة نموذج سُيطرح اقتراحاً على الصليبيين. ولابد لنا من التساؤل عن سبب ذاك الطرح.

شارلماني، "حامي الأماكن المقدسة"؟

إن مؤلف الحوليات، إجينهارد (Egingard)، ذهب إلى البعيد البعيد في المنحى هذا، منذ القرن التاسع، فصيّر شارلماني حامياً للقبر المقدس" [في القدس]. وبذلك خلق تقليداً سينتمي إليه إخباريو الحرب الصليبية، فيما بعد بثلاثة قرون. والمؤكد أن هذه الصفة" قد تركت بصمة عميقة في الذهنيات الشعبية، واستتبعت العديد من الأساطير، ولاسيما عند اقتراب الحرب الصليبية.

بيد أن التشويه الأيديولوجي قد بدأ قبل ذلك بكثير. ترى ما الذي اعتمده هذا التشويه؟ في الواقع، نعلم هذا علم اليقين: ففي عام٧٩٩، بعث شارل إلى الخليفة العباسي ببغداد بوفد رسمي تم استقباله بالتأهيل والحفاوة. وخلال عودة هذا الوفد إلى الغرب، مضى إلى ضريح السيد المسيح وقدّم الهدايا. ثم اجتمع الوفد بشارلماني في إيطاليا قبل تتويجه في عيد الميلاد لعام ٨٠٠، وعندئذٍ سلموه، من قبل بطريرك أورشليم، مفاتيح قبر المسيح ورايتهُ. وانطلقت الأسطورة جمعاء من هذه الواقعة.

تُرى أي معنى ينبغي إعطاؤه لهذه الحادثة؟ هل تُرانا هنا في صدد اعتراف بسيادة ما على الأماكن المقدسة؟ أم في صدد التماس تدخل ما ؟ هل يعني هذا وضعاً ضمنياً لهذا القبر المقدس تحت حماية ملك الفرنجة؟ وكل هذا يرتدي جماً من المغزى! ولابد لنا، دون شك، أن نفسّر هذا التصرف بصفته مجرد علامة احترام واعتبار. وتصرفٌ كهذا له أيضاً نظيره في الغرب ذاته: في تاريخ قريب جداً، فالبابا ليون الثالث سلّم، في الواقع، الملك شارل مفاتيح كاتدرائية القديس بطرس في روما. ويبقى من الأكيد أن هذا التصرف في الوضعين، (وبمقدار أكثر في الوضع الثاني الذي ترك أثره

على تفسير الوضع الآخر)، له من القوة ما يكفي من حيث العناصر الرمزية، ويدهش بما يكفي من العمق الأذهان لكي يولّد أيديولوجية منوطة بفكرة حماية مسلحة. وقد كان من الممكن تعزيز هذا التفسير بطريق تسليم راية للوفد الرسمي، ولبث هذا التسليم في طور صار فيه، في تلك الفترة، خلال الغرب، رمزاً لمثل هذه الحماية المسلحة لأماكن العبادة.

لقد أدرك هذا الوضع إجينهارد إدراكاً جيداً ، وحرّف هو نفسه هذه السمة ساعياً إلى منح تصرف الخليفة هذا المدى السياسي. ففي رأيه، قد استقبل هارون الرشيد أفراد السفارة الفرنجية بجمّ من الاكرام والحفاوة، وقد رحب بجميع طلباتهم، وقبل بوضع الأماكن المقدسة تحت سلطة شارل وحمايته. ومن هنا ولدت، بصورة محتملة جداً الأسطورة اللاحقة "لحمايةٍ ما فرنجية في الأرض المقدسة" وبتطور هذه الأسطورة، غدا شارلماني، في آن معاً ، حاجاً والنموذج الأول للصليبي.

سوف يستفيد واعظو الحرب الصليبية من هذه الأسطورة، عقب انتشارها أيضاً عن طريق بعض الملاحم. وهكذا، حسب روبير لو موان، من المحتمل أن البابا أوربانوس الثاني، كان قد حث فرسان فرنسا في خطابه بمدينة كليرمون، على أن يستذكروا مآثر شارلماني ولويس المجيدة، وقد تغلبا فيما مضى على "الأتراك"، ووسعا نطاق سلطة الكنيسة المقدسة. وعلى نحو له المزيد من الدقة، روى "المُغْفل" النورمندي "وتودوبود" كيف سلك الصليبيون الأوائل " الطريق التي كان قد أمر ملك فرنسا العظيم الرائع شارلماني بأن تُشرّع، حتى القسطنطينية". ودونما أي شك، غدا شارلماني، في آن واحد، أسطورة ونموذجاً لنضال المسيحيين ضد المسلمين، لا في إسبانيا وحسب، بل أيضاً في المشرق.

في عصر البابا أوربانوس الثاني، ظهرت أيضاً رسائل تحث" على الحرب الصليبية، متخذة مرجعيتها من هذا الدور لشارلماني، بصفته حامياً للأماكن المقدسة: وهذه الرسائل نعرفها في أيامنا هذه: فهي مُختَلَقة تماماً وتتصور نداءات إلى شارلماني صادرة عن إمبراطور القسطنطينية، أو عن بطريرك أورشليم. في الحقيقة إنها رسائل مزيفة، لكنها تنتمي إلى الأهمية التي منحتها ذهنية الشعوب لهذا الموضوع، عشية الحرب الصليبية. ويظهر فيها شارلماني بصفته بطل المسيحية المحارب، الظافر على الإسلام، في حرب قد باتت مقدسنة بسبب وظيفة حمايته للقبر المقدس والديار المقدسة.

ولبث هذا التخيل الوهمي ذا دلالة على تَشَكّل فكرة الحرب المقدسة، والدور الذي يقوم به، في آن معاً ، الإمبراطور الفرنجي، وضريح المسيح في القدس.

الإجتياحات "الوثنية" وقدسنة الحرب

منذ عصر الكارولانجيين، أسهم أعداء آخرون في رتبة جديدة رفعت القيمة الأيديولوجية للحرب التي تشن على الخصوم وقد باتوا مشيطنين بالطبع: إنهم "الوثنيون" أو الذين يفترض أنهم أمثالهم: أي المجريون والعرب المسلمون، فكان هؤلاء في ذاك الزمان، يعكرون دعة الإمبراطورية، ويرهبون الكنيسة.

فيما مضى، نُسبَ تفكك الإمبراطورية الكارولانجية إلى غزوات المسلمين في جنوب البلاد ، وغارات المجريين في شرقها ، وغزوات النورمنديين في كل مكان تقريباً طوال الشواطئ وضفاف الأنهار. أما في أيامنا هذه فنعتقد أن التفكك يرجع بمقدار أوفر بكثير إلى عوامل للسياسة الداخلية: إلى اتساع رقعة الإمبراطورية، وقد باتت أبعادها مفرطة، وإلى إدارتها المتخلفة المزمنة (رغم جهود شارل في هذا الميدان) ، وإلى التوترات الداخلية الناجمة عن النزعات الخاصة بالأقاليم وإلى تصاعد أطماع الأرستقراطية التي لجمتها ، خلال حين ما ، قبضة شارل الشخصية الحازمة. وقد لا يكون للاجتياحات إلا تأثير سياسي واقتصادي زهيد، فقد ظلت الأديرة أهدافاً رئيسية للغزوات.

في كل حال، يبقى أن هذه الغزوات قد قامت بدور هائل، على الصعيد الأيديولوجي، وتَكوّن الذهنيات والتصرفات. فالأديرة المدمرة أو المهددة بالخراب كانت أمراً حقيقياً لكنها لبثت بدقة، مراكز الثقافة في ذاك العصر، الأماكن حيث تصاغ الأيديولوجيات، حيث تثبت الذاكرة وتستمر، ويدون التاريخ، وتُعَدّ الأساطير. وفيما قام الرهبان بتدوينهم، على نحو مأسوي، وغالباً بطريقة انفعالية، وحتى مع المبالغة في مدى الحرائق، وعمليات السلب والتقتيل (وقد كان كل ذلك واقعاً حقيقياً) التي ظل يرتكبها النورمنديون، فقد قاموا أيضاً بإسهامهم في تكوين ذهان، وفي تشكيل سلوك متكرّر للنورماندي النهاب، المخيف، العديم الشفقة، الدموي؛ وسيرسخ هذا السلوك زمناً طويلاً في الأذهان.

استمر الوضع على هذا المنوال مع المجريين (وعلاوة على ذلك، من المحتمل أن اسِمَهم خَلّف في اللغة الفرنسية لفظة "أوغر: غول" وهي تترجم الخوف الذي تسببوا به) ومع العرب المسلمين. وهذه السلوكيات هي أصناف من الكاريكاتور تستمد جذورها في واقع حقيقي "، بل بالمزيد على هذا، في واقع يدرك، بصفته حقيقياً "، وهذا الواقع هو الوحيد الذي يرتدي أهمية حقيقية على الأمد الطويل. وقد أسهمت هذه الصورة في شيطنة هؤلاء الخصوم " الوثنيين" ، وبالتالي، في قدسنة الحرب التي تشن عليهم، وفي إعلاء الشأن والقيمة، على الصعيد الأخلاقي ، لهؤلاء الذين يحاربون، وبمقدار أكثر أيضاً ، إن لقي هؤلاء المقاتلون حتفهم ذوداً عن قضيتهم العادلة.

ومع كل هذا، لسنا بعد في صدد الحرب المقدسة: فمن المؤكد أنه ينقصها الوعد بمكافآت سماوية. وتبرز معالم هذا العنصر، في تلك الأثناء، في معرض الدفاع عن كنيسة روما حيال المسلمين، كما سنرى هذا الوضع لاحقاً وبالمقابل، باتت شيطنة الخصم تضفي منذ عهد الكارولانجيين، سمات جديدة من القداسية (Sacralité) للحرب التي يخوضها المسيحيون لأجل إيمانهم المسيحي، على الوثنيين أو غير المؤمنين.

النورمانديون

شرع تهديد النورمانديين يتبدى على سواحل الإمبراطورية منذ عام ٧٩٩، وتوضحت أموره انطلاقاً من سنة ٨١٠، واتسع نطاقه بعد عام ٨٣٠. وفي ذاك الحين، نُهب وأحرق العديد من المدن: روان عام٨٤١، باريس٨٤٥، نانت، بوردو ٨٤٨، وأيضاً أنجيه، تور، أميان، الخ...... وعانت الأديرة، بصورة خاصة، بل أديرة جمة عديدة، من غزواتهم. وبالطبع نسبت أعمال تخريبهم إلى عقاب من الله، الأمر الذي لا يستثني، كما رأينا ذلك، اللجوء إلى حماية مسلحة تتصدى للغزاة؛ ومن المفروض أن أحداً لا يعرف إلى أي مدى أراد الله توسيع نطاق عقابه هذا!

إن ملك الفرنجة، وهو بطبيعته حامي الكنائس المألوف، قد اعتُبر مسؤولاً عن إنجاز هذه المهمة التي كُلف بها إبان تتويجه ملكاً غير أن الجيش الملكي، الذي يُجمع كل سنة "في حقل آذار/مارس" (وقد بات فيما بعد حقل أيار / مايو")، جيش بطيء بإفراط في تجمعه، لكي يتصدى بفعالية لغارات مباغتة يقوم بها محاربون

نورمنديون يستقلون مراكبهم الخفيفة القادرة على الهجوم في أي مكان، قرب الأنهار وحتى السواقي التي لها بعض الأهمية. وعلاوة على هذا، تحالفت الأرستقراطية المحلية، أحياناً ، مع الغزاة، في منطقتي أكيتين وبريتانيا ، بقصد تحررهم من تسلط الكارولانجيين، وهذا ما أدى إلى المزيد من افتقاد الدعة والأمن.

وبما أن الحماية الملكية لبثت في أغلب الأحيان غائبة في الوقت المناسب، شرعت الكنائس والأديرة توفر حمايتها الخاصة بها بكل مقدار متيسّر: فلجأت إلى تعزيز مواقعها ، وتجنيد محاربين، وتوكيل حمايتهم إلى الإقطاعيين المحليين الذين يستفيدون في الحين ذاته من بركات أرباب الدين، ومن الوعد بالدعم السماوي. وإن الكنيسة نفسها فضّلت أحياناً أن تدعم أميراً محلياً ، حامياً لها ، أجدى فعالية من عاهل كارولانجي بعيد، وقد ضعفت هيبته من جراء عدم جدارته السياسية والعسكرية. وإن حصار باريس من قبل النورمنديين، سنة ٨٨٥، يعرب عن الظاهرة هذه: وقد ذاع صيت الكونت أودِس (Eudes) الباريسي خلال هذا الحصار.

تستحق هذه الكارثة أن تسترعي انتباهنا بسبب مداها الإيديولوجي: فمن الثابت أن حرب الأبطال المسيحيين حظي بالدعم من القوى السماوية التي تضمنها وتقدسها. وفي سرد هذه الحادثة، يشدد أبون (Abbon) على دور هذه النصرة الجلي من قبل القديسة جنفييف والقديس جرمان. فهذا القديس قاتل شخصياً في وسط المحاربين، مستجيباً بذلك لابتهالات جيش الرب وكما دوّن أبون، انتصر المسيحيون باسم الصليب المقدس وبفضائل القديس جرمان" واكتسب الكونت أودس من الظفر هيبة ونفوذاً وإبان أزمة السلالة الملكية، في عام ٨٨٨، هُتف له، ونُودي به ملكاً وكان له من بين ميزاته أنه دافع عن باريس دفاع الأبطال.وإضافة إلى هذا، راح يَمْثُل أمام الجمهور بمثابة المدافع عن الكنائس، وقد حلف، في قسم التتويج، أنه سيحافظ على الامتيازات. فكان أودس بذلك، وبصورة ثنائية، بطل الكنيسة، والإيمان المسيحي اللذين يهددهما الوثنيون البرابرة.

بيد أن التهديد النورمندي ابتعد عن البلاد خلال القرن العاشر. وفي سنة ٩١١، تنازل شارل كوسا الساذج (Charles le Simple)، وبمعاهدة بينهما، عن قسم فسيح من منطقة نوستريا، التي سوف تغدو نورماندي. وهؤلاء النورمانديون ارتدّوا إلى الديانة

المسيحية، وتحولوا إلى ملاك أراضٍ ماهرين، فساهموا بسلوكهم في انطلاق دوقية النورماندي ومملكة فرنسا.

رغم ما سبق تُليتْ قبل هذا الاتفاق، وطوال قرن تقريباً ، صلوات عديدة نعرف فحواها، ولبثت تتلى في "القداديس ضد الوثنيين" (أو النورمنديين أو الدانمركيين) مع مباركاتٍ كثيرة على رايات وأسلحة الجنود الذاهبين إلى القتال، وقد أسهمت دون هوادة، في قدسنة الحروب التي يخوضونها، دفاعاً عن البلاد وردعاً لهؤلاء " البرابرة" الجدد، وتصدياً للتهديد باجتياح كثيف من " الوثنيين " للعالم المسيحي. وخلال القرن الحادي عشر، سوف تبرز مجدداً هذه الخشية: ففي ذاك الزمان، شرع المسلمون يفوزون بجم من الانتصارات التي كسرت شوكة استرداد الأرض المسيحية [الركُونكيستا]، وبدت تنبئ بعودتهم المريرة إلى إسبانيا والشرق الأدنى. وليس عبثاً أن بات جميع أعداء المسيحية من الخارج، في ذاك الزمان، أكانوا وثنيين أم مسلمين أم أحياناً حتى مسيحيين باتوا يُشبّهون بالوثنيين، وغالباً ما أطلق عليهم اسم "باغاني" (Pagani) في النصوص اللاتينية، أي أنهم وثنيون" بل وأطلق عليهم اسم "عرب مسلمون" (Sarrasins) في نصوص اللغات العامية.

المجريّون

أدت تهديدات المجريين إلى الظواهر ذاتها، وخاصة في جرمانيا. فهناك أيضاً قامت الصلوات والمباركات بإعلاء قيمة الأيدولوجيا الحربية لدى المدافعين عن المسيحية. وأسهم البابا في هذه العملية: فقد أرسل إلى العاهل الجرماني - وبات هذا العاهل منذ سنة ٩٣٦ ينعم بالقوة العسكرية الرئيسية في الغرب - بعضَ التشجيع والحث، بشكل بركات منه نقلها بعض النواب البابويين، وبشكل تنازلات عن رايات مباركة.

قام أوتوّن الأول، في عام ٩٥٥، بسحق المحاربين المجريين، في معركة ليشفيلد (قرب مدينة أوغسبورغ)، ثم اخضع السلافيين. فنُصّب إمبراطوراً سنة ٩٦٢ وراح تَوَسّع الإمبراطورية الجرمانية يمتد إلى الشرق [الأوروبي] وارتدى التوسع العسكري هذا مظهراً رسولياً فمثلما حدث في عصر شارلماني، أتاح كسبُ الأراضي للجيوش الجرمانية

توطين مرسلين مكلفين بالكرازة والوعظ لدى الوثنيين، وحثهم على الاهتداء واعتناق الإيمان المسيحي. إضافة إلى هذا، لابد لنا من الإشارة إلى ما يلي: في معركة ليشفيلد، كان أتون يحمل "الحربة المقدسة"، سلاح قائد المئة الروماني الذي طُعن به كشح المسيح المصلوب، سلاحاً يرمز إلى "القداسة" ، قداسة الملكية الجرمانية. وشكّل تواجد هذا السلاح على ميدان المعركة عنصراً جديداً لقداسية الحرب التي خاضها المحاربون ذوداً عن المسيحية من الأعداء الوثنيين في تهديدهم وجود الدين المسيحي.

حتى هذه المرحلة، لبثت المسيحية على قيد الدفاع، بيد أنها، قُرابة عام الألف، أصبحت تغدو فاتحة: في آن معاً ، بانتصارات ملوكها وبكرازة مرسليها وتبشيرهم، فيما ظل الملوك يذودون عن المبشرين ميسّرين مهمتهم. وهذا هو الوضع في سكاندينافيا، والدنمارك، وبالمزيد على ذلك أيضاً ، في بولونيا وهنغاريا. ويجدر بهذين البلدين أن يستقطبا انتباهنا بطابعهما المثالي، وبالمنحى الرمزي جداً الذي اتخذه تشكل هاتين المملكتين، وقد غدتا مندمجتين حديثاً في العالم المسيحي.

في المجر، عقب انتصار أتون الأول، بدأت كرازة برونو دوسان – غال (Bruno de Saint-Gall) تؤتي ثمارها. وإن جيزا (Géza)، مؤسس تآلف قبائل المجريين طلب العماد المسيحي، وسعى إلى التحالف مع الإمبراطور الجرماني. وفي ختام عام الألف، بعد أن اعتنق ابنه إيتيين المسيحية، توج ملكاً على المجر بموافقة من البابا ومن الإمبراطور أوتون الثالث. وإن صدقنا، حول هذا، أديمار دوشابان (Adémar de Chabannes)، فمن المحتمل أن الإمبراطور أرسل إلى إيتيين – إبان زواجه من جيزيل، ابنة دوق بافيير – هذه الحربة المقدسة التي ضمنت في معركة ليشفيلد، انتصار أوتون الثالث على المجريين الوثنيين. واتخذ هذا التنازلُ الإمبراطوري ثلاث دلالات: فقد ضمن تشكل مملكة مجرية مستقلة، غير أنها متحدة بالإمبراطورية الجرمانية اتحاداً وثيقاً ، ووضح التنازل هذا طابع هذه المملكة المسيحي، باتحادها مع روما، وأخيراً تَرجَم طابع الحماية السياسية والعسكرية الذي نسبَ إلى هذه "الذخيرة": أي الحربة المقدسة والتي طعن بها المسيح على الصليب. فهذه الحربة تقوم بفعلها، في آن معاً ، بصفتها تعويذة وبصفتها علامة لوجود الله [في المعارك]، وبصفتها رمز قداسة المعركة التي يخوضها المجريون المسيحيون، وقد باتوا طليعة لمكافحة القوات الوثنية.

تتواجد أيضاً هذه الدلالة الثلاثية في شأن بولونيا. وفي هذه المرة، الأمر يعني التنازل عن نسخة مطابقة لهذه الحربة المقدسة. ففي الفترة ذاتها، قام الإمبراطور أوتون الثالث بإهدائها للأميرولي العهد بوليسلاس (Bolilas) المقدام الذي سوف يصبح، عام ١٠٢٥، أول ملك لبولونيا. وقدم له أيضاً تاجاً إمبراطورياً مرصعاً، ومسماراً قد استخدم لصلب المسيح في أورشليم. وتُعرب هذه الهبات الثلاث عن طابع المملكة المسيحي. وتُعزز هذا الطابعَ وارتباطه بالإمبراطورية، كما تُدعّم القوة الحامية التي تعزى إلى هذه الأدوات لآلام المسيح، وهي أدوات ترمز إلى الإذلال والموت، لكنها تحولت في ذاك العصر إلى علامات تشير إلى الحماية، وإلى الظفر العسكري.

لاحقاً، في الحرب الصليبية الأولى، سوف نعثر مجدداً على هذا البعد الحامي "للحربة المقدسة في نظر الجيوش المسيحية. وفي الواقع، حسب تعليمات لصاحب رؤى في جيش الصليبيين، دعي بيير برتيليمي، فقد وجد "بصورة عجائبية" نصل حربة دفن عميقاً في تربة كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية، وذلك عام ١٠٩٨ وإن القديسين والسيد المسيح الذين ظهروا لبرتيليمي أكدوا له أنه سوف يعثر هناك، في المكان المشار إليه، على الرمح الذي طُعن به المسيح على الصليب. وسوف يكون اكتشافه استناداً إلى قولهم، العلامة الأكيدة للحماية الإلهية في المعركة التي تفتقد كل أمل، والمقبلة في غضون بضعة أيام، مابين الصليبيين وجيش كربوقا الإسلامي الجرار، وكما نعلم، لقد انتصر الصليبيون: فخلال المعركة راح كاهن من الجيش المسيحي يحمل هذا "الرمح المقدس" الحامي [من الأعداء] كما تحمل تعويذة. فأسهم تماماً بالطبع، في قدسنة معركة الحرب التي تمّ خوضها تحت رعايته وحمايته. وكما نرى، فإن شكل القدسنة هذا قد غدا قائماً في ختام القرن العاشر.

المسلمون الغربيون Sarrasins

إن المعركة على المسلمين في الغرب، من جراء التهديد الذي راحوا يتوعدون به على التخوم المسيحية، كانت تحتمل بالتمام، هي أيضاً، مثل هذه القدسنة. من المؤكد أن هؤلاء المسلمين لم يحدث دحرهم دحراً تاماً عقب انتصارات شارل مارتيل في إقليم لانغدوك، فقد استُردّ من المسلمين: نيْم، أغد، بيزييه، عام٧٣٧، لكن، لبثت ناربون

تحت نيرهم، ولم تسترد إلا سنة ٧٥٩، وكذلك جيرون، في ٧٨٥، وبرشلونة في ٨٠١ وقد شُنت غارات إسلامية عديدة خلال القرن التاسع (في ٨٤١، هددت إحداها مجدداً ناربُونّ) وتتابعت أيضاً في القرن العاشر. وعندئذ، بصورة رئيسية، عن طريق البحر وبشكل غزوات لقراصنة، لبثوا ينزلون على الشواطئ (أغْد عام ٩٤٣). وأيضاً سنة ١٠٠٢، نزل مسلمون من مراكبهم ومضوا ليحاصروا ناربون. وقد احتفظت أناشيد البطولات ذكريات هذه الشدائد (مشوهة بالتأكيد) وهذه التهديدات، وأسهمت في المديح المناقبي للمحاربين الذين تصدوا لها.

من جهة إقليم البروفانص، وحتى سنة ٩٧٢، احتفظ مسلمو الغرب بقاعدة، في لاغارد- فرينيه (جبل المغاربة) ومنها ظلوا يشنون غارات هدامة على الشواطئ، وحتى داخل أودية جبال الألب.

وفيما كان رئيس الدير مايول كلوني (Maieul de Cluny) عائداً من روما وقع ذات يوم في أحد كمائنهم: فأسر، وتوجب على دير كلوني أن يفتديه من هؤلاء المسلمين بفدية طائلة للحصول على إطلاق سراحه.

إن أوديلون، خليفة مايول بصفته رئيساً لدير كلوني، قد كتب، في الربع الأخير من القرن الحادي عشر، حياة القديس مايول وسرد وقائع تلك الحادثة السيئة. وتُعرب هذه الحادثة جيداً عن الذهنية المألوفة، حيال المسلمين في ذاك الزمان: ويعتبر أوديلون هذا الأسر لرئيس الدير بمثابة صفة بغيضة للكفر والزندقة، صفة تُؤوّج ظلم المسلمين، وتستدعي، بنفس الحين، على رأسهم الانتقام السماوي. وقد أنجز هذا الانتقامَ انتصارُ محاربي غيوم "المحرر عام٩٨٣ بل قد تمادى اوديلون إلى المزيد على ذلك: فشبه هذا الانتقام الإلهي، الذي بات متحققاً بانتصار مسيحيي البروفانص على مسلمي الغرب هؤلاء، بالانتقام الذي أنجزه فيما مضى الأباطرة الرومانيون من اليهود، عام ٧٠، نتيجةً لظلم قد أدى بهم إلى رفض المسيح ونبذه.

هذا التفسير الأيديولوجي لحادثة مؤذية "حديثة العهد نسبياً قام بها المسلمون، توضح أن استعادة المسيحيين لأرضهم - هنا في غاليا - تمّ اعتبارها بمثابة تحرير، بل أيضاً عقاباً يحل بالمسلمين، انتقاماً من الكافرين أنجزه الله. وقد حُسِبَ قتالُ المسيحيين أيضاً، قتالَ الله الذي يحقق به خطته. وبتعبير آخر، إنما الله هو الذي يفعل بواسطة

المحاربين المسيحيين. وهنا، لسنا بعيدين عن العبارة: "يعمل الله بواسطة الفرنجة" (فهو عمل مآثر بطولية، وهذا هو العنوان الذي اختاره غيبير دونوجانت (Guibert de Nogent) لسرد قصة الحرب الصليبية الأولى)، مع الفارق التالي، وهو أن الأمر هنا يعني البروفنسيين لا الفرنجة.

وهكذا تم إدراك المسيحيين وغير المؤمنين، هؤلاء والآخرين، بصفتهم أدوات يستخدمها الله في استمرار مسار التاريخ المقدس. فالله لا يعاقب فقط شعبه على خطاياه، عن طريق جيوش الكافرين: فهو قادر أيضاً أن يعاقب هؤلاء الكفار أنفسهم بجيوش شعبه. وسوف تُفَسر فيما بعد استعادة الأرض الاسبانية، وكذلك الحرب الصليبية في هذا المنحى، كما فعل العديد من الحوليين [كُتاب الحوليات] ويعرب هذا التصور عن عودة واضحة جلية إلى أيديولوجيا الحرب المقدسة في "كتاب العهد القديم [التوراة].

روما و" مسلمو الغرب " في عهد الكارولانجيّين

في جميع ما سبق من الأوضاع، كان إعلاءُ شأن الحروب وقيمتها مرتبطاً بمن يحمون الوطن"، أي الإمبراطورية " الرومانية بيد أن النعت: "الوثنيون" الذي يشير إلى الأعداء، يؤكّدُ على طابع المجابهة الديني، جاعلاً من القتال "حكماً من الله": فالله يقيم ويثبت حقيقة الإيمان المسيحي، عن طريق الانتصار والغلبة.

ويزاد قسط من القداسية (Sacralité) الإضافية إلى اعتبار هؤلاء المحاربين وسمعتهم، متى يحاربون، في آن معاً "وثنيين"، ويتوخّون حمايتهم كنيسة روما، وهي قلب المسيحية الغربية ورأسها. فتوهب عندئذٍ مكافحتهم المسلحة بإعلاء قيمة هذا الكفاح، إعلاءً مضاعفاً يقترن بوعودٍ تُقرّب مكافحتهم من الحرب المقدسة. وقد ظهرت هذه العناصر الجديدة، للمرة الأولى، في أواسط القرن التاسع.

أجل إن روما كانت هي أيضاً مهددة في ذاك التاريخ: فقد استولى العرب على صقلية منذ ٨٢٧، ثم على ايطاليا الجنوبية، وغالباً ما نهبوا شواطئ ساردينيا وشواطئ اللاتسيوم [منطقة ايطاليا الوسطى] وفي عام ٨٤٦، بلغوا أسوار روما، ودخلوها، وسلبوا المدينة ودمروا كنيسة القديس بطرس. وأيقظت هذه الغارة كل خشية قديمة: فقد

بات التراث البابوي في خطر داهم، مرة أخرى، لا من قبل المسيحيين، كما حدث هذا زمان اللومبرديين، بل على يد الغرب الإسلامي، "الوثني وبدا الخطر على مزيد من التفاقم. تُراهم كيف سيتحاشونه؟

طبقاً للتقاليد القديمة القائمة منذ عهد بيبان، استنجد البابا بملك الفرنجة. لكنه في هذه المرة، سعى إلى حثهم على المجيء لنجدته، فلم يتردد البابا ليون الرابع في تقديمه للمحاربين الفرنجيين، وعوداً بمكافآت من نوع روحي: وفي الواقع، أكد لهم أن جميع من سيلقون حتفهم في هذه المعركة التي يخوضونها، ذوداً عن روما، لن تُحظر عليهم ممالك السماوات. وحتى الآن، لم يكن هذا وعداً صريحاً بالفردوس للمحاربين الذين يسقطون شهداء" لأجل حماية روما، لكن هذه الفكرة ليست بعيدة عن ذاك الوعد (رَ. النص رقم ١٤، في آخر الكتاب). وستنعم بالنجاح.

لا شك أن القتال الذي سيخاض لصالح روما قد غدا مقدسناً بمقدار ثلاثي، في هذا النص: بوسيلة خلط ماهر يجمع القيم الأخلاقية للعصور الرومانية القديمة (الموت لأجل الوطن)، وقيم علم الأخلاق العالمية (حماية الاخوة)، وأخلاق الدين (الدفاع عن الإيمان الذي يهدده الوثنيون).

ولكون التهديدات لم تنقطع، كرر البابا حنا الثامن نداءاته إلى الإمبراطور، مابين ٨٧٦ و ٨٧٩: وفي العديد من الرسائل، قام بتوضيح الخطر الذي يهدد، في آن واحد، روما، الكنيسة، الإيمان المسيحي، وهو تهديد من مسلمي الغرب أعداء صليب المسيح": فهم يهددون مجدداً كنيسة روما، وينهبون، ويحرقون المدن والقرى، ويسوقون إلى الأسر المؤمنين بالمسيح، ويهدمون الكنائس، ويدمرون الهياكل، ويذبحون دون رحمةٍ خدامَ الله، (والطاقة الكبرى أنهم كانوا) يُفلحون في اكتسابهم حلفاء مابين الطغاة المسيحيين من الجوار.

لكن رغم هذه النداءات الملحّة، والقريبة، من حيث نبرات لهجتها، من النداء الذي أطلقه البابا أوربانوس الثاني داعياً إلى الحرب الصليبية فيما بعد بقرنين، لم تأت المعونة المنشودة. وقد ظلت رسائل أخرى، عام ٨٧٧ أيضاً، دونما طائل. والصحيح أن هذه الرسائل لم تشتمل على أي وعد من نوع روحي.

عوضاً عن ذلك، ظهر من جديد وعد من هذا النوع، سنة ٨٧٩، في إجابة البابا

على سؤال دقيق طرحه الأساقفة: فقد سألوه فيما إذا مات البعض منهم، وهم يقاتلون لسلامة روما، فهل يمكنهم أن يأملوا حصولهم على غفران خطاياهم. فكانت إجابة البابا المشجعة تستحق استقطاب الانتباه:

حيث أننا نثق برفق المسيح ربّنا وعطفه، فإننا نجرؤ على الإجابة بأن الذين يلقون حتفهم في ميدان المعارك، مقاتلين بإقدام الوثنيين وغير المؤمنين، ومحتفظين في سريرتهم بحب الديانة المسيحية، سوف يلجون دعة الحياة الأبدية [......]* وفي تواضعنا، و بشفاعة الرسول بطرس الطوباوي، وفي حوزته سلطان الربط والحل، في السماء وعلى الأرض، وحسب مالنا طاقة به، نحلهّم من خطاياهم، ونستودعهم الله بابتهالاتنا وأدعيتنا. [القوسان المعقوفتان هنا من النص].

من الممكن أن يظهر هذا الوعد مدهشاً فهو يعرب عن رتبة جديدة من قدسنة الحرب لمّا يتم يوماً بلوغها في السابق، عندما يُمارس الوعد من أجل حماية روما والبابوية. ترى، هل بات الأمر يعني رأفةً ما، بالنسبة إلى عمل حربي"؟. ليس الأمر أكيداً ، بيد أننا، رغم ذلك، قريبون جداً من هذا التفسير. ودون ولوجنا في تفاصيل المناقشة الخاصة بتفسير هذا النص، بوسعنا على كل حال، أن نخلص منه إلى نتيجة دُنيا، ألا وهي: أن القتال الذي يخوضه المحاربون المجندون لأجل القضية البابوية قتال يُعَدّ "مقدساً "بما يكفي، لكي يحلهم البابا من آثامهم التي يعترفون بها. وإنْ طرأ لهم أن فقدوا الحياة في القتال، دون أن يستطيعوا مسبقاً إنجاز التكفير المنشود عن ذنوبهم حسب العادة (بما في ذلك، دونما شك، بالنسبة إلى قتل الإنسان في ساحة النزال الذي سوف يخوضونه لأجل البابا) فرغم ذلك، سيقبلهم الله برأفته، في فردوسه.

في كل حال، يشكل هذا النص معلماً جد هام في إعداد مفهوم الحرب المقدسة. فهو يقيم رباطاً وثيقاً وجديداً مابين القتال المسلح في سبيل روما، وبلوغ فردوس المحاربين الذين قضوا نحبهم من أجل هذه القضية. وإن مفهوم الحرب هنا صار في طور النمو خلال العصر ذاته حيث باتت فكرته قائمة بالتمام، ومدونة لدى العدو المسلم. وسوف يتطور هذا المفهوم في ظل التأثير المزدوج للقتال: لأجل البابوية، وضد المسلمين. ومع ذلك، ليس هو التأثير الوحيد: فإن حماية الكنائس من أعدائها، في ذات داخل المسيحية، تقوم هي أيضاً بدور ينبغي علينا ألا نستهين به.

الفصل التاسع

الحرب المُقَدسنة من الكنيسة

العنف المقدس، سلام الله في المجتمع الإقطاعي

كما سبق لنا أن رأينا: لبثت الكنيسة، منذ أمد بعيد، تحظر على أرباب الدين إهراق الدماء، وذلك بحركة تركيز لواجبات المؤمنين الأخلاقية حيال الأكليروس. وإنّ تورّط الكنيسة في الأمور الدُنيوية، جعل من الصعب التقيد، بمثل هذا الحظر، إذ يشرح هذا التورط، بصورة عابرة، تواتر صيغة هذا الحظر في الكتابات، بما في ذلك قوانين المجامع. وإن الأسقفيات والكنائس والأديرة بقيت تحوز عقارات هامة قد ورد أهمها من هبات المؤمنين القديمة. وشكلت المؤسسات الكنسية إقطاعات: (Seigneuries) لكل منها طبيعة قريبة جداً من الإقطاعات العلمانية، بل مماهية لها. وبصفتها هذه، ظلت تدين هذه المؤسسات للملك بالخدمة العسكرية: (Ost) التي تعتمد على السكان وفقاً لحصة الأراضي التي في حوزتهم. وأحياناً ما طالب الملك، وأقله حتى عصر الكارولانجيين، بالتواجد الشخصي على أرض القتال للأسياد الأساقفة ورؤساء الأديرة، في طليعة جنودهم. وهكذا، فإن الكثير من المُقدّمين [الذين ينعمون برتبة كنسية شرفية: Prélats] العلمانيين، قد اشتركوا في المعارك على هذا المنوال.

كانت هذه الإقطاعات الكنسية تثير الأطماع أيضاً، فتوجّب عليها أن تضمن حمايتها، لا من الوثنيين وحسب، بل من جيرانها الأسياد العلمانيين. فالكنيسة، إذن تتوق إلى السلام الذي تعظ به وتعلنه. بيد أنها قلما تستطيع أن تأمل بلوغه، في الواقع، إلا باستخدام القوة المسلحة، قوتها أو قوة المحامين عنها. ومن المؤكد أن الأسلحة الروحية لا كفاية لها، رغم ما يستخدم منها علناً، في المجالس، والمجامع حول الإسلام، والتي تكاثرت انطلاقاً من نهاية القرن العاشر.

إبان تفكك إمبراطورية الكرولانجيين، وَهَنِها المتدرج السابق، رأت الكنيسة نفسها محرومة من الحماية الملكية. تلك الحماية التي ظلت تؤكد عليها دون هوادة، "في النصائح الموجهة إلى الأمراء" ، كما في طقوس تتويج الملوك، لأنها كانت أحد الواجبات الأساسية المترتبة على وظائفهم. فعندئذٍ كان لابد للكنيسة أن تتولى هي ذاتها مصيرها الخاص.

بيد أن الكنيسة، وقد ظلت محرومة بمقدار متصاعد من استخدامها القوات العسكرية مباشرة، قلما وجدت تحت تصرفها، بقصد حمايتها، سوى السلاح الأيديولوجي الذي تُرجم بالتعليم والتبشير، فهما وسيلتا نقل الإيديولوجيا، كما تُرجم بتقاليد الأسرار المقدسة التي بوسع الكنيسة أن تحرم منها كل من ينبذون تعاليمها الأخلاقية، فكان لديها: الحرم، وإبعاد الأفراد عن الجماعة المسيحية بسبب عصيانهم، وعلاوة أيضاً على هذا، التحريم القاطع الذي يُلقى على جميع أراضي ممتلكاتهم. ولا يعني الأمر هنا تهديدات يستهان بها بسهولة: إلا أنها لا تكفي دوماً ، بل على عكس ذلك، لجعلهم يتوبون في المجتمع المسمى "إقطاعي" الذي بقي في طور احتلال مواقعه.

ولكن هل تمثل الأخلاقُ التي تعظ بها الكنيسة، الأخلاقُ المقرونة بهذه التهديدات الروحية، اللجامَ الحقيقيَّ الوحيد لعنف الأسياد وفرسانهم المتحررين من كل كابح، في تلك الفترة من " الفوضى الإقطاعية" التي قد تكون عانت منها أوروبا الغربية في القرنين ٩ و ١١ ؟ وقد لبث التأكيد على هذا الأمر، حتى فترة حديثة العهد. وسعياً من الكنيسة إلى الحد من الحروب الخاصة ومن الابتزازات التي تستتبعها، في جو من الإرهاب الذي خَلفه، ولربما في ذاك العصر كان الاعتقاد العام بنهاية العالم الوشيكة، فمن المحتمل أنها [أي الكنيسة] حاولت، عند اقتراب سنة الألف، أن تقصي الضعفاء من المجتمع عن العنف المستشري والمستوطن، وعن ظلم الأسياد وفرسانهم المسلح. ونتعرّف هنا على تعاليم سلام الله. وبُعيد ذلك، من المحتمل أيضاً أن الكنيسة حاولت تقليص مدى الحرب واضعة إياها، نوعاً ما، "خارج القانون"، خلال الفترات الليتورجية التي بقيت في البداية محدودة الأمد (يوم الأحد وأيام الأعياد الكبرى)، قبل أن تسعى تدريجياً إلى توسيعها نطاق هذه الفترات: ونتعرف هنا أيضاً على مؤسسات هدنة الله.

ومن المحتمل أخيراً أنها حاولت إنشاء "رابطات للسلام" تُعَدّ لمكافحتها بالسلاح من يثيرون الاضطربات، من ينتهكون السلام، وبذلك قدسنت الكنيسة افراداً من الفرسان كانوا ينضوون تحت الرايات الكنسية، لكي يترجموا ميدانياً هذا الكفاح الأخلاقي قبل أن توجّه الآخرين من الفرسان إلى قتالهم غير المؤمنين. وطبقاً لهذا التصور التقليدي - والمقبول بصورة عالمية حتى ذاك الحين، وأعترف أني قد وافقت عليه جزئياً فيما مضى - راح سلام الله يؤدي بذلك، على الأرجح، إلى الحرب الصليبية.

لابد لهذا التفسير التقليدي، في هذه الأيام، أن يكون موضوع بعض التصحيح، حول نقاط عديدة، لا حول جميع النقاط، كما سوف نرى ذلك، وينبغي أيضا الاحتفاظ ببعض نقاطه، بل ينبغي أن نعزز منها عدة جوانب، وخاصة فكرة القدسنة من قبل الكنيسة، حول بعض الحروب التي يتم خوضها من أجلها، وكذلك فكرة إعلاء القيمة الأخلاقية الناجمة عن ذلك بالنسبة إلى من يلتزمون بها. وإن التحليل المقتضب لسياق جمعيات السلام وقراراتها سيكفي لتبيان هذه الفكرة.

مصادر جمعيات السلام وأهدافها

أصناف الإرهاب في سنة الألف، والفوضى الإقطاعية؟

كان ترقب نهاية الأزمنة كامناً في العصور الوسطى، رغم نفوذ القديس اغسطينوس الذي بذل قصارى جهده لإفقاده كل اعتبار ولسلخه عن دلالاته، وذلك بمنحه بعداً روحياً. ومكث هذا التوقع، في سريرة النفوس، بيد أنه أقام التناوب مابين الفترات المحمومة، وفترات الاسترخاء ودعة البال، ولم تكن قط فترات للنسيان. وهنا تماماً، يكمنُ أحد الأبعاد الدينية التي تشعر ببعض الصعوبة لتصورها الذهنيات المُعَلمَنة (Laicisées) في عصرنا، وهي عموماً تجهل الأسس الكتابية لثقافتنا، إلا في بضعة من الظروف النادرة.

ولابد من الذكر هنا أن هذا الترقب قد أثار، إلى جانب ما سبق، في ذاك العصر، بعض الرجاء والخشية على السواء، وهنا أيضاً وجه يدركه زماننا الماديانيّ على نحو أساسي إدراكاً سيئاً بالتأكيد، لابد لأزمنة النهاية المعلن عنها نبوياً أن تتميز بشدائد

رهيبة، من شأنها أن تثير الحَصر والقلق. غير أن هذه المصائب مؤقتة وسوف يتبعها انتصار الخير على الشر، وبعث الأبرار من الموات، وإعادة ملكوت الله إلى نصابه، وهو الذي يتوق إليه جميع المؤمنين لاسيما وإن أوضاعهم الدنيوية أوضاع مؤلمة وسريعة الزوال.

واستناداً إلى هذه الأسباب كلها، فإن "أهوال عام الألف" المزعومة، وقد روج لها شعبياً الكاتب ميشيليه* [١٧٩٨ - ١٨٧٤]، هي من الناحية الأساسية، اختراع من القرن التاسع عشر، وقد ضمن هذا الابتكار مؤرخون متشربون، في آن معاً ، من التيار الرومانسي والمذهب العلموي والمذهب الوضعي. وبالمقابل، ليس انتظار نهاية الأزمنة ترقباً .إنه مقوم أساسي للإيمان المسيحي، غير أنه كما يبدو، لا يقوم بدور هام في حركة سلام الله التي ولدت في الربع الأخير من القرن العاشر. فلابد إذن من فصل هذين العنصرين: فسلام الله ليس منوطاً بترقب أخروي شديد الحيوية على نحو خاص. وبالمقابل، فإن مثل هذا الترقب كان ماثلاً ، بمقدار أوفر بكثير، في عصر الحرب الصليبية الأولى، ونعثر عليه أيضاً من جديد في حروب الصليبيين اللاحقة.

من جهة أخرى، يظهر في أيامنا هذه أن هدف سلام الله لعله كان أقل مدى مما تم التفكير فيه. وحالياً ، قلما يعتقد المُطلع بوجود "فوضى إقطاعية" حقيقية، قد نجمت عن زوال كل سلطان سياسي. فمن الثابت أن نهاية الإمبراطورية الكارولانجية قد شهدت في الحقيقة ارتقاء اريستوقراطيات إقليمية، وإحلال الامارات، كما قام مؤرخون هامّون كثر بالبرهنة على هذا، برهنة مسهبة منذ قرن من الزمان. وعوضاً عن ذلك، حتى في فرنسا، وعلى نقيض مالا يزال يُكرر في بعض الأوقات، لم تختف كل سلطة سياسية، والأسياد الصغار لم يُقحموا في كل مكان هيمنة إرهاب من جيوشهم، ولم يستغلوا ولم يستعبدوا أقوام أراضيهم، ولم يخطفوا ولم يعنفوا نساءهم ولا بناتهم، ولم يسلبوا ماشيتهم، كما تأسف على ذلك تصريحات عديدة من المجامع المسيحية المسكونية.

لماذا هذا التعرج، هذا التأكيد الكاريكاتوري؟ لابد من الاستذكار، كما في معرض الغزوات النورمندية، أن النصوص التي دَوّنت وقائع من هذا النوع هي بكاملها نصوص كنسية، وأن ضحايا ذلك هي، في أغلب الأحيان، أراضٍ للكنائس وأهاليها. وإن الأذيات المذكورة ليست بالتأكيد خيالية، لكن من المرجح جداً أنه تم تضخيمها. وإلى

محضر الواقع هذا، يحسن بنا أن نضيف: " ليس هذا سبباً كافياً لإهمالنا هذه الأذيات"

ثمة ما هو أهم أيضاً إن ضحايا هذه الإساءات التي يجدر بنا إعادة تقييم مداها ولاسيما طبيعتها، هي قبل كل شيء، هنا أيضاً، الكنائس والأديرة. فبدلاً من الفوضى العامة التي كان البعض يتمتع بذكرها، فوضى تُولِّد أصنافاً من العنف والسلب على حساب جماهير الفلاحين بمجملهم، ترى ألا تقوم هذه النصوص بمرجعية إلى اختلاسات من كل نوع، باتت ضحاياها الإقطاعات الكنسية، وذلك على يد أسياد الجوار العلمانيين؟ ولو كان الوضع على هذا المنوال، لما أعرب سلام الله، في الحقيقة، عن إرادة الكنيسة بأن تحل هي، بصفتها مؤسسة، مكان السلطات المدنية المتهالكة وَهَناً، بقصد حماية جميع الضعفاء من أنواع العنف التي باتت تستعصي على كل رقابة من جراء صدورها عن فرسان لا أحد يكبحهم، حسب التفسير التقليدي لمؤسسات السلام. بل بالأحرى، تَرجَم سلام الله، في مصدره على الأقل، عزمَ الكنيسة على صيانة ذاتها، على مكافحتها، بأسلحتها الروحية، شتى تطاولات الأسياد العلمانيين المتناوئين في الجوار، على حساب ومصلحة الأديرة والمؤسسات الكنسية التعليمية. وتتيح دراسة قرارات مجامع السلام هذه، بمقدار ما، الإجابة على هذا التساؤل، وذلك مع السعي إلى كشف مقاصدها وتطور هذه المقاصد.

سلام الله، هل هو حماية التراث الكنسيّ؟

في الوهلة الأولى، تبدو قرارات المجامع أنها تشير إلى أعمال العنف بطبيعتها الحربية، بقصد إدانتها: فالألفاظ المتواجدة أينما كان في النصوص لأجل وصف الإساءات المعنية، والتي أدانتها الجمعيات والمجامع المسكونية، من الممكن أن تُوضّح في اللغة الفرنسية بكلمات ننقلها كما يلي: اختلاسات، اغتصابات، سرقات، سلب، نهب للكنائس والفقراء، الخ. ويبدو أن هذه الألفاظ تتضمن فكرة جو من الفوضى، من سلام يسوده اضطراب تثيره عصابات محاربين نهابين قد أقاموا، منذ حين، وفي كل مكان، سيادة الإرهاب وزعزعة الأمن.

بيد أن هذه الألفاظ ليست جديدة: وسبق أن وجدناها في نصوص لمجامع عصر

الكارولانجيين الأول، حينما كانت سلطة الملك تنعم بالاعتراف الإجماعي في زمنٍ أقدم من "الفوضى الإقطاعية" المزعومة قرابة سنة الألف. في ذاك العصر، ما كانت هذه الألفاظ تعني البتة فرسانا يقطعون الطرق وينهبون، بل تعني" الأسياد" الذين يعارضون الهبات المخصصة للكنائس، أو الذين لا يحترمون حرمات الأديرة أو الكنائس، وممتلكاتها، وعلى نحو أعم، كانت تشير إلى بعض العلمانيين الذين يلحقون الأذية بالتراث الكنسي. فهذه الألفاظ لا تتضمن إذن، كما اعتقد البعض خلال أمد طويل، فوضى إقطاعية معممة أكثر أو أقل....

يترتب علينا قول المزيد على ذلك: فهذه الألفاظ لا تشتمل، ولا دوماً أيضاً على أفعال عنيفة ذات طبيعة حربية، أو على عمليات سلب أنجزت بتهديد السلاح، بل على أعمال من كل صنف، بما في ذلك اللجوء إلى القانون، أعمال أسهمت في إضعاف المصالح الاقتصادية للمؤسسات الكنسية. ولماذا يا ترى ليس الأمر مختلفاً عن المنوال، إلا إذا كانت ثمة براهين مناقضة، في النصوص المتعلقة بجمعيات السلام، حين اقتربت سنة الألف؟

في هذا المنظور، قد يكون إذن الهدف الرئيسي لمؤسسات سلام الله، مثلما كان في القرون السابقة، إرغامَ العلمانيين على عدولهم عن الرسوم، والضرائب، وشتى الأجور التي يطالبون بها، أو يتقاضونها بغير حق"، على أراضي الكنائس، أو المفترض أنها كذلك. وإن غدا الأمر على هذه الشاكلة، لكان هدفُ السلام الجوهري، لا مكافحة فوضى إقطاعية - فوضى قلما يُصدِّقُ الناس من بعد شكلها المعمم على الأقل - بل استعادة التحكم بتراث كنسيّ تهدده تجاوزات الأسياد العلمانيين المناوئين، في جوار ممتلكات الأديرة، أو الأسقفيات، أو الكنائس.

وكما نعلم، لبث التراث الكنسي مهدداً، في الواقع، خلال العصر، وللعديد من الأسباب: فالهبة، والحسنة إلى الفقراء (التي كانت تُترجم بعطاء إلى الكنيسة المُكلفة بإعانة المعوزين) بقيتا تشكلان منذ أمد طويل، الوسائل الهامة " للافتداء": فهو الذي يجلب خلاص النفس للخطأة القلقين على مصيرهم في دار الآخرة. بيد أن هذه الممارسات راحت تتقهقر، وقد غدا يزاحمها أشكال تقوى على مزيد من الشخصية، وخاصة رحلة الحج الأثيرة جداً في القرنَيْن العاشر والحادي عشر. وقد أوشك هذا الأمر أن يُضعف أيضاً التراث الكنسي.

إضافة إلى ما سبق، في العائلات الاريستقراطية، أو التي تنعم بشيء من الرخاء، بدأت عمليات تقاسم الميراث تقلص دوماً بمقدار متصاعد الحصة العائدة إلى كل فرد. وسوف يؤدي هذا المسار، في القرنين ١١ و ١٢ إلى الحد من زواج الأبناء، أو إلى تأخيره، ثم إلى حق البكورية، مع تقليل شديد لحصة الميراث لصغار الأبناء.

وفي عصر جمعيات السلام الأولى، لم تكن بعد قد ثبتت عادات التقاسم الأسروي. بل فرضت ذاتها على كر سنوات القرن ١١ غير أن تقليص الممتلكات بات يؤدي بالعائلات إلى الحد من الهبات إلى الكنيسة، وإلى الجدال حول الهبات التي قدمها، فيما مضى، بعض الوالدين أو الأجداد، أو أيضاً إلى الحد من مدى التبرعات، وإلى مناقشة شروطها. وعلى عكس هذا، فإن الضرورات المتزايدة للإقطاعات الكنسية من الممكن أن تؤدي بها إلى تجاوز الحقوق، والتنازلات التي تم القبول بها، وإلى توخي إثبات حقوق جديدة وغير مستحقة على الأراضي المطموع فيها، وذلك بإنتاج وثائق ملفّقة أو، أقله، بتفسيرات مغرضة لوثائق أصلية. وبالطبع، سبَّبت هذه الوقائع نزاعات بمقدورها، في العديد من الأوضاع، أن تفسِّر، وحدها وحسب، وضع جمعيات السلام الأولى.

مجامع السلام

فيما مضى، كان المؤرخون يُمْوقِعون في شارو(٩٨٩) (Charroux) أقدم الشهادات المتعلقة بسلام الله: غير أن بحوثاً حديثة العهد تشير إلى أنها تبدو بالأحرى، واردة من إقليم الأوفيرنْي ((Auxergne، وثمة ميثاق من عام ٩٧٥، يبرهن على هذا الموقع وبوضح أهدافه الأصلية: فهي في الواقع، تروي لنا كيف سعى أسقف، غي دوبوي (Guy du Puy)، فور تربعه على عرش الأسقفية، إلى تأمينه "سلام ممتلكات الكنيسة" (فالعبارة المستخدمة هي وحدها غزيرة الدلالة والمعنى). بيد أن هذا السلام قد بات يزعزعه أشخاص يشير إليهم النص بكلمات: "قطاع الطرق في البلد": فكانوا يستولون على ممتلكات الكنيسة بقوة السلاح.

استدعى الأسقف، عندئذٍ، قرب بوي (Puy)، فرسان ابرشيته، وحاول أن يجعلهم "يقسمون السلام" ويورد النص بدقة فحوى هذا القسم: فهو يعني الالتزام "بألا يسطوا على ممتلكات الكنيسة"، بل على عكس ذلك، "بإعادة الأشياء المختلسة، كما يجدر

التصرف بمؤمنين مسيحيين" وحيث أن كثيرين نفروا من هذا الالتزام، أصدر الأسقف غِي (Guy) الأمر إلى فرقة مسلحة، جمعها أحفاده، للمجيء ليلاً بقصد أن يرغموهم على هذا الالتزام: فقطاع الطرق" هؤلاء أدوا قسم السلام وأعادوا إلى الكنيسة أراضيها وممتلكاتها التي سبق لهم أن استحوذوا عليها.

وبالتالي، لسنا هنا، كما نرى، في صدد السلام الشامل، في صدد الحماية التي توفرها الكنيسة لجميع الأهالي العُزل من السلاح، بل فقط في صدد الحفاظ على ممتلكات الكنيسة، أو استردادها، بعد أن سلبها أناس علمانيون - ومن ثم، خُلع عليهم الوصف بأنهم قطاع طرق - وذلك بقوة قَسم ٍتم الحصول عليه، عند الحاجة، باستخدام قوة السلاح.

من المرجح أن الأمر كان على هذا المنوال في مجمع شارّو، سنة ٩٨٩، الذي ألقى الجُرم على من ينتهكون السلام، وقد تم تحديد هوياتهم بما ارتكبوه من الأذيات التي يعددها النص: فهم من يخالفون الكنائس، ويخطفون قطعان الفقراء والفلاحين، ويعنفون رجال الدين العُزّل من السلاح. فإن حماية الكنائس والأكليروس هي إذن في صميم التدابير والأحكام. ويبقى علينا أن نعرف من هم هؤلاء الفلاحون الذين تجدر حمايتهم، لئلا يغدوا ضحايا شتى عمليات السلب والنهب. ترى هل الأمر يعني طبقة القرويين بمجملها، كما تمّ الاعتقاد عموماً ؟ أم هل يعني الأمر، بالمزيد من الدقة، البعض من هؤلاء، أي فلاحي أراضي الكنائس، أقنانها، "خدام الله" وهم أنفسهم الذين يدعون فقراء الله": ألا وهم الرهبان ورجال الدين؟

مرة تلو مرة، قامت قرارات من المجامع أو القضاء، قرارات سابقة من عهد الكارولانجيين، بالتأسف والرثاء لمثل هذه التعديات على ممتلكات أراضي الكنائس والعاملين فيها. وقد كان في وسع مجمع شارو، هو أيضاً ، أن ينحو هذا المنحى، فلم يعالج إلا حماية ممتلكات الكنيسة، لا الوضع العام لطبقات الفلاحين المقهورة. وثمة نص من ليتالد دوميسي (Létald de Micy)، أحد معاصري المجمع، يضمن هذا التفسير التحديدي لقرارات شارو: وقد كتب، في الواقع، أن هذا السينودس [المجمع الكنسي] قد دُعي إلى الاجتماع بقصد أن يدين "من يلحقون الأذية بالممتلكات الكنسية"، وحسبما كتب، سعى هدف المجمع إلى أن يجعلهم يردّون إلى أسقف أنغوليم ما قد سُلب منه ظلماً وعنوة.

إن القيود العديدة التي ألحقت بتطبيق قرارات السلم هذه (مثلاً ، في بْوي، عام ٩٩٠) تبين بوضوح أن الأمر لم يعد يعني، بوسيلة هذه الحرمانات، تقليص حقوق الأسياد: فأي فرد كان، وطالما يعمل على أراضيه الخاصة به - أكانت أقطاعية حرة أم منطقة نفوذ - فبمقدوره متابعة تصرفه كيفما يريد ويرغب. وينبغي ألا نعطي قرارات السلام هذه فحوى اجتماعية عامة بمقدار مفرط. فهي لم تعمل على حظر الحروب الخاصة، ولا على حماية جميع المستضعفين بصفتهم طبقة " مهددة، بل على حماية الكنيسة (الإقطاعات الكنسية) ، وأفرادها ، وممتلكاتها العقارية، ومصالحها ، وحقوقها ، مع الفلاحين، ومستأجري الإقطاعات الذين يزرعون أراضيها.

في [مدينة] أنص (Anse)، على سبيل المثال (٩٩٤)، استهدفت الألفاظ المستخدمة، على نحو جلي، السلطة العامة العلمانية، السيد المجاور والخصم، ألا وهو الكونت.ومرؤوسيه، في ممارستهم - ولعلها كانت ممارسة طاغية - لوظيفتهم القضائية والعسكرية. ولا يعني الأمر البتّة تقليص الحق في الحرب، ولا حظر الغنائم، بصورة عامة، في الحروب الخاصة، ولا إقصاء الفلاحين بمجملهم عن إساءات الفرسان النهابين الذين لا أحد يتحكم بهم. فإن أوديلون دوكلوني (Odilon de Gluny) يذود فقط عن مصالح الإقطاعة الكنسية التي يكوّنها ديره وقد بات مهدداً بتعديات الأمراء العلمانيين من جواره. وإن قوانين كلوني، مابين ٩٨٠ و ١٠٣٠، (بل أيضاً ليتورجيا كلوني وهي التي تلتمس غضب السماء الشديد على من ينتهكون ممتلكات الدير) تشير إلى أن نزاعات المصالح هذه في ذاك العصر، ظلت متواترة ما بين الدير الكبير وأسياد المناطق المجاورة العلمانيين.

تنظيم الحرب كنسياً

قلما كان مجمع إلن (Elne) (١٠٢٧) مختلفاً عن المجامع السابقة: فقد حظر مهاجمةَ راهب أو رجل دين ليس مسلحاً ، وكذلك التعدي على الكنائس وملحقاتها. لكننا نجد فيها عنصراً جديداً في الواقع، يحدُّ القرار الأول، زمنياً ، الاستخدام الشرعي للحرب الخاصة، وهذا الموضوع لم يسبق أن تناولته قطعياً القرارات السابقة: فهو يقول: " الأساقفة، رجال الدين، المؤمنون، يقررون أن أي ساكن في هذه الكونتية

وهذه الأسقفية لا يستطيع التعدّي على أحد من أعدائه، منذ الساعة التاسعة من يوم السبت حتى الساعة الأولى من يوم الاثنين، وذلك لكي يتمكن كل إنسان أن يؤدي التكريم الواجب ليوم الرب"

هذه الكونتية هي مقاطعة كاتالونيا. وقد تم التساؤل حديثاً لماذا صدر تحديد كهذا، وبدقة، في هذه المنطقة. فالإجابة الأوفر معقولية، كما يبدو، ترتبط بالقدسنة، وقد باتت مكتسبة للمعارك التي يخوضها المحاربون على المسلمين في الغرب، بقصد استعادة الأرض المحتلة في أسبانيا [الركونكيستا]، وراحت هذه الاستعادة تأخذ شيئاً من المدى والأهمية. وفي هذه المنطقة، بالتأكيد، وفي هذه المنطقة بالتأكيد انساق الفرسان الكتلانيون أحياناً إلى قيامهم، داخل اسبانيا الإسلامية (الأندلس)، بغارات يشنّونها على جيرانهم المسلمين، وحتى يوم الأحد. ومن المحتمل أن هؤلاء الفرسان قد اعتادوا بذلك على إهمال الحرم والنواهي المتعلقة باحترام الأيام المقدسة، والأعياد الليتورجية، وكذلك أيام القطاعة الطقوسية [أيام التقشف وحرمان الذات].

إن الحرب مشروعة على خصوم وثنيين، كما نعرف، (وذلك منذ نيقولاوس الأول)، وخلال أيام الأحد، وإبان أقدس الأعياد الدينية. وقد يكون الأمر على المنوال ذاته، فالحرب على المسلمين قد شُبهت، دون هوادة، بحرب على الوثنيين. لكن الحروب الخاصة، أي الصراعات المحلية، وعمليات الأخذ بالثأر، لا ترتدي، بالطبع، هذه السمات من القداسية .(Sacralité) فما كانوا، حتى ذاك الزمان، يفكرون في حظرها، لكن، كان يتوجب تخصيصها لأيام لها من القداسة ما هو أدنى رتبة.

فيما بعد، ستكون هدنة الله موسعة حتى فترات أطول أيضاً ، أي من الخميس مساءً إلى الاثنين صباحاً وعلى هذه الشاكلة، في منطقة سان- جيل- دو-غار (Saint-Gilles-du Gard) (١٠٤٢) حظر على كل فارس" أن يتقلد الأسلحة، منذ الرابع من أيلول/سبتمبر حتى عيد القديس يوحنا (٢٤ حزيران/يونيو)، باستثناء إذن من الأسقف. ولدينا هنا محاولة جديدة لإناطة كل نشاط حربي بقرار الكنيسة، قرار مشفوع بالتأكيد على الطابع المقدس، والذي لا يمكن انتهاكه، للملكية الكنسية، وكل ذلك يشكل عناصر تُذكرُ أيضاً في قرارات جميع المجامع اللاحقة. فالحرب "الخاصة" تدان إذن فيها، متى تمارس على حساب الممتلكات الكنسية. ويسمح بها، في بعض

الحدود، خارج الفترات الليتورجية. ومن الممكن حتى التوصية بهذه الحرب، حينما يعني الأمر حماية الأكليروس وحوزات الكنيسة العقارية. وإن "ميليشيات السلام" تشهد على هذه الأمور.

"جنود ميليشيات السلام"

إن التهديد بشتى العقوبات الكنسية لم يَكفِ دوماً لارغام الأسياد على أداء مثل هذا القسم، وبمقدار أقل أيضاً ، على احترامه. فتحتم إذن على الكنائس والأديرة، سعياً إلى تأمين حمايتها ، أن تلجأ إلى القوة المسلحة، إلى محاربين يجندون في "ميليشيات للسلام" وقدَسنتهُم الأيدولوجيا: فالذخائر، وتماثيل القديسين، وبيارق الكنائس والأديرة، يتم تعبئتها ، بقصد أن تحمي، بقدرتها الفائقة للطبيعة والخَيرة، من يدعمون فئة الخير (فئة الكنيسة) على أعدائها ، فأحياناً يؤدي سلام الله إلى الحرب في سبيل الكنيسة، وهي حرب قد باتت مقدسنة على هذا المنوال. ووضع مدينة بورج (Bourges) (١٠٣٨) يوفر لنا مثالاً موفقاً على هذا الانزلاق.

إن رئيس الأساقفة إيمون (Aimon)، في بورج، لم يعد يكتفي بإصدار شتى أنواع الحُرُم: فقرر أن يقوم هو نفسه بعمل حربي على كل الذين ينتهكون ممتلكات الكنائس. وقد سبق له أن ترأس انعقاد مجمع ليموج (عام ١٠٣١)، وجرى عمله في المنحى المباشر لتوصيات هذا المجمع. فطالب إيمون من جميع الذكور، في عمر تجاوز خمس عشرة سنة، أن يأخذوا على أنفسهم بقسمٍ، وبقوة السلاح، محاربتهم مثل هؤلاء المثيرين للشغب والاضطراب. أما الرهبان ورجال الدين، فعليهم ألا يظلوا سلبيين: بل توجب عليهم المضي ليجلبوا من المعابد رايات الرب، والذهاب مع هذه الميليشية الجديدة لمحاربة "مفسدي سلام القسم" (رَ. النص رقم ١٥، في آخر الكتاب).

هذه الحرب " العادلة" التي تشن لأجل استرداد ممتلكات قد سلبت، لأجل حماية الكنائس من الذين "ينهبونها"، هي حرب مقدسنة بوجود بيارق كنسية، وكهنة يرتدون حللهم الليتورجية. وهي أيضاً مقدسنة بالسلطة الكنسية التي تعظ بها: فرئيس الأساقفة قد بات مضموناً من جميع أساقفة المجمع. وهنا، قد اقترينا كثيراً من عدة عناصر كبرى مُكونة للحرب المقدسة. غير أنها تفتقد، وليس الأمر يسيراً ، السلطة العليا من الكنيسة، كما تفتقد المكافآت الروحية.

ومن ثم، فالله يعطي، في البداية، الظفر "لجنود الميليشية" الخاصة به، دون أن تكون لهم، إن صح القول، حاجة إلى القتال، كما حدث الأمر، في ماضي الزمان لجيوش شعب التوراة المختار والمنتصر على أعدائه. وأقلهُ، هذا هو التفسير الذي يقدمه حول هذا الموضوع، أندريه دوفلوري (André de Fleury)، وهو يدون الوقائع هذه. ولكن لابد أن تبقى هذه الحرب مبرّرة بالقداسة، حتى النهاية، عفيفة عن المشاعر السيئة، وعن المصالح المادية، وعن كل مطلبٍ لاحَقٍّ لها فيه.

لم يكن هذا الوضع، في مدينة بورج! فالجشع، والكبرياء، والعنف الاعتباطي، قد استحوذت بعد برهة على رئيس الأساقفة. ومنذ ذاك الحين، أقدم الله على عقاب هذا الانحراف المشؤوم لعمل قد اعتبر، في البداية، جميلاً وصالحاً وبالحقيقة كانت القضية عادلة مقدسة، بيد أنها أفسدت، وانحرفت على يد من قد باشرها هو بذاته. ومن ثم، حل غضب الله على قوات رئيس الأساقفة، كما انصبّ، مثلما رأيناه سابقاً، على مسلمي البروفانس، أو على اليهود في عهد تيطوس وفيسبازيانس. فانتصر محاربو اوريس دو ديِؤلس (Eudes de Déols) على ميليشيات رئيس الأساقفة إيمون. أما أوديس فقد كان، رغم هذا ملحداً، بما أنه لبث المتمرد الأخير، والمعادي المتعنت لحلف "السلام" الذي توخى رئيس الأساقفة فرضه بقوة ميلشياته المسلحة. يا له من عقاب إلهي!

لدينا من جديد في هذه الحادثة التصور نفسه للتاريخ الذي سبق لنا أن عثرنا عليه في صدد اسبانيا، أو المشرق المسيحي الذي أخضعه العرب: فالله يعاقب شعبه على مآثمه. فحتى عمل مقدس من الممكن أن يغدو زائغاً، مدنساً بالتصرف الشائن لهؤلاء الذين قد قاموا به في البداية بأمثل ما لديهم من المقاصد. فإن ظل المقاتلون في سبيل الله على نقائهم، فالله يهبهم الظفر. وإن انقلب الوضع نقيضاً لذلك، فمع أن القضية تظل عادلة مقدسة، فالله ينأى عن ذويه المذنبين بنوع من انتهاك ما هو مقدس. وإذ يسعى الله إلى قصاصهم: فبمقدوره أيضاً أن يستخدم جيوشاً من الكفرة، مثلما فعل في ماضي الزمان، حينما اخضع شعبه للكافرين: الآشوريين، البابليين، وفي زمان حديث العهد، العرب المسلمين في الغرب.

إن هذا التصور الأخلاقي والتربوي لتسلسل حوادث التاريخ قد تكرر وجوده في الحرب الصليبية: فحين يطرأ كل اخفاق على ساحة القتال، وعند كل محنة تبدو موجهة

من الله على شعبه المسلح، اتهم الكهنة الصليبيين بأنهم قد زلوا ، مرتكبين خطيئة ما ، متعلقة، على العموم، بأحد المواضيع المذكورة أنفاً الكبرياء ، أو الشبق، أو الزنى. وراح الكهنة يأمرون بأيام من الصوم، ومن أسرار التوبة، والتطوافات الاستعطافية.

إن الحرب المقدسة التي رأينا بروز بواكيرها في مدينة بورج، والتي سوف تتعاظم في أورشليم، اقترنت هكذا بنزعة أخلاقية، بليتورجية، بَطقسَنة [Ritualisation إضفاء سمة الطقوس الدينية] واتخذت الكثير من الممارسات لدى المدافعين عن الكنائس، وقد تم الأخذ بها ، في الغرب طوال القرنين العاشر والحادي عشر. ولكن بالتأكيد، ليس ثمة مقياس مشترك ما بين حماية ممتلكات كنيسة " عادية" وحماية تراث القديس بطرس ! تماماً كما تبرز أيضاً قفزة نوعية مابين حماية قبر القديس بطرس واستعادة ضريح المسيح. وإذ تنتقل من هذا إلى ذاك، تقوم " قداسية" المحاربين المنخرطين فيها ، باجتيازها درجة إضافية جديدة.

الفصل العاشر

الحرب المُقدسَنة من السماء

المحاربون القديسون، الحروب المُقدَسة

إن ما يتصوره المرء عن القداسة، وبالتالي، عن طبيعة القديسين الذين تعترف بهم الكنيسة، يمت بصلة حقيقية إلى الموضوع الذي يعالج هنا. ولا جرم أن العصور الوسطى تتسم بمدى طقوس القديسين [الأولياء]. غير أن هؤلاء، في ما يزيد على ألف عام، قد غيروا مصدرهم. ويترجم هذا التطور سيرورة قدسنة الحرب التي أنجزت في الكنيسة خلال عصر الإقطاعية، وخاصة عند إقتراب عام الألف.

طوال ما يقارب ألف سنة، قلما تنوع نموذج القديس المبّجل في الكنيسة: فقد لبث دوماً ضحية العنف الأعمى، عنف الوثنيين الشرس، وهو عنف يتم قبوله عمداً لأجل قضية الإيمان، بمعزل عن كل مقاومة، على غرار ما فعل المسيح. في الأزمنة الأولى، كانوا في البداية شهداء الإيمان، معترفين بدينهم رافضين المروق منه، وتقديم الضحايا للأصنام، وحمل الأسلحة أو استخدامها. وفي عهد الإمبراطورية المسيحية، ثم في حكم الملوك الجرمانيين، حدثت ثورة ذات طبيعة اجتماعية، ثورة هامة، بيد أنها لم تلحق الضرر بالنموذج من حيث الموقف حيال الحرب والأسلحة: وفي الواقع، القديسون الجدد قد باتوا أساقفة، وغالبيتهم أعضاء الأرستقراطية العليا، والنبلاء الذين " قد عزفوا عن العالم والأسلحة" خدمة للمسيح، أو كانوا رهباناً يعيشون حياة عفة وطهارة حياة زهد وقناعة متنقية، تتنزه عن الانتفاع، عن الملذات، عن مخاطر الجنس الأخلاقية، عن مخاطر السيوف. فلم يعد هؤلاء الأولياء ضحايا السيف، بيد أنهم ظلوا يحترسون منه، ويمتنعون عنه. أما العلمانيون فيستخدمونه، لكنهم، على العموم، لم يرقوا إلى القداسة.

غير أن انعطافاً قد اتضح في القرن العاشر، بمنحى العلمانيين، ثم فيما بعد، باتجاه المحاربين. فغالباً ما تم الإلحاح على الدور الذي قام به خلال هذا الانعطاف، التمجيد الذي قد يكون فعله أوديس رئيس دير دوكلوني في شأن حياة الكونت جيرو دورياك، في كتابة حرّرها نحو عام ١٠٣٠ دون إنكار هذا التأثير الحقيقي تماماً يجدر بنا، مع ذلك، أن نخفف من مدى أهميته.

في واقع الأمر، إن قُدِّم الكونت جيرو بهذه الطريقة، في مؤلف سيرة القديسين، وهو كتاب أودس دوكلوني، بمثابة مثال لرهبان كلوني، فذلك، قبل كل شيء، لأن هذا العلماني كان يتوق إلى حياة الدير، وسعى بكل وسيلة إلى أن يعيش راهباً في مضمار العالم الدنيويّ، منجزاً على هذا المنوال، وفي الأوضاع الأشد إزعاجاً ، مشوار قداسة لم يستطع رهبان كلوني - العازفون عن العالم والمصانون من مخاطره - أن يحققوه إلا بجهد جهيد. وبعبارة أخرى، على نقيض ما كُتب أحياناً ، لم يقم أودس بالدفاع عن حياة علماني، وحتى عن حياة وجيه من الوجهاء، حياة سيّدٍ تقلد الأسلحة، بل عن حياة رجل قد وضع في إحدى الحالات الأشد خطورة، في العالم الدنيوي وارتباكاته، رجل قد انتمى إلى مثال الرهبنة، وتاق إلى دعة الدير، واستطاع أن يعيش في هذا العالم عيشة قداسة، فشرّف فضائل الأديرة والرهبان.

إن جيرو، الأمير العلماني، قديس لأنه عاش في العالم كما يتوجب العيش في الأديرة: فتبدى، في الواقع، متضعاً، مطيعاً لله، ورعاً، شفوقاً، محسناً، مع حوزته سلطان السيف،إلا أنه لا يسيء استخدامه، بل لا يستخدمه: فلم يُلطخ الدم يوماً يديه.

وبذلك تشهد هذه القصة حقاً لثورة حقيقية: فقد تم فيها الاعتراف بكرامة وظيفة العلمانيين. وقد كتب [القديس] أوغسطينوس إن المرء يستطيع أن ينال حظوة عند الله وهو يعيش في العالم الدنيوي، مرتدياً لباس العسكريين ومتقلداً أسلحتهم. وقدّم أودس البرهنة على ذلك مضيفاً أن المرء بوسعه بلوغ القداسة، بمعزل عن كونه أسقفاً أو راهباً فإن حياة جيرو دورياك، علاوة على كونها قَدْسَنة للوضع العلماني بحد ذاته، فإنها تبدو لي إعراباً عن محاولة لِرَهْبنة هذه الحالة [إضفاء صفة الراهب على... Monachisation]

ومع ذلك، فإن حركة رفع شأن العلمانيين وقيمتهم الأيديولوجية حتى في داخل

وظيفتهم الحربية، حركة استمر مشوارها الذي نجد منه العديد من الآثار. وقد ازدهرت هذه الحركة خلال القرن الحادي عشر. فعلى سبيل المثال يورد لنا دودون دوسان - كانتان (Dudon de Saint-Quentin) أن رئيس الدير مارتان دوجومييج (Martin de Jau-miėges) قد بذل قصارى جهوده لكي يصرف الدوق النورمندي غيوم لونغ - إيبيه عن عزمه على التطلع إلى سلام الدير ودعته، وإلى دخول ديره. وبرهن له أنه من الأجدى كثيراً لله والوطن والكنيسة تواجده في وضعه كأمير علماني، بقصد أن يحمي بسيفه، تحديداً ، الكنائس والضعفاء.

إن الحظوة المتنامية للقديسين الذين يُدعون عسكريين، طوال القرنين العاشر والحادي عشر، تشهد لهذه الحركة ذاتها. فقد غدوا، بأغلبيتهم، قديسين، وخاصة في عصر الإمبراطورية الرومانية، لأنهم رفضوا، أن يصيروا عسكريين، أو لأنهم لقوا حتفهم، دون الدفاع عن أنفسهم، بسيوف الجنود الوثنيين الذين نفذوا أوامر إمبراطور كافر زنديق. وخلال القرنين ١٠ و ١١، تم اعتبار هؤلاء القديسين، على عكس ذلك، شفعاء لفروسية في طور الولادة والنشوء. وتم التأكيد على حالتهم كعلمانيين وعلى صلاتهم الوثيقة بالجيش. وفيما بعد ببضعة قرون، سوف تفضي هذه الحركة إلى إعلان قداسة لويس التاسع، ملك فرنسا الأول الذي اعتُرف به قديساً ، وقد سبقه، في هذا المضمار إتيين المجري الذي أعلن قديساً عام ١٠٨٣ ولكن، في تلك الأثناء، ستكون القدسنة المتدرجة للوظيفة الحربية والممارسة لصالح الكنيسة والإيمان، قد أتاحت التشكيل، في ذهنيات المؤمنين، لعقلية دينية جديدة، داخل الأكليروس بذاته، عقلية تقبل شيئاً فشيئاً فكرة أن المحاربين الذين يموتون في سبيل الكنيسة يمكنهم أن يصبحوا قديسين في الفردوس.

في الغرب المسيحي، يدين تشكل مفهوم الحرب المقدسة بالكثير لهذه الحركة: فقد قرّبت تدريجياً نموذجين، نمطين من الحياة تم اعتبارهما، طوال ألف من الأعوام، أمرين متعارضين، وهما نموذجا القديس من جهة، والمحارب من جهة أخرى. وبوسعنا أن نتبع مراحل تقدم هذه الحركة، خلال القرنين العاشر والحادي عشر، وخاصة في الليتورجيا [أي شعائر الدين المسيحي] ، التي تكشف النقاب عن القدسنة المتدرجة للأسلحة ولمن يتقلدونها، وذلك في الابتهالات التي تتلى على السيوف، على البيارق التي تسلم

للأمراء ولجيوشهم الذين يتأهبون للقتال، بل أيضاً في التسجيلات، بطابعها الديني أو التعويذي، المنقوشة على نصال السيوف، وفي كتب الشعائر التي ألفت، ولاسيما في القرن الحادي عشر، لاحتفالات تنصيب وكلاء الدعاوى أو المدافعين عن الكنائس، الخ....

تم بلوغ المرحلة الحاسمة لهذا التطور، في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر، الذي لوحظ فيه تكاثر القصص حيث يشارك قديسون في معارك الرجال البرية، دون تردد منهم في ضرب العدو المشترك أو قتله. وفي الفترة ذاتها، لوحظ أيضاً تطور فكرة شهادة المحاربين الذين يموتون في القتال. وإن الحركة التي تقرّب، بهذه الطريقة، القديسين من المحاربين، تبلغ مآلها في عصر الحرب الصليبية، حيث غدا الصليبيون المقتولون شهداء قديسين، وحيث يفِدُ قديسو السماء للقتال مع الأحياء من الصليبيين، مصحوبين برفاقهم الأموات حديثاً وقد باتوا قديسين. عندئذٍ، دون أي شك، اكتسبت فكرة الحرب المقدسة تماماً حق الرسوخ في الذهنية المشتركة، خلال عصر الحرب الصليبية.

وشهد تطور كهذا، كما قلنا آنفاً، ثورة عقائدية حقيقية. وسوف تحاول الفصول التالية أن تصف بإيجاز، طريق سيرورته التي تتموقع بشأن ما هو جوهري، في العصر ذاته حيث انتشرت غرباً ، أيديولوجيا سلام الله.

قديسون مقاتلون

إن لم يَكْفِ سلام الله لتأمين حماية الكنائس، فهو عوضاً عن ذلك، يسهم في إضفاء سمة أخلاقية على العمل الحربي للمدافعين عنها حيال العلمانيين الذين يسلبونها.

ويأتي مثل هذا الاستخدام للعنف، إضافة إلى ذلك، من الأعلى: فحسب ما يرويه الرهبان، الشفعاء القديسون للأديرة غالباً ما يحمون هم أنفسهم ممتلكاتها [وأطيانها]، على نحو مباشر أو بواسطة ذخائرهم أو تماثيلهم. وغالباً ما يعاقبون بقسوة شديدة الذين يُخلون بوظائفهم، ويقاتلون أحياناً "الكافرين"، بل أيضاً خصومهم المسيحيين. وبذلك تماماً ، يشاركون في تشكيل مفهوم الحرب المقدسة، في عصر بلغ فيه التعبد للقديسين ولذخائرهم وتماثيلهم، قمة في الورع الشعبي المفرط"، وقد ضمنته، في حين باكر جداً السلطات الكنسية.

عجائب القديسين العنيفة

ثمة دراسة حديثة العهد تركزت على عدة آلاف من ذكر التدخلات الأعجوبية المسجلة في كتابات يرجع عهدها إلى القرنين العاشر والحادي عشر، فهي تبدي أن عجائب الشفاء كانت، كما استطعنا توقع ذلك، ممثلة بأوسع مقدار (٦٠٪). وبدرجة ثانية تأتي عجائب العقوبات: فهي تروي كيف قام القديسون بمعاقبة من ظل سلوكهم سلوكاً كافراً ومنافياً للاحترام، حيال الله وحيال أنفسهم. وتمثل هذه العجائب نسبة ١٢٪ من المجموع، لكنها تبلغ ٣٣٪ من العجائب الخاصة بالطبقة الأرستقراطية.

ومن المجدي التساؤل عن الأسباب التي تدفع القديس إلى "معاقبته" بعض البشر، وعن الطريقة التي يوقع بها هذا القصاص. فنكتشف عندئذٍ أن القديس (أو القديسة) يقوم بثأره، قبل كل شيء، ممن الحقوا الأذية بالممتلكات المادية لجماعة "ه" الرهبانية. فالأمر يعني على نحو عام جداً ، أسياداً علمانيين: ويريد القديس أن يعاقبهم أو أن يردعهم عن انسياقهم، لغير حساب مصلحته، إلى اغتصاب الأراضي، وإلى شتى السرقات، وإلى مطالباتهم بما لا يحق لهم. والقديس، إذ يقوم بهذا التصرف، يستجيب لابتهالات رهبان ديره الذين يتوسلون إليه لحصولهم على حمايته.

من المؤكد أن الرهبان غالباً ما لجأوا إلى تدخل قديسهم الحامي تدخلاً مباشراً وسعياً منهم إلى "الضغط على" القديس، لجأوا أحياناً إلى طقس غريب يتوخى "إذلال" ذخائره. ويقوم هذا الاحتفال الطقسي على وضعهم علناً ذخائر القديس في وضع يذلها إذلالاً شديداً ، بحيث يغدو، نوعاً ما، مضطراً إلى ردة فعل لكي لا يفقد ماء وجهه. فالمناورة جريئة، ودقيقة بشكل خاص، لأنها تتخذ جوانب من عدم الاحترام ومن التحدي، جوانب تصير على تخوم الكفر، تخوم الانتهاك والامتهان للقدسيات: وبالتصرف على هذه الشاكلة، عليهم عدم احتقارهم القديس، بل إثارتهم فقط حسّ كرامته وشرفه، كيما يثيروا انطلاقة فعل مقدرته. وعلى هذا المنوال يحرج" القديس، ويهدد بذلك ليذود عن إقطاعته الدنيوية تحت طائلة ظهوره بمثابة قديس أصم ومهمل، بل عاجز ووهن. تكون المنافسة والمزاحمة مابين الأديرة (وبالتالي، مابين الشفعاء القديسين) على هذه الحال، بحيث أن القديس، في ذاك العصر، لم يستطع أن يسمح لنفسه، إن صح هذا القول، بتعريض سمعته للخطر.

إن قصص العجائب في العقاب أو الانتقام كانت معدة بكاملها تقريباً ، لإثارة الخشية، لصرف العلمانيين عن المشاققة في حقوق الدير الذي يلبث القديس شفيعاً له. ويأتي القديس مضيفاً القصاص الجسدي، وغالباً الموت، على الفصل عن الجماعة الذي تقرره سينودسات السلام حيال مثل هؤلاء المنتهكين. وهكذا ، نرى القديسة فوا (Foy) مثلاً رغم كونها امرأة وقديسة، تقتل بغير شفقة فارساً يبدد مقتنياته، ونراها تشل ثم تقتل سيدة نبيلة مذنبة لأنها أمرت فلاحيها بزراعة أرض يحوزها دير كونك (Conques)، أو فارساً قد سرق خمر الرهبان في قرية يمتلكها ديره. وكانت كذا عقوبات تُفسر بصفتها تجليات ٍ ملازمة (Immanente) للعدل الإلهي.

حاول أيضاً رجال الكنيسة، بالقصص هذه أن يرعبوا من يجادلون في حقوقهم. وكان الرهبان، سعياً منهم إلى التأثير على الجمهور، وإلى جعل الخشية تستحوذ على قلوب الفريق المخاصم، يحملون، حسب العادة، تمثال القديس أو ذخائره إلى الأراضي التي يُشكك في ملكيتها .لكي يقوم القديس ذاته بإحلال العدل ويثبت بجلاء حقوق الرهبان، أي حقوقه هو. وبوسعه أيضا أن يقوم أو يعاقب العمل الزائغ لمدافع عن الكنيسة: وفي العديد من الحالات المذكورة حسب الأصول، ينساق القديسون إلى أن يعاقبوا بالموت أسياداً علمانيين سبق لهم أن كلفوا بالذود عن ممتلكاتهم، أو محامين عن الأديرة قد جاروا، هم أيضاً ، على الأديرة ونهبوها بدلاً من الدفاع عن مصالحها. وإن براءات ذاك العصر تزودنا بأمثال عديدة جداً حول هذه الابتزازات.

يكشف لنا كتاب "عجائب القديس بُنواً" (Miracles de Saint-Bensit) التي تمتد قصصها على حقبة فسيحة (من عام ٨٢٠ إلى ١١١٤) أنّ مثل هذه التدخلات العنيفة لهذا القديس، والمرتبطة بالدفاع عن ممتلكات الدير حيال من ينهبونها ، تحتل مكانة هامة في مجمل الوثائق المدوّنة. وقد بلغت أوجها (أكثر من ٣٣٪ من التدخلات) مابين ٩٦٥ و١٠٠٨ ، وهي الفترة المتوافقة، بدقة مع جمعيات السلام الأولى التي تم تفحصها آنفاً ولابد أن تناط هذه الواقعة بنزعة متنامية، لدى الأسياد العلمانيين، إلى الجدل حول الممتلكات الكنسية، وهي نزعة تم التأكيد عليها ، علاوة على ذلك، في البراءات والمواثيق.

وكان القديس يتدخل شخصياً ، في غالبية الأوضاع، كيما يعاقب المذنب، أو يجرحه، أو يقتله. وتدخل القديس بُنوا أيضاً ضد المحاربين الذين يذودون عن ديره، حينما

يستفيد هؤلاء من موقعهم بقصد سلب خيراته. وعلى هذا المنوال، في الشطر الثاني من القرن العاشر قاصص هذا القديس بالموت اقطاعياً تابعاً للكنيسة: وكان الأقطاعي سيد قصر "سُوليّ" الذي راح "يسلب" أراضي الكنيسة. فظهر له ذات ليلة، مرتدياً ثياب راهب، وضربه بعصاه ضربة قاضية. وإن هذه "الاختلاسات" التي يعاقب عليها بغاية القساوة تبدو لنا، مع ذلك، اختلاسات معتدلة الأهمية: فهي تعني، على العموم، كرمة، بقرة، قليلاً من العلف...فكما نرى ، لا يبخل القديس في ممارسات الثأر وتدابيره.

يشير أندريه دوفلوري (André de Fleury)، مابين ١٠٠٨ و ١٠٤٣ إلى العديد من حالات العقوبات هذه. وفي جميع هذه الحالات تقريباً يصب جام غضبه على أسياد الجوار الذين يحاولون الاستحواذ على ممتلكاته. ومثل هذه القصص العجائبية تعزز تماماً النتائج التي خلصنا عليها سابقاً ، أعني نتائج مجامع السلام. فتدخلات القديس تأتي، نوعاً ما، داعمة حُرم جمعيات السلام.

إذن، توضح هذه القصص، كما تفعل مجامع السلام والحوليات، الصراع الأكبر الذي يمتد طوال القرنين ١٠ و١١   ويضع هذا الصراع الإقطاعات الكنسية في شجار مع الإقطاعات العلمانية في الجوار، ويتناول الأراضي، وملكية الكروم والطواحين والجسور، بل أيضاً الحق في إصدار الحكم، وإقامة المكوس، والاقتطاع، أو على نقيض ذلك، يتناول امتياز التملص من الضرائب والمكوس التي يسعى الأسياد العلمانيون إلى فرضها على سكان جميع الجوار، بما في ذلك على أراضي الكنيسة. فهرع الرهبان إلى التشهير   بهذه الأعراف الرديئة" التي تفلت منهم وتعارض " الأعراف الجيدة" وهاهنا إحدى عواقب التورط الاجتماعي والاقتصادي للكنائس والأديرة، في هذا "العالم" الذي تزعم الانفصال عنه.

أدّى، إذن، تدخل القديسين العنيف إلى قدسنة حقيقية للمعارك التي يخوضها مؤمنوهم، لمصلحة الكنائس.

العسكريون القديسون

على غرار غالبية الطوباويين، "فالعسكريون القديسون" ينالون تكريم الكنيسة: فهم شهداء نُفّذ فيهم حكم الإعدام إبان الإمبراطورية الرومانية المضطهدة، وفي غالب

الأحيان، لأنهم رفضوا التجنيد أو أقله، رفضوا استخدام الأسلحة. و البعض منهم لا يمتّون بصلة إلى الجيش. وإن موتهم وحده، وقد ألحقته بهم سيوف وثنية، أتاح اعتبارهم قديسين يحمون جيوشاً مسيحية تقاتل الوثنيين.

كانت غالبية هؤلاء العسكريين القديسين من منبت شرقي. ومع أن المشرق، كما يقال، ينبذ فكرة الحرب المقدسة(وهي فكرة يحسن، علاوة على ذلك، أن نعرفها تماماً قبل الاستمرار بهذا التأكيد). فهو يبجلهم بصفتهم حماة للجيوش الإمبراطورية. وإن هؤلاء القديسين طفقوا يمثلون على بيارق الجيوش البيزنطية، منذ القرن السابع. فالحرب على أعداء إمبراطورية الشرق الرومانية (وخاصة على الوثنيين) تم اعتبارها إذن حرباً تدعمها القوات السماوية. وهذا هو وضع "قديسين عسكريين" كمثل ديميتريوس، ثيودورس، ميركور، ولاسيما جورجيوس، ولاشك أن أصلهم شرقي، لكن حقيقتهم مشكوك فيها، وقد انتقل تكريمهم، بعد قليل إلى الغرب قبل تكريم زملائهم في الغرب.

القديس الذي نعرفه أكثر من الجميع في الغرب هو القديس جورج: ويقال إنه قد كان جندياً في سوريا، وقد غدا في حين وجيز بطل المسيحية على الإسلام. وهو يقتسم هذه الوظيفة مع القديس جاك [دوكومبوستيل] في إسبانيا. ففي عام ١٠٦٣، خلال القتال لاسترداد الأرض، وهو الذي شنه النورمنديون على المسلمين في صقلية (وفيما مضى كانت هذه الجزيرة بيزنطية، الأمر الذي بوسعه، دون شك، أن يشرح مزيتها) كان القديس جورج يقود الجيوش المسيحية.وقد شوهد، كما قد قيل، ممتطياً حصاناً أبيض، متقلداً بيده رمحاً يزدان بعلم أبيض يعلوه صليب متألق.

لابد أن نضيف إلى القديسين المذكورين آنفاً ، رئيس الملائكة القديس ميخائيل، الذي يبجله النورمنديون أيما تبجيل، منذ القرن العاشر، في جبل غارغانو، ثم في جبل القديس ميشيل: فهو الذي بات أحد المدافعين الأشداء عنهم. بيد أنه لا يحمي النورمنديين وحسب. فقد شوهد، مثلاً ، يحارب بجسارة مسلمي الغرب في إسبانيا. وحوالي عام ١٠٤١، حسب أندريه دوفلوري (André de Fleury)، حاول أربعة من الكونتات الكتلانيين أن يقضوا، بقوة السلاح، على غزوات المسلمين المتواترة، الذين راحوا ينهبون أراضيهم. وبصحبة ٥٠٠ من المحاربين وحسْب، صمموا على مهاجمة العدو المعزّز بقوة عشرين ألفاً من الرجال. ومن ثم، استولى القلق على المسيحيين:

فسعى برناردو بوزالو إلى تهدئة روعهم، وألقى عليهم خطاب "حرب مقدسة". فوعدهم بنصرة من القوات السماوية، بألفاظ قاطعة صريحة قائلاً إن العذراء مريم والقديس ميشيل والقديس بطرس يقاتلون إلى جانبهم. فكل واحد منهم سوف يجندل خمسة آلاف من الأعداء، فلن يبقى من بعد على المسيحيين إلا أن يطيحوا بخمسة آلاف من المسلمين الباقين. وبعد أن توطدت عزائمهم، انقض المسيحيون، وانتصروا.

إن العذراء مريم، كما حدث في معركة كوفادونغا (Covandonga)، تحولت هي أيضاً "جندياً مقدساً"، فنزلت إلى حلبة القتال لتناصر بنشاط المحاربين المسيحيين. وفي الحرب الصليبية الأولى، أقدم الأسقف أديمار، سفير البابا، على حمل بيرق كنيسة القديسة مريم في "بْوي"، بيرقاً مزداناً بجانبية محيا العذراء. وعلى هذه الشاكلة، تحولت العذراء مريم حامية لجيوش الصليبيين، فغدت، فيما بعد، إحدى القديسات الشفيعات للفروسية المسيحية، في القرن الثاني عشر.

ليست العذراء إلى جانب ذلك، القديسة الوحيدة التي أبدت تصرفاً حربياً فالقديسة فوا (Sainte Foy) التي سبق ذكر تدخلاتها والمتسمة بالعنف والتسلط"، حيال من يتعدون على ممتلكاتها، قد أسهمت أيضاً في المعارك لدرء العرب المسلمين في اسبانيا، وهنا أيضاً، عملت بصورة أساسية، ذوداً عن مصالحها المادية. ويروي برنارد دانجيه كيف أقدم سكان قرية في كاتالونيا - سعياً منهم إلى أن تحميهم القديسة من المسلمين الذين يتوخون نهب أراضيهم وتدميرها - على الالتزام بأداء أتاوة ذهبية سنوية، وبتسليمها عشر كل غنيمة يغنمونها من العدو. فسارع رهبان كونك وطلبوا أن تنقل إليهم راية القديسة التي سوف تؤازرهم على الظفر والنصر. وإذ تطمأن المسيحيون بوجود الراية هذه، وهي عربون حمايتها السماوية، هاجموا المسلمين العرب، فكسروا شوكتهم، وعادوا إلى ديارهم محملين بالغنائم، ومثلما تم الاتفاق، أدوا في الحال عشرها للقديسة فوا.

في هذا الصدد، يطرح مع ذلك سؤال: ترى هل النضال المسلح الذي يدعمه هؤلاء المؤمنون بالقديسة فوا، قد بات مقدساً لأن الأعداء "وثنيون"، أم لأن الأمر يعني الحفاظ على المصالح (الروحية منها والمادية) لهذه القديسة؟ وبعبارة أخرى، هل الحرب غدت مقدسنة بسبب "القداسة" المعلنة للقضية التي يدافع عنها، أم من جراء "شيطنة" الخصم المعادي؟ ففي أغلب الأحيان، يتعزز الحافزان، دون أن يستبعدا، كما تبدي ذلك هذه

الحادثة الغريبة التي رواها، عام ١٠٢٠، بيرناردانجيه: فقد كان هناك فارس قديم، بعد أن غدا راهباً، بل رئيس دير كوتك، احتفظ بحرص عند رأس سريره، بشكة سلاحه القديمة، شكة فارس، و لم يتلكأ في ارتدائها كيما يحارب "نهابي ديره. ولبث يرى هذا التصرف الحربي تصرفاً ورعاً جداً حتى انه مضى حتى الوعد بأمجاد الاستشهاد لكل من سيلقى حتفه في مثل تلك المعارك: وراح يؤكد أن لها من الاستحقاق ما هو أوفر من استحقاق الحرب عل الكافرين (رَ. النص ١٦، في آخر الكتاب).

انطلاقاً من كذا مقارنة، بمقدورنا الخلوص إلى نتيجتين هامتين:

١ حوالي عام ١٠٢، قَبل الحرب الصليبية بكثير، باتت الفكرة منتشرة، في بعض الأوساط الفروسية والرهبانية: فكرة أن الحرب على "الوثنيين" تمنح المحاربين الموتى أمجاد الشهادة وأكاليلها.

٢ وفي رأي رئيس الدير، كمثل رأي الراهب الذي حرر هذا النص، ليس القتال المسلح لأجل الكنائس وممتلكاتها، اقل استحقاقاً من الحرب على المسلمين: فبوسع هذا القتال أيضاً ، أن يهب أكاليل الشهادة وأمجادها.

لدينا هنا، مجمل لعدة عوامل رئيسية تسم حرباً مقدسة، داخل المسيحية وخارجها، على السواء.

القدسنة الليتورجية للمدافعين عن الكنائس

إن قدسنة الحرب وبعض المحاربين سلكت أيضاً في العصر ذاته، طريقاً أخرى: ألا وهي طريق الليتورجيا. وبادئ ذي بدء، تطبق القدسنة على الملوك، فمهمتهم تقوم على إحلال النظام والسلام، وعلى حماية الكنائس والمستضعفين. ثم شرعت القدسنة تنزلق إلى الأمراء، إبان تكوين الإمارات الأرضية، ثم إلى وكلاء الدعاوى، العاملين في الدفاع عن المؤسسات الكنسية، وأخيراً إلى الفرسان، وذلك حين حاولت الكنيسة أن تجعل الفروسية جمعاء تتشرب قيمَها.

تتويج الملوك المقدس

منذ القرن التاسع، وإبان الاحتفالات بتتويج ملوك الفرنجة في الغرب، كان يقوم المترئس الديني (وهو في العادة، رئيس الأساقفة) بتسليمه العاهل شتى الأشياء

[أي:ريغاليـا ، باللغة اللاتـينيـة: Regalia] التي ترمـز إلى سلطاته: التـاج، الصـولجان، السيـف، الخ... وخلال تقليده السيـف، رمز سلطته القضائيـة والقسرية، يشرع رئيس الأساقفة، أو الأسقف، بتلاوة ابتهالات وعبارات تبريك تذكر أحد الواجبات الهامة من الوظيفة الملكيـة: حمـاية البلاد والأهالي العُزل من السلاح، وخاصة حمـاية الأكليروس، وحماية الكنائس.

تُذكرُ هذه الوظيـفة العسكرية أيضاً بمزيد من الوضوح في الابتهالات التي تتلى على جيوش الملك المتأهبـة للقتـال، وبخاصـة إن كـان الأمر يعني قـتال الوثنيين. وإن التسليم العلني، في هذه المناسبات، لرايات القديسين الذين يحمون المملكة يستوجب تلاوة صلوات تلتمس حماية الله لهذه الجيوش. وعبارات كهذه نادرة قبل القرن العاشر، لكنها غدت أوفر عدداً منذ ذلك التاريخ، فهي تطالب بحماية الاقتدار الإلهي على من يمضون إلى قـتال "أعداء الكنيسـة"، وأحيانـاً ما يشار إليـهم اسمياً وهم من حيث الأهميـة الوثنيـون، ولاسيـما النورمانديون أو الدانمركيـون. ومع ذلك، لا تُذكر نُصْرة القديسين قبل القرن الحادي عشر. فعملهم المستقل يتطور انطلاقاً من ذلك القرن.

تنصيب المكلفين بالدعاوى

فيما بعد، انزلقت قدسنة المحاربين المقاتلين لأجل الكنائس إلى مستوى الأمراء. ولدينا بعض الآثار عن هذا الأمر، وخاصة في صدد إقليم الأكيتين.كما انزلقت أيضاً - بوسيلة بعض الابتهالات والتباريك المستمدة من التتويج الملكي - نحو أشخاص لهم من المقام ما هو أدنى رفعة وهم المكلفون بالدعاوى (Avoués).

إن انتقاء هؤلاء المكلفين أو المدافعين عن الكنائس يستدعي احتفالات للتنصيب، وهي أكثر بكثير من تولية مقطعين علمانيين زاخرة بالسمة الأخلاقية والدينية المفرطة. كان الشأن يخص، ففي نظرهم، بالتأكيد، القتال لأجل الكنيسة، لأجل دير، إذن لأجل قديس، وفي نهاية الأمر لأجل الله. فقدسنة وظيفتهم قد غدت ميسرة: ويعرب عنها بصلوات تلتمس حمايتها، بصلوات ترفع إلى الله أو إلى القديس الشفيع الذي سيخدمه الشخص العلماني المنصّب.

في حوزتنا كذا تنصيبات لمكلّفٍ بالدعوى أو "محارب كنيسة" ، وهي تشكل

شهادة ممتازة، يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر. ونحن هنا في صدد مخطوط لإقليم كنسي تابع لمدينة رانس (Koln 141) وهو يزودنا بالنص الكامل لمثل هذه الشعائر وسلوكياتها. ونجد فيه مجموعة من التبريكات العديدة التي ظلت، حتى ذاك الحين، مستخدمة في احتفالات مخصصة للملوك، بيد أنها بفضل بضعة تعديلات، تطبق هنا على هؤلاء الأشخاص.وكان الانزلاق متيسراً متى بقي الأمر خاصاً بعبارات تذكر واجب الملك لحماية الكنائس،حيث كان يُنتقى هؤلاء الأشخاص للنهوض بهذا الجانب من الوظيفة الملكية.

محاربون باتوا مقدّسين: Sanctifiés

الصليب والبيرق

أسهمت البيارق الكنسية في إصلاح الأخلاق وتهذيبها، وفي قدسنة المعارك التي يخوضها المحاربون وهم يلوحون بالبيارق. ولدينا علم بالكم الكثير من القصص التي تروي تدخلات عجائبية للقديسين، بقصد منحهم الظفر لمن يذودون عن مصالح ديرهم، وينضوون تحت راياتهم متقلدين أسلحة القتال.

رأينا ذلك في معرض ميليشيات بورج، أو راية القديسة فوا. وانتصر بيرق القديس بنوا، هو أيضاً، في ربوع ايطاليا، في منتصف القرن الحادي عشر، وقد مارس القديس "حكماً لله" رهيباً على زعيم الغزاة، وعلى محاربيه النورمنديين، وعثر على ١٥٠ منهم مقتولين. وفي فرنسا، مَنح بيرقُ القديس مارتان النصر لـ جوفروا مارتيل في معركة القديس مارتان - لو بو (Martin-le-Beau) عام ١٠٤٤: وبمؤازرة جيش صغير هزم، بلا مقاومة، جيش أبناء أودِس دوبلو الذين استحوذ عليهم بغتة الذعر والشلل. وروى البعض من المقهورين أن جميع محاربي جوفروا كانوا يبدون مرتدين ثياباً ذات بياض لماح: [فُحسبوا] جيشاً من القديسين....

إن تسليم سيد علماني راية أحد القديسين كان يُفهم على أنه إعلان "القداسة" ما يفعله. فلدينا هنا عامل هام لقدسنة بعض الحروب وبعض المحاربين، إلى جانب بضعة من الرموز الدينية الأخرى، على سبيل المثال، كالصليب، وهو علامة انتماء " لشعب الله"

بدءاً من القرن العاشر، يَمثُل الصليب أحياناً في الجيوش، على جانب بيارق القديسين والذخائر. وقد شهد أبون دوسان جرمان، قبل سنة ٨٩٧، على استخدام الصليب خلال حصار النورمنديين لمدينة باريس. ونجده مجدداً أيضاً في المعارك التي يتم خوضها في اسبانيا على المسلمين. وفي عام ١٠٥٨، وصف الكونت رامون بيرينغر الأول كمنتصر على مسلمي برشلونة: فكان يحمل في مقدمة جيشه صليب الظفر، على طريقة الإمبراطور قسطنطين، كذا روي لنا ذلك. فلا بد أن الأمر هنا يعني معارك على مسلمي اسبانيا، وسوف نعود لاحقا إلى هؤلاء. فبسببهم، تغدو قداسية (Sacralité) المعارك مضاعفة.

لا يحمي الصليب من "الوثنيين" وحسب، فهو يقدس أيضاً الذين يقاتلون مسيحيين آخرين، في سبيل كنيسة ما، كما نرى هذا في مدينة ميلانو (١٠٣٩) وكان سيدها الأسقف أريبير (Aribert). وقام الموالون للإمبراطور كونراد الثاني بغارة على المدينة. فسعى أريبير إلى بث الحماسة في قلوب المدافعين عنها، فألقى نوعاً من "خطاب لحرب مقدسة" قريبٍ نوعاً ما من خطاب الأسقف توربان في "نشيد رولان"، واعداً من يلقون حتفهم في القتال بوفاة يعتبرها "مجدية كمثل وفاة القديسين" وأمر أيضاً بصنع عربة تحمل صليباً صُوِّر عليه "الفادي" [السيد المسيح]، وذراعاه ممدودتان، مباركاً وحامياً جيشه. فالصليب هنا، على نحو جليّ، علامة لقدسنة الحرب. بيد أن العدو هنا ليس "الوثني - ولابد لنا من التشديد على هذا الأمر-: العدو هو جيش "الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة"! ودرجة القدسنة قد بلغت، رغم ذلك، مستوى سامياً جداً ولابد لها أن تتعزز أيضاً حين سيكون العدو "كافراً " من الكافرين.

قديسون، محاربون، شهداء

إن إشارة الصليب، بالأحرى، حبّذت النهوض بالقيمة الأيديولوجية للمعارك التي شنت على الوثنيين: فمن يموتون للدفاع عن المسيحية حيال الوثنيين (وهذه الفكرة اتخذت شكلها خلال القرن الحادي عشر) يغدون بذلك، تدريجياً ، مماثلين للشهداء.

ويُبدي هذا الانزلاق تطوراً عميقاً للذهنيات الدينية. فعلى غرار المعترفين [بإيمانهم]الأولين، يفقد هؤلاء المسيحيون حياتهم في سبيل إيمانهم، وقد قتلهم "أعداء

الصليب"، الوثنيون منهم أو المسيحيون المزيفون. لكن، في المرة هذه، ليس هؤلاء الشهداء ضحايا عزلاً من السلاح، إنما هم محاربون يلقون حتفهم وهم يقاتلون شاهرين سيوفهم. ومن الممكن أن يُغبّطوا فيغدوا "مطوبين سعداء"، وموضوعَ تعبد وصلاة، مشتركين، نوعاً ما، في الألوهية.

حدثت في انكلترا الحالة الأولى من هذا النوع قُبيل حلول سنة الألف. فالقديس إدمون، ملك محارب قد طوّب لأن الدانمركيين قتلوه بعد انكساره في حلبة المعركة. ولم يقتل وهو يقاتل: فقد أحضر الملكُ المغلوب أمام من تغلب عليه فأمر بإطلاق وابل من السهام عليه، كما كان ذلك، في ماضي الزمان، مصير القديس سيباستيان [ضابط شهيد روما في القرن ٣]

طُوّب أيضاً أولاف ملك النورويج من قبل أكليرُس بلده، بعد وفاته بقليل، عام ١٠٣٠ في هذه المرة، نحن أمام ملك محارب مات أثناء القتال، وكما يقال، شاهراً سلاحه بيديه. أما حياته، مع ذلك، فلم تكن البتّة مثالية، وحتى عقب اعتناقه الديانة المسيحية: فقد كان عنيفاً ، نزقاً ، غضوباً ، متبجحاً ، جشعاً ، زير نساء....ورغم هذا، جرت عجائب على قبره، عام ١٠٣٢، وصار قديساً في رأي شعبه وإكليرسه، لأسباب سياسية ودينية، في آن معاً وسبق له أن أرغم على الارتداد إلى الدين المسيحي، وبقوة السلاح، بعض الأقوام، وقد ظلوا حتى ذاك الحين يعبدون أوثانهم.

إن تطويب محارب ما تجديد في الكنيسة. ولكن، هل هو مدهش جداً في عصر، كما رأينا آنفاً ، يشترك فيه القديسون أنفسهم في المعارك على أعداء كاثوليكيين علمانيين، وبالأحرى على "وثنيين" ؟ وفي حوزتنا عدة أمثال على شاكلة هذه التداخلات الحربية. وكذلك، حسب قصة يرجع عهدها إلى قرابة عام الألف، قد يكون القديس بُنوا نزل من السماء في ثياب راهب كيما يقاتل النورمنديين، وهم، في عام ٨٧٨، يهاجمون ديره دوفلوري. وقال الكونت دوأوكسير (Auxerre)، زعيم المدافعين عنه، إنه رأى إلى جانبه هذا القديس وهو يجندل بعصاه العديد من الوثنيين. وفي ختام القرن العاشر، ثمة قصة عن معركة تاليير تروي كيف قام القديس شيفير المشار إليه بالعبارة "الشهيد المجيد" يظهر على حصان أبيض، مرتدياً شكة لامعة، ويقتل بإقدام آلافاً من النورمنديين النهابين. وفي سنة ٩١٥، ظهر القديس بطرس والقديس بولس،

هما أيضاً ، لكي ينصرا المحاربين الذين يذودون عن كنيسة روما من نهب مسلمي الغرب الكفرة وسلبهم.

هاهم الشهداء القديسون، المطوّبون لأنهم قتلوا فيما مضى دونما مقاومة من جراء أصناف العنف الوثني، يفدون الآن ليحاربوا "وثنيين" آخرين، إلى جانب محاربين يلوّحون بالسيوف عليهم. فقد شُرِّع الطريق بمصراعيه من اجل تشبيه شهداء الإيمان بمحاربين مسيحيين قد فقدوا حياتهم في المعركة تحت إشارة الصليب.

وتوفر لنا الحرب الصليبية الأولى عدة أمثال. والوضع الأوضح - وقد رواه عدة إخباريين، شاهدوا المعركة مباشرة - خاص بالمجابهة التي جرت عام ١٠٩٨، مابين جيوش الصليبيين وجيوش المحاربين المسلمين وزعيمهم كاربوكا، أتابك الموصل. وأكد محاربون مسيحيون كثر أنهم شاهدوا اندفاع طغمات القديسين السماوية، متقلدين شكاتهم اللامعة، ملوحين ببيارق بيضاء، وممتطين أحصنة بيضاء، لكي يقاتلوا إلى جانبهم. وكما قال البعض كان يقود هؤلاء الفرسان السماويين قديسون محاربون، ويصحبهم صليبيون، سبق أن قتلهم الأتراك. فقد عادوا على الأرض مع قديسي الفردوس لكي ينصروا رفاقهم القدماء الذين لبثوا على قيد الحياة.

تُرى هل بوسعنا أن نتصور انصهاراً أمثل لمفهومَين عن المحارب والقديس؟

وهل ثمة برهان أصح على تقبل ذهنيات ذاك الزمان الدينية، من فكرة حرب مقدسة تنعم باستحقاق الثواب؟

الفصل الحادي عشر

الحرب المقدسنة من البابا

البابوية، الإصلاح، تحرير الكنيسة

"علم لاهوت للتحرير"

درجت العادة على تسمية الحركة التي شهرها البابا غريغوار السابع " إصلاحاً غريغورياً " وقد هدفت هذه الحركة إلى "تحرير الكنيسة" من تسلط العلمانيين، وإلى تعزيز سلطة البابا الملكية في الكنيسة، وتأكيد سيادته على الملوك والأباطرة باسم تفوقه الروحي على الدنيوي. في واقع الأمر، إن هذا النزاع الذي نشب طوال سنوات كثيرة، بين البابا غريغوار السابع والإمبراطور هنري الرابع، هذا النزاع المعروف باسم "شجار التنصيبات"، سبق أن بدأ قبل البابا غريغوار، واستمر بعده. وقد احتل من الزمان نصف قرن، ولما ينته في ختام القرن الحادي عشر، وهو ختام دراستنا هذه. وساهم هذا النزاع بمقدار هام في قدسنة النضالات التي يتم خوضها في سبيل الكنيسة.

هذه القدسنة ثلاثية: تلتحق الأولى بالقدسنة التي لقيناها في معرض الدفاع عن الكنائس والأديرة: فعلى غرار الإقطاعات الكنسية الأخرى، كانت كنيسة روما تحوز، في الواقع، بعض الأطيان، والممتلكات، والحقوق، والامتيازات، وقد لبثت الإقطاعات المجاورة تطمع فيها. وكان شأن المحاربين الذين يذودون عنها يسمو معنوياً وأخلاقياً في معاركهم، ولاسيما لأجل كنيسة لها ذاك المقدار من الهيبة والنفوذ.

وارتبطت القدسنة الثانية بالرتبة الرئاسية الأولى المعترف بها لأسقف روما على جميع أساقفة الغرب الآخرين. وقامت القطيعة المتنامية مابين العالم اللاتيني والعالم اليوناني، بتعزيز هذه الرئاسة البابوية في الغرب. وأفضى الأمر بالبابا، تدريجياً ، إلى انه قد خلط الجزء بالكل: فماثل كنيسة روما بالكنيسة جمعاء دون أية إضافة، كما

مـاثل البابـوية بالمسيحـيـة. ومن ثم، اختلطت حمـاية أراضي البـابا، و"تراث القديس بطرس"، في الكثير من الأذهان، بالدفاع عن المسيحية، بل بالديانة المسيحية والإيمان.

أما الثـالثة فـقد نجمت عن الاختـلاط، المسـتمر في ذاك العـصر، مـابين الروحي والدنيوي، في أقطار الإسلام كما في المسيحية. ولدينا هنا مضماران قد تعلم الغربيون (ولعلهم وحدهم!) في أيامنا هذه أن يميزوهما، بصورة طبـيـعـيـة جداً ، لشـدة مـا هم متشربون بتقليد علماني، ومنذ زمنٍ ليس ببعيد، ولاسيما في فرنسا [عام ١٩٠٥]، بفصل جذري للكنيسة عن الدولة. فـالناس في العـصـور الوسطى، وخـاصـة في ذاك التاريخ، ما كانوا يُقيّمون البتة هذا التمييز. ومن ثم، على سبيل المثال فإن الانصهار (أو بالحري الاختلاط) مابين القوانين الدينية والقوانين العلمانية، وهو انصهار مشترك في العصر الوسيط، قد زال في الغرب، بيد انه يلبث حتى أيامنا هذه، بل يتعزز في الآونة الحاضرة، في كثير من البلدان الإسلامية.

نجمت عن ذلك أيضاً ، في الغرب القروسطي، المطالبة بالتفوق السياسي رئاسياً بل التفوق القانوني، للبابوية على الغرب المسيحي. ويدعم هذا اللبْسُ قدسنة المعارك التي تخاض لجلب النفع المشترك لكل من الكنائس، وروما، و"الكنيسة"، والبـابوية، والدين، والإيمان. ونتج عن ذلك، أخيراً ، من أجل إنجاز "تحرير الكنيسـة" إنجازاً حسناً، أن البـاباوات لم يتـصـوروا فـصل المضـمـارين: العلمـاني والكنسي، بـل بالأحـرى لم يتصوروا عكس هذه السيطرة. مؤكدين أولوية رئاسة البابا على الملوك والأباطرة.

إن "لاهوت التحرير"، الذي يمتدحه الباباوات المصلحون، يؤول، بذلك، إلى التـأكيد أنه من الممكن تسـمـيـة ذلك "لاهوت السـيطرة"، لاهوتـاً يضـاف إليـه نوع من النزعـة الانوية[١] السياسية/الدينية الجذرية: فجميع خصوم البابويةِ والإصلاحاتِ التي تلقنها، وخاصة عقب عام ١٠٥٠، تم اعتبارهم أعداء لله، وبصفتهم هذه قد باتوا مشيطنين، وكان الظن في أنهم مرتبطون بالمسـيح الدجال. ويغدو تقديس المعارك التي تشن في سبيل القضية البابوية تقديساً مضاعفاً فهو يَردُ، في آن معاً ، من شيطنة خصومها، ومن قدسنة البابوية.

فكرة الحرب المقدسة، وقد ظلت حتى ذاك الوضع مشتتة وكامنة، وجدت في ذاك الحين أرضية مواتية لازدهارها. فتغذت وتعززت من هذين العاملين المقترنين - تمجيد

---

(١)- الأنَوية : جعل الذات (الأنا) محوراً فريداً لكل شيء [المترجم]

البابوية وشيطنة خصومها – في حين كان الأمر يعني معارك داخل المسيحية، وقام بها مسيحيون على مسيحيين سواهم، وقد اعُتبروا كفاراً وبالطبع، لن يكون بوسع هذه الفكرة إلا أن تنمو أيضاً متى سينجز هذا النضال على "الوثنيين" أو "الكافرين" بالمعنى المقبول، عموماً ، لهذه اللفظة، كما سنرى ذلك في الفصل المقبل.

" حرب مقدسة " لأجل البابوية؟

ليس أسقف روما الرئيس الروحي لمسيحيي الغرب وحسب بل هو أيضاً السيد الزمني للأراضي، أي "ميراث القديس بطرس"، الذي يسعى إلى توسيع نطاقها. وفي هذا السعي، إصطدم بالكثير من الأمراء والأسياد المحليين. فكان وضعه عسيراً لاسيما وإن الأراضي المطموع فيها منوطة أحياناً بالإمبراطورية البيزنطية، وأحياناً أخرى بالإمبراطورية الجرمانية، وكلتاهما بعيدتان، وغالباً ما تكونان معنيتين بأخطار أخرى أشد إلحاحاً ، أو تلبثان قاصرتين عن التدخل.

ظلت هذه الأراضي مهددة أحياناً، أو حتى بعدَ أن احتلها مسلمو الغرب أو النورمنديون. وهؤلاء النورمنديون، الفرسان المسيحيون البواسل، (وذرية تانكريد دو هوثفيل (Tancréde de Hauteville)، نبيل صغير من إقليم كوتنتان)، قد تم استقدامهم، بادئ الأمر، بصفتهم جنوداً مرتزقين لدى أمراء يونانيين. لكنهم، لم يلبثوا أن تصرفوا لمصلحتهم الخاصة: فخلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، باشروا مناهضة اليونانيين ثم المسلمين، فاستولوا على جنوب ايطاليا (بُوي، كالابريا) ثم صقلية. ودخلوا، وهم يفعلون ذلك، في نزاع أيضاً مع البابا: فحاول، أولاً ، أن يقهرهم، قبل القبول بهم بصفتهم مقطعين تابعين له ومدافعين عنه: ولم يكن الأمر بمعزل عن المخاطر. وفي جميع هذه الصراعات، لأجل كسب الوقت لأراض إيطالية، ندرك لجوء البابا إلى عناصر دينية لبثت تهدف إلى قدسنة الحرب التي يتم خوضها لصالح السدّة الرسولية.

الدفاع عن الاقطاعة البابوية بواسطة جنود القديس بطرس: "شهداء" تشيفيتاته (Civitate) (عام ١٠٥٣)

سعت كنيسة روما إلى تأمين دفاعها. وبقي، تحت تصرفها، كمثل جميع اقطاعات ذاك العصر، وحدات عسكرية من مقطعيها ومن تابعيها المباشرين. وبصورة جلية، لم يكن ذلك كافياً فغالباً ما استنجد البابا إذن، كما رأينا سالفاً ، بالمدافعين عنه الطبيعيّين: الإمبراطور الجرماني، فهو المكلف بحماية كنيسة روما، وغالباً ما ينزل إلى ايطاليا ليعيد الأمور إلى نصابها. غير أن المسافات شاسعة جداً ، وغالباً جداً ما اتخذ العون (وقد فات الأوان) شكل انتقام أو ترهيب.

سعياً إلى المزيد من الفعالية، في الدفاع عن مصالح الكرسي الرسولي لصد النورمنديين، حصل ليون التاسع، من الإمبراطور هنري الثالث، على وحدة من الجنود الألمانيين. وقاد البابا بذاته جيشه في مقاطعة بْوي، حيث جابه جيشه الجنود النورمنديين في تشيقيتاته (١٨ حزيران/يونيو سنة ١٠٥٣): فانتصر النورمنديون: وقُهِرَ ليون التاسع، فذهبوا به إلى مدينة بينيفان، وكان في منزله ضيفاً وأسيراً. لكنه عاد إلى روما بموافقة المنتصرين عليه النورمنيديين، في آذار/مارس لعام ١٠٥٤، وتوفي بعد إخفاقه بقليل.

تشكل هذه الحادثة معلماً هاماً على الطريق المؤدي إلى إعداد مفهوم الحرب المقدسة في ربوع الغرب المسيحي. لابد أن ليون التاسع، قبل وفاته، قد أكد عل الفكرة القائلة بأن جنود القديس بطرس (Milites sancta Petri)، المحاربين في سبيل البابا (وهو الذي ُطوب باكراً جداً) قد ماتوا شهداء. ووضح العديد من المؤلفين الكنسيين القيمة المعنوية الأخلاقية والثوابية لمعركتهم، وذكروا المكافآت السماوية المرتبطة بكفاحهم. وحسب قول بونيزو ده سوتري (Bonizo de Sutri)، نحو سنة ١٠٨٦ ، فقد أشار الله، بالكثير من العلامات إلى أنه يحب كثيراً هؤلاء الأبطال، الذين لقوا حتفهم في معركة لصالح الحق" وكما أكد الله على ذلك، رأى أنهم جديرون بالمثول مابين القديسين. أما برونو ده سيغني (Bruno de Segni)، حوالي عام ١٠٩٠ ، فقد أسف لما حدث، ولم يوافق على الدور الشخصي الذي قام به البابا في هذا الاشتباك المسلح، بيد أنه اندهش، رغم ما حدث، من هزيمة محاربيه وانكسارهم، ولم يتردد في تسميتهم

"جنود المسيح" أو "جيش القديسين" وأكد هو أيضاً ، على صفتهم كشهداء ارتقوا إلى الفردوس بنتيجة صدق قضيتهم التي ذادوا عنها ، وماتوا في سبيلها.

مابين ١٠٦٠ و ١٠٧٠ ، طفق كثيرٌ من المؤلفين يحررون "سيرة" لحياة القديس ليونً، وقد عُرفت لهذه السيرة روايات شتى. وألح هؤلاء المؤلفون على هذا التمجيد السماوي لمحاربين قضوا نحبهم ذوداً عن البابا في تشيفيتاته. وسعياً منهم إلى البرهنة على رأيهم، أضافوا أن البابا قد وُهب، قبل وفاته، رؤيا مشجعة: فقد تعرّف عليهم مابين الشهداء، مرتدين ثياباً وهاجة، حاملين أكاليل الاستشهاد، متوّجين بغار المجد والظفر، (رَ. النص رقم ١٧، في آخر الكتاب).

إن هذه القصص العديدة الخاصة بمعركة تشيفيتاته غزيرة الدلالة والمغزى، حول تطور الذهنيات حيال الحرب.و لربما، علاوة على هذا أيضاً ، ثمة مرجعيات متواترة أعطيت لهذه الحادثة من قبل علماء بقوانين الكنيسة، وذلك منذ نهاية القرن الحادي عشر، بقصد تبريرهم حق الكنيسة في استخدام القوة المسلحة. وبيّنوا كم أتقنت البابوية، في ذاك التاريخ، قدسنة القتال المنجز من اجلها ، وتقديس من يفقدون حياتهم في هذا النوع من الحروب ذوداً عن الكنيسة، أي، هنا ، عن السدّة الرسولية.

بواسطة مُقطعي البابا المباشرين

تسبّب الإخفاق العسكري الذي مني به البابا في تشيفيتاته، عام ١٠٥٣، بحثٍّ نيقولاس الثاني، فيما بعد ببضعة أعوام، على تغيير سياسته جذرياً، فعقد حلفاً مع النورمنديين. أما البابا ، إذ عجز عن قهرهم وعن دحرهم من أراضيه التي يحتلونها على حساب الإرث" الذي يطالب به الكرسي الرسولي، فقد انقاد إلى التعامل معهم والمصادقة على الأمر الواقع. لكنه جعلهم يقبلون، من حيث الحق وضعهم "كمقطعين منتمين" إلى "السيد البابا" فيما يخص الأراضي التي احتلوها. وفي سنة ١٠٥٩ ، بمدينة ميلفي، جعل نيقولا الثاني روبير غيسكار النورمندي يؤدي قسم التنصيب فيما يخص هذه المناطق التي اعتبرها البابا منوطة بسلطته الزمنية، بما في ذلك الأراضي التي سوف يحتلها النورمنديون على حساب المسلمين، في المرة هذه. ووعد روبير (Robert Guiscard) النورمندي أن يقدم النصرة للبابا ، مع جيوشه كلها ،

ليذود عن كنيسة روما حيالَ كل معتدٍ. وقد كُرر هذا القسم، المتميز بسمات المقطعة الجلية، أمام البابا غريغوار السابع عام ١٠٨٠، ولكن مع بعض من التعديلات الزهيدة. ونجد الألفاظ نفسها مكررة تقريباً في قسم الوفاء الذي أقسمه ريشار دوكابو (Richard de Capoue) للبابا غريغوار السابع، عام ١٠٧٣

قام البابا، في هذه المناسبات، بتنازله، تنازلاً مرجحاً جداً، لمقطعيه المباشرين، عن بيرق القديس بطرس، الذي يقدسن قتالهم، كما سبق أن رأينا هذا آنفاً، في معرض رايات الشفعاء القديسين. ولكن هنا، باتت القدسنة على المزيد من القوة بكثير: فلسنا في شأن قديس عادي، إن صح القول هذا، بل في صدد القديس بطرس، شفيع كنيسة روما، "هامة الرسل"، بَوّاب الفردوس السماوي.

إضافة إلى ذلك، تتيح هذه الصفة الأخيرة، بكثيرٍ من السهولة، أن تجعلنا نستشف مكافآت روحية لمن قد يموتون لأجل نائب القديس بطرس، مقاتلين على هذه الأرض. ونرى هذا تماماً لدى الأشخاص الذين يدعون "الأوفياء للقديس بطرس"، وغالباً ما كان يدعوهم البابا غريغوار السابع إلى نجدته في شتى المعارك التي خاضها على "أعداء الكنيسة": أي أعداء روما وإصلاحها، ومنشآتها الكنسية أو الدُنيوية.

مُخلصون أو مُقطعون

دون أن يُمضيَ البابا غريغوار السابع عزمه بأن يجعل جميع الممالك في تبعية إقطاعية حيال الكرسي الرسولي، فقد أكد تماماً نوعاً من السيادة المطلقة على بضع من هذه الممالك، ومنها، على سبيل المثال، ممالك المجر والدنمرك وبولونيا، وحتى روسيا، إلى جانب إسبانيا (سنعود إليها فيما بعد) ولربما أيضاً على انكلترا، رغم أن الوضع هذا ظل غالباً موضعَ جدل واعتراض.

من الثابت أن حالة انكلترا أدت إلى تفسيرات متباينة. فخلال عام ١٠٦٦، فيما كان غيوم يتأهب لاجتياح الجزيرة لكي يستحوذ على المملكة التي، كما كان يقول، تركها له ادوارد ميراثاً، وجادله فيها عندئذٍ هارولد، "المارق"، فقد سبق للبابا أن أرسل إليه راية بابوية. وكما هو مرجح، لابد أن نرى في هذا التصرف علامة تضمن، معنوياً، حق المؤسسة الحقيقي فقط. وإن غزو انكلترا لا يغدو، بسبب ذلك، حرباً مقدسة

حقيقية، ولا تصير انكلترا منطقة نفوذ للسدة الرسولية. و لربما، لهذا السبب، وجد المحاربون النورمنديون أنفسهم، عقب انتصارهم في هاستينغز، مضطرين إلى التوبة كما كان العرف يقضي في ذاك الزمن، حسب عدة طقوس للتوبة، بالنسبة إلى "حالات قتل الناس التي ارتكبها الجنود المقاتلون في ساحات المعارك بأمر من رؤسائهم، فاعلين ذلك باسم سلطة علمانية شرعية.

التصدي لـ "أعداء الكنيسة" الأوفياء للقديس بطرس

في رأي غريغوار، ليست السيادة المطلقة من الصنف الإقطاعي إلا صيغة من صيغ الإعراب عن هذه التبعية المستحقة له. فهو يطالب بها، خاصة، الإمبراطور والملوك باسم السلطة الروحية التي يتولاها من الله ومن القديس بطرس. وحينما خاطب البابا أمراء فرنسا، مثلاً ، طالباً نصرتهم، لا بصفة تبعيتهم من حيث الإقطاعة (وهي غير موجودة)، ولكن من حيث إيمانهم ووفاؤهم للكنيسة، إذن فقد رأى ذلك من حيث وفاؤهم للبابا وهو رأس الكنيسة.

إن المشروع البابوي "لتحرير الكنيسة" من تسلط القوى العلمانية، ينطوي أيضاً حسب اعتقاده، على "إعادة احتلال مسيحي"، أوسع عمومية، وعلى النضال بجميع الوسائل، ضد الهرطوقيين، والمنشقين، واتباع السيمونية: [بيع أو شراء الأشياء الروحية]، أنصار الدعارة. غير أن برنامجاً كهذا كان سيصدم مصالح الملوك والأسياد العلمانيين، فيؤدي إلى مجابهات حتمية مع الأمراء، داخل المسيحية. كما ظل يتضمن أيضاً الحماية المسلحة لأراضي القديس بطرس في ايطاليا، وإعادة احتلال الأراضي التي اجتاحها المسلمون، كما سنرى هذا لاحقاً

كان الأمراء والملوك الذين يؤازرون البابا في شتى النزاعات هذه، يدعون "أوفياء للقديس بطرس" .(Fideles Sancti Petri) وتهبهم رعايةُ السدّة الرسولية الوعدَ بالحماية المادية في الحياة الدنيوية، وثوابات روحية في دار الآخرة. أما البابا، فكان ينتظر منهم، بالمقابل، خدمة قد ترتدي شكل عون عسكري، وتزوّده بوحدات مسلحة لمكافحة خصومه الذين يماثلهم "بأعداء الله" ومن ثم فقد باتوا مشيطنين، الأمر الذي رفع، في آن، شأن هؤلاء الذين يقاتلون بأسلحتهم.

وخلال مراسلة غريغوار السابع الغزيرة مع "المخلصين" له، فإن هذه "الخدمة" الواجبة للكرسي الرسولي، غالباً ما ورد ذكرها في هذه المراسلة. وانطوت هذه الخدمة بوضوح، في العديد من الحالات، على فكرة الإسهام المسلح المعدّ للذود عن تراث القديس بطرس أو لاستعادته. ومن الممكن أيضاً أن تنطبق هذه الخدمة على نضال هؤلاء الأمراء المسلح حيال الهرطوقيين والمنشقين في أراضيهم، وهي ألفاظ تشير، بصورة عامة، إلى جميع المناوئين للإصلاح.

في الأيدولوجيا ذات الدلالة الإضافية القوية التي طورها البابا غريغوار، لبث الخيار إذن واضحاً فثمة الله، والمسيح، والقديس بطرس، والكرسي الرسولي وأتباعه من جهة، ومن الجهة الأخرى، قوى الشر، قوى الشيطان. والمسيح الدجال والمتشددون له، والهرطوقيون، والمنشقون، والكافرون، والوثنيون. وإن معركة الأولين تغدو بذلك معركة مقدسنة، أما معركة الآخرين فهي معركة مشيطنة.

في هذه الحال، لسنا فقط في صدد معارك روحية، ولا مساجلات كلامية بالعمل القانوني أو الدبلوماسي، بل نحن في صدد تداخلات تقتضي استخدام القوة المسلحة التي هي بهذا الأمر نفسه، ممدوحة حتى بلوغها القدسنة في بعض من الحالات القصوى، وهي التي ترتدي أهمية في رأي البابا. وهاهي الحرب المقدسة تتقدم بخطوات واسعة في ظل بابويته.

من " جنود القديس بطرس " إلى " جنود المسيح"

في مراسلاته الكثيرة، وقد تم الحفاظ عليها بكاملها تقريباً ، غالباً ما استخدم البابا غريغوار، كما فعل فيما مضى القديس بولس (لكن بمعنى آخر تماماً)، صورة المهنة العسكرية، بقصد توضيحه موضوعاً ظل عزيزاً على قلبه: فقد امتدح جنود هذا العالم، لا بسبب مهنتهم بذاتها (فهو يدينها أحياناً بقسوة)، بل بسبب الوفاء الذي يبرهنون عليه في خدمة سيدهم. وفي هذا الوفاء، ينبغي عليهم أداء خدمة المثل الصالح إلى جميع المؤمنين: فهم، في واقع الأمر، يخدمون "ربَّ عملهم" الدنيوي لقاء أجر زهيد، ومكافآت احتمالية، مجازفين بان يفقدوا، في آن واحد، حياتهم الراهنة وحياتهم الأبدية في معارك تلفّها الشكوك. ورغم هذا، فهم أوفر وفاء وتضحية - كما ذكر البابا

مندهشاً - مما هم عليه جنود القديس بطرس حيال الشخص الذي يجندهم ليقاتلوا القتال الحق، القتال الذي لا يجازفون فيه، إذن، بفقدان أنفسهم، والذي يوفر لهم، علاوة على ذلك، أجراً أفضل بكثير، وثوابات ثرية وأكيدة، وأبدية.

يُترجم الوعدُ المتكرر بهذه المكافآت الروحية، في دار البقاء، إرادة عصيّة على المناقشة، فهي إرادة تقييم مقدس للحرب التي تشن لأجل القضية البابوية. وتنجم هذه الثوابات المذكورة، بصورة طبيعية جداً ، من صفة السيد الذي يُخدَم: وهو القديس بطرس، حارس باب الفردوس السماوي، وهو المؤهل أكثر من جميع القديسين لتوزيع الثوابات هذه. وباسمه، يعد البابا إذن بأن من يقاتلون لأجله (ويطلق عليهم اسم "جنود القديس بطرس" ، وحتى أحياناً "جنود المسيح" طبقاً للتماثل المذكور آنفاً) بوسعهم الاعتماد على دعمه فهو سيستقبلهم، عند موتهم، في رحاب المجد الأبدي. وكما يؤكد غريغوار، هذا هو وضع الذين يناضلون في ألمانيا ضد الملك المتمرد ، وفي فرنسا ضد الأكليروس السيموني [اتباع السيمونية] ، وفي ايطاليا ضد الهرطوقيين والمنشقين: فهؤلاء المحاربون جميعاً يشاركون في حرب الله العادلة على تسلط "الشرير

إن شيطنة أعداء السدة الرسولية، مهما كانوا ، هي إذن شيطنة عامة ومنتظمة. ويعتبر غريغوار، من واجبه، أن يكافح هؤلاء الأعداء، بجميع الوسائل (Modis omnibus) بقصد تحقيق برنامجه، أي: تحرير الكنيسة من أعدائها الكثيرين، وجميعهم خاضعون لعدو واحد وهو الشيطان بذاته، عدو الإنسانية بمجملها: ومنذ فجر الأزمنة كلها ، يحث الشيطان على التمرد ، والتفرقة، والعصيان، وهي جذور الإثم بعينها. ومن ثم، هناك ضرورة لمحاربة المنشقين وضرورة لأجل وحدة الكنيسة.

لكن هذه الوحدة باتت منقطعة، قبل ١٠٥٦ ببضعة أعوام: فكنيسة الشرق تبتعد عن الغرب، (أو ترى: هل الأمر عكس هذا؟) ومع ذلك، لم يتم بعد ترسيخ أي شيء. ومن ثم، فإن غريغوار لم يفقد الأمل في إعادة "الوفاق" مابين الكنيستين الشرقية والغربية، فلا شيء يفصلهما فصلاً أساسياً على الصعيد العقائدي. وبالطبع، لا يتصور البابا هذه الوحدة إلا بشكل واحد ممكن: عودة الخراف الضالة إلى الحظيرة، أي إعادة اتحاد كنيسة الشرق في أحضان الكنيسة الرومانية، في ظل صولجان البابوية وقيادتها.

إلا أن البابا أعرب، عدة مرات، عن بعض التشاؤم حول هذا الوفاق. ففي رسالة إلى رئيس دير كلوني (٢٢ كانون الثاني/يناير ١٠٧٥) يتشكى البابا من أن كنيسة في الشرق "بحَثٍّ مِن الشيطان"، قد انفصلت عن إيمان الكنيسة في الغرب. وكما وضّح هذا الأمر، فالشيطان لعب وربح بذلك على المضمارين في الشرق: فقد قتل "جسدياً " المسيحيين، بذراع الأتراك، وقتلهم روحياً ، بانشقاق الكنيسة الشرقية. وهو هنا، كما في المكان الآخر، العدو القديم بذاته الذي هاجم الكنيسة وقاد أيضاً هؤلاء الأعداء الآخرين، ألا وهم رجال الكنيسة النجسون، أتباع المذهب السيموني، الهرطوقيون، المنشقون. اليهود، الوثنيون. إن التصدي لهؤلاء جميعاً، بالنضال في سبيل الله، له قداسة وثوابات منوطة بجميع هذا التصرف.

" جنود المسيح " ضد المنشقين

حسب رأي غريغوار هكذا يعمل عدو الجنس البشري، وحتى في داخل الكنيسة. ويسعى، في البداية، إلى إفساد زعماء معسكر الله، أي رجال الدين والرهبان، الذين ينبغي عليهم أن يظلوا، مبدئياً ، المثال الصالح. فإن استرداد المسيحية الشاملة، بكل وجوهها، كما يتصوره البابا، يترتب عليه إذن أن يبدأ بإزالة الأكليروس الفاسد الذي يماثله بجيش حقيقي من الخونة، بنوع من الطابور الخامس الذي تسلل داخل معسكر الله.

هذا النضال الداخلي ضد الأكليروس السيموني المتسّري الداعر، هو إذن، وعلى سبيل النتائج، نضال مقدسن بوضوح، كما نرى ذلك في مثل مقنع، مثل رابطة باتاريا (Pataria) في ميلانو [رابطة أسست بمدية ميلانو في القرن ١١، لأجل إصلاح الأكليرس] والأمر هنا على غاية من الدلالة والمغزى، وأحد المعالم الجديدة على الطريق المؤدية إلى مفهوم الحرب المقدسة. وهنا أيضاً ، لسنا فقط في شأن إعادة الناس إلى الإيمان بقوة الحجج والبراهين، ولا أيضاً بأصناف من الضغط على الصعيد المعنوي أو صعيد العقوبات. فهذه الحركة التي دعمها الباباوات في البداية، أي باباوات الإصلاح، تكافح، حقاً، لا بالتبشير فحسب، بل أيضاً بالأسلحة، أتباع الأكليرس بمدينة ميلانو، وقد رآه البابا سيمونيّاً وفاسداً وحوالي سنة ١٠٧٠، منح اليكساندر الثاني أحد أركانه، وكان فارساً يدعى إرليمبو (Erlembaud)، راية القديس بطرس: وهاهنا سمة أولى لقدسنة كفاحه المسلح.

وهناك سمات أخرى: فالمفردات المستخدمة في كتابات البابا ومشايعيه، بقصد الإشارة إلى إرليمبو، تبين أنه لابد من الإمعان والتوغل في هذا المنحى. فإن لاندولف دوميلان (Landolf de Milan) (مع أنه مُعاد لرابطة ميلانو، "باتاريا"، وكذلك للمدعو إرليمبو) روى كيف قام رؤساء هذا الحزب البابوي بدعوته إلى خدمة الكنيسة الرومانية. لكن الألفاظ التي يستخدمها تمهد الطريق للألفاظ التي استخدمها أوربانوس الثاني، فيما بعد بخمسة وعشرين عاماً، في خطابه بمدينة كليرمون. فقد حثت، كما كتب الراوي، هذا "الجندي من العالم الدنيوي" على أن يتحول جندياً جم البسالة لله و للكنيسة الكاثوليكية"

لسنا هنا في صدد تسمية ابتكرها عدو لرابطة "باتاريا" (Pataria) من باب التهكم أو السخرية. فإن برتولد (المناصر لـ إرليمبو) قد أكد على هذا التعيين. فقد أطلق عليه اسم: "بطل المسيح، محارب في سبيل الحق والإيمان"، "جندي الملك الأسمى، ومدافع عن الإيمان المقدس" وبونيزو دو سوتري، هو أيضاً محبذ لـ "باتاريا"، رأى فيه "جندي الله"، مقاتلاً من أجل العدل، مناهضا لمؤامرات الشيطان، محارباً "يخوض حرب الرب" (Bellum domini) وهذه عبارة مستقاة من كتاب العهد القديم. فقد باتت فكرة الحرب المقدسة غير بعيدة.

لم يكن البابا غريغوار السابع مديناً لأحد في هذا الشأن. ففي رسالة، بتاريخ ١٣ تشرين الأول /أكتوبر لعام ١٠٧٣، طلب من أسقف أكيّ (Acqui) أن يسدي كل العون الممكن لـ إرليمبو الذي وصفه بالكلمات "جندي المسيح، مقدام صنديد"، وفي اليوم ذاته، بعث إلى أسقف بافي (Pavie) برسالة أخرى طالباً منه أيضاً أن يؤازر بكل قدرته إرليمبو في إنجاز مهمته، في "حرب الله هذه التي يخوضها على أعداء الكنيسة"

لابد أن نولي انتباهاً شديداً لهذا الاستخدام المفرداتي. فهو ينمّ، في الواقع، عن قدسنة حقيقية وعميقة جداً للمحاربين الذين يكافحون في سبيل البابوية. ويشهد على هذا تطور الألفاظ الدلالي: فهيّا بنا، إذن، نذكّر بأن الكلمات جنود الله أو "جنود المسيح" كانت تدل في البداية، على جميع المسيحيين، ولاسيما الشهداء المنزهين عن العنف، وذلك في عصر الكنيسة البدائية. فاستخدام هذه الألفاظ العسكرية بقصد توضيح قتالهم السلمي ينبغي ألا يخدعنا: فقد لبث معداً للتشديد على الطاعة،

والوفاء، والانضباط، لدى المسيحيين في هذا النضال الروحاني تماماً فإن المسيحيين الأوائل "كانوا يخدمون" المسيح، لا الأصنام، وملكوت الله، لا ممالك العالم. وظلوا "مناضلين" ، لكن، لم يكونوا "عساكر محترفين".

في عصر ما بعد الإمبراطور قسطنطين، طفق التعبير يطبق على الأكليرس وحده، والكهنة، ثم وبالمزيد من الخصوصية، على الرهبان، فقد كانوا جنود الإيمان، يقومون، لأجل البشر وفي سبيل الله بكفاح روحي، مجابهين قوى الشيطان بسلاح الصلاة وحده. وهنا أيضاً ، نحن في صدد كفاح سلمي يقتضي التقشف، والشجاعة، والتفاني، والنظام. ومن ثم، بدأ اللجوء التلقائي إلى هذه الألفاظ المستمدة من المفردات العسكرية، على غرار ما فعل القديس بولس. فهذا الرسول القديس، سبق له أن شبّه، في رسائله، الحياة المسيحية (التي كان يعني بها حياة جميع المؤمنين، لا حياة "الأكليرس") بكفاح جُواني على قوى الشر الخفية.

بعد عام ١٠٩٥ ، بالمقابل، سوف تشير عبارة "جنود المسيح" إلى الصليبيين، المؤمنين الموسومين بالصليب [Cruce Signati] في حرب، هي هذه المرة، حقيقية جداً وملموسة، تمضي بهم إلى معارك دامية. وبعد بضع سنوات، طبق أخيراً القديس برنار العبارة ذاتها على الهيكليين [جنود هيكل الرب] ، أي الفرقة الدينية العسكرية التي حاولت - في اتحاد لا طبيعي - أن تجمع كل وجوه التعبير بغية أن تجعل من جنود المسيح هؤلاء، مسيحيين، ورهباناً ، وجنوداً ، في آن واحد.

نحن إذن هنا ، لدى غريغوار السابع، في تواجد "حلقة وسطى" ثمينة، خلال التطور الدلالي [للألفاظ] ، بل أيضاً خلال تطور فكرة الحرب المقدسة التي أدت إلى الحرب الصليبية.

ومن ثم، فإن وضع إيرليمبو ورابطة باتاريا وضع مثالي: فهو يمثل المرحلة الأخيرة للحرب المُبّررة بقداستها (Sanctifié) والقريبة من الحرب المقدسة، وذلك للأسباب التالية:

* قد بُدئ بها خدمةً لمصالح الإصلاح البابوي.
* قد ضمنتها سلطة الحبر الروماني، متكلماً باسم القديس بطرس.
* وقادها رئيس حرب يحمل راية (Vexillum) القديس بطرس [وهي راية حمراء تشير إلى التأهب للقتال] ، تحت رعاية بواب الفردوس.

* وقد خاضها مؤمنون، وهم يحاربون أعداء مشيطنين. وعلينا ذكر ما يلي: أنهم أعداء، لكنهم ليسوا "وثنيين" بل هم "مسيحيون" تمردوا على سلطة أسقف روما، وبصفتهم هذه، يماثلون بالمنشقين والهرطوقيين، وهم"أسوأ أعداء الله والمسيح" ، حسب عبارة غريغوار نفسها.

فهل من المرجح تعريف الحرب المقدسة، بالمزيد من الجلاء، انطلاقاً من القضية التي دافعت عنها، وليس انطلاقاً من الأعداء الذين تحاربهم؟ أو بعبارة أخرى، هل يمكن أن تكون الكنيسة قدسنت تصدي روما المسلح "للهراطقة" المتمردين على سلطتها، أكثر من قدسنتها التصدي "للوثنيين" خارج عالم "المسيحية"؟ ليس هذا الأمر مستحيلاً ولابد لنا من استكشاف هذا الطريق.

وثمة علماء عديدون في القوانين الكنسية، من نهاية القرن الحادي عشر يبدو أنهم في الواقع، قد برروا الحرب على "أعداء المسيح" هؤلاء في داخل المسيحية، بسهولة تفوق سهولة تبريرهم الحرب على وثنييّ خارج العالم المسيحي. فإن بونيزو دي سوتري، أو هومبرت دو موايان موتييه (Humbert de Moyen moutier)يوضحان، على سبيل المثال، كم يكون "الهرطوقيون" أشد أذية من الكافرين: وبالتأكيد أنه من الممكن الأمل في ارتداد الوثنيين، لكن، لا في ارتداد الهراطقة، ولا ارتداد اليهود، وعلاوة على هذا، فالوثنيون يقتلون الجسد وحسب، أما الهرطوقيون فيقتلون الجسد والنفس، فهم بذلك يشبهون إبليس. ومن المشروع، إذن، أن يحاربوا، وأن يقمعوا. وقد أضاف، هومبيرت أن الوثنيين لا يهاجمون المسيحيين. وبالطبع، لدينا هنا تأكيد ظرفيّ بحت لكنه يوضح أولويات علماء قوانين الكنيسة، نحو عام ١١٠٠، والمنظور المُعَولم:(Glo-balisant) وهو منظورهم: فالحرب يمكن تبريرها، بل يمكن احترامها بقصد أن يؤمّن، أولاً، انتصار الكنيسة الكاثوليكية في داخل الكنيسة بذاته.

" الشهداء القديسون " لرابطة باتاريا (Pataria)

إذن، ليس من المدهش أبداً أن نرى - باكراً جداً بعد موت إرليمبو عام ١٠٧٥ - بطل البابا هذا، بطل رابطة باتاريا، يُماثل هو أيضاً، بشهداء الإيمان، ويعلن طوباياً بعد موته ببضعة أعوام. وها هنا أيضاً وضع مثالي يستحق الانتباه: فهو يوضح بجلاء

الدرجة النهائية للقدسنة التي بلغها، في ذاك التاريخ، الكفاح الذي تم خوضه بقوة السلاح على الأعداء المسيحيين للبابوية في الغرب.

عندما قام بعض الفرسان من المعسكر المناوئ بقتل زعيمي الباتاريا، أي: ليوتبراند وإيرليمبو، تركا جثمانيهما على ساحة المدينة، دون أن يدفنوهما. وقد أشار إليهما أندريه دوسترومي بالتعبير: "شهيدا المسيح". وبعد قليل، بات إيرليمبو يبجّل كقديس من قبل أتباعه. وحسب بونيزو دوسوتري، انتشرت سمعته باكراً جداً حتى في المناطق البعيدة. وكما كتب: لقد اندهش كاثوليكيو العالم بأسره من موته: فكيف ينهار رجل كهذا، وهو مولى متسربل بقدرة الله، فيما لبث "يقاتل في حرب الرب"؟ ويروي بونيزو أن العديد من العجائب قد جرت على قبره، وخلص إلى النتيجة التالية ذات المغزى البعيد: الله يوافق إذن على اللجوء إلى الحرب التي تشن على الهرطقة في سبيل الحق

كما نعلم، العجائب هي أحد الشروط المطلوبة لأجل الدفاع عن قداسة من هو مصدرها، أو على الأقل، من هو موزعها. وسبق لنا أن رأينا ذلك في شأن أولاف النورويجي أو القديس إدمون. والحال هنا أن العجائب جرت باكراً جداً، على قبر إيرليمبو. والأمر لا يعني بعد سوى ضمانة شعبية لتطويب محارب قاتل في سبيل كنيسة روما. بيد أن هذا الورع الشعبي قد تبنته، بسرعة شديدة، الإدارة البابوية. وقبل الحرب الصليبية بقليل، قد يكون البابا أوربان الثاني أمر بنقل "ذخائر أيرليمبو إلى دير القديس دوني، وسبق أن سُجل في لائحة الشهداء، بسبب موته "كحامل بيرق وكحام للكنيسة"

لم يكن إيرليمبو المناصر الوحيد للبابا والذي بات مبرراً بالقداسة على هذا النحو، ومقبولاً في صف الشهداء، أو الطوباويين. فثمة علماني آخر "وفي للبابا" رجل يدعى سينسويس (Censuis) (مدبر رسولي في مدينة روما، وكان قد اتخذ موقفاً صريحاً لدعم الحبر في نزاعه المسلح ضد الإمبراطور وأتباعه)، كان هو أيضاً موضوع احترام شعبي مماثل، بُعيد موته. وفي عام ١٠٧٧، كان قد قتل هذا الرجل الذي وُصف بأنه "جندي دؤوب للقديس بطرس مناهض للمنشقين"، على يد أحد جنود الإمبراطور الجرماني هنري الرابع فحدث على قبره قرابة عشرين معجزة. وأشاد برتولد بهذا "المحارب من الميليشيا

المسيحية" وحسب قوله: لقد عاش هذا الجندي حياة مقدسة، وقاتل ببسالة ومثابرة لأجل الإيمان والحق، ومات شهيداً ويرى البرهان على ذلك في مجيء الناس من بعيد إلى قبره حيث تجترح العجائب. وقد قبل بهذه المعجزات، البابا غريغوار السابع خلال السينودس الروماني المنعقد في آذار/مارس ١٠٧٨ (رَ. النص رقم ١٨، في آخر الكتاب).

إن الذهنية المشتركة، التي ضمنتها الكنيسة، قبلت، إذن في ذاك الزمان، بوجود حروب على ما يكفي من القداسة لمنحها من يشاركون فيها حتى الموت، إكليل الشهادة وولوج الفردوس، مابين الأبرار الطوباويين. ترى ما هي هذه الحروب؟ إنها الحروب المرتبطة بالنضال في سبيل تحرير الكنيسة" وحتى داخل المسيحية، بل في الكنيسة عينها، بل في الأكليرس. وفي جميع الأوضاع المذكورة أنفاً - لابد لنا من التوضيح - أن هذا الكفاح قد شُن على بعض المسيحيين. والمحاربون المنخرطون فيه، يُقَدْسَنونَ حقاً قدسنة سامية، بل وأحياناً يبررون ويُقدسون. وقلما يرجح أن المقاتلين في "فتح مسيحي متجدد" آخر (يوجه، في هذه المرة، ضد "وثنيين" من خارج المسيحية، في أسبانيا، أو صقلية، أو المشرق) يغدون مبررين بالقداسة بمقدار أقل. وفي الواقع، يعتبر "الوثنيون" بمثابة أعضاء الشيطان الطبيعيين، وذلك في العقلية المشتركة، كما في المراسلة البابوية، ولاسيما مراسلة غريغوار السابع. وبقتالهم يُنجز إذن عمل مجد، عمل ورع وتقوى. وبالطبع، الأمر يعني، في هذه الحادثة، كفاحاً مسلحاً ، فتتخذ معركة "جنود الله"، عندئذٍ، وجوه حرب مقدسة ، لها المزيد من الوضوح أيضاً

الجزء الرابع

من الحرب المقدسة إلى الحرب الصليبية
(القرن الحادي عشر)

الفصل الثاني عشر

الحرب المقدسة واستعادة الأرض المسيحية في الغرب :
(الركوكيستا Reconquista)

بعد عام الألف، شهدت أوروبا الغربية تغيراً مباغتاً في أوضاعها. فلم تعد "قلعة محاصرة" ، بل شرعت تتوسع، منذئذٍ، توسعاً لن ينقطع من بعد. فقد انتهت غارات النورمنديين، واعتنق الملوك الأسكندينافيون الدين المسيحي، وقهر المجريون عام ٩٥٥، وارتد ملكهم، بدوره، إلى المسيحية، بعيد ذلك، وشرع طريقاً برية للحج نحو أورشليم، فصارت طريقاً سابلة جداً خلال القرن الحادي عشر.

قامت هجمة الأتراك السلجوقيين، في الشرق الأدنى، بقطع هذه الطريق البرية. وعقب ارتدادهم الحديث إلى الإسلام السني، استولوا على أورشليم، سنة ١٠٧٠، ودحروا الفاطميين الشيعيين حتى مصر. وفي عام ١٠٧١، تغلبوا على جيوش بيزنطة، في معركة مانتزيكرت، ثم احتلوا إنطاكية سنة ١٠٨٥، وسوريا، وكل آسيا الصغرى تقريباً باستثناء شريط الساحل الغربي.وإذ سعى الإمبراطور اليوناني أليكسيوس كومنين إلى احتواء تقدم الأتراك، وإلى محاولته استعادة الأراضي المفقودة بالاحتلال. طلب من البابا أوربانوس الثاني، ومن بعض الأمراء الغربيين، أن يبعثوا إليه بتعزيزات لجيوشه.

في عام ١٠٩٥، كرر أوربانوس الثاني، بطريقته، هذا النداء: ووعظ بالحرب الصليبية، المعدة لا للمساعدة على استعادة الأرض البيزنطية حتى إنطاكية وحسب، بل أيضاً ، وخاصة أيضاً للذهاب "وتحرير كنائس المشرق، والأماكن المقدسة في أورشليم"، ولاسيما ضريح المسيح المقدس. وأفضى هذا الهدف إلى توسيعه، في الحين ذاته، نطاق استعادة الأرض المسيحية. وإن قطيعة الصليبيين مع أليكسيوس كومنين سوف تغير، بعد قليل، طابع الحرب الصليبية: فإذن، صارت حرباً لاتينية، حصراً ، واتخذت، عندئذٍ،

سمات مشروع استعماري يقوم به الغرب. ولابد لنا من التنويه بما يلي: بمعزل عن هذه القطيعة، ربما يكون المسلمون قد أدركوا أن استعادة الأرض المقدسة، هي انعكاس موقت لتوازن القوى في ذاك الحين: أي النتيجة المحتملة والمعتادة للانتصارات أو الهزائم العسكرية التي تستتبع، على نحو تناوبي، الكسب أو الخسارة للأراضي المجاورة.

في الغرب، وطوال القرن الحادي عشر، تابعت الركونكيستا [استعادة الأرض الأسبانية] تقدمها، رغم بعض الانتفاضات والتراجعات الموقتة. ولم تكن، بصورة رئيسية، محفوزة بدواع دينية، لأن ملوك الشمال المسيحيين سعوا، قبل كل شيء، إلى أهداف سياسية واقتصادية: بقصد تدعيم سيطرتهم، وتوسيع رقعة أراضيهم، والإثراء من الغنائم المكتسبة من جيرانهم المسلمين. بيد أن البعد الديني قام بدوره، في هذا الوضع، وأقله، بدور دعائي. وإن اهتمام البابوية باستعادة الأرض هذه بعد سنة ١٠٥٠، عزز بعده الأيديولوجي، وأسهم في تدعيم سمات قدسنته، وقد باتت تدرك بسهولة، كما رأينا ذلك، منذ مصادرها الاستورية.

أما الجانب الإسلامي، فقد تكاثرت نداءاته إلى وحدة كل المسلمين تطلعاً إلى الحرب المقدسة. وإن احتلال المسيحيين لمدينة طليطلة، سنة ١٠٨٥، استدعت التدخل الظافر، في أسبانيا، من قبل الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، [سلطان المرابطين] عاهل المغرب. فكسر الجيوش المسيحية التي قادها الفونسو السادس في معركة زلاقة [موضع قرب غرناطة] (١٠٨٦)، ووحد الأندلس تحت سلطانه وكَثَّف القتال على الممالك المسيحية باسم "الجهاد" الذي لبث مفهومه في ذات قلب الأيدولوجيا المرابطية. وعلى هذا المنوال، من جانب وآخر، تعاظمت في أسبانيا أبعاد الحرب المقدسة، في الصراعات الجارية، وسوف نجد هذه الصراعات مجدداً في الحرب الصليبية الأولى، وخاصة من الجانب المسيحي، في هذه المرة، بنتيجة الطابع المقدسن لضريح المسيح في أورشليم: المكان المقدس الأول للدين المسيحي، قبل روما وسان جاك دوكومبوستيل بأمد طويل.

إن استعادة الأرض المسيحية [الركونكيستا]، خلال القرن الحادي عشر، اقترنت إذن بعدة سمات لقدسنة الحرب على المسلمين، وحتى قبل أن يطلق أوربانوس الثاني نداءه إلى الحرب الصليبية، بقصد تحرير قبر المسيح وإنقاذه. وإنما هنا أكثر من أي

مكان آخر، في التماس بالعالم الإسلامي، قد ازدهر مفهوم الحرب المقدسة في الدين المسيحي الغربي.

استعادة الأرض الأسبانية قبل عام ١٠٥٠ [الرُكونكيستا]

بدت إسبانيا الإسلامية، قبل سنة الألف، وكأنها لا تخشى شيئاً من قبل الملوك المسيحيين الصغار في الشمال. وفي عام٩٩٧ قام الوزير المنصور بتدمير مملكة ليون، واحرق سان جاك دوكومبوستيل واصطحب معه إلى قرطبة أجراس الكنيسة، لكنه أبدى الاحترام لقبر القديس. بل استعاد لفترة قصيرة مدينة برشلونة. بيد أن المنصور مات سنة ١٠٠٢ [قتل في غزوته الخمسين]. وانتقلت المبادرة إلى المعسكر المسيحي. واندلع تمرد في قرطبة، عام ١٠٠٩، وأدى إلى تداعي الإمارة الأموية التي انقسمت، عقب ١٠٣١، إلى العديد من الممالك الصغيرة المتناوئة (الطوائف)، ولم يكن لأية مملكة منها القوة لمهاجمة الممالك المسيحية.

أقدم سانشوو الثالث النافاري على تنصيب نفسه بطلاً للرُكونكيستا [استرداد الأرض المحتلة]، وبتشجيع من كلوني وروما، راح يتقدم بتؤدة حتى منتصف القرن الحادي عشر. وفي ذاك الزمان، كانت ممالك ليون - قشتالة - أستوريا (والتي اتحدت عام ١٠٣٨)، وكذلك مملكتا نافار وأراغون، كانت تمتد من منطقة غليسا حتى جبال البيرينيه، ومن شواطئ خليج غاسكونيا حتى دورو [نهر أسباني]. فاشترى زعماء الطوائف السلام دافعين الجزية لهذه الممالك.

وكان هذا الموقف انتحارياً فقد أثرى الملوك المسيحيون بهذه الجزيات، وبغارات النهب الظافرة التي يشنّونها: وطفقوا يتعززون ويوطدون، باستراتيجية الزواج، حلفهم مع أمراء شمال جبال البيرينيه. وانحاز البعض منهم أيضاً إلى الكرسي الرسولي، واضعين أنفسهم أحياناً تحت رعايته.

أجل كان الباباوات يطالبون بحقوق خاصة على إسبانيا، باسم هبة قسطنطين المزعومة. وإن هذه الروابط التي قبلت بها إمارة أراغون ورفضتها إمارة قشتالة أخذت تؤدي بالباباوات، رغم هذا، إلى إبدائهم اهتماماً متزايداً بشبه الجزيرة الإسبانية، معززين بذلك قدسنتهم استعادة الأراضي المسيحية المحتلة [رُوكونكيستا].

فيما مضى، كان يعزى إلى [دير] كلوني دور أعظم في هذه القدسنة الأيديولوجية لاسترداد الأرض. وسبق أن كان ثمة مبالغة شديدة في إعلاء شأن هذا الدور، أما في أيامنا هذه، وكما طفق البعض يفعلون، فمن الواجب ألا ننزلق إلى مبالغة عكسية، فننفي كل تورط أيديولوجي للمؤسسات الرهبانية، ولاسيما لرهبانية كلوني، في نزعة استعادة الأرض. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى بعض سمات هذا المنحى، حين تحدثنا عن القديسة فوا. ونعرف، حول هذا الأمر أمثلة كثيرة أخرى أسهمت في تكوين ذِهنيةٍ للحرب المقدسة" قد نشرها، مع آخرين، رؤساء كلوني.

وهكذا، فإن راوول غلابير (Raoul Glaber)، أحد رهبان كلوني، وصف رؤيا للقديس مارتان، ربما وقع على خبرها راهب حوالي سنة ١٠١٤: فالقديس الذي ظهر له روى كم كان صعباً عليه أن يقتلع من الجحيم بعض الرهبان. وإذ تورط هؤلاء، رغم نذورهم، في شؤون هذا العالم، فقد لقوا حتفهم مرتدين الألبسة العسكرية. وردّة فعل القديس هنا مطابقة تماماً للعقيدة الكنسية: فعلى رجال الدين والرهبان ألا يتقلدوا الأسلحة، مجازفين بإهراق الدم البشري. لكن راوول غربير روى أيضاً قصة رؤيا أخرى، تسلط الضوء على الأولى، وتعدل فحواها، بمنحى آخر تماماً فقد روى أن بعض الرهبان، في عهد المنصور، أرغموا على حمل الأسلحة، وكما يوضح المؤلف، تقلد الرهبان الأسلحة "بداعي المحبة الأخوية، لا بداعي رغبة باطلة في المجد" وفي هذه المرة، من فقدوا حياتهم، حاملين الأسلحة، قد اعتبروا جديرين، كمثل الشهداء، باقتسامهم مصير الأبرار المطوبين، لأنهم لقوا حتفهم في حرب على مسلمي الغرب، ذوداً عن وطنهم وحماية للشعب المسيحي (رَ. النص رقم ١٩، في آخر الكتاب).

إن درجة القدسنة لمعارك من هذا النوع قد ارتفعت، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وجزئياً ، بنتيجة التدخل البابوي.

البابوية واستعادة الأرض (Reconquista)، بعد عام ١٠٥٠

تتابعت "الركونكيستا"، منذ القرن العاشر، بحثٍ من الملوك الاسبانيين في شمال المناطق الأستورية، ثم من ليون قشتالة، وأراغون. ولبثت الكنيسة الرومانية تقوم، في هذه الاستعادة، بدور لا يؤبه به. وكان الهدف الأول الذي يسعى إليه المقاتلون المسيحيون

هو إعادة السيادة الفيزيغوطية إلى نصابها. لكن هذه السيادة ظلّت، كما رأينا الوضع سابقاً ، متسمة بمسحة من الاعتبارات النبوية التي تمجد الملكية الأستورية.

ظلت المجازفة شديدة، في نظر السدة الرسولية، حين رأت الممالك الاسبانية، بما في ذلك الأراضي المستردة، خارجة عن نطاق التحركية (Mourance) البابوية. ومن المرجح أن هذا هو أحد الأسباب التي ذهبت بالباباوات إلى تأكيدهم بحزم، وبخاصة، على حقوق القديس بطرس حيال اسبانيا. ولبثت البابوية تمارس أيضاً على ملوكها ضغطاً شديداً لكي يتبنوا الليتورجية الرومانية في دولهم، كما في الأراضي التي سوف تسترد، على حساب طقوس الكنيسة الفيزيغوطية المستمرة في كنائس المسيحيين الخاضعين للإسلام [أي المُستعربين: نصارى الأندلس Mozarabes]. وقد حثت البابوية أيضاً المسيحيين في ما وراء جبال البيرينية، ولاسيما "الأوفياء للقديس بطرس"، على المشاركة في العمليات العسكرية داخل الأراضي الاسبانية. وقد أسهم كل هذا في قدسنة الرُكونكيستا التي اتخذت، في ذاك الحين، مسحات من الحرب المقدسة، وذلك في الكتابات أكثر بكثير مما على أرض الواقع، دونما شك، (ترى، كيف لنا أن نبرهن على هذا ؟).

إسكندر الثاني وأسبانيا

توضح حادثة الاستيلاء على بارياسترو (Barbastro) تعقيد البواعث لدى مقاتلي الركونكيستا. وقد أفضت هذه الحادثة، منذ العديد من السنوات، إلى مساجلة حادة بين المؤرخين، من حيث التفسير الذي يجدر الأخذ به حول الحادثة. إذ من الثابت أن تصريحات عن الحافز الديني قد اختلطت بمصالح مادية وسياسية جلية. وراح البعض، علاوة على ذلك، يدركون اهتمام البابوية بهذه العمليات العسكرية. وإن القسط الخاص بهذه العناصر الجديدة، هو الذي أثار الجدال. فأية أهمية يحسن بنا أن ننسبها إلى هذه العناصر؟

هذا الموقع الحصين [بارياسترو] - ويشدد علماء الآثار حالياً ، على تواضع أمره - قد تم احتلاله ونهبه عام ١٠٦٤ بفضل حملة شنها محاربون مسيحيون وفدوا من مناطق متنوعة جداً (اسبانيا، فرنسا، ايطاليا): لكن المسيحيين خسروه مجدداً ، في السنة التالية، من جراء ردة فعل عنيف للمسلمين، وذلك قبل أن يعود مسيحيو اسبانيا إلى استرداده نهائياً عام ١١٠٠

فيما مضى، لبث البعض يجعلون من حملة بارباسترو "حرباً صليبية اسبانية" أو على كل حال حرباً صليبية مبكرة" موضحين مشاركة محاربين من خارج إسبانيا، في العملية هذه، وقد قيل عنها إنها من وحي بواعث دينية، ومن حث ناجم عن دعوة كلوني والبابوية وإرشادهما. لا جرم أن هذا الأمر كان مبالغاً فيه جداً ، وقد بُرهن حديثاً ، على رأي معاكس: على الطابع الزمني و"العلماني"، بل الدنيوي لحوافز المحاربين هؤلاء، الوافدين من وراء جبال البيرينيه (حوافز الغنائم، والنهب، وهلم جرّاً....). وكانت تحفزهم أهداف متوافقة مع ما لديهم من أيديولوجيا خاصة بهم، وبصفتهم محاربين، أكثر بكثير مما حفزتهم أيديولوجيا خارجية، تثيرها الكنيسة أو تفرضها عليهم.

كل هذا صحيح. كما هو صحيح، في أيامنا، أن غالبية المحاربين الاسبانيين للركونكيستا كانوا يقومون بعمليات عسكرية لبثت وجوه حربها المقدسة وجوهاً لم تكن بذات أهمية، بل زهيدة، ويلفها الصمت أو التعتيم، لربما لئلا توقد حقداً دينياً بالمقابل، لدى هؤلاء الأعداء المقهورين، لكنهم، رغم ذلك، يظلون تماماً جيراناً لهم، وبقربهم لابد من متابعة الحياة.

إلا أن كل هذا لا يستبعد، بأي شيء، الاهتمام الذي ما انفك البابا يوليه لاسترداد أرض هذه المنطقة الاستراتيجية الواقعة في تخوم أراغون وكاتالونيا. ومن جانب آخر، لاشيء يحول دون وجود خطاب مزدوج: أيديولوجي ومقدسن، له دلالة أخلاقية، بقصد طمأنة المحاربين وجعلهم يشعرون بالصواب، ودون وجود خطاب واقعي وسياسي في تعبيره المعد لمسلمي الجوار، وما كان من المجدي إشعارهم بالخطر، من جراء موقف متشبع بمقدار مفرط من عاطفة دينية تتسم بالمبالغة.

من جهة أخرى، إن أسماء القادة الذين اشتركوا في الحملة العسكرية، وعدد المحاربين هؤلاء الوافدين من مناطق بعيدة، توحي، رغم هذا، بما هو أكثر من مجرد عملية مرتجلة، فهي تجعلنا نرى فيها موافقة (إن لم تكن مبادرة) من الحبر الروماني، الذي شجع، على نحو مرجح جداً ، هذه الحملة. ولابد من تشديدنا على أن هذه العملية قد تركت صدى مدوياً عظيماً في أوساط الغرب المسيحي، كما في الأندلس. وقام الجانب الإسلامي، من جهته، بإطلاقه نداء إلى الجهاد لاسترداد المدينة، وذلك في عام ١٠٦٥ ولعل ردة الفعل هذه قد خلقت جواً جديداً ظل ينتشر في ذاك الحين.

ولدينا عن هذا الأمر مؤشر قوي جداً ، رغم كونه مطروحاً للمجادلة. ففي رسالة يعسر تفسيرها ، لكن صحتها عصيَّة على المناقشة، طلب اليكسندر الثاني من فريق رجال الأكليرس الذين بعث إليهم بهذه لرسالة، أن يؤازروا "من صمموا على الذهاب إلى إسبانيا" لإنجاز مشروعهم. وأشار في هذه الرسالة، إلى طريقة لإجراء ما يجدر فعله حيال هؤلاء المرشحين للسفر: فعلى كل واحد منهم أن يعترف بخطاياه إلى الأسقف الذي سيعين توبة لابد من إنجازها ، "لكي لا يستطيع الشيطان أن يتهمه بالإصرار على عدم الاعتراف بذنوبه" وبتعبير آخر، فإن الحملة داخل اسبانيا انطوت على خطر حقيقي، ومن الأمثل، عندئذٍ، أن يغدو المحارب متصالحاً مع الله حسب الأصول، قبل الذهاب إلى القتال. وأضاف البابا الجملة التالية، والتي بات تفسيرها دقيقاً ، لكنها تحظى بأهمية قصوى:

"أما نحن، فبسلطة القديسين بطرس وبولس، نعفي هؤلاء من سر التوبة، ونغفر لهم خطاياهم.

تُرى أي تفسير ينبغي أن نعطيه لهذه الجملة؟ وفي هذا الشأن، كان الحديث، فيما مضى، عن "غفران لحرب صليبية" وكان الأمر يعني التعجل في اتخاذ القرار (وبصورة باكرة جداً). وعلى العكس من هذا، ثمة نزعة راهنة إلى نفي كل تورط بابوي في حملة بارباسترو، وإلى عزل هذه الرسالة عن كل صلة بهذه الحملة العسكرية.بل يريد البعض أن يروا فيها حجاً إلى سان- جاك- دو-كومبوستيل، وهذا الأمر قليل الترجيح جداً فلم يعن قط التعبير، "في اسبانيا"، مكان الحج هذا.

أجل إن الحقيقة كامنة مابين هذين الموقفين المتطرفين. ومن المرجح جداً أن الرسالة تلمح إلى حملة عسكرية، غير أنها لا تعلن، بحصر الدلالة، غفراناً بالمعنى اللاحق لهذه اللفظة. فالأمر، بالأحرى، لبث في صدد إسقاط عقوبة التوبة أو بمزيد من الدقة، في صدد تخفيف هذه العقوبة: فهذا التخفيف يطرأ على هؤلاء الذين، بحث إلهي - كما يوضح ذلك البابا ذلك - قرروا الذهاب إلى اسبانيا ليحاربوا مسلمي الغرب. فينبغي، بالتأكيد، ألا يتم تأخيرهم أو إقصاؤهم، أو حظرهم، من قبل إنجاز عقوبات التوبة التي من المحتمل أن تفرض عليهم، من جانب آخر، عن طريق سلطة كنسية، لحصولهم على غفران ذنوبهم التي قد اعترفوا بها. وفي رأي البابا ، تقوم الحملة

العسكرية مقام هذا الغفران. وللواقعة هذه ما يكفي من الدلالة على القدسنة التي ترتديها، في نظره، معارك المحاربين المسيحيين على مسلمي الأندلس.

ترى هل نحن تماماً في شأن الحملة "المتعددة الجنسيات" على بارباسترو؟ لاشيء يبرهن على هذا الرأي، إلا أن العديد من المؤشرات تنحو إلى هذه الحملة. وفي واقع الأمر، حرر ألكسندر الثاني، بعد حين من الزمان، رسالة تمتدح الأساقفة الذين يخاطبهم لأنهم قاموا بحماية اليهود من ذبحهم على يد "محاربين غرباء" فالبابا يشرح في الرسالة شرحاً حريصاً التمايز الذي يحسن منذئذٍ إقامته، في الأراضي التي ينبغي استردادها، مابين اليهود ومسلمي الغرب. فالحرب على هؤلاء المسلمين حرب مشروعة وحميدة، في نظره، بما أنهم، إبان اجتياحهم شبه الجزيرة الاسبانية، قد اضطهدوا المسيحيين ونفوهم من أراضيهم وديارهم. أما وضع اليهود فكان مختلفاً لأنهم لم يرفعوا السلاح على المسيحيين، ولم يحكموهم، ولم يظلموهم، ولم يضطهدوهم. وبالتالي، كان من الواجب ألا يقتلوا، بل أن يُسخّروا "وحسب"

وبعد فترة قصيرة، بعث البابا برسالة أخرى إلى رئيس أساقفة ناربون (وهي منطقة لابد أن يجتازها المحاربون الوافدون من فرنسا وايطاليا، لبلوغهم ما يقصدون من الأماكن). وذكر فيها البابا أن جميع القوانين المدنية أو الدينية تدين إهراق الدم البشري باستثناء حالتين: بغية معاقبة المجرمين، وبغية معاقبة مسلمي الغرب على ابتزازاتهم. وبالتالي هنأ الأسقف على رفضه التعديات غير المبررة التي بات اليهود ضحاياها في أبرشيته.

إذن لم يناد ألكسندر الثاني "بحرب صليبية مبكرة وجامعة"، وحتى لم يعظ بحرب مقدسة شبيهة بالجهاد. لكنه قد دعم، على نحو مرجح جداً ، وبالتالي قد "وسم بصفة أخلاقية"، عمليات الركونكيستا، التي منحها طابعاً من القدسنة جديداً

إن إيميه دو مون – كاسان (Aimé du Mont-Cassin)، في قصته عن بارباسترو، قد مضى، من جهته، إلى ما هو أبعد بقليل: فقد جعل، بوضوح من هذه الحملة، حرباً مقدسة، قد قررها وخاضها الأمراء المسيحيون، الفرنسيون منهم والبورغونيون والنورمنديون. وإن جنودهم، بقيادة روبير كريسبان (شخص مرتبط بالبابا) قد فازوا، أولاً ، بالانتصار "بنصرة من الله"، غير أن الشيطان لم يظل دون فاعلية، فقام بإغراء

وإفساد "جنود المسيح" فراحوا ينساقون إلى الدعارة. ولم تلبث العاقبة أن أتت، كما حدث هذا، عام ١٠٣٨، بالنسبة إلى ميليشيات بورج: فتخلى الله عن معسكر مؤمنيه وقد باتوا غير مؤمنين به. و" بحكم عادل من الله" ، استعاد المسلمون، بعد قليل، هذه المدينة. فالتضخيم الأخلاقي غدا جلياً ، بيد أنه مورس على ميزات راهنة تماماً ، وقد بالغ دون ابتكار. فإن فكرة الحرب المقدسة، هذه المرة، قد أوشكت أن تبلغ طور نضوجها. وثمة عناصر أخرى سوف تجيء أيضاً لإنماء هذه النزعة وتعزيزها.

غريغوار السابع واسبانيا

نعرف المطالبات التي أصدرها غريغوار [البابا غريغوريس، ١٠٧٣- ١٠٨٥] السابع حول إسبانيا، إما باسم هبة قسطنطين الملفقة، وباسم رعاية القديس بطرس، وإما باسم تصوره الشامل لسلطة البابا السياسية/ الدينية. وكان اهتمامه بالركونكيستا جلياً منذ أن تربع على العرش البابوي، عام ١٠٧٣ وبالتأكيد، راح يُحرّض مؤمنيه على شن حملة مسلحة في ربوع شبه جزيرة أسبانيا.وحرص على تذكيره رئيس قواته، إيبل دو روسي (Ebles de Roucy) (صهر مُقطعه روبير غيسكار)، بأن جميع محاربيه سيترتب عليهم الالتزام، قبل انطلاقهم، بأن يعترفوا للبابا بملكية الأراضي التي سيستردونها من الكفار.وكما كتب، في واقع الأمر، إن مملكة اسبانيا، رغم احتلال الوثنيين لها، تعود حوزتها إلى القديس بطرس.

في عام ١٠٧٧، أعاد الكرّة على هذا الموضوع في رسالة بعث بها إلى جميع الملوك، والكونتات، والأمراء في اسبانيا. وذكر فيها غريغوار أن اسبانيا كانت، حسب "قانون أساسي"، قد نقلت إلى القديس بطرس وإلى كنيسة روما، بقوة القانون، بصفتها ملكية كاملة. وأضاف، أن احتلال مسلمي الغرب لها، قد أنسى هذا الحق، والحق يلبث كاملاً ، ويحسن عندئذٍ، بعون الله، أن يتمم استردادها، وإعادة الحق إلى نصابه، وكذلك شرف القديس بطرس والسدة الرسولية.

بهذا الشكل الجذري، لم يلق التأكيد على "إقطاعة" ملوك اسبانيا، حيال الكرسي الرسولي، موافقة إجماعية. بل قام ملوك كاستيليا برفضها رفضاً حازماً وبالمقابل،

ارتبط ملك أراغون ارتباطاً وثيقاً بالكرسي الرسولي، حتى أفضى به الأمر إلى كونه مقطعاً له. وبوسعنا أن نتابع تدرج هذه العملية من خلال بضع وثائق مُجدٍ وضوحها.

منذ عام ١٠٦٨، يبدو تماماً أن ملك أراغون قد صار، في الواقع، نوعاً ما "مقطعاً" للبابا، كما يؤكد هذا التحول البابا بذاته في وثيقة لاحقة. فخلال آذار/مارس لسنة ١٠٧٤، هنأ غريغوار الثالث الملك سانشوو دو أراغون على ورعه حيال كنيسة روما: لأنه توخى أن يقيم في مملكته الليتورجية الرومانية، ويعيد عقد الروابط القديمة التي قامت فيما مضى، مابين روما وملوك اسبانيا. وذكر غريغوار السابع، في سنة ١٠٨٥، أن ملك أراغون قد جعل من نفسه ومن مملكته، تابعين للقديس بطرس. وتم التأكيد، عام ١٠٩٥، على هذا الالتزام الإقطاعي: وعاد البابا أوربانوس الثاني إلى مرجعيته، مذكراً بأن ملوك أراغون يترتب عليهم استلام مملكتهم من يدي البابا، وأداء ضريبة إقطاعية، والاعتراف بأنهم مقطعون للسدة الرسولية.

إن إعلاء شأن المعارك، من قبل البابا، بقصد استعادة الأرض الاسبانية [ركونكويستا] هو إذن منوط، ولو جزئياً، بالدفاع عن مصالح البابوات المادية. ويضاف إلى ما سبق، بالطبع، اعتبارات ذات طابع أيديولوجي ناجم عن فكرة تحرير الكنيسة، وهي فكرة عزيزة على قلب غريغوار السابع. وعاقبة هذا أن الحملات العسكرية في اسبانيا، منذئذٍ، لم تعد شأن الأمراء والملوك وحسب، على غرار ما حدث في بداية القرن. فالباباوات يولون اهتماماً كبيراً لهذا الوضع، ويحثون مؤمنيهم على المشاركة فيه. فقد اتخذت هذه القدسنة قوة وبعداً جديدين، يُدان بهما إلى أيدولوجيا البابا المقتدرة، والجديدة أيضاً

أوربانوس الثاني [بابا روما ١٠٨٨ -١٠٩٩]

ثمة أمر لا يُوضّح بما فيه الكفاية: فقد كان أوربانوس الثاني يتخذ بحزم موقعه في منحى غريغوار السابع، وتابع برنامجه بقسط إضافي من المهارة. وفي شأن استرداد الأرض المسيحية من مسلمي الغرب، طور "تربية للتاريخ" حقيقية، قد ذكرنا سابقاً عناصرها الرئيسية، المتواجدة قبله بكثير، ولئن كان ذلك في التوارة، وفي أذهان كل من يقرأونه، لكنه جعلها منهجاً في كتاباته، بمقدار أكثر مما فعل أي واحد غيره. وقد

أدرج فيها مقولة علم لاهوت التحرير لغريغوار السابع، بل أضاف لها أيضاً كل أمل ورجاء نبويين لانتصار المسيحية على الغزاة المسلمين.

وبوسعنا أن نلخص كما يلي هذا "اللاهوت التربوي"، فالكتاب يشير إلى أن الله يقود مجرى التاريخ. ومن ثم، فهو يُنصّب الملوك ويخلعهم كيفما يشاء، كما يخلق الدول والسيادات ويزيلها. ويبارك الله شعبه إن لبث وفياً له، ويعاقبه إن نسيه. ولفعل هذا كله، يحرك الله القوة الحربية لشعوب الوثنيين الأعداء، فيعطيهم، لفترة من الزمان، الغلبة والظفر. وينتظر من القصاص هذا أن يدفع شعبه إلى التوبة وإلى الإصلاح الخلقي: وإن حدث هذا، فالله "يعدل عن موقفه" ، بدوره، فيتيح لشعبه أن يسترد ما سبق له من حرية وازدهار.

وحسب أوربانوس الثاني، لا يزال عمل الله دوماً ، في عصرنا، على هذا المنوال. وإن الكنيسة، من جراء ذنوبها، غالباً ما أخضعت لتسلط "الوثنيين" (أي المسلمين)، لكن الله يغفر لشعبه خطاياه عندما يصلح هذا الشعب ذاته، وهذا هو الوضع في الأيام الراهنة. ومن ثم، كما كتب هذا البابا: في عصرنا"، في هذه النهاية للقرن الحادي عشر، يؤازر الله ويدعم استعادة الأرض المسيحية. وفي واقع الأمر، تتعزز هذه الاستعادة، أو تكاد في كل مكان: في صقلية، وفي الجزر، وفي اسبانيا، وعما قريب، في الشرق الأدنى. وإذ تلبث قيادة حرب الاسترداد هذه، على هذه الشاكلة، فهي تحقق إرادة الله. ومن ثم، يرتدي الاسترداد سمات حرب مقدسة. فلم تعد هذه الحرب كسائر غيرها من الحروب، ملطخة بالخطيئة، مؤدية إلى توبة ضرورية. بل على العكس من ذلك، فحرب الاستعادة تشارك في الخطة الإلهية وتنجزها تماماً

بهذا الأمر ذاته تُرى: ألا تصبح الحرب المقدسة عملاً ورعاً جديراً بالثواب؟ طورت رسالات عديدة للبابا أوربانوس الثاني هذه المواضيع وأفضت، كما يبدو لي، إلى هذه النتيجة. وفي عام ١٠٨٨، بعث البابا برسالة إلى رئيس أساقفة طليطلة (وقد تم تحريرها سنة ١٠٨٥)، يُذكر فيها بماضي هذه المدينة العظيم الذي انقطع بكل أسف - كذا قال البابا- من جراء سيطرة مسلمي الغرب، وبنتيجة مآثم الشعب. فقد نجم عن كل ذلك، بالنسبة إلى المنطقة المسيحية، فقدان الحرية خلال ٣٧٠ عاماً بيد أن هذه الفترة المشؤومة قد انقضت وفي هذه الأيام ابتهج البابا بأن المدينة استطاعت استرداد حريتها، وذلك بفضل من الله، وبتضحية جيوش الملك الفونسوو القشتالي.

فيما بعد بسنة واحدة، إذ ذكر أوربانوس الثاني "تحرير تاراّغون" عَرَض من جديد "لاهوت التاريخ" وأعرب أن الله قد تفضّل في هذه الأيام، وخفف الوطأة عن شعبه الذي عوقب باحتلال طوال ٣٩٠ عاماً (كذا)، وقد ألهم الله، في هذه الفترة، الأمراء بالعمل على تحرير المدينة، وإعادتها إلى الكرسي الرسولي، حسب حقوق هذا الكرسي المقدس التي يذكر بها البابا في هذا المعرض، وبهذه المناسبة السانحة جداً . وعقب سنتين، حث البابا، في رسالة أخرى، الكونت دورجيل على المساهمة في ترميم مدينة تاراغون، التي سبق لها أن منيت باحتلال المسلمين طوال ٣٩٠ سنة (كذا). وستكون هذه المشاركة عملاً ورعاً بمقدوره الإسهام في "غفران خطاياه"، [أي الكونت]، كذا قال البابا.

منذ عام ١٠٨٩، سعى البابا إلى تشجيع هذا " الاسترداد" لمدينة تاراغون (وهي مدينة منوطة بالسدّة الرسولية)، وكان علاوة على ذلك قد حض أمراء المنطقة على أن يكرسوا لهذا الاسترداد قدراتهم وثرواتهم. ووضح أن الأمر يعني عمل استحقاق كامل، يقوم به الأمراء، بمثابة سر التوبة من قبلهم، بقصد مغفرة معاصيهم. بل حض البابا الأمراء على اتمام هذه التوبة هنا، في اسبانيا، وذلك أحرى من القيام بالحج إلى أورشليم.

يبين تماماً ما سبق، في فكرة أوربانوس الثاني، عملاً ذا هدف عسكري، يحقق ميدانياً ، في اسبانيا، ويرتبط بالروكوكيستا المسلحة، من أجل المسيحية والسدة الرسولية، وتم اعتبار هذا العمل بأنه "مقدس" بما يكفي لكي يوصي به "لغفران الخطايا"، وبمثابة تكفير عن الذنوب. وما هو أفضل من هذا: فإن العمل المستحق للثواب قد اعتبر معادلاً ، على الأقل، لحج تكفيري عن الخطايا، بما في ذلك، الحج إلى أماكن أورشليم المقدسة، رغم عظمة هذا الحج وروعته.

ترتدي هذه الواقعة أهمية كبرى، ولم تتلقّ من المؤرخين ما تستحقه من الانتباه. رغم أن لدينا هنا، قبل خطاب كليرمون بستة أعوام، العنصرين المكونين للحرب الصليبية: استحقاق الحرب المقدسة، وسر التوبة في الحج. وحسب رأي أوربانوس الثاني، (وفيما بعد حسب باسكال الثاني)، الحرب المقدسة في الرُكونكيستا تتخذ قيمة الحج، وتستطيع أن تنوب عنه.

من الصحيح أن هذين الوجهين، وهما هنا متفرقان ومتعادلان، سوف يتم جمعهما في الحرب الصليبية من أجل أورشليم. وسوف يضاف الواحد منهما إلى الآخر. فترى

هل سيكون على هذه الشاكلة، شأن استحقاقهما والمكافآت التي يجلبانها ؟ كان مثل هذا التفسير يفرض نفسه على الأذهان فرضاً جد طبيعي، وأقله، على أذهان العلمانيين الذين قلما ينزعون إلى دقائق أمور الحق والعقيدة في الكنيسة. ومن المرجح أنه يكمن هنا أحد العوامل التي تفسر نجاح الحرب الصليبية لدى المحاربين، بمن فيهم المحاربون الاسبانيون، الذين سيتوجب إقناعهم، عما قريب، بعدم الذهاب إلى القتال في آسيا، بل حفزهم على متابعة الركونكيستا في اسبانيا ذاتها.

وهذا التماثل الوثيق، على صعيد القيم، مابين قتالين على المسلمين، في اسبانيا كما في المشرق - وقد اقترن كل واحد منهما بقيمة ثوابات متعادلة - تماثل يتضح مجدداً في رسالة من أوريانوس الثاني إلى الأسقف بيير دو هويسكا (Pierre de Huesca)، وهي رسالة معاصرة لانتصارين أولين للصليبيين. ويبتهج البابا فيها لأن الشعوب المسيحية قد "حُررت من استبداد مسلمي الغرب" وطغيانهم، ولأن الإيمان المسيحي قد تم تمجيده في القارتين، وذلك "بالانتصارات على الأتراك في المشرق، وعلى مسلمي الغرب في اسبانيا"

أكد حبر روما مجدداً هذا التماهي مابين النضالين على الجبهتين، في رسالة إلى الكونتات الكتلانيين وقد حُررت مابين عامي ١٠٨٩ و ١٠٩٩ (لا يتفق العلماء على هذه النقطة، وبدقة من جراء هذا التماثل، لكن جميعهم يعتبرون هذه الرسالة صحيحة). ويبدو لي من مزيد الحكمة أن نؤرخها ما بعد عام ١٠٩٦ فالبابا يؤكد فيها القيمة الثوابية لاسترداد الأرض الاسبانية والرتبة المتعادلة لاستحقاق الحرب على مسلمي الغرب والشرق (رَ. النص رقم ٢٠، في آخر الكتاب).

إن تماهي المشروعين الحربيين، على صعيد الاستحقاقات، هو تماه جلي واضح إذن، في ذهن البابا، خلال عصر الحرب الصليبية. ومن المرجح أن هذا التماهي قد بات كذلك، قبل سنة ١٠٩٥ بكثير، كما يبين هذا الأمر مؤشرات عديدة سبق ذكرها.

الركُونكيستا المسيحية في الغرب

أجل، إن الركونكيستا [استعادة الأرض المسيحية] لم تتحقق في أسبانيا وحسب، بل أيضاً في جنوب فرنسا، وجنوب ايطاليا، وفي صقلية، وفي الجزر وحتى في

إفريقيا، وارتدت في كل مكان، وخلال بضعة من النصوص على الأقل، بعض سمات الحرب المقدسة.

رأينا هذا الأمر في البروفانس، بخصوص أسر القديس مايل (Maiel) الذي اختطفه المسلمون: وإن أوديلون (Odilon) الذي روى هذه المغامرة فيما بعد بنصف قرن، كشف النقاب عن مدى الاعتبار الذي حصلت عليه استعادة الأرض بجهود الجيوش المسيحية، قبل عام ١٠٤٠، فقد تم اعتبار هذا إنجازاً للخطة الإلهية في التاريخ. فالجيوش التي طردت مسلمي الغرب من البروفانس قد حققت عملاً تحريرياً، بل أيضاً عقاباً من انتقام الله مُني به الكفار. أما الحرب الصليبية فسوف تُفسَّر هي أيضاً في هذا المنحى، على يد عدة من الإخباريين.

نرى الأمر نفسه في صدد جزيرة كورسيكا. فالبابا أوربانوس الثاني قام، في بعض رسائله، بمديح العمل الحربي للبيزانيين الذين قهروا المسلمين وأعادوا إلى الجزيرة حريتها، لأجل الطاعة حيال الكرسي الرسولي، هذه الطاعة التي طالب بها البابا، هنا أيضاً، مطالبة قام بها في حينها المناسب له.

ونرى مثيل ذلك في شأن جزيرة صقلية: فخلال عام ١٠٩٣، ذكَّر البابا بالطريقة التي وقعت فيها الجزيرة تحت نير المسلمين، بنتيجة خطايا المسيحيين ومآثمهم. فعانت بالتالي من الاستعباد طوال ٣٠سنة، وانقطعت طوالها الديانة المسيحية. إلا أن الله "يغير الأزمنة"، وبنصرته أقدم الدوق روجيه النورمندي على إعادة الدين المسيحي إلى سابق عهده. وفي سنة ١٠٩٨، هنأ أوربانوس الثاني، في رسالة أخرى الدوقَ روجيه على أنه "وسع نطاق كنيسة الله" مبرهناً بما فعل على تفانيه للسدة الرسولية.

لم يكن أوربانوس وحيداً في قدسنة هذه العمليات العسكرية على هذا النحو. وإن الإخباري مون-كاسان (Mont-Cassin)، أعطى أيضا لاجتياح النورمنديين جزيرة صقلية، المزيد من ميزات الحرب المقدسة، مشدداً على تقواهم، ودواعيهم الدينية، ساتراً، على عكس ذلك، الحوافز المادية التي حثت النورمنديين على احتلال هذه الأرض.

أما جوفروا مالاتيرا (Geoffroy Malaterra)، فيُوفق، دون أي حرج، مابين هذين الوجهين في سرده الحوادث. فإن الأطماع الشخصية لزعماء النورمنديين قد باتت، في رأيه، متناغمة كلياً مع المثل العليا للركونكيستا المُبَرّرة. فتاريخه مرصع بخطابات

الرؤساء النورمنديين الموجهة إلى جنودهم، حول الحرب المقدسة، ومزدان بالتدخلات الإلهية المواتية لهم، مثلاً ، إبان معركة سيرامي، عام ١٠٦٣ فعلى سبيل المثال أيضاً، وحسب كاتب الحوليات، أقدم النورمنديون، قبل القتال على اعترافهم بذنوبهم اعترافاً ورعاً ، وأدوا مراسم توبتهم، مستودعين أنفسهم لرحمة الله وعطفه. ثم حضّهم روجيه على الثقة بالله، رغم تدني عددهم: وحيث أن الله معهم، فليس ثمة أهمية لعدد الأعداء الكافرين. وحين اشتدت عزائم محاربيه، اندفعوا عندئذٍ إلى القتال، وظفروا بعون سماوي قام به فارس أبيض: فكيف يعربون بشكل أمثل عن الموافقة الإلهية، وعن قداسة القضية، لجيش يقاتل تحت إشارة الصليب وحمايته، لجيش يؤازره فرسان من السماء؟ (رَ. النص رقم ٢١، في آخر الكتاب).

ترتدي قصة جوفروا مالاتيرا، بالطبع، مسحة أيديولوجية: فهذه القصة تقرّب، بوضوح، حرب استعادة أرض صقلية على يد رؤسائها النورمنديين، من الحرب التي كان يخوضها، في ماضي الزمان، حسب رواية التوراة، كل من موسى ويشوع بقصد احتلال ارض إسرائيل، وعلى غرار احتلال ارض الميعاد، هذه الحرب عمل ورع له ثوابه: والحبر الأعظم يكفلها، وتخاض بغية تحرير هذه الأراضي التي غزاها الكفار، وبقصد استردادها للإيمان الحقيقي. وزبدة القول: إنها حرب مقدسة، أو تكاد.....

نجد ثانية سمات مماثلة في معرض الحملة التي خاضها، فيما وراء البحار (في تونس)، فرسان جَنَوا وبيزا، الذين نزلوا إلى البر في المهدية. وحسب حولية مون-كاسان، كان البابا فيكتور الثالث هو الذي أخذ المبادرة بهذه الحملة. وإذ رغب في أن "يدوس بقدميه الكفر ، اتخذ البابا هذا القرار بحشد جيش يفد من جميع بقاع ايطاليا. وعقب هذا الحشد، أنعم على الجيش براية القديس بطرس، ومنح المحاربين الملتزمين في هذه العملية غفران خطاياهم. وبنصرة من الله، نزلوا إلى البر الأفريقي، وجابهوا المسلمين العرب، وانتصروا بالعون الإلهي، وقتلوا مئة ألف من هؤلاء الكفرة.

تم أيضاً تدوين حملة المهدية [وهي بلدة تونسية على المتوسط] في قصيدة نظمت بعيد حدوثها وتعطي المزيد من التوضيح لسمات الحرب المقدسة. ووصف فيها الملك المسلم تامين كمثل تنين شديد الشراسة، شبيه بالمسيح الدجال" أما الحملة "فالمسيح يسوع" حماها شخصياً وقبل المعركة، ألقى الأسقف بنوا على المحاربين المسيحيين -

وهم دوماً أدنى من الأعداء عدداً - خطاباً حربياً مقدساً ، استوحاه من التوراة، وحملهم على أن يستذكروا انتصار داوود على غليات. وراح المسلمون، من جهتهم، يتضرعون إلى محمد: "عدو الثالوث المقدس، والذي ينفي التجسد" غير أن زعيق المسيحيين غدا على مزيد من الشدة، لاسيما وأن رئيس الملائكة القديس ميخائيل راح ينفخ في الصور، كما فعل هذا فيما مضى قبل قتله التنين.

في المعركة التي اشتبكت، لقي الرئيس المسيحي حتفه، كشهيد ظافر، بيد أن المسلمين قُهروا، وترتب على ملكهم تامان أن يفاوض: فسلم البيزانيين والجنويين كمية هائلة من الذهب والفضة، وأقسم بإله السماء إنّه لن يضطهد المسيحيين من بعد. بل علاوة على هذا، أقسم معترفاً ، بأن أرضه يمتلكها القديس بطرس، والتزم بان يستلمها منه، بصفته مقطعاً .ودلالة على خضوعه، أرسل إلى روما غرامة من ذهب وفضة. وعاد البيزانيون إلى ديارهم، مصطحبين الكثير من الأسرى، بعد أن حرروا أكثر من مئة ألف مسيحي من السجون.

جُمعت في سرد هذه القصة كافة الميزات تقريباً التي تمهر بطابعها حرباً مقدسة: فقد وصفت حملة المهدي بأنها عملية عسكرية مقدسنة، بدأت بها سلطة الحبر الروماني الدينية العليا، وقد اقترنت بغفران الذنوب لمن يشتركون فيها، وبإكليل الشهادة الممنوح لمن فقدوا حياتهم في القتال: فهذه الحرب شُنَّت على الأعداء المسلمين الكافرين المشيطنين الذين يقودهم زعيم مماثل للمسيح الدجال. وقد أنجزت ميدانياً لخير المسيحيين، وبفضل الظفر الذي ناله المقاتلون بنصرة من السماء، تم تحريرهم من أسرهم، ومن ظلم المسلمين وقهرهم. وإن هذا الانتصار قد أفضى أيضاً ، إن لم يكن إلى ارتداد الملك المقهور (ارتداداً لم يُعرب عنه بصراحة، لكنه، بصورة مرجحة، كان متضمّناً في واقعة الإقطاعة المذكورة آنفاً) ، فعلى الأقل إلى خضوعه للناموس المسيحي، وبمزيد من الدقة، للقديس بطرس، أي السدة الرسولية.

إن هذه الحملة على ديار ما وراء البحار هي إذن حرب مقدسة حقيقية، حرب تؤذن بالحرب الصليبية. ولها جميع ميزاتها. لكنها ليست صليبية. وفي الواقع، ثمة ميزات تفتقدها ، فالسمات النوعية للحرب الصليبية هي السمات المنوطة بهدفها ، وهذا الهدف يجعل منها حرباً صليبية خاصة، فريدة: ألا وهو تحرير أورشليم والديار المقدسة.

النتيجة

إن فكرة الحرب الصليبية لم تولد عام ١٠٩٥، فقد نتجت عن تطور بطيء ذُكِرَت مراحله الكبرى في ما سبق من الصفحات. وطُبقت أيديولوجيا الحرب المقدسة على استعادة الأرض المسيحية في الغرب قبل انتقالها إلى المشرق، وقد ارتقى وضعها بالقداسية Sacralité المنوطة بالحج، وبتحرير ضريح المسيح.

وهذا العنصر الجديد للقداسية عنصر مزدوج، غير أن جانبيه منوطان بوجود الأماكن المقدسة في أورشليم. ارتبط العنصر الأول ببعد حج الحملة التي دعا إليها أوربانوس الثاني. وإن إنقاذ القبر المقدس، وهو الهدف المعترف به لهذا المشروع، حوّل هذه الحملة العسكرية، عند نهايتها، إلى نوع من الحج. ومنذ أن سُمح للحجاج باستخدام أسلحتهم على "الوثنيين" دون أن يفقدوا، رغم ذلك، صفتهم القانونية كحجاج: (Peregrini) لم يكن ثمة أي سبب لئلا يمنح هؤلاء "الأورشليميون" (Jérusalémites) (لفظة كان يشار بها إلى من يذهبون إلى أورشليم) الحقوق والامتيازات الروحية ذاتها التي لبثت الكنيسة تمنحها حتى ذاك الحين للتائبين عن آثامهم. وبتعبير آخر، للحرب الصليبية، بصورة طبيعية تماماً ، القيمة الاستحقاقية وقيمة طقوس التوبة بذاتهما اللتين ينعم بهما كل حاج عادي يزور قبر المسيح.

بيد أن الحرب الصليبية تظل، علاوة على ذلك، حرباً مقدسة كما هي حملات الركونكيستا المذكورة في هذا الفصل. لكن ليس ثمة مقياس مشترك مابين قداسية المعارك المنجزة في الغرب، والمعركة الجديدة التي اقترحها البابا في كليرمون. ففي الغرب، كان الأمر يعني فقط درء المسلمين، وطردهم من الأراضي المسيحية المحتلة في سابق الزمان، لكي تستعاد حوزتها، في نهاية فترة السيطرة التي خصصت، نوعاً ما لأبناء إسماعيل [المسلمين]، بقصد معاقبة المسيحيين على زلاتهم وآثامهم. أما في المشرق، فقد تعلق الأمر بدحر المسلمين أيضاً ، وهم الذين يهددون بالاستيلاء على القسطنطينية، و (ترى من يدري؟) يهددون بفتح أوروبا. لكن الأمر، قبل كل شيء، مرتبط باسترداد الديار المقدسة في أورشليم، أي ميراث المسيح. ومنحى هذا المقصد الجديد حوّل الحرب الصليبية إلى حج، غير أنه مَنَح أيضاً هذه العملية بعداً أعلى، درجة فائقة السمو من القداسية.

لقد أدرك الباباوات هذا الأمر، باكراً جداً وبقصد ألا تعرى الجبهة الاسبانية تعرية مفرطة، فقد أوضحوا غالباً هوية الثوابات والامتيازات التي ظلوا يمنحونها لميداني القتال هذين. ورغم ذلك، فإن هوية الامتيازات والوعود بالثوابات لم تكن كافية. ولم تكن بعدُ ذهنية ذاك الزمان الدينية متأهبة لقبولها: فلابد إذن أن يحظر على الأسبانيين الذهاب إلى الحرب الصليبية.

وُجد البرهان أيضاً على هذا الموقف، عقب الحرب الصليبية الأولى بزمن طويل. وسيكفي مثل واحد: مثل الشاعر ماركابرو .(Marcabru) ففي عام ١١٣٧، نظم هذا الشاعر الجوّال المتحدر من أوكسيتانيا، عدة أغنيات بغية دعمه جهود ملك قشتاله الحربية، في عصر بات فيه المرابطون يتحكمون مجدداً بأقدار إسبانيا، وباتوا يهددون ويتوعدون جاعلين استعادة الأرض الاسبانية في تقهقر. وحث الأمراء والفرسان من أكيتين، بل أيضاً من بواتو، وبيري، وفرنسا أيضاً ، على القيام بالحرب المقدسة مستهدفين مسلمي إسبانيا. وفي إحدى أغنياته، قارن الشاعر هذا العمل الحربي - الذي لابد من النهوض به على أرض قريبة جداً - بحوض غسيل من شأنه أن ينقي أشد الخطأة عناداً من مآثمهم الماضية:

السلام باسم الرب الإله!
هذي هي كلمات ماركابرو وموسيقاه.
إذ كان سيد السماوات،
بلطفه وحنانه
قد صنع "حوض مغسل " قريباً منا دنياً
بحيث لم يستطع إنسان يوماً
أن يرى له مثيلاً
إلا هناك ما وراء البحار بعيداً
هناك بمنحى بوشافاط*
وإنما لأجل من هو من هنا [المسيح]

---

* بوشافاط : رمز لمكان يوم الدينونة (يوم الحشر) يقع قرب أورشليم (المترجم) .

أحث القوم وأشجعهم،

[......]"

رغم هذا، كما نرى الأمر جيداً ، مهما كانت، في رأي ماركابرو، الحرب المقدسة في اسبانيا، فلن تستطيع أن تبلغ درجة استحقاق الحرب الصليبية من أجل أورشليم. فالحرب في ما وراء البحار" تحتفظ ببعد فريد، منوط بذكرى الأزمنة الكتابية "وضريح المسيح"، وبجميع الأصداء، الدينية منها والصوفية، للفظة " أورشليم"، وذلك في أذهان المؤمنين في تلك الأزمنة.

وإن هذه الأبعاد الخاصة بالحرب الصليبية صيّرت الحرب المقدسة حجاً يرتدي ثواباً بأسمى ما يكون، فغدت حرباً ذات قداسة فائقة.

الفصل الثالث عشر

الحرب الصليبية

استرداد الأرض المسيحية في المشرق

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٠٩٥، وعند ختام مجمع في مدينة كليرمون، أطلق البابا أوربانوس الثاني نداءه. فأجابه لفيف الجمهور المتحمس: " الله يريد هذا" فولدت الحرب الصليبية. وسوف تشغل اهتمامات الأذهان طوال قرون عديدة، وتُوسع الهوة مابين العالم الإسلامي والعالم المسيحي. بل ستفعل ذلك، مابين الكنيستين الشرقية والغربية، فتُسعر، بصورة دائمة، الأحقاد والضغائن، وتخلق أيديولوجيات وحتى أساطير لا يزال البعض منها مستمراً حتى أيامنا هذه. يا للأسف! وإذ نعرب هكذا عن الوقائع، فإننا نجازف مع ذلك بالمفارقة التاريخية. وذلك، لأن أوربانوس الثاني لم يعظ "بالحرب الصليبية" وما كان ثمة، في ذاك التاريخ، لا اللفظة ولا الكيان الذي تدل عليه. وإن استخدام هذه الكلمة في معرض وعظ أوربانوس الثاني، إنما هو مجازفة بإلصاقنا على ندائه، المضمون، والمعنى، والدلالات المصاحبة الانفعالية والإيديولوجية التي اتخذها هذا الاستخدام في نظرنا، نحن الذين نعرف، في أيامنا هذه، وأقله، بصورة بدائية، ما أفضى إليه هذا الأمر فيما بعد. وبكل دقة، لابد إذن من استبعاد لفظة الحرب الصليبية"، وعلى الأقل، بالنظر إلى ما يخص الحملة الأولى التي أشاد بها أوربانوس الثاني وحبذها. ولكن، يا ترى، بأي تعبير نستبدلها، إن لم يكن بهذا التلميح التعبيري نفسه؟

بالمقابل، ظهرت الكلمة "صليبي" باكراً جداً ، منذ تلك الحقبة الزمنية [أي: الموسومون بالصليب] فهي تترجم التزام من قاموا بردة فعلهم، حيال نداء البابا، صارخين " الله يريد هذا"، وراحوا يعملون، مباشرة، على خياطة صلبان على ألبستهم، معربين بما

يفعلون عن أنهم ينذرون بالاستجابة لندائه. ومنذئذٍ، سوف تطلق هذه الإشارة المادية للصليب اسم الصليب على المشاركين في المشروع هذا: فهم الصليبيون.

رأينا سابقاً ، أن مقاتلين، قبل هذا التاريخ بكثير، قد باتوا يحاربون، منتمين إلى هذه العلامة التي تحميهم. فهي تعبر، في آن معاً ، عن القضية التي يلتزمون بها، وعن الحماية التي ينتظرونها منها، طوال هذه العملية.

لكن، تُرى ما هو هدف هذا المشروع، الذي دعا إليه أوربانوس الثاني؟ وهنا أيضاً، لابد لنا أن نغض الطرف عما صارت إليه، فيما بعد، "الحرب الصليبية"، وعن المعاني المتعددة التي احتلت، منذ ذاك الحين، هذا التعبير حتى بلغت مقداراً مفرطاً وإنْ تقيدنا بما نعلم من أسباب كيانها، ومن الأهداف الأصلية للحملة التي دعا إليها أوربانوس الثاني، لكان الأمر يعني حث "محاربي" الغرب - مع رفد عملهم بقيمة من سر التوبة، معادلة لقيمة الحج - على الذهاب لتحرير قبر المسيح في أورشليم، ولتحرير طوائف الشرق المسيحية، من الاحتلال الإسلامي أيضاً.

لا يعني الأمر هنا ارتداد المسلمين، ولا إبادتهم، ولا فرض سر العماد على اليهود، طوال طريق المحاربين، ولا إنشاء مستعمرات لاتينية في المشرق، بل فقط إعادة السلطة المسيحية إلى نصابها على أراض كانت، فيما مضى، مهد الكنيسة، أراض لا تزال مأهولة بعدد عديد من المؤمنين بالمسيح، أراض تشتمل في أورشليم على الكثير من الاماكن المقدسة، وخاصة على ضريح المسيح، المكان المفضل الذي يؤمه الحجاج بصفته الأول من المقامات المقدسة للديانة المسيحية، وزماناً طويلاً قبل روما وسان - جان - دو - كومبوستيل. وذلك، في عصر بقيت فيه خلال القرن الحادي عشر، رحلات الحج تنعم بالمزيد من الحظوة، ولابد من التشديد على هذه النقطة الأخيرة.

فالمشروع إذن، بصورة واضحة جلية، هو حرب مبررة لاسترداد الأرض المسيحية، حرب مقدسة، نوع من الجهاد المسيحي يسعى إلى إعادة وضع المؤمنين في ظل شريعة المسيح، وإعادة وضع أولّ أماكنهم المقدسة في ظل طاعة رجال الدين المسيحيين.

للمرة الأولى، شرع مسيحيو الغرب يواجهون حملات مثل هذه الحملة ويحققونها. وسنرى لاحقا الأسباب لما يسعنا اعتباره نوعاً من "التأخر فقد أجمع المؤرخون (وقد أسهبت أنا بذاتي، فيما مضى حول هذا المنحى) على الجوانب المجددة والثوروية، لنداء

أوربانوس الثاني. ورغم هذا، وبوجوه كثيرة، كان المشروع الذي دعا إليه البابا يعرب عن النتيجة المنطقية لتطور قد بلغ ختامه، وهو التطور الذي حاولنا وصفه في الصفحات السابقة.

غريغوار السابع و "حربه الصليبية"

لا جرم أن أوربانوس الثاني يقع في المنحى المباشر للفكرة الغريغورية الخاصة باسترداد الأرض المسيحية وتحرير الكنيسة.

إنه لا يُجدِّد، حتى عندما يعين أورشليم هدفاً لابد من بلوغه بوسيلة هذه الحملة العسكرية المتسمة بمسحة دينية. وسبق لغريغوار [غريغوريوس] السابع، في عام ١٠٧٤، أن تصور مشروع الحملة هذه حينما وصل إلى الغرب خبر الهزيمة التي مُنيت بها القوات البيزنطية في مانتزيكيرت، سنة ١٠٧١ وإن إمبراطورية بيزنطة، بعد أن قهرها الأتراك، ترتب عليها عندئذٍ التخلي لهؤلاء المرتدين الجدد إلى الإسلام، عن بقاع فسيحة من سوريا، تاركة لهم الباب مُشرَعاً على الأناضول التي سوف يحتلونها في السنوات التالية. ومنذ ذاك التاريخ، وقد بقيت أورشليم تحت إدارة العباسيين، سقطت هي، موقتاً، في قبضتهم. وعلم البابا بهذا الوضع. وتتيح لنا مراسلاته أن نعرف ردات فعله في هذا الشأن.

كما كنا نتوقع ذلك، رأى غريغوار في تقدم الأتراك هذا على حساب ما قد نستطيع أن نسميه مسيحية المشرق"، (غير أن حنين التوهم بمسيحية متحدة مازال في الأذهان) بصمة فعلة الشيطان. وإنه شيطان يسعى بعناد إلى الإطاحة بمعسكر الله، هادماً إياه من الداخل بالهرطقة وفساد رجال الكنيسة، وهادماً إياه من الخارج بوفرة نجاح الأتراك عسكرياً، وقد شدد البابا على ما يمنى به المسيحيون من اضطهاد ومذابح. بيد أنه قد اندهش جداً، حينما رأى دول هذا العالم تقف مكتوفة الأيدي عن ردٍّ فعل منها. فقرر أن يمسك بزمام مصير الكنيسة في هذا المضمار وأن يحشد جيشاً (رَ. النصوص، رقم ٢٢، في آخر الكتاب).

إن أخذ الأمور بناصيتها سيمضي بالبابا بعيداً جداً فقد سعى، بالتأكيد، إلى أن يقود شخصياً، حتى أورشليم، جيش النصرة هذا إلى مسيحيي المشرق. وفي عدة

رسائل بعث بها إلى أوفيـائه" - أولئك الأمراء المرتبطين بالكرسي الرسولي بصلات الطاعة الخاصة - راح يحفزهم على أن يرسلوا إليه جنوداً (Milites). وفي ٢ شباط / فبراير ١٠٧٤، كتب غريغوار إلى عدة أمراء مطالباً إياهم، "بمثابة خدمة للقديس بطرس"، النجدة العسكرية التي يدينون بها للبابوية، وقد وعدوه بها، فعزم على استخدام هؤلاء المحاربين، بقصد تنظيمه حملة عسكرية ستمضي إلى القسطنطينية، ذاهبة إلى إغاثة مسيحيي المشرق الخاضعين لجور المسلمين. وسعياً منه إلى تفادي لوم الناس له، وهو رجل الله، لأنه يعظ بالحرب ويعرض المسيحيين إلى المخاطر، فقد وضح بأنه ليس عازماً على فعل ذلك شخصياً وحسب رأيه، لن تكون ثمة ضرورة لإهراق الدماء: فإن مجرد التظاهر بالقوة سيغدو كافياً للتأثير على الأتراك فيجعلهم ينصاعون إلى التعقل. إلا أنه وعد، باسم شفيعَيْ روما القديسين (بطرس وبولس) بثوابات روحية لجميع من سيقتلون خلال الحملة هذه.

أعاد الكرة غريغوار على هذا الموضوع، في الأول من آذار/ مارس ١٠٧٤، خلال رسالة دورية وُجهت إلى جميع من يتوخون الذود عن الإيمان المسيحي فوصف فيها، بانفعال وتفخيم، وضع المسيحيين المأسوي في المشرق (بعد هزيمة مانتزيكيرت) الذي أخبره به مرسلون عديدون. فهؤلاء المسيحيون الشرقيون، حتى القسطنطينية تقريباً "يقتلون كمثل الدواب"، في منطقة باتت خراباً. وحث المسيحيين، من باب تضامن أخوي، أن يهبوا إلى نجدتهم، فذكر بأنه متأهب، من جانبه، لإغاثتهم بجميع الوسائل (رَ. النص رقم ٢٢ a، في آخر الكتاب).

في ٧ كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، وضح غريغوار مجدداً ما قد عزم عليه، في رسالة إلى الإمبراطور هنري الرابع. فبعد التنويه بآلام المسيحيين الذين يذبحهم الأتراك، الآلام التي أخبر بها للتوّ، قال إنه أطلق إلى المؤمنين نداءً لكي يحثهم، كما سبق أن فعل مخلصهم، على أن يبذلوا، بدورهم، حياتهم لأجل اخوتهم، وذوداً عن ناموس المسيح، وأكد أن نداءه قد بات مسموعاً وقال البابا إنه مستعد، فعلاً، إلى الذهاب شخصياً حتى قبر المسيح، في أورشليم، على رأس جيش قوامه ٥٠ ألفاً من المقاتلين قد غدوا تحت تصرفه (رَ. النص رقم ٢٢ b، في آخر الكتاب).

وجه غريغوار الكلام مجدداً، بعد أسبوع، إلى جميع المخلصين له، حاثا إياهم

على المجيء لمؤازرة إمبراطورية المشرق، وعلى دحر الكفار. وقرن هذا النداء بوعد ثوابٍ روحي لابد أنه، كما رأى، سوف يحفزهم على القتال في سبيل الله، أكثر مما يفعلون ذلك طبقاً لعادتهم، بصفتهم مقطعين أو مرتبطين، لأجل سيدهم الزمني، ولأجل مكتسبات مادية بائدة وزهيدة (رَ. النص رقم ٢٢ e، في آخر الكتاب). وكما نعلم، سيكرر أوربانوس الثاني، هو أيضاً ، هذا الموضوع في خطابه بمدينة كليرمون، إن صدقنا ، حول ذلك، شهادات من نقلوا لنا هذا الخطاب.

أخيراً ، في رسالة بعث بها غريغوار، في ٢٢ كانون الثاني/ يناير عام ١٠٧٥، أعرب فيها عن إحباطه العميق لرئيس دير كلوني الكاهن هوغ (Hogues)، وكما كتب: الشيطان يرهق الكنيسة من كل حدب وصوب: ففي الكنيسة الشرقية راح يثير الانشقاق اليوناني الذي يمزق وحدة الكنيسة، وفي الغرب، بَذرَ الفتنة دافعاً المؤمنين إلى السيمونية والهرطقة. في الشرق الأدنى، يسلح الشيطان أيدي الأتراك الذين يذبحون، دونما شفقة، المسيحيين الشرقيين، وها هم الآن يهددون القسطنطينية. وإزاء سكون الأمراء العلمانيين، الذي يأسف له البابا، ترتب على غريغوار أن يلجأ إلى جميع أوفيائه: فوعدهم بثوابات أبدية عوضاً عن خدمتهم المسلحة. فالقديس بطرس يستحق، بالتأكيد أن يخدم بوفاء أوفر مما هو حيال سيد دنيوي ليس بمقدوره أن يقدم سوى منافع مادية زهيدة وزائلة. أما حارس بوابة الفردوس، [القديس بطرس] ، فهو يضمن لهم خيرات أبدية، وغفران جميع ذنوبهم، ويكفل لهم الديار السماوية. فكيف يلبثون مترددين؟

جميع هذه النصوص واضحة جداً فمنذ غريغوار السابع، نجد فكرة الحرب المبررة قد باتت مؤكدة بجلاء، وهي حرب ذات ثوابات وتطبق على عملية عسكرية تنطلق من الغرب، وقد وعظ بها البابا (وسوف يقودها بذاته، وهو أمر جديد وغريب وخارق حقاً!) ، لإسداء العون إلى إمبراطورية بيزنطة، ولإغاثة مسيحيي المشرق، ولدرء الغزاة المسلمين، واسترداد الأراضي المسيحية المحتلة، لا حتى إنطاكية وحسب، وقد احتلها الأتراك حديثاً ، بل أيضاً حتى أورشليم، وقد لبثت تحت نير المسلمين، منذ ٤٣٦ عاماً.

نعلم أن هذا المشروع لم يتحقق يوماً ، ولئن كان ذلك من جراء نزاعات المسيحيين الداخلية. لكن، لم تغدُ الحرب المقدسة إلا حرباً قد تم الإعراب عنها أيديولوجياً، وبوضوح، وحرباً تم خوضها ، للمرة الأولى، على مسلمي المشرق.

ولنذكر أن العملية هذه، بوسيلة هذا الانتقال، راحت تغادر تحّركية" [حالة ما هو متحرك (Mouvance)] القديس بطرس، لكي تلج تحّركية المسيح بذاته. وإن هؤلاء الصليبيين المحتملين، إذ ذهبوا لدحر الكفار إلى أبعدَ من أورشليم، بقصد تحرير ضريحها، لم يعودوا جنود القديس بطرس وحسب: بل أصبحوا، على المزيد من منطق أورليمبو، جنود المسيح (Milites Christi).

أوربانوس الثاني: الحرب الصليبية والحج

راح أوربانوس الثاني - بعد ذلك بعشرين عاماً - ينكفئ إلى المواضيع ذاتها، في ندائه بمدينة كليرمون. بيد أنه أضاف، بارتجال شخصي، عناصرَ لها المزيد من تعبئة الجماهير، عناصر تشرح، شرحاً وافياً ، النجاح الذي نعم به نداؤه.

هيا بنا لنوضح، أولاً ، النقاط المشتركة العديدة.

كما فعل غريغوار السابع، خاطب أوربانوس الثاني محاربي الغرب لكي يطلب منهم المضي إلى نصرة اخوتهم في المشرق، واصفاً هؤلاء بأنهم على خطر داهم، فالأتراك يقتلونهم. وكما قال غريغوار، فقد استند إلى تقارير مرهبة وصلت مؤخراً إليه حول المطالب والتجاوزات غير المحقة والاضطهادات التي يعاني منها مسيحيو المشرق. غير أنه أضاف إلى ما سبق آلام الحجاج والمخاطرالمحيطة بهم أثناء ذهابهم إلى أورشليم، ولربما غدا هذا الموضوع قائماً على مزيد من التناسب لتحريك عواطف المسيحيين الذين يخاطبهم، وذلك في عصر صار الحج فيه أحد أهم الأشكال للروحانية الجديدة التي فرضت نفسها في الغرب، في ذاك الحين. فحوافز التضامن المسيحي والمحبة الأخوية، قد باتت إذن متماهية، عملياً

وعلى غرار ما فعل غريغوار السابع، لم يكتف أوربانوس الثاني بأنه أوصى بمعونة عسكرية إلى الإمبراطورية البيزنطية. فإن التباعد الذي قد لوحظ مابين بيزنطة والغرب قد يكون، دون شك، تسبب بتعبئة للجماهير هزيلة، نظراً إلى هذه القضية. فأعطى البابا إذن هذا العون العسكري شكل تظاهرة للمحبة الأخوية التي يقتضيها الله من ذويه المسيحيين. فإن كنيسة الشرق، بصفتها مؤسسة، هي حقاً بعيدة وعلى شيء من "الانشقاق" ، إلا أن مسيحيي المشرق هم قبل كل شيء، اخوة في الإيمان بالمسيح.

علاوة على هذا بكثير، أكّد كل من غريغوار وأوربانوس على الهدف المنشود: على أورشليم وتحرير ضريح المسيح المقدس. فنوّها بأورشليم التاريخية والكتابية، المدينة المقدسة حيث كرز المسيح، وحيث مات، باذلاً حياته لخلاص ذويه. وأتاح هذا التذكير للبابا أن يربط التضامن الأخوي بحب المسيحيين لإلههم.

وأكثر من غريغوار، أفلح أوربانوس الثاني في استخدام هذا الموضوع والإفادة منه، وبهذا التصرف، لم يعد يقدم نفسه، كما فعل غريغوار، بصفته باباً رومانياً يدعو مؤمني القديس بطرس إلى أن يتبعوه ذاهبين لتحرير الأراضي البيزنطية حتى أورشليم، بل بصفته التامة كحبرٍ للكنيسة قاطبة، فحث جميع المحاربين، باسم المسيح على المضي لإنقاذ المسيحيين، من يدي أعداء المسيح، ولإنقاذ ميراثه، أورشليم والمكان المقدس بامتياز، ضريح المسيح المقدس.

مع هذا، فإن ذكر هذا الضريح لم يكن جديداً فقد كان مرجعاً واضحاً للبابا غريغوار السابع. لكن ما هو جديد هو التأكيد الجلي جداً الذي أكده البابا على مقصد هدفٍ قد صار في ذهنه الهدف الأعظم، ألا وهو: أورشليم ولحد المسيح.

كان للإلحاح على هذا الموضوع ميزة مزدوجة: فمن جهة، أفسح المجال، على نحو أيسر، ليحرك عواطف المسيحيين لأجل الأسباب المذكورة آنفاً ، ومن جهة أخرى، راح يماثل الحملة العسكرية بحج مسلح، سبق للتاريخ الحديث نسبياً أن احتفظ بذكراه، ولاسيما ذكرى الأساقفة الألمان لعام ١٠٦٥ وبالتالي، صارت الامتيازات، المنوطة حتى ذاك الحين بإنجاز حج إلى المقامات المقدسة في أورشليم، منوطة حقاً بالمشروع الحربي لاسترداد الأرض المسيحية التي سبق للبابا غريغوار أن فكر فيها. فهذا البابا قد وضع الخطوط العريضة لفكرة حملة ذات ثواب، لها ما يعادلها من المكافآت الروحية وغفران الذنوب والخطايا. إن أوربانوس الثاني قد فضل هذه الفكرة وحدها. والنص نفسه لمجمع كيرمون يؤكد هذا التفضيل فقال:

" كل من تحفزه التقوى وحدها، لا كسب الشرف أو المال، وكل من سلك طريق أورشليم متوخياً تحرير كنيسة الله، فلتُحسَبنّ رحلته بمثابة سر للتوبة وحسْب"

هناك اختلاف آخر بوسعه أيضاً أن يفسر أعظم نجاح حققه أوربانوس الثاني، وحتى بمعزل عن الظروف السياسية التي تغيرت منذ ذاك الحين: إن غريغوار لبث

يخاطب المؤمنين برسائل إلى "أوفياء القديس بطرس"، وخاصة أمراء أو ملوك مسيحيين محدودي العدد. أما أوربانوس الثاني، فقد حرر، في هذا الشأن، بضع رسائل (مثلاً إلى الفلاماندييين أو البولونيانيين) لكنه خاطب أيضاً الجماهير، في كليرمون أولاً ، ثم في مواقع عديدة جداً من فرنسا. وإيطاليا الشمالية، خلال جولة دعاوية طويلة الأمد، وإبان ذلك، قام هذا الخطيب البليغ الأريب بتحريك عواطف حشود الجماهير، وبث الحماسة في قلوبهم، وعبأهم، كما تشهد على هذا قصص عديدة لمن سمعوه يتكلم. وفي رسائله، كما في خطبه، توجه هذا البابا - وقد بات شعبياً جداً - مباشرة بكلامه إلى الفرسان، محاولاً (عبثاً في بعض الأحيان) أن يبعد عن السفر كل من هم ليسوا محاربين ممتهنين، والذين قد يغريهم تشبيهُه الحملة العسكرية بحج إلى الديار المقدسة، وخاصة منهم النساء ورجال الكنيسة، والرهبان (رَ. النص ٢٣، في آخر الكتاب).

إن نجاح ندائه قد تجاوز كل ما قد تمناه منه، كما أكد بعض المؤرخين. ولدينا هنا تأكيد لا طائل منه، ولا يتيسر التحقق منه: إذ لا أحد يستطيع أن يعرفَ ما كانت عليه، في ذاك الزمان، آمال البابا وأمانيه. والأمر الأكيد، بالمقابل، إنما هو مدى نجاحه، أو بالأحرى أتساع التعبئة التي استجابت إلى نداءاته، بعد لجوئه إلى العديد من الحوافز، المنوطة بالحج، وأيضاً بالحرب المقدسة، بل بالعقيدة الأخروية (رَ. النصوص رقم ٢٤، في آخر الكتاب).

كان هذا النجاح عظيماً ، لاسيما وأن أوربانوس الثاني لم يكن وحده مندرجاً فيه: فعلى سبيل المثال، قد قام الأساقفة بمتابعة رسالته، كل منهم في أبرشيته. ولم يأتِ الصليبيون من جنوب فرنسا وحسب، ولا من الجنوب الغربي، بل من الأكيتين الفسيحة، تحت قيادة ريمون دو تولوز، وقيادة أديمار - اللذيْن كان البابا قد فكر، لربما، في تنصيبهما على رأس هذه الحملة، أحدهما بمثابة رئيس للقتال، والآخر بصفته رئيساً روحياً ، مبعوثاً من قبل الكرسي الرسولي، ومكلفاً بتمثيل البابا - أو في الواقع، إن أوربانوس، خلافاً لما حدث مع غريغوار، لا يبدو أنه قد فكر في مشاركته في الحملة شخصياً ولم يفكر في ذلك أيضاً ، عندما قام الرؤساء الصليبيون، عقب موت أديمار في أنطاكيا، بحثه على المجيء لإنهاء "حربه" وعلاوة على جنود تلك الأقاليم، ويمكن اعتبارهم منخرطين في هذه الحملة بفضل ما دعا إليه البابا، فثمة آخرون ينتمون إلى

مناطق بعيدة جداً أحياناً ، ولم يسبق لهم أن سمعوا نداء البابا، ولعلهم لم يسمعوا أيضاً نداء الأساقفة الذين كرّروا ما دعا إليه حبر روما.

وإلى رسائل البابا ومواعظه وتوجيهاته تضاف، في واقع الأمر، المبادرات - التي لم يتم السيطرة عليها - والواردة من بعض"الوعّاظ الملهمين" الذين أثاروا حماس الجماهير. وجميعها، بالتأكيد أقرب إلى عقليات الشعوب وإلى تصورهم "الحرب المقدسة"، من خطب رجال الكنيسة، والأوفر تقيداً ، ببعض الفطنة العقائدية، مهما كانت ضئيلة.

ونحن على علم بأحد هؤلاء الواعظين: وهو بيير ليرميت [بيير الناسك] (Pierre l' Ermite)، وقد لبث يزعم أنه تلقى مباشرة من المسيح مهمة الدعوة إلى السلاح، دعوة المسيحيين لإنقاذ ضريحه، وان المسيح، كما كان يقول، قد ظهر له فيما كان يصلي على الضريح، إبان حج سابق إلى أورشليم، وطلب منه العودة إلى بلده لأجل دعوة مسيحيي الغرب إلى الإغاثة. ولبث يقول إنه قد تلقى رسالة من بطريرك أورشليم تضمن هذه المهمة وتهيب بمحاربي الغرب لإنقاذِ مسيحيي الشرق المقهورين. وما كان بيير يتردد في استخدام "خوارق الأمور"، بل يقدم - إن صدقنا بعض الشهود - "رسالة هبطت من السماء" وتُرى: هل كان هذا تلميحاً إلى الرسالة المذكورة آنفاً ، والمفترض أنها صادرة عن البطريرك ؟ أم تلميحاً إلى رسالة أخرى صادرة، صدوراً مباشراً بمقدار أكثر من السماء؟ لا أحد يعرف هذا. لكنْ، ثمة، بالتأكيد، تعبير عن مطالبة باستقلالية ذاتية، والتأكيد على تدخل أعجوبي مباشر من الله، يدعو إلى الحرب "المقدسة"

إن الموهبة اللدُنّية والشخصية للناسك بيير قد كانت، علاوة على ذلك، موهبة تتخطى المألوف، وتسهم في المصادقة على هذه الموهبة. وقد شهد على ذلك غيبير دو نوجان، - وهو يتسم بمسحة من الغيرة - في الوصف الذي وصف به نجاح بيير لدى الجماهير، فيما كان يعظ في منطقته. ولعله لم يقدم بعد على الدعوة إلى الحرب الصليبية، بل إلى سر التوبة والمصالحة وحسب. وفي غضون هذا المسعى، لبث " شيء ما إلهي ينبثق منه، كما قال غيبير، بحيث أن لفيف الجمهور كان يزدحم حوله، وراح البعض ينتزعون أيضاً وبراً من بغله لكي يصنعوا منه ذخائر (رَ. النص رقم ٢٥، في آخر الكتاب).

وهكذا نرى أن المنحى الصوفي والمنحى التعصبي قاما بفعليهما. كما نرى هذا الأمر أيضاً في التأثيرات المحدثة، إن لم يكن بوعظ بيير ليرميت نفسه، فعلى الأقل،

بوعظ البعض من منافسَيْه: وهما الكاهنان فولكمار (Volkmar) وغوتسشلك (Gottschalk) اللذان وعظا في ألمانيا، وبمقدار أوفر أيضاً ، كاهن يدعى إميخ (Emich)، وقد توصلوا، لصالحهم، إلى الترقب الأخروي الذي سبق لنا أن تحدثنا عنه، وإلى النزعة المناهضة للسامية التي طفقت تتطور في مناطق نهر الراين، حيث مكثت تعيش جماعات يهودية عديدة وقديمة جداً وثرية بما يكفي.

كان بيير ليرميت قد اكتفى بابتزازه منهم بعض الأموال، لكونه مزوداً (مرة أخرى) برسالة توصية من يهود فرنسا "تنصح" يهود الراين بأن يوفروا له الإعانات المالية المطلوبة. ويحسن بنا ألا نتساءل بإفراط عن أية وسائل ضغط قد استطاع بها الحصول على رسالة مواتية بهذا المقدار لأهدافه هذه. أما إميخ فقد مضى إلى ما هو أبعد أيضاً "فقدم نفسه بصفته هو بذاته "ملك الرومانيين واليونانيين" هذا الذي، كما كان الناس يظنون، لابد من مجيئه في نهاية الأزمنة ليتربع ملكاً على أورشليم، ولكي يردَّ إلى المسيح العائد تاج ملكه، على جبل أشجار الزيتون. وإن التقتيل الذي ارتكب على يهود منطقه نهر الراين - وهنا هي مذابح اليهود الأولى الحقيقية في الغرب - قد نجم، قبل كل شيء، عن إخفاقه في "ردهم" بالقوة.

تروي لنا حوليات المدن الألمانية هذه الوقائع بإجماع كبير، بجملة مقتضبة، تكاد تكون دوماً نفسها: "في تلك السنة، تم عماد الكثير من اليهود" وكان الناس يظنون، في ذاك الزمان، طبقاً للتفسير الذي يعطى أحياناً للنبوءات، أن اليهود قبل ظهور المسيح الدجال، سوف يحزمون أخيراً أمرهم إما لأجل المسيح وإما على المسيح، وأن الأكثرية منهم سوف تنضم إلى الدين المسيحي. ولكن، إن قبل البعض منهم الإذعان، في واقع الأمر، لقبول عمادهم، في ظل التهديد أو القسر، فقد رفضت غالبيتهم بإصرار هذا الارتداد وفضلوا أن يُذبحوا في نوع من الهولوكست الطوعي. وإن صليبيي إميخ المتعصبين قد أبدوا استياءهم من هذا التصرف، كما أبدوا خيبتهم، مبرهنين - إن لزم البرهان - بأن تقتيل اليهود لم يكن هدفهم الأول.

لكن هؤلاء الواعظين، إذ جعلوا في صدارة أمورهم بعض الحوافز وروحانيات متنوعة يطالها الجدال، فقد نالوا نجاحاً نستطيع وصفه بأنه نجاح هائل. فإن بيير ومنافسيه قد اجتذبوا خلفهم بضع عشرات الآلاف من الرجال، إن صدقنا التقديرات التاريخية المألوفة للحرب الصليبية. وقد مثل هذا قرابة ثلث الصليبيين بجملهم.

إذن، "الحرب الصليبية الأولى حرب متعددة، وذات أشكال كثيرة، مجددة، ثوروية، بيد أنها استمدت أيضاً جذورها من منبت عميق قديم، عند نهاية تطور استمر قرابة ألف عام، وقد حاولت الصفحات السابقة أن ترسم خطوطها الموجّهة الأولية. وانطلق هذا التطور من رفض الحرب، وأدى إلى قبولها، ومن ثم إلى إعلاء قيمتها حتى بلغت منح الاعتبار لمفهوم جديد صادر عن "العهد القديم" لكن الإنجيل يرفضه: وهو الحرب المقدسة أي النسخة "المسيحية" للجهاد الإسلامي.

ويبقى علينا التساؤل: ترى لماذا تمت الدعوة إلى الحرب المقدسة في ذاك الحين الدقيق؟ ولماذا نعمت بمثل هذا النجاح؟ وبأي شيء تشبه الجهاد أو تتمايز عنه، أو تستجيب له، أو تستمد منه وحيها؟.

هذا ما سيكون موضوع الفصل النهائي.

الفصل الرابع عشر

الحرب المقدسة، الجهاد، الحرب الصليبية
هل الحرب الصليبية جهاد مسيحي؟

مذهب تعدد الآلهة، مذهب التوحيد، التسامح

إن بعض المفكرين في الغرب، وضعوا، حديثاً ، الخطوط الهامة لدفاع عن تعدد الآلهة، ولإنتقاد يطال مذهب التوحيد، وهي خطوط هامة تقوم على أساس أخلاقي. وبمساعدةٍ من دُرجة [الموضة mode] "الجِدَّة" لقيت هذه الأطروحة، في بضعة من أوساط "المثقفين" ، نجاحاً ملحوظاً ، في فرنسا كما في بلاد غربية أخرى. ومن حيث الجوانب، يسعنا أن نربط هذه الأطروحة بالنزعة المستمرة، التي ظهرت منذ قرابة نصف قرن، إلى النقد الذاتي المنتظم في الغرب والذي أقدم عليه مفكروه أنفسهم. وقد بات هؤلاء متأهبين بسرعة ومناهضين كل عقل لجعلهم الغرب الذي يصفونه بأنه "يهودي/مسيحي مسؤولاً عن جميع كوارث العالم. فيحسن بنا إذن أن نلفت الانتباه، خلال بعض الوقت، إلى النزعة هذه.

طبقاً لهذه الأطروحة، قد يكون مذهب تعدد الآلهة، بوسيلة انفتاحه، أوفر "تسامحاً " ، وأقل ميلاً إلى العنف من مذهب التوحيد الذي يؤكد - كأمر مطلق و"حقيقة" وحيدة - وجودَ إله واحد أوحد. وإن المؤمنين بالوحدانية، برفضهم الآلهة المتعددة، قد ينزعون، على نحو طبيعي جداً إلى اللا تسامح إلى شيطنة "الكافرين" ، إلى شرعنة العنف حيالهم، إذن إلى الحرب المقدسة. وقد تكون هذه الحرب ملازمة لمذهب التوحيد، لكنها حرب غير واردة في إطار مذهب تعدد الآلهة، ومن ثم قد يكون هذا المذهب أوفر احتراماً للقيم التي تُعدُّ حالياً قيماً عالمية، أعني بذلك قيم "حقوق الإنسان"

بوسع هذه الأطروحة أن تبدو مغرية للمؤرخ، لأنها تقوم على أساس التحليل "الفلسفي للوقائع التاريخية التي تبدو مؤكدة. غير أن هذه الأطروحة لا تصمد تماماً أمام التفحص، وذلك لعدة أسباب.

السبب الأول يرتبط بالتعريف نفسه للتسامح من حيث الدين: ينزع المرء أحياناً إلى أن يخلط "التسامح" بـ "اللامبالاة" أو "القبول" أو "الاندماج" أو منحى "المذهب المسكوني والحال هذه، فإن فرداً وحده، غير مبال بالواقعة الدينية، بمقدوره الاعتبار، في واقع الأمر، أن جميع الآلهة (أو جميع الأديان) "على قيمة واحدة"، دون إبداء أقل تفضيل حيال مظهر أو آخر من مظاهر الواقعة الدينية. وليس الأمر على هذا المنوال في نظر الملحد: فهو على نقيض ذلك يرفضها كلها، أو في نظر اللا أدْري (agnostique) الذي لا يأخذ بأية واحدة منها، لكنه يدع المسألة مفتوحة كما يدع امكانية اكتشافه أو تبنيه واحدة منها، إن وفرت له، ذات يوم، الراحة والرضى على صعيد التَفكُّر. وجميع هذه المواقف الفكرية حديثة العهد، ونادرة، وقلما ظهرت في تاريخ البشرية. وهي بأكملها غير متواجدة في العصر الذي يعنى به هذا الكتاب.

وبالمقابل، إن الاندماج، أكان تمثلاً أم تبنياً ، قد بات قديماً وقد كان هذا، بكل دقة هو الموقف الأكثر انتشاراً في تعددية الآلهة قديماً فالوثنيون، بقبولهم وجود إله خلف كل مظهر من مظاهر الطبيعة، ما كانوا يرون، في الواقع، أية صعوبة لتبنيهم آلهة جدداً بأعداد لا نهاية لها، إذ خافوا على العكس من ذلك، أن يزعجوا الآلهة التي من المحتمل أنهم قد نسوها، سهواً. ويفضي هذا التصور، في آن معاً ، إلى مذهب الشكلانية: (Formalisme) وإلى تضخم مجمع الآلهة (Panthéon)، بحيث أن تعقيد هذا التضخم استتبع، بسرعة، غياب وإهمال كل علاقة شخصية تقوم على أساس الحب. وهذا الأجراء " التضخمي" قد أشار إليه واستغله خطاب القديس بولس الموجه إلى مجمع حكماء أثينا: فقد امتدح الأثينيين بفكاهة وظرف، على ورعهم وتدينهم. بحيث أنهم نصبوا هيكلاً " لإله مجهول" ثم، أكد، متلاعباً بالكلمات، أن الإله المسيحي الذي يدعو إليه هو، حقاً ، هذا الإله المجهول لديهم. إنه الله الخالق، الواحد الأوحد، المحب للبشر الذين خلقهم، حتى إنه أراد أن يخلصهم من الموت [الهلاك الأبدي] فوفّر لهم الحياة الأبدية.

إن التأكيد هذا على إله واحد فريد يعد بالحياة الأبدية قد صدم الوثنيين وأثار عداونهم. فقد سبق لهم، حتى ذاك الحين، مع شيء من التحفظ، أنهم "دمجوا" أو "تبنوا" غالبية الأديان، وفي ضمنها الديانة اليهودية، مع أنها، هي أيضاً، تعظ بإله واحد وخالق. وقد تمكنوا من هذا، بمقدار ما بدا لهم هذا الدين محصوراً في شعب خاص: وفي نظرهم، كان يَهْوَ إله اليهود، على شاكلة ميركور إله السارقين والمسافرين والبائعين. وحتى ذاك الزمان، كان مجمع الآلهة اليوناني/ الروماني قد أثرى بالعديد من الآلهة المحلية التي يعبدها أهالي مناطق باتت مندمجة في الإمبراطورية، وتم تبنيها بصفتها آلهة. وحيث أن الشعب اليهودي احتفظ بخاصية الذات العرقية، فلم تعد ديانته الخاصة تمثل أية مجازفة في نظر المذهب الوثني الروماني.

بادئ ذي بدء، تم إدراك الدين المسيحي على هذه الشاكلة. لكن تشتت الشعب اليهودي، من جهة، والنزعة إلى المنحى الخلاصي للديانة المسيحية، من جهة أخرى، وهو وجه هذا الدين الرسولي، لم يلبثا أن كشفا الطابع الذي يستعصي على توافق عبادة الأصنام ومذهب التوحيد اليهودي/المسيحي. فالتأكيد على إله واحد فريد mon-othéisme خالق لجميع الكون، ويدعو جميع البشر إلى الخلاص بالإيمان، كان معادلاً لنفي سلطة الآلهة الأخرى أو حتى لنفي وجودها. فراح الوثنيون يماهون إذن الدين المسيحي بمذهب الإلحاد athéisme، فَمُنِيَ أتباعه بالاضطهاد، بصفتهم لا دينيين وملحدين ينفون آلهة تحمي الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم بصفتهم أعداء الإمبراطورية في داخلها ومذنبين، بجريمة كبرى، جريمة النزعة اللاوطنية.

تم إدراك الدين الجديد المسيحي ديناً يستعصي على التمثل من قبل الدين الوثني الروماني، تماماً كما بدت الوثنية تستعصي على التمثل من قبل الدين المسيحي. وليس هذا ممكناً إلا بظاهرة تمثل الآلهة الوثنية في قدرات سماوية تابعة لله، كملائكة أو قديسين. لكن التعبد للملائكة، وخاصة للقديسين، لم ينشأ إلا فيما بعد بكثير في داخل الدين المسيحي. وفي ذاك التاريخ، ما كان من المتيسر أن تتواجد ظاهرة الدمج.

لم تُبد الإمبراطورية الرومانية أي تسامح حقيقي حيال الدين المسيحي: وحيث أن هذا الدين لم يكن قابلاً للتمثل في ديانة روما، فلم تحظ هذه الديانة الجديدة بالوضع القانوني لديانة شرعية: وبالنتيجة، كان من المحتمل حظرها في كل حين، واضطهاد

معتنقيها فيسلمون إلى الموت. فمن الخطأ الفادح التأكيد أن المذهب الوثني قد تبدى، بطبيعته، وتاريخياً ، أوفر تسامحاً من مذهب الوحدانية. فلدينا هنا خلط بين التسامح وبين القدرة على التمثل أو الاندماج.

إن شتى الأديان التوحيدية قد مارست، إلى جانب ذلك، نفس نموذج الموقف. وهكذا ، استطاع الدين المسيحي، نسبياً "أن يتقبل" أو "يدرج" ، في تصوره الخاص للإيمان، الدين اليهودي. فلا جرم أن الديانة المسيحية قد انبثقت عنه، فكان بوسعها اعتباره كمنتم إلى الديانة الحقيقية ذاتها ، هذه الديانة التي كانت تأتي فقط - بالإنجيل وبرسالة المسيح - لتجلب إليه تتمة وحي كتابي سابق، وحي لم تقدم الديانة المسيحية على نبذه. فرسالة المسيح كانت تعتبر تتمة تنجز الرسالة التوراتية، أي تتمة كاملة. لكن، على عكس هذا ، لم يستطع الدين اليهودي أن يتمثل ولا أن يقبل رسالة الإنجيل دون أن يتبنى، بالفعل ذاته، الديانة المسيحية فينضم إليها.

وكذلك، فإن الإسلام استطاع أن يقبل في داخله العبادتين اليهودية والمسيحية، بمقدار ما كانتا تعتبران منبثقتين من ديانة واحدة وهي ذاتها التي أوحي بها ، فيما مضى، لإبراهيم، والأنبياء، ثم إلى يسوع، وقد أتى محمد، بالقرآن الذي نقل إليه، ليكون خاتمة الكمال لهذا الوحي، مقوماً بذلك "الإفسادات" التي ألحقها به من سبقوه. وعوضاً عن ذلك، فإن الإسلام، بمقدار أقل من الدين المسيحي، ما كان يقبل في أي شيء، تواجد الأديان الوثنية، فهي لا ترضى البتة بالمتمثل في الرسالة الإسلامية المركزية، ألا وهي التأكيد على أن الله إله واحد، بمعزل عن أي "شريك" له.

وعلى عكس هذا ، ما كان المسيحيون يقبلون الصفة هذه للنبي محمد، ورتبة القرآن الأولى بصفته وحياً ، دون أن يغدوا مسلمين، بهذه الصفة ذاتها. وكان التمثل/الاندماجي ممكناً في منحى واحد، ومستحيلاً في المنحى الآخر: فمن المحتمل أن هذا التمثل الاندماجي ربما عنى الزوال، انحلالاً دونما شرط. إذن، كان من المحتمل للمسيحيين والمسلمين، كما رأينا سابقاً ، دون أن ينكروا ذواتهم، أن يتقبلوا" الدين اليهودي، كما كان بمقدور المسلمين "أن يتقبلوا" اليهود والمسيحيين، دون أن يصير عكس ذلك ممكناً

وعندنا ، على نحو خاطئ، يتم الحديث في هذا الشأن عن " التسامح" tolérance.

فالتسامح لا يعني، في واقع الأمر اللامبالاة، ولا نزعة الغموض والالتباس (Confusionnisme)، ولا التمثل، ولا الاستيعاب أو الاندماج. إنما هو الاعتراف العقلي "بحق" كائن بشري في اعتناقه رأياً دينياً لا يتقاسمه إنسان آخر، بل قد ينبذه للعديد من الأسباب، ولأسباب غامضة أحياناً (بسبب الجهل، التقاليد، عدم الفهم، الخ) إنما هو الاعتراف له، لا بالحق في الوجود وحسب، بل بحق الجهر بإيمانه، وممارسته ممارسة حرة، وإعلانه، وجعل الآخرين يتقاسمونه. وينطوي إذن هذا الموقف على حرية الضمير والوعي، وحق التوجه التبشيري (Prosélytisme) والحق لكل فرد في تغيير ديانته دون قسر ولا شرط. ولا ينطوي البتة على الانضمام، وحتى الانضمام الأدنى، إلى العقائد والممارسات لهذه الديانة التي يمكن انتقادها ودحضها، ولكن بوسيلة حجج العقل وحدها، وبمعزل عن اللجوء إلى الترهيب، أو الضغط، أو القسر، أو الإستقواء، وأقل أيضاً بوسيلة الاضطهاد أو الحرب. ويعني هذا الموقف، في الحقيقة، الاعتراف بكرامة الشخص البشري، وحقه في الخطأ، مع احتمال بذل الجهد، على نحو سلمي دون إرغام، لتنوير حكمه الذهني، بقصد أن يدرك هذا الخطأ وبقصد الذهاب به إلى ضوء حقيقة أمثل.

والأمر يعني أن التسامح، الذي نعرفه بهذا الشكل، لم تتم قط ممارسته في التاريخ، لا عن طريق مذهب تعدد الآلهة و لا عن طريق شتى أشكال الوحدانية التي تعاقبت على كوكب أرضنا. وليس التسامح هو أيضاً كذلك في أيامنا الراهنة، إن لم يكن الأمر، بدقة، في البلاد التي أنجزت "الثورة الثقافية" داخل منحى العلمانية laicisme. والحال هذه، لابد من الاعتراف بأن هذه الظاهرة لم تتحقق، على الصعيد العملي، إلا في الغرب، رغم كونه على تقليد يهودي/ مسيحي، الأمر الذي يناقض بشدة الأطروحة القائلة بأن دين التوحيد قد يكون غير متسامح، من حيث طبيعته.

إن مشكلة الحرب، ولاسيما الحرب المقدسة، ترتبط بمشكلة التسامح دون اختلاطهما. وهنا أيضاً، لا يتبدى مذهب تعدد الآلهة polythéisme أقل عنفاً من مذهب التوحيد. وكان القديس إغسطينوس يعتمد أيضاً بقوة الحجة التاريخية هذه، بقصد أن يثبت تفوق الدين المسيحي على عبادة الأصنام الرومانية: وفي مؤلفه "حاضرة الله" (Cité de Dieu) كتب أن أي شعب لم يكن أشد حرباً، وأشد غزواً وأشد عدوانية ووحشية مما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية الوثنية فهي على شاكلة آلهتها التي

لبثت، هي أيضاً ، تتقاتل وتتمازق فيما بينها. ومن جهة أخرى، فإن الرومانيين، إذ جعلوا من آلهة لا يحصى عددها حامية للإمبراطورية، وعلاوة على ذلك، بتأليههم روما ، وبإقامتهم التعبد للإمبراطور، قد شابهوا الدين بمنحى المواطنة Civisme، جاعلين، بالفعل نفسه، كل حرب يخوضونها من أجل الإمبراطورية حرباً مقدسة. وبذلك، باتت الإمبراطورية الرومانية إذن لا متسامحة حيال كل ديانة تستعصي على التمثل في دينها ، وإمبراطورية محاربة ومضطهدة. وإن الدين المسيحي والإسلام، بالحقيقة، قد تقفيا أثرها على هذا الصعيد.

بيد أن مذهب الوحدانية لا يشتمل، بالضرورة، على اللا تسامح، والعنف واللجوء إلى الحرب. ويبرهن على هذا مثل المسيحيين الأوائل، ولئن تمكنا ، بصورة مشروعة، من التساؤل عن معرفتنا إن كان ثمة احتمال في بقائهم على هذا الموقف هو نفسه إن ارتقوا إلى سدة السلطة. والسؤال هذا يلقى الإجابة عليه بسرعة: إن رفضهم العنف والحرب لم يكن، في واقع الأمر، إلا أحد أشكال رجائهم. وهذا الرجاء، بعزوفه عن السلطة الدنيوية، ظل ينحى إلى ملكوت الله، منتظرين منه التجلي الوشيك. وإيمانهم بإله واحد خلاق قد جعلهم، بالتأكيد، ينبذون الآلهة الأخرى، بل راح يحدوهم على أن يعتبروا كل إنسان، ولئن كان وثنياً أو عدواً ، بمثابة خليقة من الله، بل "قريبهم"، وكائناً بشرياً جديرا بالاحترام لكونه مخلوقاً مثلهم، على صورة الله الواحد الأحد. ولبثوا يشعرون لزاماً عليهم بأن يردوه إلى خالقهم، بوسيلة المثل الصالح، أو التبشير، أو بالمنطق، أو بالمحاججة التوراتية، ولكن وفي أي وضع كان، لا بالقوة ولا عن طريقة أخرى للضغط عليه. إن احترام الحياة البشرية هذا ، احترام الكائن الإنساني بصفته الإنسانية هذه، هو الذي ذهب بهم، بصورة جد طبيعية، إلى نبذهم اللجوء إلى الأسلحة. وهذا يعني، في هذا المنظور لعدم العنف لدى الدين المسيحي الأصيل، أن الحرب كانت منبوذة، والحرب المقدسة غير معقولة، فيستحيل تمثلها في الدين المسيحي، حسب كرازة "يسوع"، وحسب ممارسة المسيحيين طوال القرون الأولى.

كان الهدف الأهم لهذا الكتاب أن يبين بأية سيرورة تاريخية قد ابتعدت كنيسة الغرب، شيئاً فشيئاً ، عن هذا الموقف الذي صمّم على اللا عنف، لأجل قبولها بفكرة الحرب، ثم لأجل قدسنة الحرب، حتى أعدت في داخلها مفهوم الحرب المقدسة، ملتحقة

هكذا بالجهاد الإسلامي الذي، من جانبه، قد قبلها منذ أصل جذوره. وإن حلف الكنيسة مع السلطة، وانصهار السياسة والدين، هما العاملان الأساسيان لهذا التغير. وكما رأينا سابقاً ، قد حدث كل هذا، فعلياً ، في الدين المسيحي والإسلام على السواء. فكان الحلف ما بين الدين والسياسة مكوناً للإسلام، فقد لبث محمد، في آن واحد نبياً ورئيس دولة، وقائد حروب. ولم يكن هذا الحلف في الدين المسيحي، ولم يتحقق بمقدار تام، إلا في ختام ثورة دامت قرابة ألف سنة.

الحرب الصليبية، مآل الحرب المقدسة

أظهرت الصفحات السابقة كيف تم، في الغرب خاصة، التحول البطيء لموقف المسيحيين الذهني حيال الحرب واستخدام العنف المسلح. وطوال هذا التحول القريب جداً من الانسلاخ، ثمة عوامل عديدة قد تدخلت، فحولت شيئاً فشيئاً منحى التصور، الذي كان في الأول سلبياً جداً حيال هذا الاستخدام. وفي جميع الحالات تقريباً ، كان الأمر يعني تطوراً منوطاً بالضرورة الملاحظة لحمايةٍ ما، لدفاعٍ ما، بالمعنى المجازي الواسع لهذه اللفظة. وبوسعنا جمع هذه الحالات في فئتين خامتين، حسبما ورد الخطر من داخل المسيحية، أو على عكس ذلك، من خارجها.

في داخل المسيحية، كانت المخاطر التي تهدد الكنيسة هي التالية: على الصعيد الأخلاقي والعقائدي: الهرطقة، الانشقاق، الزوغان، الفساد الأخلاقي، مثلاً السيمونية simonie (أي الاتجار بالأشياء المقدسة، قابلية بيع، أو شراء، الوظائف الكنسية) والنيكولانية nicolaisme (مصطلح يشير بمجمله إلى لا أخلاقية الأكليرس، ولاسيما الفسوق، وأكثر أيضاً ، التسرّي). وحيال هذه الأخطار، اعتبرت الكنيسة، في حين باكر جداً - بمثابة أمر شرعي - تدخل السلطات المدنية، بغية أن تكبح "المخطئين" أو تسلمهم إلى القضاء. وقد لجأت أحياناً، بصورة مباشرة أكثر، إلى قوات الدولة المسلحة (وتعتبر كقوات للشرطة) لكي تمارس سلطتها القامعة على هؤلاء "الهرطوقيين": ولدينا أمثلة على ذلك ترجع إلى عصر القديس أوغسطينوس [٣٥٤ - ٤٣٠].

ينجم هذا الموقف من تَصورٍ فحواه أن القوانين الأخلاقية التي امتدحتها الكنيسة، في رحاب الإمبراطورية المسيحية، كان ينبغي أن تفرض أيضاً على مواطني هذه

الإمبراطورية. وفي هذا الشأن، لا يختلف موقف الديانة المسيحية كثيراً عن موقف الإسلام، فهو أيضاً يُعد قوانين أخلاقية ووطنية قاسية جداً ، فعلى الدولة أن تجعل المواطنين يحترمونها، وهي دولة تعاقب "الهراطقة" بالقوة. غير انه من الممكن التشديد، في هذا المضمار، على "تسامح" له المزيد من المدى عند الإسلام، إن لم يكن هذا حيال من "يهرطق" في داخله، فأقله حيال من يتبعون أدياناً موحدة أخرى، من مسيحيين ويهود، مع تباينات طفيفة ذكرت آنفاً

ثمة خطر من نوع آخر، وهو خطر مادي يهدد الكنيسة أيضاً أو، بمزيد من الدقة، يهدد الكنائس، المؤسسات الكنسية. ففي وقتٍ غدت فيه الكنيسة ثرية، بنتيجة الهبات التي استفادت منها، أثارت ثروتها، بالطبع بعض الأطماع. وفي مجتمع فلاحي، أرضي، سوف يسمى فيما بعد إقطاعياً ، امتلكت الكنائس، والأسقفيات، والأديرة، أراضي وغابات، وكروماً ، وطواحين، وجسوراً فكانت إقطاعات عقارية وفي الحين ذاته، إقطاعية عامة، تعادل الإقطاعات العلمانية، بل في بعض الأحيان، تعادل اقطاعات الكونتات. وأدت حماية هذه الممتلكات (وحماية أشخاصها أيضاً) بالكنيسة إلى أنها راحت توبخ وتدين، وتلعن، وتشيطن، كل من يلحقون الأذية، بطريقة أو أخرى، بميراثها، أو بشكل أعم بمصالحها. ونرى ذلك، مثلاً ، في أنظمة مؤسسات السلام وفي قِصَص العقوبات العنيفة التي يلحقها القديسون بمن يلحقون الأذية بمصالحهم، أو في النصوص المتعلقة بالمحامين أو المدافعين عن الكنائس. فهؤلاء المكلفون بحماية الكنائس رأوا أنفسهم، في الحين ذاته، وقد تسامى شأنهم وتم تبريرهم في ممارسة وظيفتهم المسلحة، كما تبين ذلك جملة طقوسٍ لتنصيب المحامين أو عبارات تبارك أسلحتهم وبيارقهم.

إن تهديدات كهذه طالت أيضاً كنيسة روما، لاسيما وأنها قد كوّنت لنفسها بوسائل تطالها المجادلة، أو كونت لنفسها إقطاعة خاصة تنزع إلى اتخاذها وضع مَلكية قانونية، لكونها "تراث القديس بطرس فتوجب عليها أن تدافع عن ذاتها بقوة السلاح، إما مباشرة، بوسيلة محاربين تجندهم، وتؤدي أجورهم وتعلي شأن قيمتهم أيديولوجيا، وإما بصورة غير مباشرة، مكلفة بحمايتها قوة علمانية يُعترف بها، وهي، على الصعيد التقليدي، القوة التي تسيطر على ايطاليا وتذود عنها: أي الإمبراطورية الجرمانية، وريثة الإمبراطورية الرومانية في ربوع الغرب.

خلال القرن الحادي عشر، جرت عملية "تحرير" الكنيسة عن طريق تعزيز نزعة المَلكيــة البــابوية. وإن النزاع الأيديولوجي والمسلح الناجم عن هذا المنحى، مع الإمبراطور، اشتمل، في صدد موضوعنا، على عواقب كبرى.

العاقبة الأولى هي قدسنة متزايدة لجميع من يندرجون في هذا النزاع إلى جانب البابا، وشيطنة متزامنة لأعدائه، مهما كان وضعهم. وقد تصاعد مستوى القدسنة هذا بحيث نستطيع منذئذ الحديث عن حرب مقدسة في معرض بعض الصراعات، وخاصة عندما يقاتل من يخوضونها، قتالاً مباشراً ، في سبيل البابوية في ايطاليا. والبرهان الجلي على هذا هو وضع شهداء الباتاريا [وهي رابطة من ميلانو كانت تهدف إلى إصلاح الأكليروس].

العاقبة الثانية هي التباطؤ الشديد، والموقت على الأقل، في مشاريع "الحرب الصليبية" التي نزع إليها، في حين ما، غريغوار السابع. ومن المحتمل جداً أن قدسنة الحرب التي تنجز، في الخارج، على الوثنيين"، سبق لها أن بلغت مستوى يشبه مستوى الجهاد في عالم المسلمين، وذلك منذ مطلع القرن الحادي عشر، وقد تصاعد المستوى هذا، في النصف الثاني من هذا القرن. وإن الحملة التي راودت ذهن غريغوار السابع والتي لم تتحقق، لم تُبْعِدْ أي شيء من المدى الأيديولوجي لمبادرته: فقد شهدت على استكمال، يكاد يغدو كاملاً ، لفكرة الحرب المقدسة، وحتى فكرة الحرب الصليبية.

من المؤكد أن المخاطر الخارجية قد عززت، باكراً جداً ، المسيرة البطيئة والمترددة أولاً، نحو فكرة الحرب المقدسة. وتواجدت آثار هذه المسيرة الأولى في المشرق، ثم في الغرب، وخاصة حين وردت الأخطار المهددة من المسلمين، المُشَبَّهين بالوثنيين، للعديد من الأسباب التي سبق ذكرها. وإن الغزوات ـ وأحياناً ما حُسبت كعقاب موقت من الله ـ قد أدُركت هي أيضاً بمثابة مرحلة انتقالية سيغلقها الله عما قريب. وطفق النضال على مجتاحي الأراضي المسيحية سابقاً ، يرتدي المزيد من القيمة والقدسنة، وبمقدار أوفر أيضاً عندما كان الأمر يعني الذودَ عن قلب المسيحية في الغرب، وهو روما المهددة من حين إلى آخر. وصدٌّ هؤلاء المحاربين. وظهَرَ، للمرة الأولى، خلال القرن التاسع، الوعد بمكافآت روحية تمنح لمن يلقون حتفهم وهم يقاتلون هؤلاء الخصوم الذين يُشَبّهون بأعداء الكنيسة والمسيح. ولدينا هنا عنصر أكبر، مميز للحرب المقدسة. وتَعزَّز

هذا التطور نحو فكرة الحرب المقدسة تعزيزاً أضافياً عن طريق شيطنة المسلمين، والصورة السلبية جداً ، الكاريكاتورية نوعاً ما والتي تصورها الغرب عنهم.

منذئذٍ، في المرحلة هذه، غدت الحرب المقدسة قريبة أيما قرب، من الجهاد، مع فارق يمثل سمات عديدة سوف نعود إليها لاحقاً وبوسعنا، حينئذٍ، التساؤل لماذا لم تظهر الحرب الصليبية في وقت أبكر، بصفتها مآلاً للحرب المقدسة التي اعتُبِرَت استعادة لمهد الدين المسيحي. وسبق لغالبية عناصر حرب مقدسة كهذه قد باتت مجتمعة، قبل عام ١٠٩٥ بكثير، وفي تلك الظروف، لا ينبغي أن نندهش من الطابع "الجديد" لهذا المشروع أكثر من اندهاشنا بسبب "تأخره" النسبي.

لماذا حدث مثل هذا التأخر؟

انطلاقاً من بداية الاجتياحات العربية، كما رأينا سابقاً ، أملَتْ بعض الأوساط المسيحية أن تكون سيطرة الإسلام ذات مدة قصيرة، فاتكل المسيحيون في الغرب على الإمبراطور الروماني (إمبراطور بيزنطة) لقهر العرب، وإعادة السلطة الرومانية والمسيحية إلى نصابها على تلك الأراضي المجتاحة. وإن لم تنجح فكرة الحرب المقدسة في توطّنها شرقاً ، فذلك، قبل كل شيء، كان من جراء الحرص العقائدي الكبير لدى سلطات الكنيسة الشرقية التي ندعوها "أرثوذكسية" فالمعركة التي خاضها بهذا المنحى الأباطرة [البيزنطيون] باتت تبدي العديد من سمات القدسنة، سمات تبلورت، مثلاً ، في الرايات وفي حماية واردة من القديسين العسكريين.

بيد أن استرداد الأراضي [المسيحية] الشرقية، قلما كان من الممكن توقعه بطريقة غير اللجوء إلى الجيوش البيزنطية، وبقيادة الإمبراطور نفسه. وإن هذا الاسترداد قد اتخذ، قبل كل شيء، حين نجاحه في بعض الأحيان، ميزات حرب على الجوار. وخلال بعض الفترات، استقر توازن سياسي، وهدأت حدة التوتر، مابين الكيانين - أي الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، والإمبراطورية العربية المسلمة - وهكذا كان الوضع، بصورة خاصة، طوال القرن الحادي عشر، حين راحت مخاطر أخرى تهدد القسطنطينية.

بالمقابل، إن فكرة الحرب المقدسة، في الجانب الغربي، بدأ تكونها شيئاً فشيئاً كما أبدى ذلك هذا الكتاب. فبلغت، منذ القرن الحادي عشر، مرحلة نضوجها. غير أن

القطيعة مع الشرق، أو أقله، بعده الجغرافي والأيديولوجي، في آن واحد، لم يسمح بتطورها وبتطبيقها باتجاه أورشليم، قُطب اجتذابها الطبيعي. فالحرب المقدسة قد ظهرت، في البداية إذن، غرباً ، ولاسيما في المناطق التي لبثت، في آن واحد، على اتصال بالغزاة المسلمين القدماء " المشيطنين في تلك المناطق المنوطة إيديولوجيا بروما، وهي العامل الرئيسي للقدسنة الإيديولوجية. وهذا هو وضع كلٍ من اسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية......

إن فكرة الحرب المقدسة، لكي تلقى الإعراب الكامل عنها، بقيت تحتاج، من الجهة المسيحية، إلى اقتران هذين العاملين: مستوى كافٍ لرفع قيمة الحرب ولقدسنتها، وحالة من التوتر السياسي/العسكري من شأنه أن يخلق صدمة انفعالية تتيح لهذه القدسنة أن تتعاظم، فتعرب عن ذاتها في الأفعال وفي الكتابات، في آن معاً

من جهة أخرى، كان الأمر كذلك، بالنسبة إلى الجهاد، مع بروز فارق، وهو أن هذه القدسنة للحرب قد تم اكتسابها منذ أمد بعيد في ديار الإسلام، أي منذ فجر الإسلام. فما كان من الضرورة فيه إلى أي تطور عميق، وأقل أيضاً ، إلى ثورة عقائدية بغية تبني هذه القدسنة. فلم يطرأ على الجهاد، طوال الفترة المعنية هنا، سوى تعديلات ضئيلة جداً مرتبطة بتعريف الجهاد، بالتعبير عنه، بتدوينه العقائدي والقانوني. وهذا هو السبب الذي دعا هذا الكتاب إلى أن يتشبث، بصورة رئيسية، بوصفه تطوراً لفكرة الحرب المقدسة في الدين المسيحي حتى المرحلة حيث أفضى الأمر بالفكرتين إلى تلاقيهما على القسط الأعظم من جوانبهما وسماتهما.

وبالمقابل، إن فكرة الجهاد هذه، وقد باتت مقبولة ومعدة، منذ زمان طويل، لم تزدهر أيضاً ازدهاراً مستديماً فالجهاد، كمثل الحرب المقدسة، يحتاج، كيما يزدهر، إلى بعدٍ انفعالي وسيكولوجي، وهو عنصر مصادفاتي تخلقه الظروف التاريخية أحياناً إبان بعض فترات التوتر.

وفي كلا الحالتين، تمّ اجتماع هذه الظروف قبل نهاية القرن الحادي عشر بكثير. ومن المحتمل أنها أدت إلى تفاقم الحرب المقدسة. وقد وجدت الحالتان، مثلاً في اسبانيا، حوالي عام الألف، عندما أُوقِفَت فجأة الروكونكيستا الاسبانية عل يد المنصور الذي عكس حركة الاسترداد هذه، وطفق، باسم الجهاد، يستعيد أراضي شبه الجزيرة

الاسبانية. وهذا ما كان بوسعه بث الخشية من عودة قوية إلى الأوضاع القديمة للسيطرة الإسلامية: فاحتل أيضاً برشلونة عام ٩٨٥، مرغماً الكونت دو بوريل (Borrel) على الاستنجاد بالملك الكارولانجي، لويس الخامس، ثم بالملك الكابيتي الجديد هوغ (Hugues). فارتأى هذا الأخير حملة عسكرية، بموافقة البابا العتيد سيلفيستر الثاني (جيربير دورياك)، واستفاد من ذلك ليعمل على تتويج ابنه روبير، فيما بقي هو على قيد الحياة، مثبتاً بذلك سلالته على سدة العرش. لكن نزاعهُ مع شارل دو لورين أمده بحجة لكي يتقاعس عن مشروع الحملة العسكرية.

تكاثرت انتصارات المنصور: ففي سنة ٩٩٧ احتل سان جان دو كومبوستيل ونهب المدينة. واصطحب معه، على نحو رمزي، أجراس كنائسها إلى قرطبة. وكما رأينا سالفاً، وبهذه الفترة ذاتها ارتبطت أقدم عبارة لعقيدة الشهادة التي حصل عليها بعض الرهبان وقد فقدوا حياتهم إبان القتال: فلكي يتصدوا لمسلمي الغرب، ورغم حالتهم الرهبانية، تقلدوا الأسلحة ذوداً عن "الوطن والإيمان المسيحي" وفيما بعد ببضعة أعوام، سنة ١٠٠٤، أعلن الملك سانشوو دونافار نفسه بطلاً للمسيحية وراح يستعيد الأرض المحتلة، وقد اغتنم مناسبة انحطاط خلافة قرطبة. وفي عام ١٠٣١، "تفجرت" هذه الخلافة واستُبدِلَت برؤساء الطوائف. وقد أتاح ضعفهم ومناحراتهم، للملوك المسيحيين أن يستعيدوا المبادرة: فباتت، في آن معاً ، عسكرية ودبلوماسية: فكان ثمة غارات، وغنائم، وأتاوات، وتحالفات، قد لبثت مواتية لهؤلاء الملوك. وتغلبت "سياسة الأمر الواقع" الفاعلة (Realpolitik)، عندئذٍ على إعلان الايدولوجيا.. فوضعت الحرب المقدسة في طيّ النسيان، من جهة وأخرى، وأقله موقتاً

هناك ظرف آخر قد يكون تسبب بالصدمة الانفعالية القادرة على الشروع بالحرب المقدسة، وقد ظلت على طورها البدائي في الغرب المسيحي: ونحن هنا في صدد هدم كنيسة القبر المقدس على يد الحاكم بأمر الله عام ١٠٠٩ فهذا الأمير الذي كان مسلماً غيوراً عند بدايته، قد توخى "تنقية" الدين الذي ظلَ يمارسه معاصروه، فراح يضطهد النزعات الانفصالية عن الإسلام، قبل أن يوسع نطاق اضطهاداته إلى اليهود والمسيحيين، ثم بدأ يغور في جنون العظمة حتى بات يعتقد أنه من كنه إلهي. وهناك بعض المؤرخين، مسيحيون منهم ومسلمون، رأوا فيه رجلاً قد فقد عقله. وخلال إحدى

نوباته، أصدر الأمر، منذ ١٠٠٤، بهدم كُنُس اليهود والكنائس في إمبراطوريته، وقد أفضى هذا الأمر، في عام ١٠٠٩، إلى هدم كنيسة القبر المقدس التي بناها الإمبراطور قسطنطين [القرن الرابع].

فيما مضى، استقطب هذا الأمر اهتماماً بالغاً ، فالحادثة " غير معقولة" خارقة، ورأى البعض فيها سبباً بعيداً للحركة التي أدت إلى الحرب الصليبية. فذكروا أن هذه الواقعة قد باغتت الغرب وأثارت استنكاره، بحيث أن أديمار دو شابان وراوول غلابير، في سعيهما إلى تفسيرها، قد تصورا مؤامرة حاكها يهود الغرب. فقد شدد كلاهما على مسؤولية اليهود، فألمحا إلى حملة عسكرية كان الغرب يعدها على المسلمين، حملة قد يكون هدفها الإطاحة بسلطة الحاكم بأمر الله. فأخبره اليهود بذلك، ونصحوه بهدم الضريح لكي يتفادى تلك الحملة العسكرية.

لا نرى، من جانب آخر، كيف كان بمقدور هذا الهدم أن يبلغ هذا الهدف، والواقع هو عكس ذلك تماماً ! وبالطبع، التفسير هذا زائف خادع. وفي هذه الرواية المزدوجة للوقائع، أمر جلي له الصدارة، ألا وهو، مناهضة الدين اليهودي. فمن أجل تبرير تقتيل اليهود، وعمليات التقتيل حقيقية تماماً ، وقد حدثت في المناطق الخاصة بكل من المؤلفين، حوالي عام ١٠١٠، فالمؤلفان اللذان دونا ما حدث (وعلاوة على هذا، ببعض المحاباة المناهضة للسامية) نسبا ذلك إلى غضب المسيحيين الساخط حيال نبأ اضطهادات الحاكم هذا وهدمه الضريح المقدس. فقد أقاما على اليهود مسؤولية هذا الهدم متصورين مؤامرة حقيقية من يهود فرنسا، الذين وشوا لخليفة مسلم بخطر يهدد عرشه: أي الحملة الغربية التي تعد عليه. فهنا، بكل وضوح، عكس مزدوج للحولية وللمنطق. فالمنطق قد يقتضي، على نقيض ذلك، أن الحملة المفترضة هي بالأحرى النتيجة أكثر منها السبب في هدم الضريح واضطهاد المسيحيين.

إذ قرّبت هذه التشويهات الأيديولوجية النصوص هذه من الثرثرات العدوانية - وهي التشويهات المقرونة بشيء من عدم الدقة في حوليات المؤلفين - فقد أدت بغالبية المؤرخين إلى التقليل من أهمية هذه النصوص، بل إلى رفضها كاملة بفحواها. أما في أيامنا هذه، فثمة نزعة إلى إهمال هذه النصوص، وإلى الخلوص بأن هدم القبر المقدس لم يترك أدنى اثر مباشر في الغرب. وهنا، كما يبدو لي، يجري تسرع مفرط في الأمور.

فرغم هذه التشويهات الجلية، لا نستطيع أن نحذف تماماً من هذه النصوص القسط الانفعالي الذي تشهد له بسبب نَبَأ الهدم هذا، ولئن أفسدت معنى هذا النبأ وحرفته. فإن فكرة حملة مسلحة في الشرق (وقد يكون اليهود وشوا بها) قد ذكرت فيها حقاً أكانت الحملة حقيقية أم لا (ومن الأرجح أنها متخيلة)، فذكر مثل هذه الحملة يكفي للبرهنة على أن الفكرة كانت، نوعاً ما، تنمو في أقاويل الناس (رَ. النص رقم ٢٦، في آخر الكتاب).

هناك وثيقة أخرى، يطالها المزيد من الجدال أيضاً - ليس في معناها وحسب، كما في الوثيقتين السابقتين، بل في أصالة صحتها - ولابد من ادراجها في هذا الملف.وتُعرف هذه الوثيقة باسم "رسالة سيرجيوس الرابع البابوية (المزيفة)". وفي هذا النص، يُذَكِّرُ البابا (وهو مؤلفها المفترض) بآلام المسيح الذي وفر الخلاص للمسيحيين مشرعاً لهم باب الحياة الأبدية. فمَن ارتكبوا الخطايا، بمقدورهم، حقاً، الذهاب، بصفتهم تائبين، إلى ضريح الرب، "حاملين صليبهم" كما فعل المسيح، بقصد أن ينالوا بذلك غفران مآثمهم. وهذا ما قد فعله الكثير من المسيحيين حتى الآونة - كذا يوضح النص. غير أن طريق الخلاص هذه، كما يضيف البابا، قد باتت منذئذٍ مغلقة. وفي الواقع، ورد للتو نبأ مذهل إلى روما: هدم القبر المقدس منذ حين، بأيدي مسلمي المشرق الكفرة.

ذكر البابا أن هذا النبأ قد أقلقه بشدة بل أذهله، وراح يتخطى إدراكه. وشرح سبب ذلك: لاشيء، في الواقع، لا في النصوص المقدسة ولا في كتابات آباء الكنيسة، يوحي بأن هدماً كهذا قد أنبئ عنه، أو أعلن عنه، أو " توقعه" الله، نوعاً ما. فالأمر بالتالي "غير عادي"، إنه فعل كفر جدير بالعقاب. فالبابا يعلن بوضوح عزمه على الإبحار، على رأس المسيحيين الراغبين حقاً باتباعه ماضين إلى القتال، بل إلى قتل العرب الهاجريين (Agaréniens) [من سلالة هاجر وكانت أَمَة ابراهيم المصرية وأم اسماعيل] الذين يقترفون مثل هذا الانتهاك للحرمات. سيذهب المقاتلون "فينتقمون لله" كما فعل في ماضي الزمان الأباطرة الرومانيون طيطوس وفيسيا زيانوس، وأعادوا ضريح المسيح المقدس إلى سابق عهده. لم يشك البابا في الانتصار، ولا في المكافآت الروحية التي سيمنحها الله لمن قد يموتون في هذا القتال المقدس: فسوف ينعمون بالحياة الأبدية (رَ. النص رقم ٢٧، في آخر الكتاب).

لدينا هنا نص على جانب عظيم من الأهمية، مهما كان تأريخه وصحة أصالته.

فإن كان موثوقاً به، فنحن نجد فيه وثيقة قيمة لأنها تشير إلى التواجد الباكر لفكرة الحرب المقدسة التي تخاض في سبيل ضريح المسيح، وهي حرب مشفوعة بوعود روحية. وهذه الوثيقة مزدانة بالعديد من العبارات التي تؤذن بالحرب الصليبية، حرب غريغوار السابع، وعلاوة على ذلك، حرب أوربان الثاني. وإن ميزة هذا النص الباكرة جداً ، وتشابه مواضيعه الشديد بالمواضيع التي سيطورها أوربانوس الثاني، فيما بعد بنحو قرن، قد أديا بعلماء نهاية القرن ١٩ إلى رفض هذا النص بصفته مزيفاً مختلقاً . وكما قيل، من المحتمل أن هذا النص تم تأليفه في مواساك (Moissac)، إبان جولة أوربانوس الثاني الدعاوية لأجل الحرب الصليبية والتي وعظ بها في جنوب فرنسا، خلال ربيع سنة ١٠٩٦

إن هذه الأطروحة، وقد باتت حتى الآن مقبولة على نطاق واسع، طالها الجدل حديثاً، جدل مصحوب بحجج قوية موفقة. إذن، من المرجح جداً أن تكون الوثيقة المعنية موثوقة من حيث جوهرها. وإن صح الوضع هذا، فإنه يصبح لدينا في هذا النص أقدم تعبير عن حرب مقدسة نظمها أحد الباباوات: فهو، قبل غريغوار السابع (١٠٧٤) قد قرر أن يقود شخصياً حملة مسلحة معدة لقتال المسلمين (ويشار إليهم هنا - لابد من التنويه بذلك - بكلمة: (Agarenes)، أي العرب من ذرية هاجر، لا بكلمة أتراك، كما سيقول هذا فيما بعد أوربانوس الثاني عقب ظهور الأتراك السلجوقيين [١٠٣٧ - ١٣٠٠] في الشرق الأدنى)، ولإعادة بناء وترميم القبر المقدس، ولكي تُشرِّعَ مجدداً هذه الطريق الحقيقية للخلاص التي لا غنى عنها، أمام مسيحيي الغرب.

لكن، إن كنا، على نقيض هذا، في صدد تزييف تم اختلاقه عام ١٠٩٦، فلابد لنا، على الأقل، من القبول بأن فاعليه لبثوا يستذكرون، في ذاك التاريخ، الهدم القديم للضريح على يد الحاكم، وأنهم اعتبروا هذا الهدم جديراً بشن حملة انتقامية واستحقاقية. وفي كلتا الحالتين، لا يمكننا تفادي الخلوص إلى أن هدم الضريح المقدس يعتبر بمثابة إهانة خطيرة جداً أُلحقَت بالله، وهي تبرر شن حرب مقدسة يدعو إليها البابا وينظمها، حرباً تُشفَعُ بثوابات روحية، وهي: بلوغ ملكوت الله. ولا يمكن القول إذن، كما ينزع البعض إلى فعل ذلك أحياناً ، إن أورشليم، بصورة عامة، والقبر المقدس، خاصة، كان لهما قبل الحرب الصليبية، تأثير ضعيف نسبياً على أذهان مسيحيي الغرب.

ومن المؤسف، أنه ليس لدينا أي أثر، باستثناء الرسالة هذه، لمثل هذه الحملة التي عزم عليها البابا في مطلع القرن الحادي عشر. فإن تم العزم حقاً على المشروع، فهل يا ترى قد تم العدول عنه بسرعة شديدة؟ هذا العدول ممكن. ولنذكر هنا، أن غموضاً مثله يشمل الحملة التي راودت ذهنه، عام ١٠٧٤، ذهن غريغوار السابع. وفي واقع الأمر، قد وطد البابا العزم عليها، كما تبرهن على هذا عدة من رسائله أصيلة الصحة. فإن عدم التحقيق وغياب شهادات أخرى في هذا الصدد لا يبرهنان إذن مطلقاً على أن الفكرة لم تكن، عندئذٍ، ماثلة في بعض الأذهان، منذ سنة ١٠١١، وإنما هذا هو فقط ما يستقطب اهتمامنا. وعلى عكس ذلك، إن كانت الوثيقة مزيفة، فإن المرجعية إلى هدم كنيسة الضريح المقدس، بصفته موضوعاً حافزاً، يكشف، على الأقل، أن هذا الهدم قد مَهَر بأثر عميق بما يكفي الأذهان والذاكرات لكي يُلمح إليه، فيما بعد بخمسة وثمانين عاماً، في وثيقة شُفعَت بهذه الحادثة، على نحو وهمي مختلق.. وفي كلتا الحالتين، تم اعتبار "الكوارث" التي مُني بها القبر المقدس مبررة تماماً حملة عسكرية معدة لإنجاز تحرير هذا الضريح، فتم تماثلها بحرب مقدسة.

ومن الممكن لوثيقة أخرى أن تؤكد على هذا التحليل. وفيما مضى، قد اعتبرت مزيفة. أما الآن، فقد اعتُرِفَ بها صحيحة كل الصحة. والأمر يعني هنا الرسالة ذات الرقم ٢٨ من جيربير دورياك (Gerbert d'Aurillac) وقد أصبح بابا باسم سيلفيستر الثاني [البابا، ٩٩٩ - ١٠٠٣] (رَ. النص ٢٨، في آخر الكتاب). دون أي شك، نحن هنا في صدد تمرين أسلوبي إنشائي قديم، يجعل فيه جيربير كنيسة أورشليم تتكلم، وهي التي يصفها حالياً مهدمة، منهارة، رغم مالها من هيبة قديمة: ففي هذه المدينة قد تكلم الأنبياء، وولد المسيح [؟] وعاش ومات وقام من بين الأموات. ومنها انطلق الرسل للكرازة بالإنجيل عبر المسكونة. وبريشة الكاتب، تلجأ إلى الكنيسة جمعاء لكي تجعلها تضطرب وتتحرك حيال وضعها الحزين، ولاسيما وضع الأماكن المقدسة، وتطلق نداء إلى "جنود المسيح" يذكي العواطف: لا جرم أنهم يعجزون عن المجيء لنجدة أورشليم بالسلاح، لكن، أقله، بوسعهم دعم كنيستها بإغاثتهم المالية، لأنه ينبغي بقاء الضريح المقدس بقاءً أبدياً، حتى ختام الأزمنة، فالنص يوضح هذا الخلل بقوله:

ومع ذلك، رغم أن النبي قال: سيكون قبره مجيداً، فالشيطان يسعى إلى

حرمانه من هذا المجد مستخدماً الوثنيين الذين يهدمون الأماكن المقدسة. فهلا تنهض، يا جندي المسيح .[Miles Christi]* انهض براياتك منتصبة وقاتل معي. وحيث أنك تعجز عن المجيء لنصرتي بالسلاح، فأغثني بنصائحك، ومُدّني بثرواتك.

لا يُعرف التاريخ الدقيق لتحرير هذا النص (فقد كتب على أي حال قبل سنة ١٠٠٣) الذي يشير إلى الذهنية والحساسية الدينية حوالي عام الألف: فأورشليم والضريح يحتلان فيه مقاماً من الخطأ التقليل من شأنه. فقد كان ثمة وعي، في آن معاً، لوحدة الكنيسة حول هذا المكان المقدس، ووعي للتهديدات المتثاقلة على هذا المكان، ولهشاشة وضعه، و"لامتهانه" على يد الكافرين. ونُذكر هنا بفرضية تدخل مسلح في المشرق، ولكن لكي تُستَبعَد في الحال: فأورشليم بعيدة بعيدة.

لكن فكرة تدخل كهذا منوط بالقبر المقدس، ومهما حدث في أورشليم، قد ولدت في الأذهان خلال مطلع القرن الحادي عشر. ومن الممكن أن تبدو عسيرة للإنجاز، بيد أنها قُبِلَت بصفتها ممكنة، بل وبصفتها منشودة. خيرة، مشفوعة بثواب. وكانت كذلك، حيث أن فكرة الحرب المقدسة قد بلغت درجة من النضج جعلتها متيسرة للتصور. وهذه الفكرة تلتحق، هنا تقريباً ، بفكرة الجهاد: ومثل الجهاد يعوزها فقط، لكي تتحقق، اقتران الانفعال (وهذا هو الوضع مع القبر المقدس) بظروف مؤاتية له. وهذا الوضع المواتي لم يتحقق حوالي عام الألف، فالغرب لم يكن في ذاك التاريخ في حالة تتيح له التدخل في المشرق: فهنالك العديد من النزاعات تفرق المسيحية، وأوشكت البابوية أن تلج فترة يسيطر عليها الأباطرة. فلابد من انتظار الإصلاح الغريغوري لكي تتحرر من تسلطهم. ومن ثم، وهنت الفكرة أو أقله، باتت في خدر النعاس، دون أن تتحقق.

من الممكن ملاحظة الظاهرة ذاتها، من جانب المسلمين، مثلاً في إسبانيا. فبعد انتصارات المنصور، انتقلت المبادرة إلى الجانب المسيحي، ولم يعد شيء من الأهمية لرؤساء الطوائف أمام ملوك الشمال المسيحيين: غير أنهم، رغم اختلافهم، ورغم الخشية التي انتابتهم من العاهل المرابط في المغرب الذي يهابون منه ما سوف يحدث في الواقع (أي فقدان استقلالهم، وعزلهم على يده، بل أسرهم) فلابد من التصميم على اللجوء إليه ليقود القتال على المسيحيين.

وبعد أن خمدت فكرة الجهاد حتى ذاك الحين، راحت تستعيد مكانتها، ولم يكن

تدوينها جديداً فقد سبق أن أعربَ عنها بوضوح جلي في القرن العاشر (رَ. النص ٢٩، في آخر الكتاب). وبرز الموضوع من جديد في اسبانيا المرابطين. ونجده بتواتر خاص في مذكرات عبدالله، ملك غرناطة الزيريدي الأخير[١]: فهو يروي وصول الأمير يوسف بن تاشفين إلى الجزيرة [إسبانيا] ملبياً دعوة أبيه. وهكذا، فإن المعتمد [سلطان اشبيلية، توفي ١٠٩٥] قد أرسل إلى الأمير المرابط "سفراء لإعلامه أنه ينبغي عليه التأهب لشن الحرب المقدسة، واعداً إياه بالتخلي عن "الجزيرة" لصالحه" فطمأنه الأمير المرابط بقوله: "لقد وعدتنا بالجزيرة! لكننا لا نأتي لنأخذ مدنا أو نلحق الأذية بسلطان ما! فليس قدومنا إلا توخيا لشن الحرب المقدسة!" وإذ اطمأن ملكا أشبيلية وغرناطة، وقد نالا من يوسف بمعاهدة، ضمانات خاصة باستقلالهم، انضما إليه لكي تخاض الحرب المقدسة (رَ. النص رقم ٣٠، في آخر الكتاب).

قامت الظروف هنا بدور يواتي الجهاد: أمام تهديد الفونسو السادس، تحالف الأمراء المسلمون مع يوسف ملتحقين به في سبيل الجهاد. وفاز يوسف، على الجيوش المسيحية، بانتصار زلاقة (١٠٨٦) الحاسم، واحتل مجدداً للإسلام القسم الأعظم من الأراضي التي استردها المسيحيون. بيد أنه أفاد من ذلك ليضع نهاية للدويلات الإسلامية المستقلة، فخُلع عبد الله وانتهت حياته في الأسر.

وبالتالي، أقلق انتصار يوسف الفونسو السادس، وجعل فكرة الحرب المقدسة تلد مجدداً لدى المسيحيين.

من الممكن ملاحظة الظاهرة نفسها في شأن المشرق.فبعد الاندفاع الإسلامي التالي لانتصار مانتزيكرت، أطلق [الإمبراطور البيزنطي] اليكسي نداء إلى الغرب للحصول على عون عسكري. فنتجت عن ذلك الحرب الصليبية الأولى، مع المدى الذي نعرفه والناجم، بصورة رئيسية، عن انتشار وقيمة أعطاهما البابا لهذه الحرب، وقد استردت البابوية قواها حديثاً واعتبرت الدولُ الإسلامية المشرقية هذه "الحرب الصليبية" ظاهرةً ثانوية، لا أهمية تذكر لها. إلا أن نجاحها أيقظ بعد قليل فكرة الجهاد التي ظلت على شيء من الرقاد، كما تشهد على هذا، منذ عام ١١٠٥، صيغة معاهدة دمشقية (رَ. النص رقم ٣١، في آخر الكتاب).

---

١ – حكم الزير يديون غرناطة من ١٠٢٥ حتى ١٠٩٠ (المترجم).

أسباب النجاح الشعبي للحرب الصليبية

لقيت الدعوة إلى " الحرب الصليبية"، منذ سنة ١٠٩٦ نجاحاً عظيماً لدى مسيحيي الغرب، وخصوصاً لدى العلمانيين. فما هو سبب مثل هذا النجاح؟ أسباب هذا النجاح عديدة، تماماً كمثل حوافز الفرسان المشاركين في هذه المغامرة.

بالطبع، كان هناك قسط من الحوافز المادية. وكان البعض من الباحثين يغالون فيها طوعاً ، منذ ثلاثين عاماً ، وربما بتأثير من المذهب الماركسي الذي يفضل الأسباب الاقتصادية للظواهر. وهذا القسط من الحوافز المادية حقيقي هنا، لكنه قد يكون زهيداً: فالرحيل [إلى المشرق] يكلف غالياً، والتسلح أيضاً، وينبغي على كثير من أرباب عائلات الصليبيين أن يبيعوا أو يرهنوا ممتلكاتهم سعياً إلى توفير الأود والإعالة المالية الضرورية لفرد واحد من أعضائهم. وكانت أخطار الموت، على الطريق، أخطاراً جمة جسيمة، ومن يبقون على قيد الحياة يعودون، بشكل عام، إلى ديارهم أشد فقراً بكثير منهم عند رحيلهم، إن لم يكن ذلك بسبب شرائهم ذخائر القديسين التي ابتاعوها في الشرق بغالي الثمن، غير أن البعض منهم، النادرين جداً ، يثرون جداً بالأراضي إن مكثوا ما وراء البحار، أو بالغنائم (المحوّلة إلى النقود)، إن عادوا إلى ذويهم. ولابد ألا تُبعَدَ، بسرعة بالغة، هذه الآمال المادية عن الحوافز الثانوية على الأقل لبعض أفراد الصليبيين، وذلك، مهما كانت هذه الآمال وهمية أو خيالية. وإن النجاح الحالي للألعاب وسحب اليانصيب يبرهن بما يكفي أنه ليس من الضروري أن يكون للمرء وفرة من الحظ للربح لكي يسعى أقله إلى حظوة المال والثروة.

لكن في نظر العدد الأكبر، لبثت الحوافز الدينية هي الحاسمة، وبمقدار كبير. والحال هذه، فالآمال الروحية الكبرى اجتمعت كلها في الحرب الصليبية التي جمعت حسنات الحج وثوابات الحرب المقدسة: غفران الخطايا بالاعتراف، وتكافؤ سر التوبة الكامل، الوعد بالحماية والثواب من عند الله، التمثل بشهداء الحروب للمحاربين الذين يقضون نحبهم على الطريق، أو من جراء ضربات المسلمين الذين باتوا مشيطنين ومشبهين بوثنيي العصور القديمة، الخ... (رَ. النصوص رقم ٢٢، في آخر الكتاب). وفي المشرق، لا يقاتل الصليبيون فقط لأجل كنيسة واحدة، لأجل شفيع قديس لدير ما، لأجل البابا أو القديس بطرس، بل في سبيل المسيح بذاته، وبقصد تحرير ميراثه وضريحه. فهم يترقبون من ذلك مباركات على هذه الأرض، وثوابات روحية في ملكوت الله.

البعض منهم (وليس فقط لدى أتباع إميخ) :Emich [صليبي زعم أنه ملك اليونان والرومان]، استنادا إلى تفسيرات للنبوءات يطالها الجدل، لعلّهم كانوا يأملون، أن المسيح نفسه سيعود إلى أورشليم، لكي ينهي معهم، سيطرة المسيح الدجال، ويعتقدون أن الكشف عنه قد بات وشيكاً فقد يسهمون، بذلك، مع المسيح وخلفه، في معركة التاريخ الأخيرة، فيجدون في الحال، بهذه الطريقة، مكافآتهم في الملكوت الذي يقيمه الله ألا وهو أورشليم الجديدة.

لهذه الأسباب كلها - ومن العسير أن نقدر أهميتها النسبية، لأنها تتمازج هنا ويضاف بعضها إلى الآخر - تم إدراك الحرب الصليبية بصفتها حرباً مقدسة لاسترداد الأرض المسيحية المحتلة، في تصور شامل قد قرب الحرب المسيحية المقدسة من الجهاد لدى المسلمين، وذلك في الذهنية الأوروبية المشتركة، خلال ختام القرن الحادي عشر. في واقع الأمر، حين ذاك التاريخ، وفي نهاية تطور على مدار ألف سنة، بدأت الحرب المقدسة المسيحية - وقد حاولنا هنا وصف ولادتها وتطورها - تلتحق بالجهاد ولعلها تجاوزته.

ورغم ذلك، تفوق الحرب الصليبية حرباً مقدسة. فهي أوفر قدسنة واستحقاقاً من جميع الحروب التي تحدثنا عنها حتى الآن، والتي جرت، في ربوع اسبانيا أو صقلية. ولابد لنا هنا من استخدام صيغة التفضيل: فهي في رأي المسيحيين في ذاك الزمان، حرب ذات قداسة أفضل بكثير"، للعديد من الأسباب المنوطة بماضي أورشليم وبالثقافة التوراتية التي تتشرب منها الديانة المسيحية. إن أورشليم لا تثير فقط الماضي القديم للعهد القديم، وأسلاف الإيمان أي الأنبياء والآباء الأقدمين، كمثل إبراهيم واسحق ويعقوب وداوود وسليمان، بل أيضاً المخلص، يسوع بذاته، الوحي المتجسد، الذي كرز فيها، ومات فيها، وقام من الموت فيها لكي يُشرِّع للمؤمنين به، أبواب ملكوت السماوات أي "أورشليم الجديدة"، بالتعبير الدقيق. أجل ان أورشليم تُذكِّر أيضاً بالمستقبل، بأزمنة الختام التي سوف تنقضي متى سينزل المسيح، في أورشليم أيضاً، وافداً من السماء، بقصد التغلب على المسيح الدجال وذويه غير المؤمنين بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة. وإن هذه العناصر الأخروية، المنوطة بمعركة التاريخ النهائية، تضيف المزيد أيضاً من سمة الحرب المقدسة على الحرب الصليبية.

فليست الحرب الصليبية حرباً مقدسة عادية. إنها تفوق الجهاد، لأسباب عديدة. فهي تظهر في أذهان مسيحيي ذاك الزمان بمثابة حرب للتحرير يتوخاها الله ويقودها،

وتشمل جميع سمات القداسية التي سمحت، في رحاب الديانة المسيحية، بهذه الثورة العقائدية التي تقود ديانة المسيح - ديانة الحب واللا عنف - إلى إعلاء شأن العمل الحربي بحيث تجعل من إحدى الحروب، على الأقل، عملاً ثوابياً ً، بل عملاً ورعاً يفسح المجال للتكفير عن خطايا تبدو لضمير البشر في الوقت الحاضر، خطايا لها، من قلة الخطورة، ما هو أقل بكثير من موت إنسان، ولئن كان "غير مؤمن"

الخاتمة

إن مقارنة الجهاد بالحرب المقدسة المسيحية مقارنة تفرض نفسها بصورة طبيعية على ذهن الباحث. وقد وضحنا منهما تلك النقاط المشتركة العديدة. ويحسن بنا أيضاً أن نحلل الفوارق بينهما.

وليست هذه الفوارق تباينات هزيلة.

الفارق الأول من طبيعة عقائدية. فالمسلمون الذين يُدعون حالياً "معتدلين" يسعون إلى تقليص هذا التباين، بل إلى إزالته، مؤكدين أن الإسلام دين سلام، وأن الجهاد يعني "جهداً جوانياً أخلاقياً "، لا "حرباً مقدسة"، وإن هذه الحرب ليست بذات أساس قرآني حقيقي. وتفحصُ نصوص الوحي، ونصوص سلوك النبي الذي نقله إليهم التقليد الإسلامي الأوفر صحة و أصالة، تفحصٌ يؤدي، على الأقل كما رأينا سابقاً ، إلى تلقينا هذه الأطروحة (وقلما تتقبلها الجماهير، في أيامنا الراهنة) بكثير من التردد والتحفظات. فإن الموقف المتعارض على نحو جذري لمؤسسيْ الديانتين، وهما يسوع ومحمد، حيال استخدام العنف، موقف بليغ الدلالة في هذا الشأن.

قلما يتيسر إذن أن نتحاشى هذه النتيجة: فالحرب المقدسة مقبولة، إن لم تكن موصى بها وممتدحة، منذ أزمنة الإسلام الأولى، بما في ذلك لدى مؤسسه. وبالمقابل، إن فكرة الحرب المقدسة لا يمكن تصورها في عقيدة الدين المسيحي الأصلية. فباستطاعة الجهاد أن ينتمي إلى محمد، وأقله بمقدار ما. غير أن الحرب المقدسة لا تستطيع البتة الانتماء إلى يسوع. وهذا ما يشير إلى مدى التحول الذي منيت به العقيدة المسيحية في هذا الصدد.

وينجم عن هذا، من جهة أخرى، تماسك الإسلام على هذا الصعيد. ومن الثابت أن عقيدة الجهاد قد تطورت قليلاً مع كر الزمان: فأحياناً نزعت إلى المزيد من القسوة أو إلى شيء من الهوادة حسب الظروف التاريخية. بيد أنها ظلت مشابهة جداً لما كانت عليه في خطوطها الهامة، دون معاناة من أي تناقض في داخلها.

ليس الأمر على هذا المنوال في ما يخص العقيدة المسيحية: فهي، مع نبذها جذرياً، في البداية استخدام العنف، اصطدمت، بعد قليل بصعوبة كأداء، حالما صار الدين المسيحي دين دولة، فاختلط، (في رحاب الإمبراطورية الرومانية وقد غدت مسيحية)، ما هو روحي بما هو زمني: أي الكنيسة والسلطة. وإن هذا الاختلاط السياسي بالديني - وقد لبث أوفر ظهوراً في العصر المسمى "عصر الإقطاع - أدى بالكنيسة إلى العزوف عن الموقف البدائي لعدم العنف الذي امتدحه يسوع. فنجمت عن هذا سلسلة حقيقية من التحولات العقائدية التي بمراجعاتها المتتالية، رفعت قيمة وقدسنة المعارك الحربية المنجزة لمصلحة الكنائس، وعلى نحو رئيسي، لمصلحة البابوية. ومن ثم، كانت هناك هذه المفارقة، وغالباً ما ذكرت واستُنكرت، وهي التالية: إن الدين المسيحي الذي يروم أن يكون ديانة سلام ومحبة، قد تبين في ذاك الزمان، في واقع الأمر، أنه ديانةٌ عنيفة وحربية - بل بالمزيد على هذا - أكثر من أية ديانة أخرى.

وفي هذا الشأن، ثمة ملاحظة تفرض نفسها. إن فكرة الحرب المقدسة، في جميع الحضارات التوحيدية، لم تظهر إلا في إطار سلطة مستمدة من الله théocratie ويشرف عليها رجال الدين [ثيوقراطية] أو يزعم بأنها مستمدة من الله. وهذا هو وضع شعب إسرائيل، فهو في الكتاب المقدس يعرّف نفسه بأنه شعب الله" الذي يتملك بالسلاح "الأرض التي وعد بها" إبراهيم وذراريه، لكي يؤسسوا فيها دولة ثيوقراطية. ومن المفترض، في المنظور هذا أن الله يأمر مباشرة بهذه الحرب، أو عن طريق أوامر ينطق بها أنبياء الله، فلا يمكن إلا أن تكون حرباً مقدسة. فالدين والسياسة ينصهران هنا انصهاراً شديداً وهذا هو الوضع أيضاً ، مع تباينات تكاد تكون زهيدة في الجماعة المسلمة عند بدايتها. فقد توخت هي أيضاً أن يكون الله قائدها بوسيلة النبي الذي يتلقى من الله توجيهاته، وهي توجيهات يُعرب عنها وحي القرآن الذي يُبلغ به النبي.و هنا أيضاً ، الحرب التي يخوضها المؤمنون بحث من النبي فيما يقوده الله ويمده بالوحي، حرب لا يمكن أن تلبث إلا مقدسة. وهنا أيضاً، ارتبط الدين والسياسة ارتباطاً وثيقاً بل من الممكن القول إنهما قد انصهرا. حيث أن المؤمنين ظلوا يشكلون، في البداية، جماعة دينية/سياسية يقودها النبي، وهو في آن معاً رئيس ديني، ورئيس دولة، وقائد للغزوات، وذلك في مجتمع تحكمه، بحصر المعنى، القوانين الدينية.

يختلف هذا الوضع جذرياً في الديانة المسيحية البدائية. غير أن جميع الظروف

كانت تبدو مجتمعة بمقدار أكثر لكي تعيد تكوين المخطط نفسه، حيث أن يسوع، في نظر المسيحيين، ليس نبياً وحسب، أو أعظم الأنبياء، بل هو كلمة الله بذاتها، " ابن الله وقد تم تعريفه فيما بعد بصفته أقنوماً من "الأقانيم الثلاثة" للألوهية. ولكن، رغم هذا التأكيد الشديد على الوحي الإلهي المباشر، في شخص يسوع المسيح، فإنه لا يمثُلُ الدين المسيحي بصفته ثيوقراطياً ، وبدقة، لأن مؤسس هذا الدين يرفض رفضاً باتاً كل اختلاط يجمع السياسة والدين، أي السلطة والإيمان. فيسوع لم يأت، لإقامته مملكة على الأرض، دولة ثيوقراطية. بل أدى هذا الرفض إلى إجبار هذه الدولة على أن تكون مرفوضة من القسم الأعظم لشعبه الأصلي [الشعب اليهودي] الذي كان ينتظر، بالحقيقة، نبياً قائد حرب، محرراً إلا أن يسوع لبث يعظ بملكوت لله تختلف طبيعته كل الاختلاف عن ممالك هذا العالم. والمؤمنون به ليسوا "مواطنين لدولة ثيوقراطية" قد يتوجب إقامتها أو الدفاع عنها بالسلاح، بل هم مواطنون "لملكوت السماوات"، وهو ملكوت سينشئه الله بذاته في ختام الأزمنة. ومن ثم، فيسوع يدين استخدام العنف ويستبعد، في آن، كل إمكانية لظهور مفهوم الحرب المقدسة، في العقيدة المسيحية الأصلية. فالشهداء المسيحيون ليسوا محاربين، بل جميعهم مسالمون، سِلمَوِيّون [أي: موالون للسلم] أناس لا عنيفون، وحتى في معارضتهم لدولة وثنية ومضطَهدة.

غير أن مفهوم الحرب المقدسة هذا، كما رأينا سابقاً ، طفق يبرز ببطء في مسيرة تطور لفتَ هذا الكتابُ الانتباه إليه. وراح هذا التطور يتعزز تماماً - وليس هذا الأمر صدفة - حينما أدت احتمالات التاريخ من جديد إلى تداخلات، بل إلى انصهار السياسي والديني. فالحرب المقدسة والحرب الصليبية ازدهرتا ازدهاراً كاملاً حين بلغت البابوية، في الغرب بنية مَلَكيّة، وسلطة خاصة، مع غريغوار السابع، ونزعت إلى تقريب الكنيسة من الثيوقراطية. فاختلف الوضع عندئذٍ عن المخطط السابق، فوجدت الحرب المقدسة "المسيحية"، من أجل تطورها، أرضية كادت تكون مواتية، كما جرى ذلك في ثيوقراطية إسرائيل، أو في ثيوقراطية الأمة الإسلامية منذ أصول جذورها. ولكن، مع هذا الفارق وهو أن هذه الحرب المقدسة وُلدت في المسيحية معارضة مبادئ المسيحية الخاصة بها، وولدت بعد اليهودية والإسلام بقرون عديدة.

هناك فوارق أخرى مابين الجهاد والحرب المقدسة، وقد تأتت عن طبيعة تطبيقهما وأهدافهما.

لقد تبع التوسعُ الإسلامي فتوحات محاربيه. فالأمر يعني امتداداً معداً لفتوحات في سبيل الإسلام. وبات الجهاد، خلال القرون الأولى للعهد الإسلامي، حرباً لاحتلال الأراضي، ولم تكن حرباً رسولية. وعلى العموم تم تطبيق المبدأ القرآني: "لا إكراه في الدين، فقد تبين الرشد من الغي (القرآن، II، ٢٥٦). فقد أذن، بالتالي، لأهالي المناطق المفتوحة والخاضعة لشريعة الإسلام بأن يحتفظوا بإيمانهم، ضمن بضعة شروط، إن كان الأمر يعني الديانتين التوحيديتين (ديانتي الكتاب). أما الوثنيون المؤمنون بتعدد الآلهة فلبثوا مرفوضين، وترتب عليهم الارتداد إلى الإسلام أو أن يلقَواْ حتفهم. وإن الحروب المسماة "مقدسة" التي خاضها المسيحيون على الوثنيين، على السكسونيين مثلاً أو ألويند في البلتيق، فهي تلتقي بالجهاد على هذا الصعيد. وبالنسبة إلى غير "ديانتي الكتاب"، قد استوحى الدين المسيحي مبادئ "التسامح" النسبي ذاتها، بيد أنه وضعها وضع التطبيق، في الحقيقة، بمقدار أقل من "السخاء" أو الإنسانية.

وثمة تباين ثان أكبر: إن الجهاد قد نحا، منذ بدايته تقريبا إلى فتح الأراضي. أما الحرب المقدسة، في بدايتها على الأقل، فكانت، على نقيض ذلك، حربا لاسترداد الأرض المحتلة [من قبل الإسلام]، حرباً دفاعية في أولها، ثم هجومية. وإلى جانب ذلك، إن السمات الدفاعية هي التي أتاحت، كما رأينا سابقاً، ظهور الميزات المقدسنة لهذه العمليات المؤدية إلى فكرة الحرب المقدسة في الغرب. وبصورة خاصة، كان هذا هو وضع حروب دفاع البابوية أمام غزوات المسلمين، وحروب الروكونكيستا الاسبانية أو الحرب الصليبية باتجاه الشرق الأدنى، أي أراضي المسيحية سابقاً والمأهولة إذاك بالعديد من السكان المسيحيين، فقد لبثوا أحياناً يشكلون الأكثرية السكانية.

هناك أيضاً فارق ثالث هام، وقد نجم عن الدور الذي تقوم به الأماكن المقدسة. في الوهلة الأولى، من الممكن ظهور الفارق بأنه يشكل عنصر تشابه: فالجهاد قد ثبّت، أولاً، منحاهُ بضرورة الدفاع عن الجماعة الناشئة حديثاً في المدينة [المنورة]، واسترداد الأماكن المقدسة في مكة. بيد أن هذين الهدفين قد تم بلوغهما، إلا أن الجهاد لبث مستمراً بل راح يتضخم داعماً حركة الفتح المنطلقة من أقاليم العربية، وانتشر صوب الهند والبوسفور والصحراء الإفريقية والمحيط الأطلسي واسبانيا وجبال البيرينيه وتجاوز منطقة مدينة بواتييه. وانطلقت الحركة من مكانين مقدسين: مكة والمدينة. لكن الأماكن المقدسة العربية ما كانت يوماً مهددة ولم يقم الدفاع عنها بأي دور في تعريف الجهاد،

ولا في تطبيقه وممارسته، قبل نهضة الجهاد الجديدة التي تبعت، في الشرق الأدنى، فتح أورشليم الأول من قبل الصليبيين عام ١٠٩٩ وليست أورشليم، إلى جانب ذلك، سوى المكان المقدس الإسلامي الثالث، لكنها المقام المقدس الأول للمسيحية، كما هي أيضاً في نظر الديانة اليهودية.

بالمقابل، قام الدفاع عن الأماكن المقدسة المسيحية واستعادتها بدور هام في تشكل فكرة الحرب المقدسة في الغرب، كما رأينا هذا طوال مراحل هذا الكتاب. وإن الأماكن المقدسة المسيحية الثلاثة - أي من حيث التراتب: أورشليم، روما، سان جاك دوكومبوستيل - كانت محتلة أو مهددة من قبل محاربي الإسلام. وقد يكون دور سان جاك دوكومبوستيل ضئيلاً في قدسنة استعادة الأرض الاسبانية، كما تمت البرهنة على هذا حديثاً بيد أن الأمر مختلف بالنسبة إلى روما، التي هددتها غارات المسلمين منذ القرن التاسع، وقد أدى الدفاع عنها - كما وضّحنا هذا سابقاً - إلى الوعود الأولى بالمكافآت الروحية التي قدمت للمحاربين المقاتلين أوالمقتولين في سبيل تأمينهم حرية هذا المقام المقدس. والأمر على مزيد من الصحة بالنظر إلى أورشليم، المكان المقدس الأول (وبمقدار رفيع!) للدين المسيحي، ارض المسيح المؤسس وموطنه، ومكان ضريحه و "ميراثه"

إن قدسنة الحرب الصليبية، وهي قدسنة فائقة السمو نبعت من طابع أورشليم الفريد في ذهنية المسيحيين الدينية، خلال القرن الحادي عشر (رَ. النصوص رقم ٢٢، في آخر الكتاب). وعاقبة هذا أن الحرب الصليبية الأولى قد بلغت، في رأي مسيحيي ذاك الزمان، درجة القداسة التي كان من المحتمل أن يبلغها، في نظر المسلمين، جهاد يدعى إليه لتحرير لا أورشليم - المكان المقدس الثالث للإسلام - بل من أجل طرد الكفار من مكة، لو كان غير المؤمنين هؤلاء قد قيض لهم أن يحتلوها.

وهكذا، فإن الحرب الصليبية هي المقصد المباشر والمنطقي - ولكن يؤسف له- لتشكل وتقبل فكرة الحرب المقدسة، هذه الثمرة السامة للتحول الإيديولوجي المسيحي. فهذا التحول، عقب ألف عام من التاريخ والصراعات، قاد الكنيسة المسيحية من اللاعنف إلى الحرب المقدسة والى الحرب الصليبية. فالتحق، على هذا النحو، وفي أمور عديدة جمّة، بعقيدة الجهاد التي بسببها أنحى كثيرون باللائمة على الإسلام، ردحاً طويلاً ، فهذه العقيدة قد أسهمت، نوعاً ما، في تشكل فكرة الحرب المقدسة والحرب الصليبية.

لعلنا لم ننته بعد من أداء الثمن لمفهوم مؤذٍ ومفسد بهذا المقدار.

وثـــائق

مجموعة نصوص خاصة بالحرب في الدين المسيحي والإسلام

١ - الكنيسة البدائية والخدمة العسكرية (في الشرق)

دحض أوريجينوس (Origene) [الإسكندرية، ١٨٥- ٢٥٤ صور]، في بداية القرن الثالث حجج الفيلسوف الوثني سيلسوس (Celse) الذي كان يلوم المسيحيين على مؤاذاتهم الإمبراطورية الرومانية، وهم يرفضون أن يخدموها بصفتهم جنوداً لها.

"ثم في الحال، يحرضنا سيلسوس على نجدة الإمبراطور بجميع ما لدينا من قوة، والتعاون معه لمشاريعه العادلة، وعلى القتال في سبيله والخدمة مع جنوده إن اقتضى منا ذلك، ومع قادته الإستراتيجيين.

ولابد من الإجابة عليه: حينما تسنح الفرصة لنجدته، فنحن نأتي للأباطرة بنصرة إلهية، إن صح القول، متقلدين "شكة الله" ونفعل هذا تلبية لصوت الرسول الذي قال: "أوصيكم إذن، قبل كل شيء، بتقديم طلبات وابتهالات وتوسلات، وأداء الشكر لأجل جميع البشر، لأجل الملوك وجميع أمناء السلطة. وكلما كان لنا المزيد من الورع، غدا عوننا على مزيد من الفاعلية لهؤلاء الذين يمسكون بزمام الحكم، وعلى نحو أفضل بكثير من الجنود الذاهبين إلى المعارك فيقتلون من الأعداء بمقدار ما يستطيعون"

لكن، إليكم أيضاً ما يسعنا قوله لمن يجهلون الإيمان [المسيحي] ويطلبون منا القتال بصفتنا جنوداً، لأجل الخير العام، كما يطلبون أن نقتل الناس. وحتى من هم، حسب رأيكم، كهنة لبعض الأصنام، وحراس لهياكل آلهتكم المزعومة، يحرصون على أن يحتفظوا بيدهم اليمنى دون تلطيخها، لأجل الذبائح لكي يقدموا لمن تدعونهم آلهة الذبائح التقليدية، بيدين نقيتين من الدم والقتل. ولا جرم أنكم، في أزمنة الحروب، لا تجندون كهنتكم. فإن كان إذن هذا السلوك معقولاً، كم بالأحرى هو سلوك المسيحيين! ففيما

(أوريجينوس، ضد سيلس، VIII، ٧٣، طبعة وترجمة م. بوريه، مجلد ٣، باريس ١٩٦٩، في آخر الكتاب٢٤٥ – ٢٤٩)

يقاتل آخرون كجنود ، فهم يقاتلون بمثابة كهنة وخدام لله، فيدعون يدهم اليمنى نقية، بيد أنهم يكافحون بصلوات يرفعونها إلى الله، لأجل من يقاتلون بحق، ولأجل الذي يحكم حكماً عادلاً ، بحيث أن يُهزم كل من هو معارض ومعاد لهؤلاء الذين يفعلون فعل الحق.

علاوة على ذلك، نحن الذين نتغلب بابتهالاتنا على جميع الأبالسة المثيرة للحروب، والساعية إلى انتهاك كل قسم، والمعكرة لصفو السلم، فنأتي إلى الإمبراطور بعون أعظم مما يفعل من نراهم يقاتلون [....]* [القوسان مع * من النص الفرنسي].

نقاتل لأجل الإمبراطور، أكثر مما يفعل آخرون. فنحن لا نخدم مع جنوده، ولئن اقتضى منا هذا، غير أننا نقاتل لأجله مجندين جيشاً خاصاً ، جيش الورع، وذلك بالتوسلات التي نرفعها إلى الألوهية.

٢- الكنيسة والمهنة العسكرية، في روما

في مطلع القرن الثالث، كتب هيبوليتِس (Hippotyte) الروماني تنظيم كنيسة روما في صدد المهن التي تعتبر غير متلائمة مع الإيمان المسيحي. ومهنة الجندي، من بين مهن أخرى، محظورة على المسيحيين حظراً قاطعاً

١٦ ، المهن والحِرف.

لابد من الاستعلام حول المهن والأشغال لمن يؤتى بهم لكي يتثقفوا [بالإيمان المسيحي]* فمن يقوم بشؤون منزل دعارة، أو يعيل مومسات، عليه الكف عن هذا النشاط، وإلا سوف يُطرد.

ينبغي أن يعلم النحات أو الرسام ألا يصنعا أصناماً ، وأن يكفّا عن هذه المهنة، وإلا فسوف يرفضان. [....]*

كذلك، من يقود عربة للسباق في الحلبة، أو من يقاتل في الألعاب، سينقطع كل منهما عن هذا النشاط، وإلا سيقع تحت طائلة الطرد. والمصارع أو من يعلم المصارعين القتال، أو من يصارع الحيوانات في الحلبة، أو الموظف العام المكلف بألعاب المصارعين، سيتخلون عن مناشطهم، وإلا سيطردون. وكل مَن هو كاهن أصنام أو حارس أصنام يترتب عليه أن يتخلى عن عمله وإلا سوف يطرد.

إن الجندي المرؤوس لن يقتل أي إنسان. وإن أمر بفعل ذلك، فلن ينفذ الأمر، ولن يقوم أيضاً بأداء القسم. وإن رفض الالتزام بذلك، فسيُطرد. وكل من يتقلد سلطة

السيوف، أو قاضي مدينة يرتدي رداء أرجوانياً ، سيكف عن نشاطه وإلا طرد. ومن يريدون من بين المؤمنين أو من يرومون التنصر، أن يغدوا جنوداً ، سوف يطردون لأنهم قد احتقروا الله.لأن الله يحتقرهم"

(هيبوليتس الروماني، التقليد الرسولي الفقرة ١٦، دار النشر/ب، بوت .B (Botteطبعة منقحة، باريس، ١٩٨٤، ترجمة المؤلف)

٣- ردات فعل القديس ايرونيمس (Jerome) [٣٤٧ - ٤٢٠] في صدد احتلال روما على يد ألاريك (Alaric)، عام ٤١٠

منذ عدة أعوام، انعزل القديس ايرونيمس في بيت لحم، حين بلغه أن البرابرة قد احتلوا روما. فقد انذهل من ذلك وأوشك أن يرى فيه نهاية كل حضارة. وعزا هذه الكارثة إلى خطايا المسيحية التي يريد الله أن يعاقبها، كما عاقب، في قديم الزمان، شعبه إسرائيل على أيدي البابليين والآشوريين. وبقصد التغلب على الأعداء البرابرة أولئك، لم ير سوى وسيلة واحدة: التوبة، العزوف عن المآثم، إزالة سبب هذه النكبات. فاستمد ايرونيمس، من التوراة العديد من الأمثال داعماً بها أطروحته. إنما بالصلاة والوفاء لله، سوف تقدر روما وحدها أن تنهض من جديد فتتغلب على هؤلاء الفرسان البرابرة. إذن، يماهي ايرونيمس بمقدار ما، الإمبراطورية الرومانية المسيحية بالكنيسة التي تخلف إسرائيل بصفتها شعب الله. والأمثلة التي يستقيها من الكتاب تؤكد على أن الله يعاقب شعبه الذي يبتعد عنه، لكنه يقاتل أيضاً لأجله إن تبدى هذا الشعب وفياً ومن الممكن أيضاً استبعاد خطر البرابرة، إن ارتد المسيحيون إلى الله.

و A – في مقدمته لتفسير أشعيا

" [...]* على حين بغتة، أتى احدهم ليخبرني بموت باماثيوس ومارسيلا، باحتلال روما، بموت عدد غفير من إخوتنا وأخواتنا. لقد انتابني من هذا ذعر شديد، وذهول عميق، فعجزت، ليل نهار، عن التفكير في شيء آخر سوى إنقاذ الجميع: وظننت أني أسير بمعيّة القديسين هؤلاء، ولم يكن بمقدوري أن أفتح شفتي قبل حصولي على مزيد من الضوء حول هذه الحوادث، حيث أني لبثت متأرجحاً مابين الرجاء واليأس، فاتخذت، رغماً عني، قسطي من كوارث الآخرين.

أما الآن، فقد أنطفأ ضياء العالم المجيد، وروما، هامة الإمبراطورية الرومانية، قد قُطعت! ومع هذه المدينة وحدها، فإنما العالم جميعه هو الذي قد دال وهلك، إن صح هذا القول. وعندئذٍ، لذت بالصمت، وتواضعت، فلم تبق لي قدرة على التفوه بلفظة واحدة، فبات ألمي بذلك أشد تبريحاً ، وراح قلبي يتقد ويلتهب....

(ايرونيمس، مقدمة لتفسير أشعيا، دار النشر CCSL، رقم ٧٥، تورنهوت -Tun hout)، ص. ٣، ترجمة المؤلف).

B - في رسالته الى هيليودورس (Heliodore) [كاتب روائي يوناني القرن ٣]

"نشعر تماماً أننا قد أهنا الله منذ أمد بعيد، بيد أننا لا نلطف موقفه حيالنا! فالبرابرة أقوياء من جراء آثامنا، وإنما بعيوبنا قد قهر الجيش الروماني. وكأن هذه الكوارث لم تكن كافية، فالحروب الأهلية تقتل من الناس أكثر مما يفعل سلاح العدو. مسكين هو شعب إسرائيل، إن قارناه بنبوقد نصّر، ذاك الشعب الذي يدعوه "الكتاب" خادم الله"، وكم نحن بؤساء أيضاً ، نحن أيضاً ، الذين أغضبنا الله حتى راح يصب علينا جام غضبه، بوسيلة هياج البرابرة وجنونهم! وتاب أشعيا، وفي ليلة واحدة، وبملاك واحد، أعدم ١٨٥ ألفاً من الآشوريين. وطفق بوشافاط [٨٧٠ - ٨٤٨ ق م]ينشد مدائح الرب، والرب يفوز بالظفر لأجل من يُسبحه. وقاتل موسى العمالقة لا بالسيف، بل بالصلاة. فإن توخينا النهوض مجدداً ، فعلياً أن نسجد! يا للعار! يا للجنون! يا للكفر والجحود! فما الأمر إذن؟! فهذا الجيش الروماني الظافر، وقد أخضع العالم بكامله، ها هو اليوم مقهور، مذعور، مرهب، مروع لدى مجرد منظر هؤلاء الذين لا يعرفون أن يسيروا، هؤلاء الذين يحسبون أنفسهم قد ماتوا، إن راحوا يلمسون تراب الأرض. أما نحن، فلا ندرك ما تفوه به الأنبياء: "وسيهرب ألف أمام تهديد نفر واحد (أشعيا، ٣٠ ١٧)؟ ولا نُزيل سبب المرض هذا، كيما نضع نهاية، في آن معاً للمرض ذاته. وعندئذٍ، سنرى في الحال سهامهم تنهار إزاء رماحنا، وتيجانهم أمام خوذنا، وأفراسهم البليدة [Caballos] حيال جيادنا ".[Equis]

(ايرونيمس، الرسالة ٦٠ إلى هيليودورس، طبعة ج. لابور (J. Labourt) القديس جيروم، الرسائل، مجلد ٣، باريس، الآداب، ١٩٥٣ ص. ١٠٧ - ١٠٨، ترجمة المؤلف).

C - في رسالته إلى باكاتولا (Pacatula)

"يا للهول! فجميع العالم ينهار، لكن الآثام لا تزال حية فينا! وروما هذه الذائعة السمعة، عاصمة الإمبراطورية الرومانية، قد هدمها حريق واحد، وهناك لاجئون في كل حدب وصوب، في المناطق جمعاء، وقد باتت الكنائس المكرسة رماداً وهباء.... ترى ما الذي نصنع؟ ها نحن نسترسل إلى الشح والبخل! ونعيش وكأنه لابد لنا من الموت غداً، ونبني كما لو ترتب علينا أن نعيش أبدياً في هذا العالم. فالذهب يتلمع على جدراننا، على تلبيسات حيطاننا، على تيجان أعمدتنا. وفي غضون ذلك، ها هو المسيح يموت عرياناً، سغباً، أمام أبوابنا في شخص كل فقير. ونقرأ في التوراة أن الحبر هارون انتصب إزاء لهب النار الغضوب، وعقب إشعاله المجمرة، هدأ غضب الله. وبصفته الكاهن العظيم، وقف مابين الأحياء والراقدين، ولم تجرؤ النار على تخطيها المكان حيث ظل منتصباً [....]* ترى هل تعتقدون أن ثمة، في أيامنا، تحت جلد السماء، فرداً من الناس بمقدوره الانتصاب هكذا أمام غضب الله؟ من بوسعه أن يوقف ألسنة اللهيب؟

(ايرونيمس، الرسالة ١٢٨ إلى باكاتولا، طبعة ج. لابور، القديس ايرونيمس، رسائل، مجلد ٧، الآداب، ١٩٦١، ص. ١٥٣، ترجمة المؤلف).

٤ - عماد كلوفيس حسب رواية غريغوار دو تور

(Gregoire de tours) [٥٣٨ - ٥٩٤]

يروي غريغوار كيف لبثت الملكة كلوتيلد تحاول عبثاً أن تذهب بكلوفيس إلى تخليه عن الأصنام والى عبادة الإله الحقيقي. غير أن جيش كلوفيس، إبان معركة على الألمان مني بخطر داهم. عندئذٍ، خاطب الملك الفرنجي يسوع المسيح واعداً إياه بقبول العماد إن منحه الانتصار، لأن آلهته لم يسبق لها أن كانت فعالة لأجل حمايته.

والواقع أن التجابه بين الجيشين تحول إلى مذبحة رهيبة: وأوشك جيش كلوفيس أن يُباد بكامله. وإذ رأى كلوفيس ذلك رفع عينيه إلى السماء. وقد زخر قلبه بالندامة، واستحوذ عليه الانفعال، حتى ذرف الدموع، صاح مستغيثاً يا يسوع المسيح، أنت يا من تقول كلوتيلد إنك ابن الله الحي، أنت يا من تهب العون لمن يحتاجون إليه، يا من تمنح النصرة لمن يضعون فيك رجاءهم. ألتمس منك، بتواضع النجدة المجدية الظافرة. وإن منحتني هذا النصر على أعدائي، وإن أبديت لي هذه المقدرة الأعجوبية الآتية منك حسب

ما يقوله الشعب المنتمي إلى اسمك، فعندئذٍ سأومن بك وسأعمل على أن أتعمد باسمك. أجل إني لجأت إلى آلهتي، ولكني لحظت أنها تقاعست عن نجدتي. فإنما هو أنت من ألوذ به، منذ هذا الحين. وإنما بك أريد أن أومن، إن أفلحت في التخلص من أعدائي. وفيما كان ينطق بهذه الكلمات، انكفأ الألمان إلى الخلف، وطفقوا ينهزمون شر هزيمة.

عندئذٍ، أوعزت الملكة باستدعاء الأسقف القديس ريمي (Remi) خفية، للعمل على تثقيف كلوفيس وعماده. وراح الملك يقوم باعتراض أخير: فشعبه لن يريد التخلي عن آلهته. بيد أن الشعب استجاب، على نحو أعجوبي، لهذا التخلي. وعُمّد كلوفيس (بالتغطيس في الماء) مع العديد من محاربي جيشه. فطلب إليه ريمي، لا أن "يطأطئ رأسه"، كما تُرجِم هذا في ماضي الزمان، بل أن يخلع أطواقه (Collaria أي: القلائد التعويذية التي يتطوق بها الكهنة والملوك الجرمانيون).

"ومضى إذن إلى وسط رجاله. وقبل أن يوجه إليهم الكلام، وكانت قدرة الله قد سبقته، جهر الشعب بصوت واحد: يا أيها الملك الورع، ها نحن ننبذ هذه الآلهة الفانية، ونحن مستعدون لاتباع الله الذي لا يموت ويعلنه ريمي" ورويت هذه الوقائع إلى الأسقف. فامتلأ بهجة عارمة، وأمر بإعداد سجل المعمودية .[....]* وطلب الملك أن يكون أول معمد على يدي الحبر الجليل، وبمثابة قسطنطين جديد، تقدم نحو مغطس العماد، لكي يخلع آثار برصه القديم [أي الوثنية]، لكي يغمس في هذه المياه الجديدة اللطخات الكريهة التي لبثت تدنسه منذ أمد قديم. وحالما ولج موقع العماد، راح قديس الله يخاطبه بهذه الألفاظ المتميزة: "اخلع بتواضع قلاداتك التعويذية، يا أيها السيكامبر! (Sicambre) [فرد من شعب جرماني اختلط بالفرنجة في القرن ٣]، واعبد ما قد أحرقته، وأحرق ما قد عبدته" .[....]* وهكذا، عقب اعترافه بالله الكلي القدرة في ثالوثه، عُمد الملك باسم الآب والابن والروح القدس، ومُسح بالزيت المقدس [الميرون]، بإشارة الصليب. وبصحبته، تم عماد أكثر من ثلاثة آلاف رجل من جيشه".

(غريغوار دوتور، تواريخ، ٢، ٣٠ - ٣١ المعالم الجرمانية التاريخية [MGH] مدونو حوادث الميروفنجيين، ١، ص. ٧٥ - ٧٨، ترجمة المؤلف).

٥ - نداء البابا إلى شارل مارتيل [٦٨٨ - ٧٤١]

نداء لنصرة البابا غريغوار الثالث إلى شارل مارتيل بقصد الدفاع عن تراث

القديس بطرس الذي يهدده لومبارديو ليوتبرند (Liutprand) في عام٧٣٩ وأشار البابا إلى أن الله سيعترف له بالجميل، ولن يوصد أمامه أبواب ملكوت السماوات. ولدينا هنا المخطط الأوّلي لوعد بثواب روحي لقاء خدمة تؤدى عسكرياً

"من البابا غريغوار إلى ابنه شارل الرفيع السمو، وكبير موظفي البلاط. نحن نعاني من بلية شديدة، والدموع لا تجف من مآقينا، ليل نهار، حينما نرنو، كل يوم وفي كل حدب وصوب، إلى كنيسة الله وقد تخلى عنها أبناؤها، الذين لبثت تضع فيهم أملها في أن ينتقموا لها. ومن ثم، نعيش في الحداد والتأوهات، حين نرى أن القليل من الأشياء الباقية من السنة السابقة (في ريف مدينة رافين، من أجل نجدة فقراء المسيح وأودهم، كما بقصد الحفاظ على أضواء الكنائس) قد بات فريسة لسيوف ونيران ملكي اللومبارديين ليوتبراند وهايدبراند. وها هما قد جعلانا نعاني من الأذيات ذاتها في ربوع روما: فقد أقحما علينا جيوشاً عديدة، وانكفأت جميع الأراضي المستأجرة [أي الإكارات] من القديس بطرس واستحوذا على ماشيتها.

مع أننا قد سعينا لنلجأ إليك، يا ابني الرفيع السمو، فلم يفد إلينا من قبلك أية تعزية. بل على نقيض هذا، نرى تماماً – حيث تأذن لهذين الملكين بتبادلهما المراسلات معك – أن تلميحاتهما الخفية، المزيفة الخؤونة، قد تم تلقيها لديك على نحو أفضل من تلقيك الحقيقة وهي حقيقتنا. وها نحن نخشى أن يُعزى إليك ذلك بمثابة خطيئة، بمقدار ما يقومان حالياً – في الأماكن حيث يقيم هذان الملكان – بشتمنا، فيتفوهان بمثل ما يلي من الألفاظ: ليَأتين إذن شارل هذا، الذي قد وجدت فيه ملجأ لك! ولتأتِ جيوش الفرنجة إلى نجدتك، إن تمكنت من المجيء، ولتخطفنّك من بين أيدينا. آه! يا لهَ من ألم بات مستعصياً ، يفتك بقلبنا من جراء هذه الألفاظ، فيما يلبث أبناء كنيسة الله المقدسة، بعديدهم وجم قوتهم لا يفعلون شيئاً للذود عن أمهم الروحية، ولا عن شعب الكنيسة الخاص بها! يا ابني العزيز الغالي، أعلم أن أمير الرسل هذا [القديس بطرس] قدير بالسلطة التي قلده الله بها، بغية الدفاع عن بيته هو، وشعبه هو، وبقصد الانتقام من أعدائه. بيد أنه يتوخى أن يمتحن قلوب أبنائه الأوفياء. [....]*

ها نحن نحث طيبتك، يا ابني المسيحي الأصيل، أمام الله وأمام حكمه الرهيب، ونحضك على المجيء لإغاثة كنيسة القديس بطرس وشعبه الخاص، وفي سبيل الله، ولأجل خلاص نفسك. نحضك على أن تدحر، بسرعة شديدة، هذين الملكين بعيداً عنا،

فتُرغمُهما على أن يعودا إلى أوطانهما. لا ترفض ابتهالاتي، ولا توصد أذنيك حيال توسلاتنا: لأنه بما ستفعل، لن يغلق أمير الرسل أمامك باب ملكوت السماوات.

(رسالة غريغوار الثالث إلى شارل مارتيل، في MGH: المعالم الجرمانية التاريخية: الرسائل، ٣ ص. ٤٧٦ - ٤٧٧، ترجمة المؤلف).

٦ - وثيقة هبة قسطنطين المزيفة

من المعلوم، منذ بدايات نقد النصوص، أن هذا النص مزيف مختلق، قام باختلاقه، على نحو محتمل جداً ، مكتب دائرة البابوية الرومانية، في النصف الثاني من القرن الثامن. وقد أعد النص هذا لتأكيده على تفوق البابا حيال الكنيسة بكاملها ، ولتوفيره الأسس القانونية للمطالبات البابوية بالأراضي، في إيطاليا ، متيحاً أيضاً توقعات للمطالبة بالسلطة الزمنية للباباوات على جميع الغرب.

[نص الوثيقة] " يبدو لنا مجدياً ، لنا ولجميع حكامنا ، ولمجلس الشيوخ بالإجماع، وللأرستقراطية، ولكل الشعب الخاضع لإمبراطورية روما المجيدة - وعلى غرار [القديس] بطرس الذي أقيم على الأرض بصفته ممثلاً لابن الله [الحبر الأعظم أي البابا] - أن الأحبار الذين يمارسون السلطة الإمبراطورية هذه نيابة عنه، يتلقون، بتنازل منا ومن إمبراطوريتنا ، سلطة مطلقة، تفوق السلطة التي يمتلكها ، هنا على الأرض، سمونا الإمبراطوري العطوف. [....]*

"بالتالي، وبقصد ألا تُذل قطعياً هيبة الحبر الأعظم، بل أن تصير، على العكس من ذلك، أوفر تألقا أيضاً بشرف المنصب من الإمبراطورية الدنيوية، ويتفوق على مجد هذه الإمبراطورية، فنحن نتخلى ونتنازل للحبر سيلفستر (Sylvestre) الطوباوي، أبينا في الكنيسة كلها ، ليس فقط عن قصرنا في اللاتران، كما قيل سابقاً ، بل أيضاً عن مدينة روما ، إلى جانب جميع المقاطعات والنواحي والمدن في إيطاليا والمناطق الغربية. [....]*، لكي تسلم له فيحكم شؤونها هو وخلفاؤه بقدرتهم ووصايتهم فهذا القانون الأساسي يسلمها للكنيسة الرومانية المقدسة.

(قانون قسطنطين الأساسي، نص في ك. زويمير K. Zeumeur أقدم نص من قوانين قسطنطين الأساسية في ما يخص شبه عطية، غنايست).

٧ - محمد وعقيدة استشهاد المحاربين

تشتمل حولية الطبري (٨٣٨ - ٩٢٣) على سيرة النبي الأولى، وتجمع العديد من الأحاديث الخاصة بمحمد، وقد تم الاعتراف بجميعها من قبل السنة [أي الحديث] بصفتها موثوقة أصيلة. وقد دُوِّن هنا العديد من السمات التي تبين أن المسلمين الأكثر ورعاً ما كانوا يصدمون بأي شيء من تصرف النبي الحربي أو الانتقامي، بل يُرجعون إليه عقيدة استشهاد المحاربين المسلمين الذين يموتون في قتالهم أعداءَهم.

في صدد معركة بدر

"كان النبي يشير دوماً حماس جنوده. وإن رجلاً من بين الأنصار يدعى عمير بن همام كان يمسك في يده بعضاً من التمر فيأكلها تحت ناظري النبي.وفيما كان النبي يحض جنوده قائلاً "لا يلزمكم، للحصول على الجنة، إلا أن تلقوا الاستشهاد" أما عُمير، فعند سماعه هذه الكلمات ألقى بالتمرات قائلاً إن كان الأمر كذلك، فقد اكتفيت بتمرة حتى أدخل الجنة. واستل سيفه، واندلع يشق صفوف الأعداء، فضَرب وقتل العديد منهم، وقتل هو أيضاً "

في معرض قتل كعّاب بن أشرف

كان ذلك في شهر ربيع الأول نفسه، حيث بعث النبي بفرد من القوم ليقتل كعاباً بن أشرف، الذي مُني منه بالكثير من القدح والسباب .[....]* وذات يوم تواجد فيه النبي مابين صحابته، وراح الحديث يدور حول كعاب بن أشرف، فطفق يتذمر منه ويقول: من سيعطي الله حياته فيقتل هذا الرجل؟ " فقال رجل من الأنصار يدعى محمداً بن مُسْلمَه: سأذهب، أنا وسأقتله، يا رسول الله! فشكره النبي أيما شكر (وبعد أن قتلوه وامرأته، عاد المبعوثون ليلتقوا النبي)

أخذ النهار ينبلج حين دخولهم المدينة فوجدوا النبي يصلي، وأعلموه بما قد أنجزوه لتوهم. فغدا النبي سعيداً مغتبطاً وأدى الحمد لله وشكرهم"

في صدد معركة أحُد

عقب النصر الذي أحرزه المسلمون في بدر، كان أعداؤه، بقيادة أبي سفيان، على

وشك الظفر في أحُد. بل انطلقت إشاعة تقول إن النبي قد قُتل. وتهيأ أبو سفيان لصعود الجبل الذي يُشرف على موقع يحتله المسلمون، ساعيا إلى استكمال انتصاره. وحاول محمد أن يسبقه إلى ذلك.

ثم قال النبي لرفاقه: تعالوا، إنهم هناك فوق موقعنا" وأراد صعود الجبل، بيد أن ثقل الدرعَين المتينتين أعاقه عن السير. وكان ثمة على الجبل حجر، رغب في الجلوس عليه. فأعانه طلحة بن عبد الله واضعاً قدمي النبي على قذاله، فرفعه بهذا الجهد حتى أوصله إلى الحجر حيث جلس محمد. وقال له النبي: "ها قد غدوت جديراً بالجنة" وحين شاهده أبو سفيان قال له: "يومٌ لقاء يوم!" أي قد ظفرت بالنصر في بدر، ونحن بدورنا في أحُد. فأجابه النبي: ليس الأمر على هذه الشاكلة: فقتلاكم في الجحيم أما قتلانا ففي النعيم.[....]* وأرسل الله من السماء ملائكة لكي تفعم بالذعر قلوب الكافرين. فالملائكة لم تحارب يوماً ، إلا في يوم بدر

(الطبري، حولية، ترجمة زوتنبرغ: محمد خاتمة الأنبياء، باريس ١٩٨٠،ص. ١٥٦، ١٨٢، ٢ ٢، ٢٠٥).

﴿بابٌ في الجِهادِ﴾

والجِهادُ فَرِيضَةٌ يَحْمِلُهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ بَعْضٍ وأَحَبُّ إِلَيْنَا أَنْ لا يُقَاتِلَ العَدُوُّ حَتَّى يُدْعَوْا إِلَى دِيْنِ اللهِ إِلاَّ أَنْ يُعَاجِلُونَا فَإِمَّا أَنْ يُسْلِمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الجِزْيَةَ وَإِلاَّ قُوتِلُوا وَإِنَّمَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ الجِزْيَةُ إِذَا كَانُوا حَيْثُ تَنَالُهُمْ أَحْكَامُنَا فَأَمَّا إِنْ بَعُدُوا مِنَّا فَلاَ تُقْبَلُ مِنْهُمْ الجِزْيَةُ إِلاَّ أَنْ يَرْتَحِلُوا إِلَى بِلاَدِنَا وَإِلاَّ قُوتِلُوا والْفِرَار من العَدُوِّ مِنَ الكَبَائِرِ إِذَا كَانُوا مِثْلَيْ عَدَدِ المُسْلِمِينَ فَأَقَلَّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَلاَ بَأْس بِذَلِكَ وَيُقَاتِلُ العَدُوُّ مَعَ كُلِّ بر وفَاجِرٍ مِنَ الوُلاَةِ وَلاَ بَأْس بِقَتْلِ مَنْ أَسر مِنَ الأَعْلاَجِ وَلاَ يُقْتَلُ أَحَدٌ بَعْدَ أَمَانٍ وَلاَ يُخْفَرُ لَهُمْ بِعَهْدٍ وَلاَ يُقْتَلُ النِّسَاءُ والصِّبْيَانُ وَيُجْتَنَبُ قَتْلُ الرُّهْبَانِ والأَحْبَارِ إِلاَّ أَنْ يُقَاتِلُوا وكَذَلِكَ المَرْأَةُ تُقْتَلُ إِذَا قَاتَلَتْ

٨ - التاريخ وعلم الأخرويات، حوالي عام ٦٤٠

بمثابة مَثَلٍ لوضع تفسير الوقائع التاريخية المعاصرة على ضوء الكتابات النبوية.

في رأي اليهود كما في رأي المسيحيين في ذاك الزمن، تنبئ النبوءات (ولاسيما نبوءة دانيال) بالحوادث التاريخية المقبلة وتتيح التموقع في تتابع سيرورة التاريخ الذي ينظمه الله ويقوده. وحوالي عام ٦٤٠، في البداية الأولى للفتوحات العربية، كان ثمة مُؤلَّف يعزى إلى رجل يدعى يعقوب، حديث الارتداد [إلى المسيحية]، يُبين فيه لمعتنقي اليهودية في عصره، أن يسوع، ابن مريم، كان المسيح حقاً ، أي المشيح الذي أعلن عنه النبي دانيال، وقد تم ظهوره مرة أولى في ختام السبعين أسبوعاً النبوية المعلن عنها (٤٩٠ عاماً بعد القرار لبناء الهيكل). لكن المسيح / المشيح لابد من عودته مرة أخرى، بمجد وجلالة، في نهاية الأزمنة، إعداداً للدينونة. وهذه الأزمنة باتت قريبة، حسب الكاتب. لأن الدابة الرابعة، في نبوءة دانيال، تمثل الإمبراطورية الرومانية. لكن الإمبراطورية الرومانية، كما يقول المؤلف، قد باتت، في ذاك الحين، موهنة، وسوف تنبثق عنها، عما قريب، عشر ممالك (ترمز إليها عشرة أصابع التمثال، وعشرة قرون رؤيا النبي دانيال). إذن، سيظهر عما قريب القرن الصغير، صورة السلطان الشيطاني الذي يتحتم ظهوره في نهاية الأزمنة فيعود المسيح ويقهره.

خلال عصر تحرير هذا المؤلف، لبثت فتوحات العرب زهيدة بمقدار بالغ لكي تجد حيّزها في هذه اللوحة التاريخية/النبوية الشاملة، ولكي تفضي إلى تفسير رُؤيوي. غير أن هذا المؤلف يوضح أن اليهود قد راحوا يحاولون أن يروا في محمد النبي من يُنبئ بالمشيح المنتظر. وشرع بعض اليهود ينضوون تحت لوائه. إلا أن هذا النبي المزعوم، حسب هذا المؤلف، لا يمكنه أن يكون سوى نبي كاذب، لأن "الأنبياء لا يأتون شاكي السلاح"، وإضافة إلى هذا، فهو يدعو إلى العنف ويزعم انه يقتني مفاتيح الجنة، الأمر الذي يبدو للكاتب زعماً منبوذا يناقض الإيمان.

إن شهادته ترتدي قيمة عظيمة، حيث أنها توضح الطريقة التي حاول بها اليهود والمسيحيون، في ذاك العصر، أن يفسروا حوادث زمانهم التاريخية، على ضوء الكتابات النبوية، في منظور علم الأخرويات. كما تبين أن اللوم، منذ أزمنة ظهور الإسلام الأولى، كان يطال هذه الديانة من جراء موقفها الحربي، والوعود بالجنة التي كان محمد يغدقها.

في صدد المجيء الأول للمسيح

لقد قال دانيال: سوف تَعلم وتدرك، بدءاً من انبجاس كلمة لكي ينطق بها، ولكي تبني أورشليم، حتى مجيء المسيح الهامة، أن ثمة سبعة أسابيع واثنين وستين أسبوعاً، أي ٤٨٣ سنة وأن المسيح قد أتى هكذا في السنة ٤٨٤ منذ تأسيس الهيكل والحاضرة. حيث أن المسيح قد ظهر في مطلع الأسبوع ٧٠ وخلصنا مبيداً خدعة الشيطان [....]* لأن الروح القدس قد أشاح بوجهه عنا نحن اليهود، ولولا ذلك لما داستنا أقدام الأمم، منذ ٦٤٠ عاماً " (I، ٢٢، ص. ١٠٠).

فيما يخص مجيء المسيح ثانية، في ختام الأزمنة

"بعد موت الإمبراطور موريس [٥٣٩ - ٦٠٢] [....]* شرح لنا، نحن اليهود، صديقنا بروتس قائلاً ترى لماذا يبتهج اليهود بوفاة الإمبراطور موريس، وبمجيء فوكاس بالدم، إلى سدة الحكم؟ في الحقيقة، سنشهد قريباً تضاؤل الإمبراطورية الرومانية، ولكن إن باتت المملكة الرابعة، أي رومانيا، متضائلة، متمزقة، مسحوقة، كما قال هذا دانيال، فلا جرم أن شيئاً لن يحدث إلا الأصابع العشرة، والقرون العشرة للدابة الرابعة، وفيما بعد، القرن الصغير الذي يهدم كل معرفة بالله، وبعد هذا في الحال، نهاية العالم وقيامة الأموات من مواتهم. وإن حدث هذا، فقد كنا على خطأ بعدم استقبالنا المسيح الذي جاء إلينا، لأنه، إنما قبل أن تُسحَقَ البهيمة الرابعة وتُمزق، وقبل القرون العشرة، سيأتي الممسوح باسم الرب الذي يجيء من أصل ذرية يسى [يسى أبو النبي داوود: Jessé]، فهو الرب الإله [....]* " (III، ١٢، ص. ١٧٠ - ١٧٢).

المجيء الوشيك للشيطان هيرمولاوس" (Hermilaos) (المسيح الدجال) المنوط بنهاية الإمبراطورية الرومانية، الشيطان بقرونه العشرة، وبقرنه الصغير: اندلاق الأمم.

"[....]* ونرى أن الدابة الرابعة، أي رومانيا، قد باتت منهارة الكرامة، ممزقة الأقاليم، على يد الأمم، ومنذئذ لابد من ترقب القرون العشرة" (V، ١، ص. ١٨٢).

"[....]* وقال إيوستوس :(Ioustos) سيدي يعقوب، حيث أن الأمم قد قَطَّعتْ رومانيا إرباً فتحولت إلى مقام قيادتهم العليا (Toparchie) فترى هل ينبغي أن يجيء الشيطان الخداع؟

فأجاب يعقوب: أجل، في الحقيقة، لابد أن يأتي الخداع عقب تفكك أوصال رومانيا، ويا ويل من سيستقبله [....]* وسيأتي هيرمولاوس في الاضطراب والفوضى، لأنه الهلاك الأبدي بتمامه. بيد أن هذا الخؤون بطبعه يتخذ، بادئ ذي بدء، سحنة مسالمة مهاودة، كما يقول ذلك دانيال: وسوف يلغي قديسي العلي القدير، وسيحث على تغيير النواميس والفصول، وسوف يعطى حتى بعض الأزمنة، زمناً ونصف/ زمن. (٧، ١، ص. ١٨٢).

قال يعقوب: حقاً، كلامك صائب: فلم يَكفّ ضمير آبائنا عن تعذيبهم. أما نحن، فنرى الوقائع، الممالك الأربع التي انقضت وزمن القرون العشرة الذي أتى. فقال دانيال: في أيام هؤلاء الملوك أي القرون العشرة والقرن الصغير، سوف يُوجِدُ الله ملكية لن تنهدم أبد الدهر، ولن تهمل ملكيتها مابين أيدي شعب آخر، وسوف يوهن جميع الممالك ويسحقها. أما الملكية هذه، فسوف تستمر مدى الدهور: مثلما رأيت أن حجراً قد انفصل عن الجبل، وسحق الغضار والحديد والبرونز والفضة والذهب. فالله قد أوحى بما يتحتم حدوثه في ختام الأزمنة" (٧، ٧، ص. ١٩٤).

أجاب إيوستوس قائلاً أقسم بالروح القدوس، هذا هو بالتمام معنى النبوة" (ص. ١٩٤).

تشير تتمة المؤلف إلى أن المسيح سوف يعود، فيُرِي جراحاته من قاموا بسمرته على الصليب، وطعنوه بحربة. فلابد إذن أن يرتد اليهود فيؤمنوا به لكي لا يعانوا من النار الأبدية.

ثم يتناول النص وضع محمد، " نبيّ المسلمين الملفق"، الذي ظهر حديثاً ، وأغرى اليهود، في بادئ الأمر.

شرع إيوستوس يتكلم قائلاً أصبت بما قلت، وهذا هو الخلاص الكبير، أي الإيمان بالمسيح. لأنني عازم على الاعتراف لك بالحقيقة كاملة، يا سيد يعقوب، فقد كتب إليّ أخي أبرهامس [وتضيف النسخة السلافية: من قيصرية"]* أن نبياً كذوباً قد ظهر [والنسخة السلافية تضيف: مابين المسلمين"]*. وعندما قُتل المرشّح [وتذكر النسخة السلافية اسمه: سرجيوس]* على يد المسلمين [وحدث هذا الاشتباك عام ٦٣٣، حسب تدوين الحوليات لكاتبها ثيوفان]*، كنت في قيصرية - كذا قال لي أبرهامس -

وأخذت أبحر إلى سيكامينا، وكان الناس يقولون: قتل المرشح! أما نحن، اليهود، فقد ابتهجنا ابتهاجاً عظيماً وظلوا يقولون إن النبي قد ظهر، قادماً مع المسلمين، معلناً مجيء المسيح/الممسوح المقدس وقد بات مجيئه وشيكاً

وأنا [أبرهامس]*، عقب وصولي إلى سيكامينا، توقفت عند أحد القدماء الضليع جداً في علم التوراة. فقلت له: ترى ما الذي تقوله لي [ويضيف النص السلافي: "سيدي والعالم"]* عن النبي الذي ظهر مع المسلمين (Saracènes)؟ فأجابني وهو يئن أيما أنين، إنه نبي مزيف: ترى هل يأتي الأنبياء شاكي السلاح؟ في الحقيقة، إن حوادث هذه الأزمنة الأخيرة أعمال فوضوية، وأخشى أن يكون المسيح الأول الذي أتى، وهو الذي يعبده المسيحيون، هو حقاً المرسل من الله، فيما لبثنا نتهيأ لاستقبال هرمولاوس بدلاً منه. أجل، إن أشعيا قد قال: سيكون لليهود قلب فاسد متصلب حتى تغدو الأرض جمعاء خربة متهدمة. ولكن، هيا، يا سيدي أبرهامس [1]، أخبرني عن هذا النبي الذي ظهر. أما أنا، يا أبرهامس، عقب استغراقي في بحثي، فقد علمت من الذين صادفوه أن المرء لا يجد أي شيء أصيل في هذا النبي المزعوم: فالأمر يعني مذابح وحسب. ويقول النبي إنه يقتني مفاتيح الفردوس، وهو أمر لا يصدق. هو ذا إذن ما كتبه إلي أخي، أبرهامس المشرقي. "(V، ١٦، ص. ٢٠٨ - ٢١٠).

(عقيدة يعقوب المرتد حديثاً ، طبعة وترجمة ف. ديروش (V. Deroche)، أعمال ومذكرات مجلد XI، معهد فرنسا، مركز بحوث تاريخية وحضارة بيزنطة، ١٩٩١، ص. ٧٠ - ٢١٨، في شتى المواضع).

٩ - تاريخ محمد وعقيدته حسب ثيوفان المعترف (Theophane le Confesseur) (حوالي ٧٦٠ - ٨١٨)

تعتبر حولية ثيوفان، التي حررها مابين ٨١٠ و ٨١٣، بأنها عموماً ، مقتضبة وموثوقة. وإن ترجمتها اللاتينية التي أنجزها أنستاز المكتبي، في منتصف القرن التاسع، قد أتاحت نشر معلوماتها في الغرب. والصورة التي تنقلها عن النبي محمد

---

(١)- قد حدث بطريق مصادفة سينة إهمال هاتين اللفظتين "هيا يا سيدي" في الترجمة المقدمة أنفاً ، الأمر الذي يجعل الترجمة غامضة وأعدتهما هنا بفضل ماريان تسيولي ، مدبرة شؤون المكتبة BPU بمدينة جنيف ، وأصر هنا على شكرها

وعن مذهبه تلخص تلخيصاً موفقاً بما فيه الكفاية الرأي المنتشر في الأوساط المسيحية في بيزنطة: ويُوصف محمد فيها بمثابة نبي مصروع وشبق، كما يُوصف الإسلام بصفته ديناً قد نشرته النساء والأسلحة، ديناً يُلقن أن من يموتون أو يُقتلون في المعارك يكسبون الجنة، وهي جنة جد مادية وزاخرة بالعديد من التمتعات واللذائذ.

سنة العالم ٦/٢٢ [وهي سنة ٦٢٢ لتجسد المسيح]*. في هاتيك السنة، مات محمد نبي المسلمين المزيف ورئيسهم، بعد أن عين [كرئيس وخليفة له]* نسيبه، أبا بشار. وفي الفترة ذاتها، انتشرت سمعته بعيداً وذعر العالم بأسره.[....]* وأعتقد من الضروري أن أدون هنا ما كانت عليه أصول هذا الرجل ومنابته. لقد كان سليل قبيلة واسعة الانتشار، قبيلة إسماعيل بن إبراهيم.[....]* وبعد أن بات يتيماً ، قرر محمد الالتزام بخدمة امرأة ثرية من أنسبائه، تدعى خديجة، وذلك بصفته مستخدَماً مأجوراً يكلف بالتجارة ويستخدم جمالاً ، في مصر وفلسطين. وتملكته الجرأة، تدريجياً ، حيال هذه المرأة الأرملة، فاكتسب حظوة لديها. وتزوج بها ودخلت بِجِمَالِها وثروتها في حوزته. وخلال رحلة إلى فلسطين، قيض له الاتصال ببعض اليهود والمسيحيين: فالتقط لديهم بعض النتف من التوراة، ثم انتابه مرض الصرع. وحين علمت زوجته بذلك، أسفت أيما أسف، هي التي كانت نبيلة، على اقترانها بهذا الرجل، ولم يكن فقيراً وحسب بل أيضاً مصروعاً آنئذٍ، حاول هو جاهداً أن يهدئ روعها قائلاً لها: إني أتلقى رؤيا من ملاك يدعى جبرائيل، وحيث أني لا أقدر أن احتمل رؤيته، ينتابني الوهن فأسقط. وبما أن راهباً كان عندها، وقد نفي من جراء هرطقته، توخى إقناعها، وقال لها: قد نطق بالحقيقة، لا جرم أن هذا الملاك بذاته هو الذي يبعث به إلى جميع الأنبياء. وعندئذٍ، عقب سماعها، هي الأولى، كلمات هذا الراهب الكذوب، صدقته فأعلنت لجميع النسوة في قبيلتها أن هذا الرجل نبي، بحيث أن هذا الخبر انتقل من النساء إلى الرجال، وأولاً إلى أبي بشار الذي تركه النبي خليفة له. وعندئذٍ اندلقت بدعته على منطقة يثرب، وفي المرحلة الأخيرة، بقوة السلاح. وترأس البدعة أولاً وهو يلبث خبيئاً خلال عشرة أعوام، ثم أيضاً طوال عشر سنوات من الحروب، وأخيراً علانية على مدار تسع سنوات. ولبث يلقن تابعيه أن من يَقتل عدواً ، أو يقتل على يد عدو، يمضي إلى الجنة. بل ظل يقول إن هذه الجنة المادية تقوم على الطعام والشراب، وعلى

إقامة علاقات جنسية بالنسوة، وإن ثمة نهراً من خمر وحليب وعسل، وأن النساء لسن شبيهات بنساء هذه الدنيا، بل هن مختلفات، فالصلات الجنسية بهن تدوم ردحاً طويلاً من الزمان، فيما تستمر المتعة بهذا الاتصال.

(ثيوفان المعترف، حولية، علم آباء الكنيسة اليونانية، ١٠٨، المجموعتان ٦٨٤ - ٦٨٥ قد استعيد الجزء بالخط المختلف).

(من ترجمة أ. دوسولييه (A. Ducellier)، مسيحيو الشرق والإسلام في العصر الوسيط، القرون ٧ - ١٥، باريس ١٩٩٦، ص. ١٤٦ وبقية النص ترجمها المؤلف استنادا إلى س. مانغو (C. Mango) و ر. سكوت (R. Scott)، حولية ثيوفان المعترف، تاريخ بيزنطة والشرق الأدنى، ص. ٢٨٤ - ٨١٣ ، أكسفورد ، ١٩٩٧، ص. ٤٦٤ - ٤٦٥ .)

١٠ - انتقاد مذهب الجهاد في مؤلف عربي مسيحي (بداية القرن ٩)

تتوخى رسالة الكندي أن تكون دحضاً - حُرر قبيل عام ٨٢٥ - لرسالة من المسلم الهاشمي، تعرض الأمور الرئيسية لمذهب الإسلام، وتدعو مراسله الكندي إلى اعتناقه دين الإسلام. واستنادا إلى أرمان أبك، دفاع الكندي ومكانته في المساجلة الإسلامية/ المسيحية [وثائق المؤتمر الدولي حول الموضوع: الشرق المسيحي في تاريخ الحضارة] (ترجمة طلياني) روما، ١٩٦٤، ص. ٥٠١ - ٥٢٣، قد يكون المؤلف بكامله، في واقع الأمر، من محرر واحد، وهو عرض مختصرلإطروحات الإسلام، عرض يوفر حجة يتيسر دحضها على الكندي. ولا نختار هنا سوى بضع نقاط من هذا الدحض الخاص بالحرب المقدسة. وتبدي هذه النقاط كم كانت هذه العقيدة غريبة عن ذهنية المسيحيين في ذاك الزمان. وحرص المؤلف أيضاً على تبرير الحرب التي قام بها موسى ويشوع عن طريق إشارات إلهية تستعصي على كل دحض و تفنيد، إشارات افتقدها محمد. وانتقد المؤلف أيضاً بشدة عقيدة الاستشهاد، معارضاً الشهداء المسيحيين السلمويين [الموالين للمذهب السلمي] بالشهداء المسلمين المحاربين:

ثم تقول: أدعوك إلى الاندراج في طريق الله، الطريق التي تقوم على غزو المسلم للمعارضين والكافرين، على منازلة معتنقي تعدد الآلهة بالسيف والنهب والأسر، حتى يرتدوا إلى دين الله فيعترفوا بأن لا إله إلا الله وأن محمداً خادمه ورسوله، أو حتى يؤدوا الجزية، طوعاً منهم، وهم صاغرون."

فهل تريد إذن، أيها الرجل الحكيم والعاقل، أن تدعوني إلى الاشتراك في فعلة للشيطان عديم الشفقة والرحمة؟ [....]* فأرجوك بالتالي أن تشرح لي ما هو قوام طريق الشيطان؟ ترى أليس هو القتل وسفك الدماء؟ أليس هو النهب والسرقة وإقحام البشر في الأسر؟ ترى هل بمقدور إنسان الزعم بأن كل هذا الذي وصفناه ليس طريق الشيطان وسبيله؟

وإن أجبت أن موسى، كليم الله - سبحانه تعالى - قد حارب الكفار وعباد الأصنام، فنحن نجيبك: هيا استذكر ما قرأته في التوراة، كم من العجائب والآيات قد اجترحها موسى، فهي ترغمنا على الاعتقاد بأن الحرب والمنازلة اللتين قام بهما على عبدة الأصنام كانتا حسبما أراد الله وأمر به - تبارك اسمه - وكان الأمر على هذه الشاكلة مع يشوع بن نون الذي التمس من الله توقف الشمس والقمر، فتوقفا فعلاً فأنجز بذلك علامة معجزة خارقة عَجَزَ أيٌّ إنسانٍ عن إنجازها، إلا إن كان من القديسين خدام الله واتقيائه. ومن ثم نؤمن أن ما قد فعله استند إلى أمر من الله - تعالت قدرته وجلالته - والآن أيضاً، أية علامةٍ بوسعك أن تذكر؟ المعجزة التي يكون معلمك أنجزها بمثابة استهلال يؤدي له شهادة، ويضطرنا على الاعتراف بحقيقة ما يقوله، وعلى الاعتقاد بأن ما يفعله يستند إلى أمر من الله، وخاصة قتل الناس، ونهب ما يحوزون، وتردّي أبنائهم في الأسر وخطفهم؟

[....]* وما هو على مزيد من الغرابة أيضاً من قبلك، هو أنك تنعت بشهداء أصدقاءك الذين يفقدون حياتهم في معمعة المعارك. فيترتب علينا أن نتفحص حكايات شهداء سيدنا يسوع المسيح، هؤلاء الذين ماتوا في عصر ملوك فارس وملوك آخرين، فنتساءل إن استحقوا صفة الشهداء، أو بالأحرى حكاية أصدقائك الذين يلقون حتفهم في سبيل فتوحات العالم، ويقاتلون طمعاً بالنهب والسلب. لكننا قد علمنا بثبات أولئك المسيحيين الذين قتلهم الرومانيون المتمردون، قبل ارتدادهم إلى الدين المسيحي، كما علمنا باندفاعهم إلى التضحية بدمائهم وحياتهم وحياة أبنائهم، والى مغادرتهم هذا العالم ولذائذه، كما علمنا بصدق اقتناعهم بصحة دينهم وإيمانهم. ونحن نعلم أنهم كانوا يهرعون إلى تقديم أجسادهم لكي تقتل وتذبح، وتعاني من جميع أصناف التعذيب، تضحية منهم لله تعالى.

[....]* فمن منهم يستحق حقاً لقب شهيد، ومن الذي يتيسر لنا الإعلان عنه بأنه قضى نحبه في سبيل الله؟ ترى أهو الذي قدم ذاته تضحية في سبيل دينه، لأن الأمر قد أصدر إليه بأن يعبد القمر أو الشمس أو الأصنام الأخرى من ذهب أو فضة أو خشب، قد صنعها البشر، وبات يتخذها آلهة دون الله [....]* ؟ أم هو الذي مضى بقصد النهب والسرقة وتجريد الناس من حوزتهم وخطف أولادهم إلى عبودية الأسر، واغتصاب النسوة - وهو أمر لا شرعي - وشن الغارات، فيما لبث يصف كل هذا بالحرب المقدسة في سبيل الله، ويعلن: من يَقتل أو يُقتل يمضي إلى الجنة؟

(الترجمة في ج. تارتار (G. Tartar) حوار مسيحي/ إسلامي في خلافة المأمون (٨١٣ - ٨٣٤): رسائل الهاشمي والكندي، باريس ١٩٨٥، ص. ٢١٩ - ٢٣٢، في شتى المواقع).

١١ - استعادة الأرض الأسبانية [ركونكيستا] والنبوءات

إن الحولية النبوية ترى في الاحتلال العربي لاسبانيا عقاباً من الله، وذلك من جراء مآثم ملوك الغوط وذنوبهم. بيد أن هذا العقاب على أمد مؤقت، وسوف يلقى نهايته التي تعتبرها الحولية قريبة جداً ، خلال أقل من عامين.

غوغ (Gog)، في واقع الأمر، إنما هو الشعب الغوطي [....]* (Goths) وأرض الغوغ تشير في الحقيقة إلى إسبانيا في ظل سيطرة الغوط، وهي الأرض التي اجتاحها أبناء إسماعيل نتيجة لمعاصي الشعوب الغوطية. فقد قضوا عليهم بحد السيف، وأرغموهم على الجزية، كما نرى هذا الأمر بوضوح في زمننا الراهن. غير أن النبي أشعيا بذاته قال مجدداً لإسماعيل هذه الكلمات: حيث أنك عزفت عن الرب إلهك، فأنا أيضاً سأتخلى عنك وأسلمك إلى أيدي الغوغ، فتنهار أنت وجيوشك جمعاء، بحد سيوفهم. وعقب معاناتك من كل ذلك طوال ١٧٠ سنة، سيعيد إليك الغوغ الأجور التي ستكون قد أعطيته إياها.

رجاؤنا نحن إنما هو المسيح، وهو أن جرأة أعدائنا، عقب الانقضاء التام والقريب للسنوات ١٧٠ ، ستؤول إلى العدم، وأن سلام المسيح سوف يعاد إلى الكنيسة. وعلاوة على هذا، إن مسلمي الغرب أنفسهم، حسب بعض المعجزات أو العلامات الفلكية،

يتكهنون بأن دمارهم الكامل قد بات قريباً ، وأن مُلك الغوط سوف يعيده أميرنا إلى سابق عهده .[....]*

إن مجموع سنوات حكم العرب في إسبانيا دام ١٦٨ سنة وخمسة أشهر. وحتى يوم القديس مارتان في الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، يبقى سبعة أشهر، وعندئذٍ سوف تُستكمل ١٦٩ سنة. حينذاك سوف تُستهل السنة ١٧٠ وعندما سيقضيها المسلمون بتمامها حسب النبي أشعيا، كما تم قول هذا أنفاً ، نترقب أن يحين زمان الانتقام من أعدائنا، وخلاص المسيحيين. ولينتصرنّ الله الكلي القدرة، وكما تنازل وافتدى العالم بأجمعه من قدرة الشيطان بدم ابنه، سيدنا يسوع المسيح، سوف يتنازل أيضاً ، في حين وشيك، فيأمر بأن تتحرر كنيسته من نير إسماعيل، فهو الذي يحيى ويَملك إلى دهر الداهرين. آمين"

(حولية نبوية، دار نشر إ. بوناز Y. Bonnaz، حوليات استورية، نهاية القرن التاسع، باريس، ١٩٨٧، ص. ٢ - ٩ ترجمة المؤلف).

١٢ - المسيح الدجال L'antichrist ونهاية الأزمنة

في النصف الثاني من القرن العاشر، استعاد أدسُن دو مونتيه- إن- درْ (Adson de Montier-en-Der) نص النهج- المزيف، إلا أنه وضح للملكة جيربرج أن زمان ظهور المسيح الدجال لم يحن وقته بعد: فحسب الرسول بولس، إن الأمر الذي يعيقه (أي الإمبراطورية الرومانية) لم يختف حتى ذاك الزمان: ولا جرم أنه يرى في الممالك البربرية امتداد الإمبراطورية الرومانية. لكنه يضيف أن بعض أساطين العلوم، يرون أن ملكاً من الفرنجة سيأتي إلى أورشليم، قبل ظهور المسيح الدجال، ليتنازل عن عرشه في جبل الزيتون. وطرأ عدة مرات تعديل على هذه النبوة ومن المرجح أنها أمدّت بالوحي بضعة صليبيين، ولاسيما إيميخ دو لا ينينغن (أو دو فلونهايم)، الذي لبث يزعم أنه هو ذاته ملك اليونانيين والرومانيين" وكان يتوخى أن يعمد اليهود بالإكراه سعياً منه إلى إنجاز النبوءات بتمامها، وهي التي تقول إن أزمنة النهاية سوف تشهد الارتداد النهائي لليهود إلى المسيحية، أو على نقيض هذا، انضمام تحالفهم إلى المسيح الدجال.

"غير أن هذا الزمان لم يحن بعد: وفي الواقع - كما نرى ذلك تماماً - مع أن

الإمبراطورية الرومانية قد هدمت في معظمها، لكن، طالما سيبقى الملوك الفرنجة الذين لابد لهم أن يستولوا على هذه الإمبراطورية الرومانية، لن تزول تماماً كرامة هذه المملكة الرومانية، فهي ستبقى في هؤلاء الملوك. وإن بعض علمائنا يقولون: في اليوم الأخير سيظهر ملك للفرنجة ويتقلّد زمام الحكم في الإمبراطورية الرومانية جمعاء. وسيكون ملكاً عظيماً ، وآخر الملوك قاطبة. وعقب تحكمه بشؤون مملكته تحكماً موفقاً، سينتهي الأمر به إلى ذهابه حتى يصل أورشليم حيث سيتخلى عن عرشه وصولجانه في جبل الزيتون. وعندئذٍ سيكون حقاً ختام إمبراطورية الرومانيين والمسيحيين وهلاكها. وفي الحال، استنادا إلى جملة الرسول بولس المذكورة أنفاً ، سيقولون إن المسيح المنافق لابد من ظهوره. وسوف يكشف النقاب عن رجل المعاصي هذا أي المسيح الدجال. ورغم كونه إنساناً ، فسوف يلبث مصدر كل إثم، وابن الهلاك الأبدي أي ابن إبليس، لا من حيث طبيعته، بل من باب التقليد والتشبه به، لأنه سوف يستكمل في كل شيء، إرادة الشيطان، ولأن تمامية سلطان إبليس وروح الشر ستحل فيه جسدياً ، وستظل فيه مخبأة جميع كنوز الشرانية ومساوئ الأخلاق. [....]*

وهكذا، كما سبق لنا أن قلنا آنفاً ، فالمسيح الدجال، بعد ولادته في مدينة بابلو وقدومه إلى أورشليم، سيتلقى الختان، ويقول لليهود: إنما أنا هو المسيح الذي وُعدتم به، وقد أتيت بغية خلاصكم، بقصد أن أجمعكم وأذود عنكم، أنتم الذين تظلون مشتتين. آنئذ سيمضي إليه جميع اليهود. وإذ يحسبون أنهم يستقبلون الله، لكنهم في واقع الأمر يستقبلون إبليس، سوف يمعن المسيح الدجال في غيه حتى يجلس في هيكل الله، أي في الكنيسة المقدسة، فيجعل من جميع المسيحيين شهداء لإيمانهم، وسوف ينعم بالرفعة والتعظيم، حيث أن الشيطان سيقطن في داخله، والشيطان رأس جميع أصناف الشرور، وهو ملك على جميع أبناء العنجهية والعجرفة.

(أدسُن دو مونتييه- إن- درِ، دار نشر، د. فيرهيلست (D. Verhelst)، أدسو درفينسيس، عن بداية المسيح الدجال وزمانه، تورنهوت، ١٩٧٦، ص. ٢٦ . ترجمة المؤلف).

١٣ - محمد، المسيح الدجال، كاريكاتور الإسلام في "صدد تمثال محمد"

A – حسب فوشيه دوشارتر (Foucher de Chartres)

إن فوشيه دوشارتر، كاتب حولية الحرب الصليبية الأولى، أحد رجال الكنيسة، وقد صاحب، في البداية إتيين دو بلوا. ثم انتقل إلى خدمة بودوان دو بولوني فصار كاهن كنيسته في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٠٩٧ وخلال مكوثه في الأرض المقدسة، بدأ يكتب حوالي سنة ١١٠٥، – ورغم المعرفة الجزئية التي تمكن من الحصول عليها عن الإسلام في هذه المناطق– فقد كرر، في شأن محمد و صنمه" في الهيكل، الآراء المبتذلة المنتشرة في الغرب، حتى قبل الحرب الصليبية الأولى. وعلينا التوضيح هنا انه لم يشترك في الاستيلاء على أورشليم، سنة ١٠٩٩، فقد سبق له أن بقي في الرها [Edesse مدينة تدعى أيضاً أورفا، مابين النهرين في تركيا]، مع بودوان الذي بات أمير منطقة كونتية الرها.

إن هيكل الرب هذا، كان يحظى باحترام جميع المسلمين الكبير. ولبثوا يقيمون فيه (مفضلين إياه على سواه، وحسب شريعتهم) ابتهالاتهم إلى صنم مصنوع أطلق عليه اسم محمد [....]* فما كانوا يأذنون لأحد من المسيحيين بالولوج هناك.

(فوشيه دو شارتر، "تاريخ أورشليم المقدسة"، ١: ٢٦، مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية RHC المؤرخون الغربيون، ٣ ص. ٣٥٥، وطبعة هـ. هاغنميير (H. Hagenmeyer)، ص. ٢٩٠، ترجمة المؤلف).

B – حسب راوول دوكان (Raoul de Caen)

راوول دو كان مؤلف حوليات الحرب الصليبية الأولى ولم يشترك فيها. وقد أتى فقط إلى الشرق حوالي عام ١١٠٧، والتزم بخدمة تانكريد، حفيد بوهيمون دو تارانت، الذي صار أمير أنطاكية، وكان سيداً من الأسياد الأوفر نفوذاً في الحرب هذه. ورغم أنه لم يشهد الوقائع المدونة في حوليته، يعطينا راوول دو كان تفاصيل ثمينة جداً سبق له أن سمع تانكريد يرويها هو بذاته. فإن قصته– على غرار قصة كُتاب الحوليات الآخرين وأكثر منهم أيضاً – هي قبل كل شيء معدة لتعظيم الأمير الذي يخدمه. فكتب راوول دو كان، بطريقة ما، تقريظاً للأمير تانكريد. ومن المحتمل كون هذا الأمير

أول من دخل "هيكل سليمان" (المسجد الأقصى) فنهب جزءاً منه. ويروي راوول دو كان، حسب طريقته، (أو حسب طريقة تانكريد؟) المشهد بنظم قصيدة تعكس ذهنيات الصليبيين. وإذ لم يأبه بالوقائع الحقيقية التي تجانبه، منذ عدة أعوام (فإن جامعاً في أورشليم لا يشتمل بالطبع على تمثال لمحمد) ، فقد راح راوول دو كان يفضل على هذه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية لإسلام يعبد الأصنام، صورة قد ترسخت بعمق في أذهان الغربيين، فباتت موضوعاً مبتذلاً ينقله العديد من النصوص في الشرق والغرب، وباتت شعبية عن طريق ملاحم المفاخر.

إن التواجد المفترض لتمثال محمد في هذا الجامع، وكان المؤلف يعتقد أن هذا الجامع قد بني على أسس هيكل سليمان، أتاح له شجب "عبادة الأوثان لدى المسلمين" لكن، لابد من الإشارة هنا إلى سلاح ذي حدين لأن سرد قصة راوول يشتمل على أنه احتمالٌ لتصديق تواجد التمثال لو كان الأمر يعني صورة للمسيح. وقد أتاح له هذا التواجد المفترض، إضافة إلى ما سبق، تشبيه محمد بالمسيح الدجال، مستخدماً لذلك ذكريات مبهمة من الرؤيا والكتب المقدسة. وفي الواقع، أعلنت النبوات أن المسيح الدجال، في "الأزمنة الأخيرة" سيتجرأ حتى يتربع على العرش في هيكل الله، ويُري من نفسه أنه بذاته هو الله، (الرسالة الثانية إلى أهل تيسالونيكية، ٢: ١ - ٤)، [وقصة راوول هي التالية]:

"كان يُقام على عرش مرتفع تمثال من فضة، ثقيل باهظ بحيث أن ست أذرع لرجال أقوياء قد لا تكاد تكفي لرفعه، وعشر أذرع لنقله. وحالما لمحه تانكريد راح يَجْهر بقوله: يا للعار! ما الذي يعنيه وجود هذا التمثال الباذخ في هذا المقام [المقدس]؟ ما الذي يفعله هنا هذا الصنم؟ ولماذا هذه الأحجار الكريمة، ولماذا هذا الذهب، ولماذا هذا الأرجوان؟ (لأن هذا التمثال لمحمد كان مثقلا بالأحجار الكريمة والأرجوان، أو بدا شديد التألق بالذهب). هل هو صورة مارس [إله الحرب عند الرومان]، أم صورة أبو لون؟ [إله الجمال عند الإغريق] هل هو المسيح؟ فنحن لا نجد هنا شعارات المسيح: لا صليب هنا، لا إكليل من شوك، لا مسامير، ولا كشح مطعون! إذن ليس هذا هو المسيح قطعاً ! إنه بالأحرى المسيح الدجال، السابق للمسيح، إنه محمد هذا ذو الأخلاق المنحرفة، محمد هذا المفسد المؤذي! آه! لو ظهر الآن شريكه، من لابد له أن يأتي،

لأطاحت قدماي عندئذٍ بكلا المنافقين في آن معاً ! يا للفضيحة! إن نديم هوة الجحيم، ضيفَ بلوتون [إله الأموات وملك الجحيم عند الإغريق] قد تسلطن على قلعة الله! وصار إلهَ ما قد صنعه سليمان!

(راوول دوكان، ملحمة تانكريد، فصل ١٢٩، RHC: مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخون الغربيون، ٣، ص. ، ٦٩٥ ترجمة المؤلف).

١٤ - نداء ليون الرابع إلى محاربي الفرنجة (سنة ٨٤٧) المقترن بوعود روحية

هذا هو النص الأول حيث يُعرَب فيه بوضوح، في الغرب المسيحي، عن فكرة الثوابات الروحية التي تُمنح لمحاربين قد يتعرضون للموت في القتال. وليس من النافل ملاحظتنا أن هذا الوعد يقوم به أحد البابوات المحاربين من الفرنجة الذين قد باتوا مدعوين لدحر المسلمين عن أراضي التراث البابوي المهدّد. وإن رفع شأن القتال الذي يقوم به محاربون مسيحيون ينجم عن اختلاط عدة عوامل، والبعض منها تم توارثه عن العصور الرومانية القديمة: الدفاع عن "الوطن"، والدفاع عن الإيمان، والدفاع عن السكان (النسخة a) [في ما يلي]. وتمضي النسخة (b) إلى ما هو أبعد أيضاً حيث تجعل من الحملة الحربية مشروعاً من شأنه أن يوفر خلاص النفس لكل محارب يُقتل خلال استكمال القتال. وعندئذ، قد نكون اقتربنا جداً من فكرة حرب تجلب غفران الخطايا. وبالتأكيد أن هنا تماماً إحدى السمات المكوِّنة للحرب المقدسة، والحرب الصليبية فيما بعد. وتؤكد هذه النسخة (b) أيضاً على وجود "وطن للمسيحيين" قد يشير إلى المسيحية، وكما نرى عموماً ، فقد كان هذا المفهوم، في ذاك التاريخ، مفهوماً مبكراً بمقدار مفرط نوعاً ما. وليست النتيجة أكيدة، لكن يحسن بنا رغم ذلك، من باب الفطنة، أن نعتبر أصلية النسخة (a) وقد غدت واضحة جلية. فهي تؤكد أن الملكوت السماوي سوف يكتسب لمن قد يموتون خلال نزال يخوضونه في سبيل حماية روما البابوية التي يهددها المسلمون. [وها هو النداء].

"إلى جيش الفرنجة،

فيما تُبعدون عنكم كل خشية وكل ذعر، هيا اعكفوا على العمل الشجاع، مقاومين أعداء الإيمان المقدس، وخصوم المنطقة بأسرها.

حتى هذا الحين، قد أمّن أجدادكم الدفاع العام، ولبثوا على الدوام ظافرين، وليس ثمة شعب، مهما كان عديداً ، قد تمكن من قهرهم والتغلب عليهم. ولم نسمع في أي يوم أنهم قد عادوا مرة واحدة دون نيلهم مجد الانتصار والظفر.

نتوخى الاعتراف بمحبتكم أجمعين، بما أن ممالك السماوات لن تُرفض لمن يلقون حتفهم مخلصين في أية معركة من معارك هذه الحرب [....]* "

تُعرف الجملة اللاحقة بشكلين: الشكل الأول (النسخة a) قد تبناه ناشر علم الآباء اللاتيني (ج. ب ميغن) (J.-P. Migne) والشكل الثاني (النسخة b) تبناه ناشر المآثر الجرمانية التاريخية.

a - أجل إن القادر على كل شيء يعلم أنه، لو قيض الموت لأحد منكم، فسيكون موته في سبيل صحة الإيمان الحقيقي، وإنقاذ الوطن والذود عن المسيحيين. ومن ثم، سوف يحظى من "القادر الكلي على الثواب الآنف الذكر

b - "من المؤكد أن الكلي القدرة يعلم أنه، إذا مات أحدكم، يغدو موته مُجدياً فيكون قد مات من أجل حقيقة الإيمان، وخلاص نفسه، والدفاع عن الوطن المسيحي. ولذلك، إذن سيمنحه القادرُ على كل شيء المكافأة الآنفة الذكر

(ليون الرابع، الرسالة الأولى، "إلى جيش الفرنجة الرسائل والقرارات"، علم الآباء اللاتينيين (PL)، ١١٥، المجموعات ٦٥٥ - ٦٥٧ "المعالم الجرمانية التاريخية": MGH، الرسالة ٥، كاروليني أيبيفي (Karolini Aevi) ٣، برلين ١٨٩٩، ص. ٦٠١، ترجمة المؤلف).

١٥ - قَسَم " ميليشيي بورج للسلام" (١٠٣٨)

سعيا إلى مكافحة منتهكي السلام" مكافحة مسلحة، ونعني بهم خاصة، من يلحقون الأذية بالممتلكات والثروات الكنسية، لم تقتصر الكنيسة دوماً على الأسلحة الروحية، أسلحة الحِرم (Anathème) أو الفصل عن الجماعة المسيحية، أو الحظر (Interdit) [أي منع رجل الدين عن القيام بمهمته]. فكانت تلجأ أيضا إلى الأسلحة القتالية: إما إلى الأسلحة التي يتقلدها الحماة التقليديون للمؤسسات الكنسية (أي: الملوك، والمحامون القانونيون، والمدافعون عن الكنائس)، وإما إلى أسلحة جنود يُجندون

ميدانياً على الأرض، وهم نوع من ميليشيات كنسية تتكون جوهرياً من أفراد الشعب. يوفر لنا إيمون دوبورج على ذلك مثلاً من أفضل الأمثلة (النادرة) ويثير الاهتمام خصوصاً، حيث أنه يوضح دور القسم المقتضى من جميع الرجال في عُمر تقلدهم الأسلحة، إلى جانب دور رجال الأكليروس الذين يحملون البيارق الكنسية، ورايات الشفعاء القديسين: ويُقدسن هذان العنصران القتال الذي يتم خوضه في سبيل الكنائس.

في الفترة عينها، أراد إيمون، رئيس أساقفة بورج، أن يُحل السلام في أسقفيته، بوسيلة قسم. فدعا أساقفة إقليمه إلى الاجتماع، وعقب التماسه النصح من أساقفته المساعدين، أرضخ كل من بلغوا الخامسة عشرة من عمرهم، أو أكثر، على الخضوع للالتزام التالي: سيتصدّون بالإجماع لكل من ينتهكون الحلف المعقود، ولن يتقاعسوا البتّة عن المشاركة فيه، وحتى بما يحوزون من ممتلكات. وعلى نقيض هذا، إن اقتضى الأمر، يلتزمون بمهاجمتهم ومجابهتهم بقوة السلاح. وإن خدام العبادة أنفسهم لن يعفوا من هذا الواجب: فبعد حملهم الرايات الموضوعة في أماكن عبادة الرب، سوف يسيرون مع عديد الشعب على منتهكي السلام الذي تم القسم عليه. [....]* وها هو اليمين الذي أقسم عليه رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرون:

أنا، إيمون، رئيس أساقفة بورج بنعمة من الله، ومن كل قلبي وبصوت جهير واضح، اعد الله وقديسيه بأن امتثل بما يلي من كل نفسي، دونما مراوغة ولا مواربة، ودون أي تحفظ:

سوف أقاتل بحزم وبسالة جميع من يجتاحون الممتلكات الكنسية ومن يحضّون على النهب والسلب، ومن يضطهدون الرهبان والراهبات ورجال الكنائس، وجميع من يهاجمون الكنيسة أمّنا المقدسة، حتى يُقدموا على الندم والتوبة. ولن أدع نفسي تنصرف عن هذا بإغراء الهدايا ولا بنفوذ الناس الذين تصلني بهم صلة الرحم، سعياً مني إلى عدم الزيغان عن الطريق القويم. وأعد بالتصدي بكل قواي لكل من يجرؤون على تجاوز هذه القرارات، وبعدم التنازل لهم بأية طريقة، إلى أن تنعدم محاولات المخلين بمهماتهم ووظائفهم.

عقب إدلائهم بهذا التصريح العلني على ذخائر القديس إتيين (Etienne)، أول شهيد للمسيح، حض الأساقفة الآخرين على أن يحذوا حذوه، وهذا ما فعله جميعهم

بالإجماع. وقام كل واحد منهم، في أبرشيته، بجمع كل الرجال في عمر الخامسة عشرة وأكثر، طالباً منهم الالتزام ذاته"

(أندريه دو فلوري (Andre de Fleury)، عجائب القديس بنوا، الكتاب ٥، ١ - ٥، طبعة إ. دو سيرتان، باريس، ١٨٥٨، ترجمة المؤلف).

١٦- كيف يتصور الحرب المقدسة رئيس لدير كونك (Conques)

حوالي عام ١٠٣٠، روى لنا برنارد انجيه (Bernard d'angers) كيف كان فارس قديم (قد صار راهباً ثم رئيساً للدير) يحتفظ عند رأس مضجعه بشكته كفارس، ويستخدمها متصدياً "لنهابي" الدير. وكان يرى هذا القتال أعدل وأقدس وأوفر استحقاقاً من الحرب على الكفار، معتبراً أنه على جدارة تامة لتوفيره أوسمة الاستشهاد وأمجاده.

"ما كان بوسع هذا الراهب، في ديره، أن يكبح حماس الحرب المتوقد في داخله عندما عاش في العالم [قبل أن يترهبن]: فحول حميته بالأحرى على الأشرار. وفي المهجع العام، قرب ثيابه الرهبانية، ظل يعلق عند رأس مضجعه زرده، خوذته، حربته، سيفه، جميع شكته، مهيأة لاستخدامها. وكان له أيضاً في الأصطبل حصان قتال كامل التجهيز. وكلما طرأ هجوم من النهابين والغزاة، ظل يضطلع في الحال بمهمة مدافع ويقود بذاته حملة الجنود المسلحين، ويروح يبث حماسته في قلوب المتخاذلين الوهنين، فيعد على نحو جرئ، بظفر الانتصار أو بمجد الاستشهاد، ويؤكد على أنه يجدر قتال هؤلاء المسيحيين الكذوبين الذين يهاجمون الناموس المسيحي، فهذا التصدي أفضل من منازلتهم الوثنيين أنفسهم الذين لم يعرفوا الله يوماً "

إن تفسير الراهب برنار دانجيه الذي يروي هذه الوقائع تفسير يثير الاهتمام: "[....]* أجل كان جيمون (Gimon) [هذا الراهب رئيس الدير]* يتقلد أسلحته خلال هذه الحملات الحربية. ولكن، إن تفحصنا الأمر بدقة، لأدركنا أنه في تصرفه على هذا المنوال، بقي يسهم إسهاماً أجدى بكثير في إعلاء مجد النظام الرهباني، وأوفر بكثير من إسهامه في تدني هذا المجد. فيترتب ألا نصدر حكماً عليه، بل على القصد الذي كان يذهب به إلى التصرف على هذه الشاكلة"

(برنار دانجيه كتاب أعاجيب الإيمان المقدس، ١: ٢٦، طبعة أ. بوييه (A. Bouillet)، باريس، ١٨٩٧، ص. ٦٦ - ٦٧، ترجمة المؤلف).

١٧ - "شهداء" تْشيفيتاتِه (Civitate) (١٠٥٣)

إن المحاربين الذين ماتوا في سبيل البابا، وهم يقاتلون بمعركة تشيفيتاته، عام ١٠٥٣، تم اعتبارهم، من قبل أتباعه، قد استحقوا اكليل الاستشهاد. فثمة عدة مؤلفين حرروا قصة ما حدث، في القرن الحادي عشر. وأكد هذا الأمر البابا ليون التاسع ذاته بقوله:

أبهجني كثيراً إخوتي المقتولون، وهم يحاربون لأجل الله في مقاطعة "يُويّ" ورأيتهم، بالحقيقة، في عداد الشهداء، وقد توشحت ألبستهم برونق الذهب، حاملين بأيديهم أكاليل الظفر بأزاهيرها التي لا تُتنسى، فقالوا لي: هيا تعال وامكث معنا، فنحن بفضلك نحوز الآن هذا المجد. وسمعت صوتاً آخر يجيب قائلاً سيكون بيننا عقب ثلاثة أيام، لأن هذا الحيز قد أعد له، وبات كرسيه جاهزاً من أجله في وسطنا.

(القديس البابا ليون عَلَم الآباء اللاتينيين PL، ١٤٣، مجموعة ٥٢٧: ترجمة المؤلف).

١٨ - "شهداء" الإصلاح الغريغوري

قد اعتُبر من "الشهداء القديسين" محاربون في سبيل القضية البابوية.

حوالي ١٠٨٠، قام برتولد دو رايخناو (Berthold de Reichenau) بامتداحه بعض الشخصيات الهامة والذين آزروا البابوية في نضالها على "الهراطقة" والسيمونيين، وتشير هاتان اللفظتان، في آن واحد، إلى الأكليروس المتسري ومن يدعمونه، أي خصوم الإصلاح الذي يُدعى "غريغوري"، بل أيضاً إلى مشايعي الإمبراطور وجميع من يناوئون سلطة البابا متمردين عليها. وتبين هذه السمات العديدة درجة القداسية التي بلغها، في ذاك التاريخ، المحاربون المقاتلون في سبيل الكنيسة. وإن هؤلاء الأشخاص قد توخوا جميعاً اعتناق الرهبنة، وقد قام البابا بردهم عن عزمهم، وترجم موقفَه إعلاءُ شأن الحالة العلمانية، وحالة المحاربين حينما يندرجون في خدمة الكنيسة الرومانية.

في صدد سنسيوس (Censius)

يشير برتولد إلى أن سنسيوس مات عام ١٠٧٧ : ويوضح بأنه قُتل غَدراً (Per insidias)، وسبق له، قبل وفاته بكثير، أنه اعترف بخطاياه للبابا بذاته، واتخذ القرار "بارتداده"، وبتنسكه عن العالم، سعياً منه إلى الحياة الكاملة، أي أن يصير راهباً أما البابا فقد حظر عليه هذا الأمر حظراً قاطعاً ، فأوعز إليه بالبقاء في وظيفته بمثابة والي مدينة روما، وذلك بقصد أن يظهر خادماً للعدالة، "متسلحاً بغيرة الله" مناضلاً بهذه الطريقة في سبيل المسيح. ثم أخذ يمتدح هذا الشخص مغالياً في تقريظه: فقال إنه كان خصماً لدوداً للأشرار، يدين السلب والنهب، يعاقب على تدنيس الأماكن المقدسة، كما يعاقب أعداء الله، فبات يستقطب بذلك حقد أعداء الإيمان وضغينتهم.

عاش حياة قداسة، وسلك طوال أيام حياته سلوك جندي مقدام في سلك الميليشية المسيحية، دون أن يناضل، رغم ذلك، نضالاً جسدياً ، بل لأجل الحق ولأجل الإيمان، وقد ختم شوطَ حياته بظفر الاستشهاد.

إن العديد من العجائب، كما يضيف برتولد، قد جرت على قبره، مبدية بذلك قداسة نضاله. ولبث الناس يفدون إلى ضريحه من بعيد جداً ، الأمر الذي وضح بجلاء في رأي الجميع كم كان عظيماً لدى الله. وتم الاعتراف بعجائبه، خلال مجمع آذار/ مارس، عام ١٠٧٨ ، بمدينة روما.

بخصوص إرليمبو (Erlembaud)

امتدح برتولد نفسه أيضاً المحارب إرليمبو: فقد قتله أعداء الإصلاح الغريغوري في ميلانو، "وتوفي لأجل الحق، قبل ذلك بثلاثة أعوام"

"كان هو أيضاً خطيباً ذائع الصيت، بطلاً ماهراً أريباً من أبطال الله [Athleta Deis: لبث هذا التعبير حتى ذاك الحين مخصصاً للرهبان ورجال الدين، وسوف يستخدم أيضاً فيما بعد ذلك بقليل للإشارة إلى قادة الصليبيين كمثل بوهيمون]*، تحت الرداء العلماني، معيدا إلى سابق عهده النظام والامتثال للقوانين الكنسية، فتصدى بحرص شديد في سبيل الله، لكل من كان نيكولانياً [النيكولانية: فساد الأكليروس الأخلاقي] وسيمونياً بحيث أنه لم يبق منهم بعد ذلك في جميع الأبرشية أي واحد لم يتم تأديبه أو ارتداده.

بيد أن بعض أهالي ميلانو [بدعم من أسقف المدينة الهرطوقي]*، قتلوه قتلاً معيباً ، طاعنين بخمس طعنات رمح جنديَّ الله هذا ، المتألق الشهرة، المقاتل لأجل الحق والإيمان والطاعة لهذا البابا السيد اليكسندر بذاته. وعقب موته، بقيت جثته هناك خلال ثلاثة أيام، على ساحة المدينة: فهؤلاء القتلة حظروا ، على نحو لا إنساني، أن يؤذن بدفنه. لكن، في الليلة الثالثة شع من جسده ضوء سماوي إشعاعاً شديداً بحيث أن من كانوا على بعد أكثر من عشرة أميال من المدينة لم ينتابهم الشك في أن الأمر كان يعني حريق المدينة. وسطع هذا النور على جسده خلال ثلاث ساعات.

[....]* وكان ثمة إخوة، مابين الأشخاص الكثيرين الذين هرعوا ليشاهدوا هذه المعجزة، وسبق أن أُنذر هؤلاء الأخوة، أثناء نومهم، برؤى عن هذا الموضوع، فاقتربوا بشجاعة، وأخذوا جسده. وعقب إتمام الابتهالات، ورتبة الصلاة اللازمة، عادوا إلى دير الشهيد القديس سِيْاس، وهم يحمدون الله، فدفنوه هناك. ومنذ ذاك الحين، تم البرهان، على نحو عصيٍّ على الشك، وبشهادة معجزات إلهية عديدة، على أن رجل الله هذا ، المقاتل الغيور حيال الزيغان الهرطوقي، قد كان حقاً صديق الله"

(برتولد دو ريشنو، حولية، طبعة ج. ه. بيرتز G.H.Pertz [المعالم الجرمانية التاريخية: MGH، مؤلفون، ٥، ص. ٣٠٤ - ٣٠٥، ترجمة المؤلف).

١٩ - راوول غلابير والرهبان الشهداء الذين ماتوا في المعركة

كيف نال أكليل الشهداء رهبان قتلوا ، متقلدين أسلحتهم، في منازلتهم المسلمين. وكيف يترتب على رجال الدين، وبمقدار أقل أيضاً على الرهبان، ألا يتسلحوا بالسيوف، ولا يهرقوا الدماء. غير أن راوول غلابير الراهب من دير كلوني، أدى شهادته على أن رهباناً ، في عصره، أي حوالي عام ١٠٣٠، كان بوسعهم أن يتقلدوا الأسلحة على مسلمي الغرب، ذوداً عن بلدهم وعن المسيحيين الذين يعيشون فيه، وبمقدورهم أيضا أن يحظوا بالفردوس، حين يلقون حتفهم في ساحة القتال، شاهرين سيوفهم، وذلك نقيض أنظمة رهبنتهم.

"بعد حين، نهض بغتة من أفريقيا ، المسلمون، يقودهم ملكهم المدعو المنصور، واحتلوا قرابة جميع اسبانيا ، حتى بلغوا جزأها الشمالي، عند تخوم غاليا ، وقتلوا

العديد من المسيحيين. ولم يتردد غيوم دوق دونا فار، المدعو سانشو، في شن عدة معارك على المنصور، رغم كون جيشه أدنى عدداً بل كان هذا الجيش على ضعف ووهن، بحيث أن رهبان المنطقة دُفعوا إلى القتال مسلحين. ومني الجانبان بخسائر فادحة، لكن المسيحيين ظفروا بالنصر فيما راح المسلمون ينكفئون إلى أفريقيا، عقب الخسائر الباهظة التي ألحقت بهم. وفي غضون هذه الحرب المديدة، لقي العديد من رجال الدين حتفهم في المعارك. وإن صمموا على القتال، فذلك بالأحرى محبة بإخوتهم، أكثر من سعيهم إلى سمعة باطلة، وأكثر من توقهم إلى شيء من زهو الغرور

فيما بعد، ظهر هؤلاء الرهبان لأسقف، كان يقيم القداس على مذبح الشهيد القديس موريس (احد القديسين العساكر) [قائد روماني فيلقيّ شهيد من القرن ٣]. فسألهم عن هويتهم، وعندئذ شرحوا له كيف بات مصيرهم:

"نحن جميعاً رجال الدين المسيحي، وقد اعتنقنا الحياة الرهبانية. ولكن، فيما كنا نقاتل في حرب على المسلمين، دفاعاً عن وطننا والشعب الكاثوليكي، حرمتنا السيوف من أجسادنا حيث كنا ماكثين. ومن ثم، فالعناية الربانية جعلتنا جميعاً نقتسم مصير الطوباويين. وعلينا، في هذا اليوم، المرور بهذا المكان، لأن العديد من قوم هذه المنطقة سيكونون، عما قريب، فيما بيننا أيضاً "

(راوول غلابير، كتب التواريخ الخمسة، طبعة ج. فرانس، أكسفورد ١٩٨٩، ترجمة المؤلف).

٢٠ - أوربانوس الثاني، الركونكيستا، الحرب الصليبية

اعتبر البابا أن الروكونكيستا في إسبانيا تنعم بالقيمة الاستحقاقية ذاتها، في نظر الاسبانيين، للحرب الصليبية في المشرق. وقد دعا البابا أيضاً الاسبانيين إلى أن يقاتلوا بالأحرى المسلمين في إسبانيا.

"كما أن جنود أراض أخرى قد صمموا بالإجماع على المضي إلى مساعدتهم كنيسة آسيا، ولتحرير أخوتهم من استبداد المسلمين، فانتم أيضاً ، استناداً على حثنا وحضنا إياكم، اسعوا جاهدين للذهاب إلى الكنيسة القريبة منا ونصرتها، مناهضين غارات المسلمين وغزواتهم. وفي الحملة هذه، إن سقط أحدكم في سبيل حب الله

واخوته، فعليه ألا يرتاب في اكتسابه بالقتال غفران خطاياه، ونيله الحياة الأبدية، بنعمة الله الرؤوفة. وإن صمم أحدكم على الذهاب إلى آسيا، فليجهدن بالأحرى في إنجاز تصميمه الورع هنا. حيث أنه ليس من مفخرة في شيء أن يحرر المسيحيين من الإسلام في مكان، وأن يسلمهم في مكان لاستبداد المسلمين واضطهادهم"

(أوربانوس الثاني، رسالة ٢٠، الرسائل والإمتيازات. علم الآباء اللاتينيين، PL، ١٥١، المجموعتان ٣٠٢ - ٣٠٣ ترجمة المؤلف).

٢١ - طابع الحرب المقدسة في احتلال النورمنديين لجزيرة صقلية، حسب جوفروا مالاتيرا (Geoffroy Malaterra)

روى الراهب النورمندي جوفروا مالاتيرا، في نهاية القرن الحادي عشر، احتلال جزيرة صقلية على يد الفرسان النورمنديين التابعين لـ روجيه شقيق روبير غيسكار. وأضفى على هذا الاستيلاء سمات حرب مقدسة. وهكذا، فإن المحاربين النورمنديين، قبل معركة سيرامي (Cerami) (١٠٦٣)، اعترفوا بخطاياهم، ونالوا سر التوبة وغفران مآثمهم، ثم استودعوا الله أنفسهم قبل التأهب للقتال. وأمام عديد الأعداء المسلمين، اضطرب النورمنديون: فألقى روجيه عليهم، عندئذٍ، خطاباً حقيقياً لحرب مقدسة، استوحاه من التوراة، وأسماهم فيه" المتطوعين الجدد الشجعان البواسل في الميليشيات المسيحية": (Fortissimi christianae militae tirones) حيث أننا موسومون بالصليب، وأن هذا الشعب المخاصم هو عدو الله، فنحن على يقين من نصرته ومساعدته: فهو معنا، فمن سيكون علينا؟ ثم روى مالاتيرا تتابع مراحل القتال مع تدخل السماء:

وما كاد يختم خطابه لأجل الاندفاع إلى القتال، حتى ظهر فارس شاكي السلاح، رائع، يمتطي جواداً أبيض للنزال، ويحمل رمحاً تزدان قمته براية بيضاء وترفع صليباً متألقاً فتصدر رأس جيشنا، حاثاً جنودنا على خوض المعركة. واندلق على أعدائنا حاملاً عليهم بعنف شديد، وعلى عديدهم الأكثر. وإذ شاهد أتباعنا الوضع هذا، وقد أثارت هذه الرؤيا عواطفهم، اضطربوا وابتهجوا حتى تذرفت دموعهم، وراحوا يندفعون فوراً في أثره، صارخين: الله، القديس جورجيوس. وكثيرون منهم شاهدوا، هم أيضاً، بيرقاً موسوماً بصليب متدلياً من رأس رمح الكونت، لم يسبق لأحد منهم أن أثبته في مكانه، إن لم يكن الله ذاته"

(جوفروا مالاتيرا، عن ملحمة روجيه من جنود الكالابر وصقلية، وروبير غيسكار رئيس أخيه، ٢: ٣٣، طبعة إ. بونتييري (E. Pontieri)، بولونْي، كتاب الحوادث الإيطالية، ٥، ١، ١٩٢٤، ص. ٤٤، ترجمة المؤلف).

٢٢ - مشاريع غريغوار السابع لأجل "الحرب الصليبية" في عام ١٠٧٤

لم يكن أوربانوس الثاني أول من فكر في استعادة الأراضي، المسيحية في سابق الزمان، حتى ربوع فلسطين. وكانت تقع هذه المهمة، أولاً، على عاتق الإمبراطور، ولاسيما إمبراطور القسطنطينية اليوناني. لكن، عقب هزيمة الجيوش البيزنطية في مانتزيكريت (Mantzikert) (١٠٧١)، وقع جزء كبير من سوريا وآسيا الصغرى [تركيا الحالية] في قبضة الأتراك السلجوقيين المرتدين حديثا إلى الإسلام السّني. وعندئذٍ توجهت نية البابا غريغوار السابع إلى تجهيز حملة عسكرية، لإغاثة السلطة البيزنطية، ولنجدة أهالي المشرق المسيحيين، الذين قال عنهم مبعوثون عديدون قد عادوا من المنطقة هذه، إنهم يتعرضون لخطر جسيم، وان الأتراك لا يزالون يقتلونهم. وإذ لاحظ البابا بعض الاستكانة من قبل أمراء الغرب، راح يحرر رسائل إلى عدة أمراء ليرسلوا إليه جنوداً سيقودهم شخصياً في هذه الحملة، لكي تستعاد الأراضي المسيحية، حتى أورشليم، وحتى ضريح المسيح" وشدد البعض من هذه الرسائل على وعود روحية لهؤلاء الذين يقاتلون هذا القتال في سبيل الله، ويخاطرون بحياتهم، لكنهم سينالون، لقاء ذلك، ثوابات أبدية.

وقد أعلن غريغوار السابع، في شأن جميع هذه الأمور، عن مواقف أوربانوس الثاني.

A – رسالة الأول من آذار/ مارس ١٠٧٤

"إلى جميع من يريدون الذود عن الإيمان المسيحي. [....]* لا يقتصر الأمر، بواسطة العناية التي ندين لهم بها، على أن نغتم من جراء هذه الوقائع. فإن المحبة الأخوية وقدوة فادينا، تفرضان علينا أن نعرض حياتنا إلى المخاطر بقصد تحرير اخوتنا. ومثلما بذل المخلص حياته لأجلنا، يترتب علينا أيضاً أن نضحي بحياتنا في سبيل اخوتنا.

فاعلموا بالتالي أننا، من جانبنا، نثق برعاية الله وقدرته الكلية، متأهبين ومستعدين، بجميع الوسائل، لإمدادنا بالنجدة، وبأسرع مافي مقدورنا، الإمبراطورية المسيحية، بعون الله ونصرته"

(غريغوار السابع، الملف، ١: ٤٩، المعالم الجرمانية التاريخية: MGH، رسائل مختارة، طبعة إ. كاسبار (E. Caspar)، مجلد ١ ، ص. ٧٥، ترجمة المؤلف).

B - رسالة السابع من كانون الأول/ ديسمبر ١٠٧٤ إلى إمبراطور هنري الرابع

"[....]* علاوة على ما سبق، أعلم عظمتكم أن مسيحيي مناطق ما وراء البحار - ومعظمها قد بات مهدماً ، بشكل لم يطرق مسمع أحد، على يد الوثنيين، فيطاح بأهاليها كل يوم كما تقتل الماشية، ويبادون على بكرة أبيهم - قد أوفدوا إلي بعثة متواضعة ومتوسلة، طالبين إليّ أن أبذل قصارى الجهود بغية نجدة اخوتنا ، سعياً منا إلى ألا تزول المنطقة المسيحية بكاملها في عصرنا هذا (لا سمح الله بذلك!)

أما أنا، فقد بتّ ضحية لأشد الألم المبرح، بحيث أروم الموت - حيث أني، شخصياً ، أفضل بذل حياتي في سبيلهم، بدلاً من أن أترأس، حسب الجسد، الجنس البشري بكامله، وذلك بثمن إهمالي إياهم - ولجأت إلى المسيحيين، وقمت بحضهم، وبملاحقتهم دونما هوادة، حاثاً إياهم على المخاطرة بحياتهم في سبيل اخوتهم، لكي يذودوا أيضاً عن ناموس المسيح، ويُظهروا بموقفهم أمام الملأ أجمعين ما لأبناء الله من نبل وكرامة.

أظن بل أؤكد، بإيحاء من الله، أن الإيطاليين، ومن يقطنون ما وراء جبال الألب، قد رحبوا بهذا النداء، وأن خمسين ألفاً من الرجال ونيفاً، قد باتوا متأهبين. فهم يتوخون - لو أتيح لهم أن أكون لهم رئيساً وحبراً في حملة الحرب هذه - المضي مسلحين على أعداء الله، وفي ظل قيادة " ه "، أن يبلغوا حتى ضريح الرب.

وقد وطد البابا، آنفاً ، عزمه على الذهاب شخصيا إلى المشرق ليضطلع بالذود عن المسيحيين، وطلب إلى هنري الرابع رأيه ونجدته، واستودعه حماية الكنيسة الرومانية، خلال غيابه.

"لكن، حيث أن غاية عظيمة تقتضي مشورة عظيمة وعوناً من المقتدرين، ها أنا

ألتمس رأيكم، ومؤازرتكم، إن حسن لديكم أن تسدوهما لي. لأنه، لو أذن لي الله أن انهض بهذه الحملة، إنما إليكم (بعد الله) أعهد بالكنيسة الرومانية حين سأمضي إلى هناك بمؤازرة الله، لكي تحافظوا عليها، بصفتها أمًّا مقدسة، فتحموا شرف هذه الكنيسة"

(غريغوار السابع، المرجع السابق نفسه، ٢: ٣١، ص. ١٦٥، ترجمة المؤلف).

C - رسالة السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٠٧٤

"إلى جميع الأوفياء للقديس بطرس، وخاصة في ما وراء جبال الألب. نرى أنكم قد أخذتم علما بعزمنا، وقد بات القديس بطرس معرباً عنه، في ما يخص النصرة التي يترتب منحها لإخوتنا في ما وراء البحار، فهم يقطنون إمبراطورية القسطنطينية، ويجهد الشيطان نفسه في إقصائهم عن الإيمان الكاثوليكي، فيما لا ينفك - بأيدي هؤلاء الذين يخضعون لنواميسه - عن قتلهم، كل يوم تقريباً قتلاً وحشياً كما تقتل البهائم. لكن، حيث أنه يستقبح تدبيراتنا السديدة، فهو يحاول، إن استطاع هذا، معارضتها لكي لا يُحَرَّروا [أي مسيحيو المشرق]*، برعاية النعمة الإلهية، ولكي لا نكلل نحن [أي مسيحيو الغرب الذين يشتركون في هذه الحملة]* بالاستشهاد نتيجةً لبذل حياتنا في سبيل إخوتنا.

بالتالي، هانحن نبتهل، وننصح، وندعو، من قبل القديس بطرس، من هم في عدادكم يتوخون الذود عن الإيمان المسيحي فيخدمون بالسلاح الملك السماوي، ندعوهم أن يأتوا إلينا حسب تعليمات حامل الرسالة هذه، لكي نقوم معهم، وبمعونة الله، بإعدادٍ لرحيل جميع من يريدون اجتياز البحر عن طريقنا، سعياً منهم إلى الدفاع عن الشرف السماوي، ولا يخشون إعرابهم عن كونهم أبناء الله.

ومن ثم، يا إخوتي الأعزاء جداً ، أنتم الذين لبثتم حتى الآن على تمام الإقدام والبسالة، وأنتم تقاتلون لمكاسب مادية لا يمكن الحفاظ عليها ولا حوزتها دون جهد وعناء، كونوا على مزيد من الشجاعة أيضاً لكي تقاتلوا في سبيل هذا المديح وهذا المجد اللذين يتفوقان على كافة ما يستطيع المرء أن يأمله ويرغب فيه. لأنكم، بوسيلة جهد لا يدوم، ستقدرون أن تحظوا بثواب أبدي"؟.

(غريغوار السابع، المصدر السابق ذاته، ٢: ٣٧، ص. ١٧٢ - ١٧٣، ترجمة المؤلف).

٢٣ - أوربانوس الثاني و "الحرب الصليبية"

في عام ١٠٩٥، كرر أوربانوس الثاني البرنامج ذاته تقريباً الذي قدمه غريغوار السابع، في عامي ١٠٧٤ - ١٠٧٥، بيد أنه ألح على الهدف المنشود، ألا وهو: إنقاذ القبر المقدس في أورشليم. لكن هذا الموضوع المعبَّأ بشدة قد ماثل الحملة العسكرية برحلة حج. فَمِنَ المحتمل أنه حث على السفر العديد من الأشخاص العزل من السلاح (Inermes)، ولا كفاءة لهم على النزال والقتال. فقام أوربانوس الثاني، بتحرير رسالة في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر لعام ١٠٩٦، إلى رهبان فالومبروز، وضح فيها مقصده: فمع أن الحملة أوصى بها لغفران الذنوب، لم تكن هي رحلة حَجٍّ عادي، مفتوحٍ على الجميع حسب تعريفه: فقد دعا إلى هذه الحملة المحاربين وحسب، مقصياً عنها رجال الدين الذين يترتب عليهم أن يخدموا المسيح خدمة مختلفة جداً:

قد علمنا أن البعض منكم يريدون الالتحاق بالمحاربين الذين يَؤمّون أورشليم بقصد تحريرهم المسيحية. فالتبرع هذا عادل، لكن، ليس وضعه موضع التطبيق! أما في ما يخصنا، فمن المؤكد أن الأمر يعني المحاربين الذين عبأنا أذهانهم بمنحى هذه الحملة العسكرية، بغية أن يستطيعوا، بأسلحتهم، قمع شراسة المسلمين، فيعيدوا حرية المسيحيين القديمة إلى سابق عهدها. فنحن لا نريد أن يتقلد السلاح من عزفوا عن العالم ونذروا أنفسهم للمليشية الروحية، ولا أن يقوموا بهذه الرحلة. بل إضافة إلى ما سبق: نحظر عليهم أن يفعلوا ذلك"

(أوربان الثاني، رسالة إلى رهبان فالومبروز، طبعة و. ويدرهولد).

(وثائق بابوية في فلورنسا، أخبار أوردها فون در غيسيلشافت در فيسينشافتن عن مدينة غوتينغن (فلسفة التاريخ)، غوتينغن، ١٩٠١، ص. ٣١٣ وتوابعها. ترجمة المؤلف).

٢٤ - الحرب الصليبية، حرب مقدسة وحج في آن معاً

لقد دعا البابا أوربانوس الثاني إلى الحرب الصليبية بصفتها حملة عسكرية معدة لتحرير الأماكن المقدسة (وخاصة الضريح المقدس، أول الأماكن المقدسة للدين المسيحي) وكنائس المشرق، من الاحتلال الإسلامي، ومهما كان هذا الاحتلال متسامحاً، فقد فرض نفسه بوسيلة الفتح، قبل ذلك بأربع مئة وخمسين عاماً إنها

حرب مقدسة، بل هي أيضاً حج بالمنحى نفسه الذي تسعى إليه. وإذ ضمت هذين الوجهين، فهي تستعيد أيضاً الامتيازات والمنافع لكل من هذين الوجهين. ومن المحتمل جداً أن البابا قد ألمح إلى كليهما في خطابه بمدينة كليرمون، وذلك، على الأقل، تلميحاً مُقنعاً أو ضمنياً

وبات هذا الخطاب معروفاً لدينا بعدة قصص أسفار؛ الأمر الذي يولج، بصورة طبيعية تماماً ، بعض التباينات. فعلى سبيل المثال، يوضح فوشيه دوشارتر جدوى هذه الحروب وقيمتها، بل يلح أيضاً على غفران المآثم، والثوابات الأبدية التي يُوعَدُ بها من يُقتلون خلال الحملة هذه. فالصليبيون، في دساتير انطلاقهم وقوانينه (ولابد لنا من التوضيح هنا، أنها كانت تُحرر من قبلِ معتادين على تدوين عمليات الانطلاق إلى الحج) شددوا بالأحرى على هذا الجانب للحج المصحوب بوظيفته للتوبة. إلا أن البعض لَمّحوا أيضا بوضوح إلى الطابع الحربي القتالي لحملتهم. فعلينا إذن ألا نفضل جانباً منهما على حساب الآخر. فكانت الحرب الصليبية حرباً مقدسة هدفت إلى إنقاذ المواقع المقدسة في الديانة المسيحية، حرباً شبيهة، في نظر العالم المسيحي لذاك العصر، بما كان في رأي المسلمين، نوعاً من الجهاد قد يقام به لكي يُستردّ، من غير المؤمنين، الأماكن المقدسة في مكة.

عناصر خطاب أوربانوس الثاني، حسب فوشيه دو شارتر

بعد تدوينه تقدم الأتراك، وقد بلغوا آنذاك شواطئ البوسفور، مستملكين أراضي المسيحيين، ومهددين بالمضي إلى مواقع ابعد أيضاً ، وراحوا يهدمون الكنائس ويتلفون مملكة الله"، ويزجون المسيحيين في وضع الرقيق. بعد كل ذلك دعا البابا الأساقفة إلى أن يُقنعوا، بعظاتهم، الفرسان والمشاة بالذهاب أخيرا إلى نجدة المسيحيين. وراح يتفوه ببعض الحجج التي تحثهم:

"ومن ثم أحضكم متوسلاً إليكم - لا أنا، بل هو المسيح! - بصفتكم مناصرين للمسيح، أن تحثوا حثاً قوياً ، بإرشاد متجدد، المشاة كالفرسان، الفقراء كالأغنياء، مهما تكن رتبتهم، على الإسراع في الذهاب إلى نصرة من يعبدون المسيح، داحرين طبقة الرعاع من المناطق التي يقطنها اخوتنا. وأقول هذا لمن هم حاضرون هنا: وأعمل على قول هذا لمن ليسوا هنا. بيد أن المسيح هو الذي يأمر بذلك.

فإن جميع من سيذهبون إلى هناك، قد يفقدون حياتهم، أكان هذا خلال سفرهم بطريق البر أم البحر، أم وهم يقاتلون الوثنيين، سينالون في ذاك الحين غفران مآثمهم.

[....]* ليذهبّن هؤلاء إذن إلى قتالهم الكافرين - فهو قتال جدير بأن يقوموا به، وهو مدعو إلى أن يُختم بالظفر - ليمضينّ إذن أولئك الذين، حتى هذا الحين، كانوا يسترسلون بتعسف في حروب خاصة على المؤمنين! وليصنعوا الآن من أنفسهم فرساناً للمسيح، هؤلاء الذين حتى هذا الزمان، لبثوا يتصرفون تصرف قطاع الطرق! وليقاتلوا الآن، بملء حقهم، البرابرة، وهؤلاء الذين كانوا، فيما مضى، يقاتلون اخوتهم وأهلهم وأنسباءهم! وهم الآن عازمون على نيلهم ثوابات أبدية، هؤلاء الذين، حتى هذه الآونة، كانوا يجعلون من أنفسهم مرتزقة ليكسبوا بعض المال الزهيد. ومنذ الآن سيعملون في سبيل شرف مزدوج، وهم هؤلاء الذين ، حتى هذا الحين، قد أنهكوا قواهم إنهاكاً مضاعفاً ، على حساب جسدهم وأيضاً نفسهم. فقد كانوا هنا على حزن وفقر: أما هناك، فسيغدون أثرياء ومبتهجين. كانوا هنا أعداء الله، أما هناك فسيصبحون خلان الله"

(فوشيه دوشارتر، تاريخ أورشليم المقدسة، ١: ٣، مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية RHC، مؤرخون غربيون، ٣، ص. ٣٢٤، ترجمة المؤلف).

B - عناصر خطاب أوربانوس الثاني، حسب بودري دو بورْغويّ (Baudri de Bourgueil)

إن بودري دو بورغوي، وفيما بعد أسقف مدينة دُول، كان حاضراً في كليرمون إبان خطاب البابا. وبصفته شاعراً مرهفاً ومتحذلقاً، فقد قام بإعادة صياغة هذا الخطاب حسب طريقته وبأسلوب منمق، متحذلق، مفخم في غالب الأحيان، وغامض أحياناً وفي هذا المقطع، خاطب أوربانوس الثاني مباشرة الفرسان، وعارض "خبثهم" بمليشية المسيح، معارضة قد باتت ماثلة لدى أنسِيلم، وسوف يستعيدها لصالحه برنار دو كليرفو.

"ما الذي سنقوله إذن، يا إخوتي؟ هيا أصغوا إلي وافهموني: أنتم الآخرون، المتمنطقون بنطاق الفروسية (Militia)، تعظمون أنفسكم بجم من الغطرسة، وتُقطّعونَ

اخوتكم إرباً ، وتتمازقون فيما بينكم! أجل، إن تصرفكم هذا ليس فروسية المسيح، الفروسية التي تُبيد قطيع الفادي! لقد اختصت الكنيسة لنفسها بغية حماية ذويها، بفروسية لها. أما أنتم، فقد أحلتموها إلى خبث تحويلاً محزناً ويقصد قولي الحقيقة (حقيقة لابد لنا أن نجهر بها)، فأنتم لا تتبعون البتة الطريق المؤدية إلى الخلاص والحياة، أنتم يا من تجورون على الأيتام، وتنهبون الأرامل، أنتم القتلة، المدنسون، نهابو ممتلكات الآخرين ! وتتقاضون أجور قطاع الطرق لقاء ما هدرتموه من الدم المسيحي! [....]* وإن توخيتم الحرص على نفوسكم، فاخلعوا إذن عنكم، حالما تستطيعون، نطاق فروسية كهذه، وتقدموا ببسالة لكي تندفعوا، بأسرع ما تقدرون، إلى نجدة الكنيسة الشرقية، بصفتكم فرسان المسيح. ولأنكم ستفعلون هذا، فحقاً ستأتيكم بسرعة مباهج خلاص كامل [....]*

هوذا السبب الذي دعانا إلى تفوهنا بهذه الأمور، أيها الأخوة: لكي تصرفوا أيديكم القاتلة عن اغتيال اخوتكم، وبغية أن تكونوا، في سبيل حماية الوطن، جيشاً مسيحياً ، جيشاً يتعذر قهره، ولكي تمضوا لخوض قتال حاسم إنقاذاً لأورشليم، تحت قيادة رئيسنا يسوع المسيح [....]* ، ولكي تذهبوا وتنقضّوا وتتغلبوا على الأتراك الماكثين هناك، وهم أشد إلحاداً وكفراً من اليبوسيين [أهالي أورشليم قبل فتح اليهود لهذه المدينة، حسب التوراة]* وليكن مجدكم الموت في سبيل المسيح، في هذه المدينة، حيث مات المسيح من أجلكم. وعلاوة على هذا، إن قُيض لكم أن لقيتم حتفكم قبل ذلك، فاعلموا أن الأمر مماثل لوفاتكم على الطريق [in via: كما خلال ذهابكم إلى الحج] ، ولكن، إن وجدكم المسيح منخرطين في جيشه .(Militia).

(بودري دو بورغوي، التاريخ الأورشليمي، ١: ٤، الحروب الصليبية RHC، مؤرخون غربيون، ٤، ص. ١٤، ترجمة المؤلف).

C – حملة أورشليم في نظر كاتب الحوليات غيبير دو نوجان (Guibert de Nogent)

الحملة حرب مقدسة ذات استحقاق أنشأها الله حديثاً لكي يتسنى للمحاربين أن ينالوا، بمقدار ما، خلاصهم في الحياة الدنيوية مرتدين اللباس العسكري، دون الحاجة إلى اعتناق الرهبنة أو حالة رجال الدين.

"ما الذي أقوله عن هؤلاء الذين ذهبوا، بمعزل عن أي سيد، أي أمير، باندفاعة من الله ليس غير، لا من إقليم مسقط رأسهم وحسب، بل من مملكتهم الأصلية؟ [....]* وأتحدث هنا عن الانتصار الحديث العهد والفريد لحملة أورشليم [....]*

لو سبق لهؤلاء الرجال أن التزموا حقاً بقضية حماية الحرية، أو الدفاع عن الدولة، لاستطاعوا، بالتأكيد، أن يجدوا لفعلتهم تبريراً مشرفاً أجل؛ ان أي محارب لا يقدر، من حيث الحق، أن يعفي نفسه من تقلده السلاح، عندما تكون ثمة خشية من غارات الأمم البربرية أو الوثنية. باستثناء هذه الظروف، فإنَّ الناس يتفقون على قبولهم أن ثمة حرباً مشروعة فقط حينما يعني الأمر حماية الكنيسة المقدسة. ولكن، حيث أن هذه النية الورعة قد ابتعدت، في أيامنا هذه، عن جميع الأذهان، وأن الرغبة المحمومة في الحوزة قد اجتاحت جميع القلوب، فالله يقوم، في الآونة الحاضرة، بتأسيسه حروباً مقدسة. وذلك بغية أن تقوم جماعة الفرسان وجمهرة الشعب الهائمة - الذين، حسب ما كان يفعل الوثنيون القدماء، يعكفون على تقاتلهم فيما بينهم - بإيجادهم وسيلة لنهج جديد. فهم يسعون إلى أن يستحقوا خلاصهم، بحيث لا يُضطرون من بعد، كما جرت العادة حتى ذاك الزمان، إلى العدول تماماً عن العالم الدنيوي، لكي يرتدّوا إلى الحياة الرهبانية أو إلى مهنةٍ ما دينية. بل بقصد أن يستطيعوا الحصول، بمقدارٍ ما، على نعمة الله. فيما يحافظون على وضعهم القانوني، وعلى العادات المتعلقة بوظيفتهم"

(غيبير دو نوجان، مآثر الله عبر الفرنجة، طبعة ر. ب.س. هويغنز (R.B.C.Huygens)، CCCM، ١٢٧، أ. تورنهو، ١٩٩٦، ص. ٨٧، ترجمة المؤلف).

D - الكونت دانجو فولك لوريشان يلخص بهذه الكلمات
خطاب البابا في أنجيه حول الحرب الصليبية:

عند اقتراب مواعظ الصوم، ذهب البابا الروماني أوربانوس إلى مدينة أنجيه وشجع شعبنا على المضي إلى أورشليم لكي يدحروا الوثنيين الذين سبق لهم أن احتلوا المدينة وكل الأرض المسيحية حتى القسطنطينية"

(فولك لو ريشان (Foulque le Réchin) مقطع من تاريخ مدينة أنجيه، طبعة ل. هالفن و ر. بوباردان، حوليه كونتات مدينة أنجيه... ، باريس، ١٩١٣، ص. ١٣٨، ترجمة المؤلف).

E - قانون لرحيل مقاتل صليبي (لا ريول) (La Réole)

إن مقدمة قانون أمانيوس دو لوبنس (Amanieus de Loubens) الذاهب من أجل الحرب الصليبية الأولى، تذكر طريقة تصوره هذه الحملة. ورغم أن هذا النص قد قام بتحريره، على نحو مرجح، أحد الرهبان، فهو يعرب تماماً عن تصور حربي جداً لهذا المشروع من أجل تحرير القبر المقدس.

"ثمة فارس مقدام اسمه أمانيوس دو لوبنس قد أتاه الإيحاء من الروح القدس، لكي يغادر أرض ميراثه، فيجعل من نفسه أورشليمياً ، بقصد الذهاب لمحاربة وقتل خصوم الدين المسيحي وأعدائه، وخاصة للذهاب وتطهير المكان حيث تنازل الرب يسوع المسيح فتألم حتى الموت من أجل فداء الجنس البشري"

(سجل رئاسة دير القديس بطرس دو لا ريول، طبعة س. غريلّيه - بالغوري (Grellet-Balguerie)، أرشيف تاريخ إقليم الجيروند، ٥ ، ١٨٦٣، رقم ١٠ ، فقرات ٩٣ - ٩٦، ص. ١٤٠ - ترجمة المؤلف).

٢٥ - الموهبة اللدنية للواعظين الشعبيين مثل بيير ليرميت (Pierre l'Ermite)

لم يَدعُ أوربانوس الثاني فقط، في مدينة كليرمون، إلى الحرب الصليبية، بل قام هو نفسه بجولة واسعة للدعوة إليها في فرنسا الجنوبية والوسطى، ثم في إيطاليا. ودعا إليها أيضاً الأساقفة في أبرشية كل واحد منهم (مكررين، بصورة محتملة، المواضيع الكبرى التي عبّر البابا عن خطوطها الأساسية، لكن مع بعض الحرية في الإعراب عنها) ، كما فعل ذلك بضعة من الوعّاظ الشعبيين المُتمتعين بما هو أكثر أو أقل من "الإلهام" فقد استطاعت رسالتهم الابتعاد ابتعاداً معتدل الأهمية عن المواضيع التي اقترحها البابا. وإن وعظ هؤلاء "الملهمين" لا يزال معروفاً معرفة جد سيئة. وندرك تأثيراته وحسب (على سبيل المثال، مذابح اليهود في منطقة نهر الرين) ، وجوّ ما هو عجيب والذي اكتنف هؤلاء الواعظين: فكانت ثمة علامات سماوية، عجائب، خوارق، رسائل تهبط من السماء، صلبان موسومة في الأجساد ، أحلام، رؤى، وهلم جراً وتواجد جوّ المضمار الأعجوبي طوال الحرب الصليبية الأولى. وإن الراهب من دير كلوني، غيبير دو نوجان - وتبدي لنا كتاباته أنه يتمتع بالحس

الانتقادي - يزودنا بإحدى الشهادات النادرة جداً حول بيير ليرمييت [بطرس الناسك، راهب فرنسي ١٠٥٠ -١١١٥]. ومن المُحتَمَل أنه التقاه قبل الحرب الصليبية ببضعة أعوام، وترك لنا من هذا الشخص خطوطاً عريضة لوصفه قلما باتت تمدحه، صورة ذات مسحة واضحة لشيء من الغيرة الساخطة أمام نجاح بيير ليرميت الشعبي. وهذا لا يعيق توضيح الهبة اللدُنية الاستثنائية لـ بيير ليرميت، هذه الهبة التي تفسر حظوته لدى الجماهير، وعدد "الصليبيين" الذين تبعوه، والدور الهام الذي ظل يقوم به حتى أورشليم، وذلك رغم أن الأتراك قد قتلوا جنوده في سيفيتو (Civitot)، وحتى قبل وصول البارونات إلى القسطنطينية.

"وهكذا إذن، فيما كان الأمراء يحتاجون إلى موارد كبيرة، وخدمات من حاشية عديدة، فيجهدون للتوصل إلى ذلك بعمل مثابر وبطيء، فالطبقة الدُنيا، بمواردها الضئيلة، ولكن بعددها العديد جداً ، تعلقت برجل يدعى بيير ليرميت، وأطاعتهُ كسيد لها، وأقله طالما جرت الأمور في بلدنا. وكان بيير هذا، إن لم أخطئ، قد ولد في مدينة أميان وظل يعيش حتى ذاك الحين حياة منعزلة، مرتدياً ثياب الرهبان، في منطقة من مناطق غاليا الشمالية.وسبق له أن غادر هذه المنطقة ولا أدري ما كان مقصده. وعندئذٍ، شاهدناه يجول في المدن والقرى لكي يعظ فيها. وكان جمهور جم غفير يحيط به ويغدق عليه الهبات الكثيرة، كما لبث ينعم بسمعةٍ من القداسة، بحيث أن أحداً لم يُعامَل يوماً بمثل هذا التكريم - إن وثقت حقاً بذاكرتي. وبقي يتبدى جزيل السخاء حيال الفقراء، بفضل الحسنات الموهوبة له. ويعيد المومسات إلى الحياة الشريفة بالزواج، ويمهرهن هو بذاته. وحيثما ساد الشقاق، راح يعيد السلام والاتفاق، بسلطة منه حرية بالإعجاب. وكل ما يفعله، وكل ما ينطق به، لبث يبدو شيئا إلهياً أو يكاد، بحيث أن الجمع أخذ ينتف من بغله نتف وبر بمثابة ذخائر. ونورد هذا، لا لأنه مطابق للحقيقة، بل بصفته مؤشراً لرأي عامة الشعب الذي يحب كل جديد.

ظل يرتدي على جلده شعاراً من صوف له عمرة للرأس [جبّة مُقلسَنَة: .Cucullus وقد أسمته آن كومين: بطرس ذو الجبة المقلنسة]، ويشتمل فوق الشعار دثاراً للكتفين من نسيج مسح، لكنه لم يرتدِ قط السراويل، وظل دوماً يسير حافياً ، ويأكل قليلاً من الخبز، وحتى إنه كان لا يأكل مطلقاً ، بل يتقوت بالخمر والسمك"

(غيبير دو نوجان، مآثر الله عن طريق الفرنجة، ٢: ٨، طبعة ر. ب. س. هويغنز، CCCM، ١٢٧، أ. تورنهوت ١٩٩٦، ص. ١٢١، ترجمة المؤلف).

٢٦ - هدم القبر المقدس على يد الحاكم، في نظر الغرب

قبل عام ١٠٣٠ بقليل، روى أديمار دوشابان (Ademar de Chabannes)، بطريقته، هدم الحاكم بأمر الله الفاطمي ٩٨٥- ١٠١٢، للقبر المقدس. وأرخ الهدم في ١٠١٠ (وينبغي تأريخُه بالأحرى في شهرِ أيلول/سبتمبر عام ١٠٠٩) ورأى في هذا العمل نتيجة مؤامرة حاكها بصورة مشتركة اليهود والمسلمون الذين "وشوا" إلى هذا السلطان الفاطمي [السادس] بتدخل مسلح وشيك عليه من قبل الفرنجة. وقد روى راوول غلابير (Raoul Glaber)، تقريباً ، القصة نفسها. وهذان النصان يشهدان، في الحقيقة، على انفعال حقيقي في الغرب، وخاصة على رباطٍ - إن لم يكن في حقيقة الواقع، فأقله في الأذهان - مابين الضريح وحملة مسلحة. ولئن جعلا من هدم الضريح عاقبة للحملة المفترضة، وليس سببها، فالفكرة ذاتها لعدّة حملات في هذا الصدد قد تم ذكرها فعلاً وإن هذا النص، في هذا الشأن، يعطي صورة مسبقة، إن لم تكن عن الحرب الصليبية، فأقله عن الحالة الذهنية التي سبقت هذه الحرب، وهي أيضاً حالة متشربة من بعض المعارضة للدين اليهودي.

"في هذه السنة نفسها ، هَدَم اليهودُ والمسلمون قبر الرب في أورشليم، وذلك في الثالث من غُرّة شهر [عند الرومان] تشرين الأول/ أكتوبر لعام ١٠١٠، لتجسد المسيح. ومن المؤكد أن يهود الغرب ومسلمي اسبانيا قد وجهوا رسائل تتهم المسيحيين، وتعلن أن الفرنجة يحشدون جيوشاً لمهاجمة مسلمي المشرق. وعندئذٍ، استشاط غضباً نبوقد نصر البابلي الذي يدعونه المبجل (Admiratus)، من جراء نصائح الوثنيين، وأصدر أمراً بإرهاق المسيحيين باضطهاد فادح، وأعلن قانوناً يقضي بأن جميع المسيحيين الذين يعيشون في ظل سلطانه ولا يعتنقون الإسلام، سيحرمون من ممتلكاتهم أو يقتلون. ونجم عن هذا أن حشداً عديداً جداً من المسيحيين قد ارتدوا إلى الشريعة الإسلامية: لكن أحداً منهم لم يجدر به الموت في سبيل المسيح، باستثناء بطريرك أورشليم: فقد لقي حتفه في عذابات من كل نوع، وكذلك مراهقَين، أَخَوَين،

قُطع رأساهما في مصر، فتألقا بجم من العجائب. وإن كنيسة القديس جورجيوس، التي لم يدنسها، حتى ذاك الحين، أي مسلم، هُدمت في ذاك الوقت، كما هدم كثير من أماكن العبادة الأخرى. وبسبب آثامنا، دُكت حتى الحضيض

(أديمار دو شابان، حولية، ٣: ٤٧، طبعة ب. بورغان، و ر. لاند، و ج. بون، CCCM، ١٢٩، تورنهو ترجمة المؤلف).

٢٧ - الرسالة البابوية باسم سيرجيوس الرابع (١٠١١)

رُفضت هذه الرسالة البابوية بصفتها مزورة، وذلك من قبل جهابذة العلم في نهاية القرن التاسع عشر (فون يْفلوغ - هارتونغ، ريانت، وآخرين...). واعتبرها بصفتها هذه، منذ ذاك العصر، غالبية المؤرخين حتى تأريخ حديث العهد، وقد عَززت موقفهم بحوث أ. جييز تور: رسالة سرجيوس الرابع البابوية. بحوث في العصور الوسطى والإنسية،V، ١٩٨٤، ص. ٣- ٢٣، VI، ١٩٥٠، ص. ٣- ٣٤، وحسب البحوث هذه، قد تم تأليفه هذا النص في مواساك (Moissac) من قبل أوساط الإدارة الرومانية للبابا أوربانوس الثاني، إبان جولته للدعوة من أجل الحرب الصليبية، عام ١٠٩٦. وفي زمن أكثر حداثة، تم الدفاع عن أطروحة الصحة الأساسية لهذه الوثيقة، وقام بدعمها بحجج موفقة جداً هـ. م. شالير، في المقالة التي نقتبس منها هذا النص. وفي هذا الوضع، فإن كانت هذه الوثيقة صحيحة، فهي تعرب باكراً جداً ، بعد هدم الضريح، عن أيديولوجيا لحرب مقدسة تؤذن بخطة للحرب الصليبية من قبل غريغوار السابع، عام ١٠٧٤، وأوربانوس الثاني. وذلك في آن معاً بهدفها (قبر المسيح)، وبالوعود الروحية التي وعد بها المقاتلون، وبفكرة "انتقام الله"، التي تم تقريبها من تقليد له صلة بكل من طيطوس وفسبازيان. وقد بات هذا التقليد معروفاً تماماً في ذاك العصر، وذكّر به أوديلون من دير كلوني بُعيد ذلك. وعلينا الإشارة، ونحن في هذا الصدد، إلى الذكر المُجدي كثيراً للنبوءة القائلة بأن القبر المقدس لابد له من البقاء مجيداً حتى الأبد. وكل إذلال (وبالأحرى الهدم) لهذا الضريح يظهر إذن بأنه "غير طبيعي "هفوة"، وهذا ما يُعارض مشيئة الله، وتشويه التدرج المتوقع للتاريخ، وبذلك فهو خطأ جدير بالتصحيح والعقاب.

وإن كانت الوثيقة، على نقيض هذا، ملفقةً وناتجةً عن مبادرة من الإدارة البابوية، في عشية الحرب الصليبية، فهي توضح تماماً فحوى هذه المواضيع ذاتها وفاعليتها. وإضافة إلى ما سبق، فهي تشير إلى أن ذكرى هدم القبر المقدس كانت تعتبر، فيما بعد بقرن تقريباً أمراً محركاً بمقدار عظيم، في نظر من لبثوا يستخدمون هذا الموضوع بقصد دفعهم المحاربين للذهاب إلى أورشليم. وهيا بنا نوضح أيضاً الرابط المنطقي الذي أقامته الوثيقة ما بين الضريح وهو مقام حج يجلب الخلاص، والمشروع الحربي المعد لتجديده، وفي آن معاً ، لاعادته هذه الطريق الخلاصية، المعتبرة لا غنى عنها في ذهنية ذاك الزمان الدينية.

٢- حتى هذه الأوقات الأخيرة، قد سعى اخوة كثيرون، يحدو بهم حب المسيح، إلى بلوغهم المكان ذاته الذي داسته قدماه، وتكريمهم جبل الجلجلة، حيث خلصنا بجميع عذاباته، وكذلك جبل الزيتون. وكانوا بشكل أخص أيضاً ، يزخرون بتعبد عميق لهذا الضريح حيث تمدد جسده، فغادروا وطنهم، جاعلين من أنفسهم غرباء بغية ذهابهم إلى أورشليم، متعرضين بذلك إلى المتاعب، إلى الأحزان، إلى العديد من السهر، والجوع، والعطش، والبرد، والعري، كما جرى كل هذا للرسول بولس، فيما مضى من الزمان. ولم ينقطعوا عن اقتفائهم آثار يسوع المسيح، عازفين عن حوزتهم الزمنية، بقصد أن يحملوا صليبهم فيصيروا هم أنفسهم تلاميذه، سالكين الطريق، وهم تابعون المسيح، حاملون صليبه، كما أوصاهم أن يفعلوا. فقد استودعنا المسيح ضريحه لكي ينال فيه التائبون ملكوت السماء.

٣- نُعلم جميع المسيحيين بهذا الخبر الوارد إلى كرسينا الرسولي والقادم من المناطق الشرقية: إن القبر المقدس لفادينا، وربنا يسوع المسيح، قد هدمته ودكته أيدي الوثنيين الكافرين! ومن جراء هذا الهدم، الكنيسة في العالم وجميع مدينة روما، قد استحوذ عليهما القلق، فانهارتا في ذهول عميق. وانتشر هذا الذهول في الأرض بأسرها، وراح أهاليها يئنون وينتحبون. أما أنا، فسأقصي النوم عن أجفاني، وسوف أضع قلبي على قيد الحزن والألم، حيث أنني لم أقرأ يوماً ، لا في كتابات الأنبياء، ولا في مؤلفات ناظم الأناشيد الروحية، ولا في ما كتب أي عالم من العلماء، أن يكون ضريح الفادي قد قيض له الهدم. بل على نقيض هذا، لابد له من الديمومة حتى الختام [ختام الأزمنة]، حسبما أوحى النبي بهذه الألفاظ: وسيكون قبره مجيداً حتى الأبد.

٤- ولابد أن يعلم الناس إذن بالعزم المسيحي وهو عزمي: فقد صممت هذا المشروع، أنا، إن لقي حظوة لدى الرب، وهو أن أبحر شخصياً مغادراً شواطئنا البحرية، بصحبة جميع الرومانيين، الإيطاليين منهم أو التوسكانيين، أو مسيحيين آخرين من أية منطقة كانت، الذين يتوخون الذهاب معنا، لكي نتصدى معاً لشعب المسلمين (Agaréniens) [الهاجريين] بعون الرب، لكي نقتلهم عن بكرة أبيهم. أريد أن أعيد ضريح الفادي إلى تمام سابق عهده.

٥- يا أبنائي، عليكم ألا تفزعوا من خشية البحر، وألا ترتعدوا من سعير معمعة القتال، حيث أن وعد الله ماثل هناك: فمن سيفقد حياته في سبيل المسيح سيلقى حياة أخرى لن تكون لها نهاية. فهذه الحرب لا تخوضونها لأجل مملكة بائسة، بل في سبيل إقطاعة أبدية. وإنما يترتب علينا اتخاذ المبادرة، لكن الانتقام خاص بالله. ونحن نُدعى فقط لاجتياز هذا العالم حيث نحيا. لنقاتلنّ! إذن أعداء الله كيما نستحق الابتهاج بصحبته في السماء. [....]*

هلموا يا أبنائي للذود عن الله، واكسبوا بما تفعلون الملكوت الأبدي. أروم، وأعتقد، بل أومن حقاً أننا، باقتدار سيدنا يسوع المسيح الفاعلة، سننال الظفر، كما حدث هذا في أيام طيطوس وفسيازيان اللذيْن ثأرا لموت ابن الله، ولم يتلقيا آنذاك العماد. بيد أنهما، عقب انتصاريهما، ارتقيا إلى سدة إمبراطور الرومانيين وحظيا بغفران (Indulgentia) معاصيهما. أما نحن، إن فعلنا ما قد فعلا، فسوف ننال، دونما شك، الحياة الأبدية"

(رسالة من البابا سيرجيوس الرابع عن الحرب الصليبية، البابوية، الكنيسة، الحق، في العصور الوسطى. توبينغهام، ١٩٩١، ص. ١٥٠- ١٥٣ ترجمة المؤلف).

٢٨ - رسالة جيربير دورياك (Gerbert d'Aurillac) (٩٨٤): أورشليم تستنجد

فيما مضى، نسبت هذه الرسالة، خطأً، إلى البابا سرجيوس الرابع، لكثرة ما تقترب من مواضيع الرسالة البابوية السابقة التي نُسبت، خطأ أو بحق، إلى هذا البابا، بردة فعل حيال هدم الخليفة الحاكم للقبر المقدس عام ١٠٠٩ وإن ب. ريشيه، ناشر

هذه الرسالة الأقرب حداثة، يعتبرها على صحة كاملة، وأرخها في سنة ٩٨٤ ومن المرجح أن غاران دو كوكسا قد طلب تحريرها، وهو الذي قام بحج إلى الأرض المقدسة عام ٩٨٥

مهما يكن من أمر، لا يمكن إلحاق هذه الرسالة بالهدم في سنة ١٠٠٩ فلا شيء يأذن لنا، في الواقع، أن نماهي "النكبة" التي ذكرها جيربير، بهدم الضريح المقدس. فالأمر يعني، بالمقابل، إهمالاً ما للأماكن المقدسة، بل تلفها وخرابها. ولدينا، إلى جانب ذلك، بعض الشهادات حول هذه الحال. بيد أن هذه الرسالة تحتفظ بجدوى عظيمة بالنظر إلى تاريخ التشكل لفكرة الحرب الصليبية. ولا جرم أننا نلقى فيها العديد من المواضيع التي سوف تُكرّر في الرسالة البابوية لسرجيوس الرابع، وقد أعدنا نشرها آنفاً (ولاسيما المرجعية المشتركة إلى ضريح المسيح الذي، طبقاً للنبوءة، لابد من بقائه مجيداً حتى الأبد)، كما كررها البابا أوربانوس الثاني في خطبه وفي رسائله على السواء.

والى جانب التشديد على الاحترام، وعلى العون الذي تدين به الكنيسة جمعاء للكنيسة الأم، كنيسة أورشليم، وعلى الوعد بمغفرة المآثم لهؤلاء الذين سيعملون لدعم الأماكن المقدسة، فإن رسالة جيربير قد باتت تتسم بنغمة حرب صليبية" حقيقية، وذلك، في مفرداتها (النداء إلى جنود المسيح) كما في دعوتها إلى نصرة من نوع عسكري أو، في غياب هذه النصرة، (لأن مثل هذا العمل المذكور لا يبدو التفكير فيه ممكناً لدى المؤلف)، في دعوتها إلى معونة من صنف سيكولوجي ومالي. ولابد أن نوضح هنا، دونما إلحاح، هذه الأشكال الثلاثة من العمل المتوقع، وهي التي يعرب عنها هنا بثلاث ألفاظ تشير إلى واجب العون الإقطاعي: الخدمة العسكرية، المشورة (العون القضائي والقانوني، والتضامن) والعون المالي.

"باسم أورشليم المهدمة، إلى الكنيسة الجامعة: الكنيسة المتواجدة في أورشليم، إلى الكنيسة الشاملة التي تقود صولجانات الممالك.

كم تنعمين برواء الصحة الريّانة، يا عروس الله المنزهة عن الدنس -واعترف أني أحد أعضائها - لي الأمل الكبير في أن يشمخ بفضلك رأسي، وقد بات على وشك الانسحاق. ترى، لماذا لا أتكل عليك، أنت يا سيدة كل شيء؟ وإن تعرفت علي

بصفتي واحداً من خاصتك، فمن الذي - مابين ذويك - سيقدر أن يعتبر نفسه غير معني بالكارثة الشائنة التي منيتُ بها، بحيث أنه يشيح بوجهه وكأنه ينصرف عن شيء سلخت عنه الأهمية؟ ولئن صرت اليوم منهارة، فالعالم يلبث يعتبرني الجزء الأفضل من أجزائه. حيث أن الأنبياء قد نطقوا في رحابي بتنبؤاتهم، وفي رحابي قد ظهر الآباء الأقدمون، ومن ربوعي انطلق الرسل، هؤلاء الأضواء الساطعة من العالم، إنما هنا اكتشف العالم الإيمان بالمسيح، وفي ربوعي قد وجد "فاديه"

في الحقيقة، لئن كان المسيح حاضراً في كل مكان بألوهيته، فرغم هذا، إنما هنا قد ولد، بإنسانيته، هنا تألم وهنا دفن، من هنا رفع حتى السماء. ومع هذا، حيث أن النبي قد قال: "سيكون ضريحه مجيداً "، فها هو الشيطان يسعى إلى حرمانه من هذا المجد، مستخدماً الوثنيين الذين يتلفون المقامات المقدسة. فهيا انهض إذن، يا جندي المسيح! (Enitere ergo, miles Christi). انصب بيارقك وقاتل معي. وحيث تظل عاجزاً عن المجيء إلى نصرتي بأسلحتك، فافعل هذا بنصائحك وغوث ثرواتك .(Opum auxilio) ومن جهة أخرى، تُرى ما الذي تعطيه، ولمن تعطيه؟ إنه لقسط ضئيل، أليس كذلك، من وفرة حوزتك، وتعطيه لمن أعطاك مجاناً جميع ما في حوزتك، وهو، علاوة على كل ما سبق، لا يتلقاها ناكراً لجميلك. بل انه يكثرها في هذي الحياة، ويكافئك في العالم العتيد الباقي. فبوسيلتي، يباركك لكي تنمو بهباتك وسخائك، ويغفر لك مآثمك، بقصد أن تحيا وتسود بصحبته.

(جيربير دورياك، "مراسلة"، رسالة رقم ٢٨، طبعة ب. ريشيه P.Riche و ج. - ب. كالو J. P. Callu، باريس، ١٩٩٣، ص. ٥٩- ٦١، ترجمة المؤلف).

٢٩- تدوين الجهاد في منتصف القرن العاشر

حرر ابن علي زيد القيرواني، في منتصف القرن العاشر، رسالته، أي مبحثاً في صدد الجهاد، فأثبت قواعد الجهاد مستوحياً المذهب المالكي الذي أسسه مالك بن أنس [الأصبحي، ٧١٢- ٧٩٥]. وأقام الشروط التي تفرض الجهاد، والاحتياطات المسبقة، والمناهج التي ينبغي استخدامها أو المشروعة منها، في إنجاز الجهاد إنجازاً كاملاً

"الجهاد فريضة من تأسيس إلهي. وإن إنجازه كاملاً من قبل البعض يعفي الآخرين

منه. وفي نظرنا، نحن المالكيين، من الأمثل ألا نباشر أعمال العدوان مع العدو قبل دعوته إلى اعتناق دين الله، إلا إن بادر العدو بالكر علينا. فثمة واحد من اثنين: إما أن يرتدوا إلى الديانة الإسلامية، أو يؤدوا الجزية، وألا تشهر الحرب عليهم. ولا تقبل منهم الجزية إلا حين يمكثون على أرض حيث يسوغ وضع شرائعنا موضع التطبيق. وإن كانوا خارج منالنا، لن تقبل منهم الجزية إلا إن دخلوا ربوعنا. و إلا، سنخوض الحرب عليهم.

الفرار من أمام العدو خطيئة باهظة [مميتة]، إن كان عدد قوات العدو ضعف عدد المقاتلين المسلمين. لكن، إن كان للعدو عديد يفوق الضعف من قبلنا، فلا باس في اللجوء إلى الفرار.

على المسلم أن يقاتل العدو دون سعي منه إلى المعرفة أنه سوف يقاتل تحت إمرة قائد ورع أو قد زاغت أخلاقه.

لا مضرة في قتل أسرى الحرب من عرق أبيض غير عربي. بيد أن واحداً منهم لن يقتل بعد نيله الأمان. ولن يسمح بانتهاك التعهدات المتخذة حيالهم. ولن يقتل النساء ولا المراهقون. ولا بد من تجنّب قتل الرهبان والحاخاميين، إلا إن كانوا في عداد المقاتلين. وسوف تقتل المرأة، هي أيضاً ، إن شاركت في القتال"

(ابن علي زيد القيرواني، الرسالة، فصل ٣٠، طبعة ل. بيرشيه L.Bercher، الجزائر، ١٩٥٢، ص. ١٦٣، نص منقول في ب. ريشيه و ج. تات، نصوص ووثائق تاريخية من العصور الوسطى (القرون ٥- ١٠)، مجلد ٢، باريس، ١٩٧٤، ص. ٥٤٩).

٣٠- تجدّد الجهاد في اسبانيا، حوالي عام ١٠٨٥

حين بات "الملوك" المسلمون في جنوب الأندلس عاجزين عن نضالهم بفاعلية ضد ملوك الشمال المسيحي (ولاسيما منهم الفونسو دو ليون- القشتالي) الذين شرعوا يوسعون نطاق الرُكونكيستا، انصاعوا للاستنجاد بيوسف [يوسف بن تاشفين (١٠١٩- ١١٠٦) أكبر سلاطين المرابطين]، عاهل المرابطين في المغرب، لكي يضطلع بالحرب المقدسة.

"منحنا أمير المسلمين معاهدة تنص بنودها على ضم جهودنا في قتال المسيحيين مع نصرة منه. وتعهد هو بذاته بألا يتدخل في شؤون كل من أماراتنا، وألا يصغي البتة إلى اقتراحات مثيري الشغب والفوضى [....]* أما أنا فهرعت ماضيا إلى الالتحاق به، وقد غدوت مرتاحاً لسيرورة الأمور، ورحت أعد للحرب المقدسة كل ما قدرت على جمعه من المال ورجال القتال [....]*. ومن جانب آخر، سبق أن انتشر الخبر في البلاد بأن المرابطين قوم ورعون وأنهم آتون بغية أن يضمنوا لأنفسهم الجنة في حياتهم بدار البقاء، وأنهم يُحقون الحق. وعقدنا العزم على مساهمتنا، سنوياً ، بأفرادنا وحوزاتنا في الحرب المقدسة، بصحبة الأمير. ومن منّا سيبقون على قيد الحياة، سينالون المجد، في كنف حمايته، ومن يلقون حتفهم فيسقطون شهداء في سبيل الإيمان"

(عبد الله، مذكرات عبد الله، آخر ملك زيريدي في غرناطة، طبعة وترجمة إ. ليفي- بروفانصال، الأندلس، ٤ ، ١٩٣٦- ١٩٣٩ ، ص. ٧٤- ٧٥).

٣١- مبحث دمشقي حول الجهاد (١١٠٥)

تم تيسير احتلال الصليبيين لأورشليم (١٠٩٩) عن طريق الخصومات مابين أمراء سوريا المسلمين، من جهة، والمسلمين السنيين (وخاصة الأتراك) والشيعيين، من جهة أخرى. وإن الاحتلال المسيحي أيقظ، لحين ما، (وأقله في بعض الأوساط) ، مفهوم الجهاد ، وقد سبق أن بات في خدر النعاس.

إن مُؤلف هذا المبحث: السُلامي، قرأ علنا مؤلفه، نداءً إلى الحرب المقدسة، في عدة جوامع بدمشق، عام ١١٠٥ ومات في السنة التالية. ويبدو أن نداءه لم يلق نجاحاً باهراً غير أنه يقدم لنا جدوى عظيمة، بفضل التبريرات التي يعطيها للجهاد وبفضل الأهمية التي يوليها لأورشليم والنبوءات عن هذا الشأن، وبفضل التوضيحات التي يعطيها عن إدراك المسلمين للحرب الصليبية: وفي رأي السُلامي، ليست الحرب الصليبية سوى "جهادٍ مسيحي منذور لِلإخفاق، بنتيجة أقوال النبي التي تعلن نصر المسلمين الأخير والحاسم قبل نهاية الأزمنة. فالمسلمون إذن، متيقنون من الغلبة ويترتب عليهم الالتزام بهذا القتال بقصد نيلهم الثوابات التي وعد بها من يخوضون الجهاد فيتحاشون جهنم التي تهدد كل من يتملصون من أوامر الله.

باسم الله الرحمن الرحيم

قال نبي الله: تعود الخلافة إلى القُرشيين، والسلطان إلى الأنصار، والدعوة [إلى الإسلام] إلى الحبشيين. أما الهجرة والحرب المقدسة، فتدخلان منذئذٍ في حوزة المسلمين. وهذه الأقوال: الحرب المقدسة تخص، منذئذٍ، المسلمين، هي برهان بديهي جلي على أن الجهاد يقع على عاتق جميع المسلمين، وإن كان الأمر على هذا المنوال، فالجهاد يستمر حتى يوم القيامة والحشر.

[....]* أما الإجماع "Consensus omnium"، فالخلفاء [الأربعة]* الراشدون، وتماماً كمثل الصحابة [رفاق محمد]، قد اتفقوا، عقب وفاة النبي، على أن الجهاد واجب على الجميع. وفي الواقع، أحد من الأربعة لم يهمل خلال خلافته هذا الواجب، وظل هذا المثال قائماً والتزم الخلفاء اللاحقون باتباعه. ففي كل سنة كان الخليفة يقود شخصياً غارات [على أرض الكفر]*، أو يعهد لواحد أن يؤمها مكانه. وظلت الأمور على هذه الوتيرة حتى أقدم أحد الخلفاء على إهمال هذا الفرض من جراء وهنه"

ثم فسّر المؤلف العواقب الوخيمة لانقطاع الجهاد بهذه الشاكلة: وثار المسلمون بعضهم على بعض، وطفق الكفار (أي المسيحيون) يفكرون عندئذٍ في استعادة احتلال أراضيهم، في صقلية (احتلال صقلية على يد النورمانديين حدث مابين ١٠٦٢ و١٠٩١)، ثم في اسبانيا (احتلت الركونكيستا طليطلة في عام ١٠٨٥، وفلانثيا عام ١٠٩٤، لكنها اضطرت في أحد الأحيان إلى الانكفاء متقهقرة أمام قوات المرابطين، ولم يتكلم المؤلف عن ذلك)، وأخيراً في سوريا (بعد نجاح الحرب الصليبية الأولى واحتلال أورشليم عام ١٠٩٩). وشبّه تماماً الركونكيستا المسيحية في الغرب وفي الشرق بالجهاد الإسلامي، وحث مسلمي المنطقة على التجند في الحرب المقدسة، وذكّرهم بأنها فرض على الجميع، ووضّح أهدافها ووعود الثوابات المنوطة بهذه الحرب. "اجتاح فريق [من الكافرين]* جزيرة صقلية على حين بغتة، مغتنمين الخلافات والنزاعات [السائدة هناك]*، وعلى هذا المنوال، احتل [الكفار]* أيضاً مدينة تلو أخرى في اسبانيا. وحين بلغتهم معلومات يؤكد بعضها بعضاً ، حول الحالة المضطربة في هذا البلد [سوريا]* وكان ملوكه يتباغضون ويتقاتلون، عقدوا العزم على اجتياحها. وكانت أورشليم أقصى ما يتوقون إليه.

وحين تَفحصهم بلاد الشام [سوريا]*، لاحظوا أن الدول كانت على تخاصم فيما بينها، وظلت آراؤها متباعدة، واعتمدت صلاتهم رغباتٍ في الثأر كامنة فيهم فتعزز طمع المسيحيين [الفرنجة] بهذا الوضع، وشجعهم، فعكفوا على اجتياحها. وفي الواقع، بقي الصليبيون يقومون بمحاربتهم المسلمين بحرص وغيرة، وبالمقابل أبدى المسلمون قصوراً في همتهم وروح وحدتهم في الحروب، فحاول كل واحد منهم أن يتخلى عن مهمته للآخرين. وعلى هذا المنوال أفلح [الفرنجة]* في احتلالهم أراضي واسعة النطاق بمقدار يفوق بكثير ما عزموا على فعله، وراحوا يطيحون السكان أو يذلونهم. وحتى ذاك الحين، ما فتئوا يوسعون نطاق سلطانهم: وازداد طمعهم دون هوادة، بمقدار ما لاحظوا جبانة أعدائهم الذين يقنعون بالعيش في ملجأ من الخطر. ومن ثم، باتوا يرومون، متيقنين، أن يصبحوا أسياد البلد بكامله، فيُصيروا سكانه سجناء فيه. فعسى الله، بطيبته وصلاحه، أن يُحبط أملهم ورجاءهم، معيداً وحدة الجماعة إلى سابق عهدها. فهو القريب السميع المجيب لأمنياتنا"

ثم يَذكر المؤلف مُنظري الجهاد الرئيسيين، بقصد تبريره فرض الجهاد، ومن بينهم أبو حامد الغزالي (١٠٥٨- ١١١١) اللاهوتي والفقيه الكبير الذي علم في بغداد، وأقام في دمشق بعد سنة ١٠٩٤، حيث تمكن مؤلفنا، إلى جانب ذلك، من الالتقاء به.

"قال الشافعي [٧٦٧ - ٨٢ من مواليد غزة]: الفرض الأدنى لرئيس الجماعة هو القيام بغارة، سنوياً، في بلاد الكفار، إما شخصياً، وإما بجنوده، حسب مغانم الإسلام، بحيث لا يهمل الجهاد طوال سنة بكاملها، إلا لسبب قاهر. وأردف قائلاً إن عجزت القوات المعبأة عن ضمان التنفيذ على نحو مرض، ففرض [قتال الكافرين] مفروض حسب ما يأمر به الله تعالى جميع الذين لبثوا عن الحرب قاعدين.

يتبين إذن من الصحيح أن الحرب المقدسة، حين الحاجة، تغدو واجب فرض شخصي، كما هي في الساعة الراهنة، حيث ينقضّ هؤلاء الجنود بغتة على الأرض الإسلامية.

ويقول أبو حامد محمد بن محمد الغزالي [مات عام ١١١١]: "كلما لم تنجز غزوة، ترتب على جميع المسلمين، الأحرار، المسؤولين عن أفعالهم والقادرين على حمل السلاح، أن يخرجوا على العدو، حتى تقوم قوة تكفي لشن الحرب عليه: فهدف هذه الحرب هو تُمجيد كلمة الله تعالى، ونصرة دينه على أعدائه، على أتباع تعدد الآلهة، ونيلُ الثواب السماوي الذي وعد به الله ورسوله من يقاتلون في سبيل الله،

والاستحواذ على ممتلكات [الكافرين]* وعلى نسوتهم ومنازلهم" حيث أن الجهاد يشكل واجب فرض جماعي، طالما تستطيع الجماعة في جوار العدو الاكتفاء بقواها الذاتية بقصد محاربتها [الكافرين]* ودرء الخطر عنها. لكن، إن كانت هذه الجماعة على ضعف مفرط لفرض الهزيمة على العدو، بات الواجب يشمل القطر [المسلم] الأدنى قرباً ، الشام مثلاً [سوريا] ، [....]* ولا يُستثنى من هذا الفرض إلا من لهم حجج قانونية لاستثنائهم، ألا وهم من يعاقون عنه إعاقة خطيرة. وسوف نوضح هذه الحجج لاحقاً .[....]*

إن القرآن، والحديث، وإجماع علماء الشريعة، تتَّفِقُ قاطبة، كما برهنا على هذا، على أن الحرب المقدسة واجب جماعي عندما تكون هجومية، وعندما تغدو فرضاً شخصياً في الأوضاع المعينة سالفاً وبذلك قد ثبت أن التصدي لهذه القوات يعود، بصورة إجبارية، إلى جميع المسلمين القادرين على القتال، أي من هم غير مصابين بمرض خطير أو مزمن، ولا بالعمى، أو بوهن من الشيخوخة. فكل مسلم يفتقد هذه الحجج، أكان ثرياً أو معدماً ، و [حتى]* ابن والدين [على قيد الحياة]* أو مديناً يتوجب عليه التطوع ضد الأعداء، والإسراع في تفاديه العواقب الخطيرة للتهاون والتباطؤ، وهي عواقب لابد من خشيتها. لاسيما وإن العدو قليل العدد وإن تعزيزاته ترد من مسافات شاسعة، فيما يكون ملوك الأقطار [الإسلامية]* من الجوار [قادرين على]* التناصر ومجابهة العدو مجابهة مشتركة.

هيا اعكفوا على الامتثال لوصية الحرب المقدسة! فتعاونوا تعاوناً متبادلاً بغية حماية دينكم وإخوتكم! وانتهزوا هذه السانحة لقيامكم على الكفار بهذه الغارة التي لا تقتضي جهداً مفرطاً بقسوته، وقد هيأ لكم الله هذه الغارة! إنها جنة يُقربها الله منكم قرباً دنياً ، إنها خير من هذا العالم، لابد من حوزته سريعاً ، إنها مجد سيدوم أعواماً مديدة. واحترسوا لئلا تفوتكم هذه السانحة، خوفاً من أن الله، في دار البقاء، يقضي عليكم بما هو أسوأ: بلهب سَقر.

ثم يلح المؤلف على أهمية أورشليم، وقد احتلها المسيحيون حديثاً ، ويستشهد بكلمات نبوية في صدد الجهاد لدى الدين الإسلامي، الجهاد الذي لابد له من الانتصار في أورشليم حتى ختام الأزمنة، فيذهب بالمسلمين حتى القسطنطينية. فإن الاحتلال المسيحي هو إذن احتلال موقت والى جانب ذلك، قد سبق للكتابات النبوية الإسلامية

أنها آذنت به، كذا أضاف المؤلف. وإن هذا التأكيد ينضم إلى التقاليد التي يأتي على ذكرها الحوليون المسيحيون للحرب الصليبية، الغربيون منهم أو السوريون أو الأرمنيون على السواء. لكن الإسلام سوف يظفر على الكافرين: فيترتب إذن على المسلمين أن يتجندوا منذ هذا الحين في الجهاد، بغية إسهامهم في هذا النصر النهائي الذي سيوليهم ثوابات عظيمة. ولابد أن نلحظ سمات التشابه العديدة في هذا الشأن، وخاصة في المنظور الأخروي للقتال في سبيل أورشليم، سمات التناظر مابين التقاليد الإسلامية والتقاليد المسيحية التي أوردناها في الصفحات السابقة.

قال رسول الله: إن فريقاً من جماعتي لن ينقطع أبداً عن القتال وعن الظفر في سبيل دين الحق، حتى ختام الأيام، وأي تخاذل لن يقدر أن يلحق الأذية بهم [قول دون مرجع له]

حسب أحد الأحاديث، ويبدو لي أنه في حوزتي مع سلسلة ضامِنيه، هؤلاء الجنود سوريون، وطبقاً لتقليد آخر، الأمر يعني سكان أورشليم وربوعها.

هذه هي البرهنة على أنها [أورشليم]* سوف تنكفئ إلى قبضة الإسلام، وإن جماعة [من المؤمنين]* ستكون صفاتهم على غرار هذه الصفات، لابد لهم أن يقيموا فيها حتى نهاية الأيام. وهذا الحديث أصيل موثوق.

قد سمعنا حديثاً يعتمد إسناداً يقول إن البيزنطيين [الروم]* سوف يحتلون أورشليم لفترة معينة، وإن المسلمين سيتألبون عليهم، فيدحرونهم عن هذه المدينة ويطيحون غالبيتهم. ثم يمضون ملاحقين الأحياء منهم المندحرين حتى مدينة القسطنطينية. وهذا الحديث أكيد موثوق. وإن كان الأمر هكذا، فإن ذلك يستتبع، بالطبع، أن هذه الجماعة المحاربة والظافرة في سبيل الإيمان هي الجماعة بذاتها التي يتحتم عليها، بفضل نصرة سماوية، أن تدحر [الكافرين]* من أورشليم، ومن بقية البقاع [الإسلامية]*، وهي الجماعة نفسها التي ستستولي على القسطنطينية. فهيا اجهدوا إذن في الحرب المقدسة هذه: فمن المحتمل أن تصيروا من هم مُعدون لنيلهم ثواب هذا الفتح الهائل، ومن ثم اختيارهم من أجل هذا المقام النبيل"

(السلمي، حض على الحرب المقدسة....، طبعة وترجمة إ. سيفان، تكوين مناهضة الحرب الصليبية: مبحث دمشقي من بداية القرن الثاني عشر"، صحيفة آسيوية، ١٩٦٦، ص. ٢١٤- ٢٢٠، في شتى المواقع فيها).

كرونولوجيا

(تسلسل الحوادث التاريخي)

	السنة
وفاة يسوع المسيح في أورشليم [القدس]	نحو ٣٣
احتلال طيطوس أورشليم، هدم الهيكل	٧٠
اضطهاد المسيحيين خلال حكم مارك أوريل	١٧٦- ١٨٠
اضطهاد المسيحيين في عهد ديسْ	٢٤٩- ٢٥١
الاضطهاد خلال حكم ديوكليسيان وخلفائه (العديد من الشهداء)	٣٠٣- ٣١١
معركة جسر ميلفيوس، ارتداد" قسطنطين	٣١٢
مرسوم ميلانو " الذي يسمح بالدين المسيحي	٣١٣
مجمع أرْل الذي يحرم من يرفضون استخدام السلاح	٣١٤
مجمع نيقيا: تحديد قانون الإيمان، الاعتراف بالإيمان	٣٢٥
تيودوزْ يحظر الدين الوثني	٣٩٢
ألاريك ينهب روما	٤١٠
القديس أوغسطينوس يحرر مؤلفه "حاضرة الله"	٤١٣- ٤٢٦
نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب	٤٧٦
السلالة الميروفنجية في غاليا	٤٨١- ٧٥١
كلوفيس يقهر الفيزيقوط في فوْييّه	٥٠٧
أوائل الوحي إلى محمد	٦١٢
ثورة المسيحيين على اليهود والفرس في أورشليم	٦١٤
الهجرة، النفي إلى المدينة، السنة الأولى للتقويم الإسلامي	٦٢٢

معركة بدر: انتصار محمد الأول الكبير	٦٢٤
انتصار هيرقليوس على فُرس كسرى [الثاني ابرويز، ٥٩٠- ٦٢٨]	٦٢٨
عودة المسيحيين والصليب الحقيقي إلى أورشليم	٦٣٠
احتلال محمد لمكة	٦٣٠
موت النبي محمد في المدينة	٦٣٢
استيلاء المسلمين على أورشليم	٦٣٨
فتح المسلمين لمصر	٦٤٠
معركة صفين: انشقاقات أولى داخل الأمة	٦٥٧
السلالة الأموية (العاصمة دمشق)	٦٦١- ٧٥٠
معركة كربلاء. هزيمة الشيعيين، موت الحسين	٦٨٠
استيلاء المسلمين على قيروان	٦٩٠
القوات العربية/ البربرية تجتاح اسبانيا	٧١١
اندحار المسلمين أمام القسطنطينية	٧١٨
مقاومة المسيحيين في أقاليم أستوريا [شمال اسبانيا]	٧٢٠
أود داكيتين يهزم المسلمين أمام تولوز	٧٢١
شارل مارتيل يهزم العرب في بواتييه (موسيه)	٧٣٢
[البابا]غريغوار الثالث يدعو شارل مارتيل على اللومبارديين	٧٣٩
سلالة العباسيين (العاصمة بغداد)	٧٥٠- ١٢,٥٨
سلالة الكارولانجيين في الغرب	٧٥١- ٨٨٧
انقلاب بيبان لوبرف بضمانة بابوية	٧٥١
مقابلة بونتيون، مابين بيبان وإتيين الثاني [البابا]	٧٥٤
حملات بيبان على اللومبارديين، تَشكل "تراث القديس بطرس"	٧٥٤-٧٥٦
سلالة أمية في اسبانيا (العاصمة قرطبة)	٧٥٦- ١٠٣١
حملة شارلماني في اسبانيا: رُونصُوفو	٧٧٨
الأوامر السكسونية العالية الأولى: العماد أو الموت	٧٨٥
تتويج شارلماني الإمبراطوري في روما	٨٠٠

المسيحيون يستردون برشلونة	٨٠١
النورمانديون يحرقون مدينة روان	٨٤١
النورمانديون يحرقون باريس	٨٤٥
المسلمون ينهبون روما	٨٤٦
نداء ليون الرابع. المكافآت الروحية الأولى للمحاربين المسيحيين	٨٤٧
المسلمون يفتحون جزيرة كورسيكا	٨٥٠
قضية شهداء قرطبة"	٨٥٠- ٨٥٨
موت البخاري، محرر سيرة محمد	٨٦٩
نداء البابا حنا الثامن إلى الفرنجة. وعود روحية	٨٧٩
النورمانديون يحاصرون باريس (أبون دو فلوري)	٨٨٥
التنازل عن دوقية (النورماندي) للنورمانديين	٩١١
السلالة الفاطمية الشيعية في المغرب، ثم في مصر	٩١٠- ١١٧١
أوتون الأول يهزم المجريين في ليشفيلد	٩٥٥
تتويج أوتون الأول إمبراطوراً	٩٦٢
المسلمون يغادرون لاغارد- فرينيه في مقاطعة البروفانس (مسلمو الغرب)	٩٧٢
سينودس دو لابراد: "مجمع السلام" الأول(؟)	٩٧٥
غيّوم لوليبراتور يطرد المسلمين من البروفانس	٩٨٣
مجمع شارو من أجل "سلام الله"	٩٨٩
مجمع مدينة يوي لأجل "سلام الله"	٩٩٠
المنصور يحرق سان- جان- دو- كومبوستيل	٩٩٧
إتيين، أول ملك مسيحي للمجر	١٠٠٠
الحاكم بأمر الله يهدم كنيسة القبر المقدس	١٠٠٩
بوليسلاس، ملك بولونيا الأول	١٠٢٥
مجمع إلن (سلام الله وهدنته)	١٠٢٧
مجمع ليموج (سلام الله)	١٠٣١
نهاية وحدة الأمويين في أسبانيا: الطوائف	١٠٣١

موت الملك أولاف النورويجي. عجائب على قبره	١٠٣٠
يمين " السلام" لمليشيّي مدينة بورج	١٠٣٨
معركة تشيفيتاتيه. البابا يرى أمواته "كشهداء"	١٠٥٣
قطيعة مابين كنائس روما والقسطنطينية	١٠٥٦
روبير غيسكار يغدو مُقطعاً للبابا	١٠٥٩
معركة سيرامي. استرداد صقلية المسيحي	١٠٦٣
المسيحيون يحتلون بارباسترو ثم يخسرونها	١٠٦٤-١٠٦٥
الدوق النورمندي غيوم يستولي على إنكلترا	١٠٦٦
الأتراك ينتزعون أورشليم من الفاطميين	١٠٧٠
معركة مانتزيكيرت: الأتراك يهزمون البيزنطيين	١٠٧١
مشاريع البابا غريغوار السابع لتحرير أورشليم	١٠٧٤-١٠٧٥
موت إرلامبو، ورفعه إلى رتبة شهيد، و "جندي المسيح"	١٠٧٥
استيلاء المسيحيين على طليطلة	١٠٨٥
معركة زلاقة: المسلمون يقهرون المسيحيين ويستردون أسبانيا	١٠٨٦
حملة مسيحية على المهدية (تونس)	١٠٨٧
رسائل البابا أوربانوس الثاني في شأن استعادة تاراّغون	١٠٨٩
الدعوة الدينية إلى الحرب الصليبية (أوربانوس الثاني، وبيير ليرميت)	١٠٩٥
مذبحة اليهود في منطقة نهر الرين على يد صليبيي ايميخ	١٠٩٦
معركة أنطاكية: انتصار المسيحيين على كاربوقا	١٠٩٨
الصليبيون يحتلون أورشليم	١٠٩٩

الفهرس

وثائق

مجموعة نصوص خاصة بالحرب
في الديانة المسيحية وفي الإسلام

بيبليوغرافيا (فهرسة)

إده،م. M. Eddé، وميشو، ف F. Micheau، وبيكار ش. :Ch. Picard الطوائف المسيحية في بلاد الإسلام، من بدايةالقرن ٧ إلى منتصف القرن ١١، باريس، ١٩٩٧

أنواتي، ج.، G. Anawati، الإسلام والدين المسيحي.

إيردماس، س. .Erdmas, C، مصدر فكرة الحرب المقدسة، أوكسفورد ١٩٧٧، شتوتفاردت ١٩٥٣، ١٩٥٥

بارتنير، ب. .Partner, P، إله المعارك. الحروب المقدسة في المسيحية والإسلام، لندن، ١٩٩٧

برتيليمي، د.، :.Barthelemy, D سنة الألف وسلام الله، فرنسا المسيحية والإقطاعية، ٩٨٠- ١٠٦٠، باريس، ١٩٩٩

بركاي، ر. .Barkai, R، المسيحيون والمسلمون واليهود في اسبانيا القروسطية: من التقارب إلى التنابذ، باريس، ١٩٩٤

برون، ب.، :.Brown, P التعبد للقديسين. انطلاقته ووظيفته في المسيحية اللاتينية، ترجمة أ. روسيل، باريس، ١٩٨٤

بلاشير، ر.، :.Blachere, R مشكلة محمد، باريس، ١٩٥٣

بلومينكرانز، ب.، :.Blumenkranz, B اليهود والمسيحيون في العالم الغربي، ٤٣٠- ١٠٩٦، باريس، ١٩٦٠

بروتون، ج.، .Burton, J، مصادر الشريعة الإسلامية: نظريات النسخ الإسلامية، إيدنبورغ ١٩٩٠

بيترز، ر. .Peters, R، الجهاد في الإسلام الكلاسيكي الحديث، برينستون، ١٩٩٦

تولان، ج، ف. .Tolan, J. V، إدراك الإسلام في العصر الوسيط المسيحي، كتاب بحوث، نيويورك، لندن، ١٩٩٦

تولان، ج، ف. .Tolan, J. V، وجوسيراند، ف. Josserand، العلاقات بين العالم الإسلامي/العربي والعالم اللاتيني (منتصف القرن ١٠ إلى منتصف القرن ١٢) باريس ٢٠

جيرفيرس، م. .Gervers, M، وبيخازي، ر. .Bikhazi, R، المواقف الغربية تجاه الإسلام، نيويورك، ١٩٩٩

حميد الله، م. ، الحرب والسلم في الشريعة الإسلامية، بلتيمور، ١٩٥٥

خدوري، م. .Khaddouri, M، التسامح في الإسلام، مونيخ ١٩٨٠

خوري، أ. ث. .Khoury, A. Th، التسامح في الإسلام، مونيخ ١٩٨٠

دانييل، ن. .Daniel, N، العرب وأوروبا القروسطية، لندن ١٩٧٩

الإسلام والغرب، تشكل صورة، إيدنبورغ، ١٩٨٠ (طبعة رابعة).

أبطال المفاخر وعرب الغرب، تفسير لملحمة المفاخر، إيدنبورغ ١٩٨٤

الإسلام والغرب، باريس، ١٩٩٣

درمنجهم، أ. .Dermenghem, E، محمد والحديث الإسلامي، باريس ١٩٧١

دوسيلييه، أ. .Ducellier, A، مرآة الإسلام، مسلمو المشرق ومسيحيوه في القرون الوسطى (القرون من ٧ إلى ١١)، باريس، ١٩٧١

المسيحيون والمسلمون في المشرق، خلال العصور الوسطى (القرون ٧- ١٥)، باريس، ١٩٩٦

دولارويل، إ. :.Delaruelle, F فكرة حرب صليبية في العصور الوسطى، توران، ١٩٨٠.

روتر، إ. .Rotter, E، رودينسون، م. .Rodinson, M، محمد، باريس، ١٩٦١

روسيل، ف. هـ. .Russel, F.H، الحرب العادلة في العصور الوسطى كامبريدج، ١٩٧٥

روسيه، ب. Rousset, P.، أصول الحرب الصليبية الأولى وميزاتها، نوشاتيل، ١٩٤٥
سيفال، ب-أ. Sigal, P. A.، الإنسان والأعجوبة في فرنسا القروسطية (القرنان ١١، ١٢).
سيفان، إ. Sivan, E.، الإسلام والحرب الصليبية، الأيديولوجيا والدعاوة في ردات أفعال المسلمين حيال الحروب الصليبية، باريس، ١٩٦٨
شارنيه، ج. - ب، Charnay, J. -P.: الإسلام والحرب، من الحرب العادلة إلى الثورة المقدسة، باريس، ١٩٨٦
غيشار، ب. Guichard, P.، وسيناك، ف. Senac, Ph.، علاقات البلاد الإسلامية بالعالم اللاتيني (منتصف القرن ١٠- منتصف القرن ١٣)، باريس، ٢
فايرستون، ر. Fireston, R.، الجهاد، مصدر الحرب المقدسة في الإسلام، أوكسفورد، ١٩٩٩
فراسيتو، م. Frasetto, M.، و بلانكس، د.ر. Blanks, D., R.، المواقف الغربية من الإسلام، نيويورك، ١٩٩٩
فلوري، ج. Flori, J.، أيديولوجية السيف. ماقبل تاريخ الفروسية، جنيف، ١٩٨٣
الحرب الصليبية الأولى. الغرب المسيحي ضد الإسلام (في مصادر الأيديولوجيات الغربية)، بروكسيل، ٢٠٠١ (الطبعة ٣).
بيير ليرميت والحرب الصليبية الأولى، باريس، ١٩٩٩
الحرب المقدسة،تشكل فكرة الحرب الصليبية في الغرب المسيحي، باريس، ٢٠٠١
فيو، ب. Viaud, P.، الديانات والحروب، باريس، ١٩٩١
كاروزي، س.، وكاروزي- تافياني هـ.، Carozzi, S., Corozzi-Taviani, H. ختام الأزمنة، باريس ١٩٨٤
كوهن، م. Cohen, M.: في ظل الهلال والصليب، برينستون، ١٩٩٤
كيدار، ب.، ز. Kedar, B. Z.، الحرب الصليبية والرسالة. مقاربات أوروبية حيال المسلمين، برينستون، ١٩٨٤

كيلسيه، ج. Kelsey, J.، الإسلام والحرب. دراسة في الأخلاقيات المقارنة، ويستمينستر، ١٩٩٣

لاغاردير، ف. Lagardère, V.، يوم الجمعة لمعركة الزلاقة (٢٣ , ١٠ , ١٠٨٦)، باريس، ١٩٨٩

لاليتا كوربيرا، س. Laliena Corbera, S.، وسيناك، ف. Sénac, Ph.، المسلمون والمسيحيون في أوائل العصر الوسيط: في مصادر استعادة الأرض الأراغونية، باريس، ١٩٩١

لوماكس، د. و Lomax, D. W.، استرداد الأرض المسيحية الاسبانية [روكونكيستا]، لندن، ١٩٧٨

لويس، ب. Lewis, B.، العرب في التاريخ، لندن، ١٩٥٠

اليهود في الأرض الإسلامية، ترجمة كارنو، ج. Carnaud, J.، باريس، ١٩٨٦

ليكير، م. Lecker, M.، المسلمون، اليهود، الوثنيون. دراسات عن أوائل المدينة الإسلامية، ليد، ١٩٩٥

ماجومدار، س. Majumdar, S.، الجهاد، العقيدة الإسلامية حول الحرب، نيودلهي، ١٩٩٤

مالك، س. ك. Malik, S. K.، مفهوم الحرب في القرآن، لاهور، ١٩٧٩

مانتران، ر. Mantran, K.، التوسع الإسلامي، باريس ١٩٧٩

مورابيا، أ. Morabia, A.، الجهاد في الإسلام القروسطي، باريس، ١٩٩٣

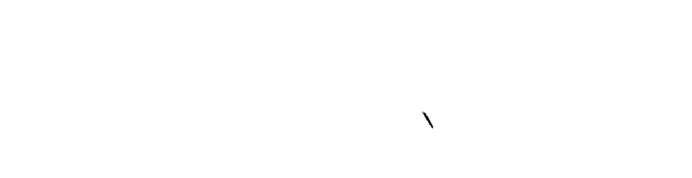
مورفي، ب. Murphy, P.، الحرب المقدسة، كولومبس، ١٩٧٦

موسِّيْه، ل. Musset, L.، الغزوات، الغزوة الثانية على أوروبا المسيحية، (القرون ٧- ١١)، باريس، ١٩٦٥

ميليه- جيرار، د. Millé- Gerard, D.، المسيحيون المستعربون والثقافة الإسلامية في اسبانيا (خلال القرنين، ٨، ٩)، باريس، ١٩٨٤

نوت، أ. .Noth, A.، هيد، ت. Head, T.، ولاندز، ر. Lands, R.، سلام الله، العنف الاجتماعي والاستجابة الدينية في فرنسا حوالي عام الألف، إيتكا- لندن، ١٩٩٢

هيلينبراند، س. Hillenbrand, C.، الحروب الصليبية، التوقعات، ايدينبورغ، ١٩٩٩
وات، و. م. Watt, W. M.، محمد ومكة، باريس، ١٩٥٨
محمد والمدينة، باريس، ١٩٧٨
محمد، باريس، ١٩٨٠
لقاءات مسيحية/إسلامية: إدراك وعدم إدراك، لندن، ١٩٩١



مراجع المترجم

١ قاموس المنهل، عام ١٩٧٣
٢ قاموس "معجم عبد النور" عربي/فرنسي، عام ١٩٨٣
٣ قاموس المنجد فرنسي/عربي، عام ٢٠٠٠
٤ الكتاب المقدس/العهد الجديد، للأب جورج فاخوري، عام ١٩٧٤
٥ القرآن الكريم، عربي/فرنسي، طباعة طهران، دار نشر انصاريان.
٦ القرآن الكريم، مكتبة الملاح، دمشق، ١٩٦٤
٧ معجم المصطلحات الفلسفية فرنسي/عربي، عبده الحلو،١٩٩٤
٨ معجم المصطلحات الفلسفية، عربي/فرنسي/إنكليزي، د. خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥
٨ أسماء العلم في المنجد، طبعة ٢٢، عام ١٩٢٥
٩ معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥
١٠ المعجم اللاهوتي: معجم الإيمان المسيحي، الأب ج. كوربون، ١٩٨٦

1- Larousse, 1997.

2- Le petit Robert, 1986.

3- Dictionnaire Latin-Français, Hatier, 1960.

4- Larousse, Italien/ Français, 1987.

5- Larousse, Anglais/ Français, 1995.

6- Grand Larousse Encyclopédique, 1963.

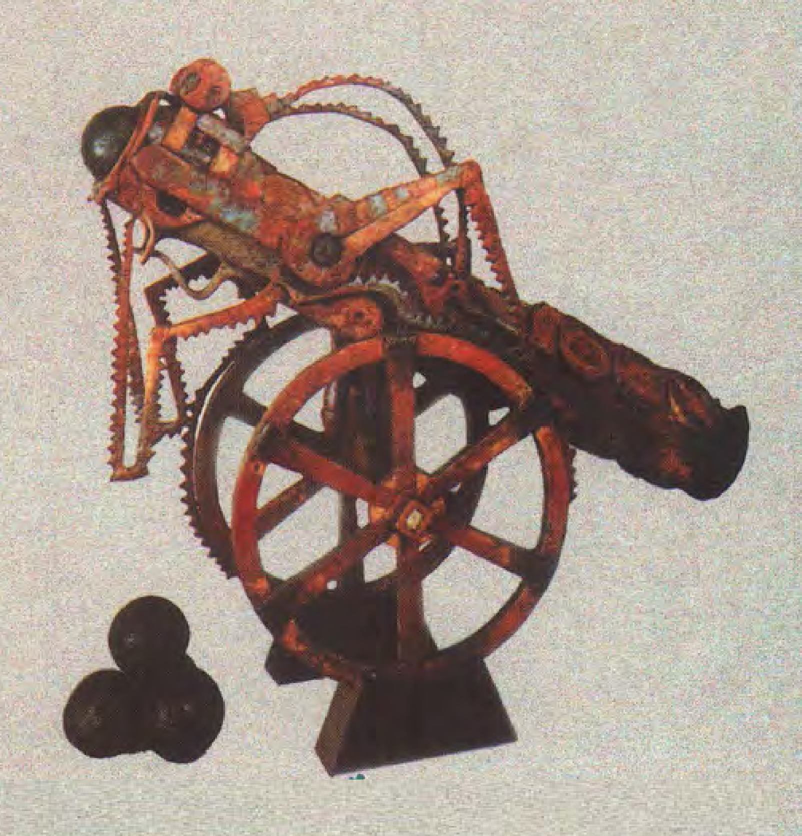
7- Dictionnaire de la langue Français, 1962.

8- Encyclopedia Universalis, 1975.

9- Dictionnaire J. Abdelnour, Français/Arabe, 1995.

10- Dictionnaire Al-Kamel Al-Kabir, Français/Arabe, 1996.

11- Deutsch-Arabisches Worterbuch, Librairie du Liban, 1995.



بين التسامح وتقديس الحرب ، وبين الكلمة الطيبة وتصعيد الجهاد بالسيف، مسافة ما بين الحياة والموت...

وهي المسافة التي قطعتها المسيحية والاسلام في الحروب الصليبية .. و الحروب الهلالية ، مثلاً.

فما الذي حدث ، وكيف ، ولماذا..؟ والى أين تمتد جذور الصراعات الدموية التي ترتدي لباس الدين، ويدفعها التعصب الأعمى إلى إلغاء الآخر او قتله..؟

ISBN:2-84305-747-X

